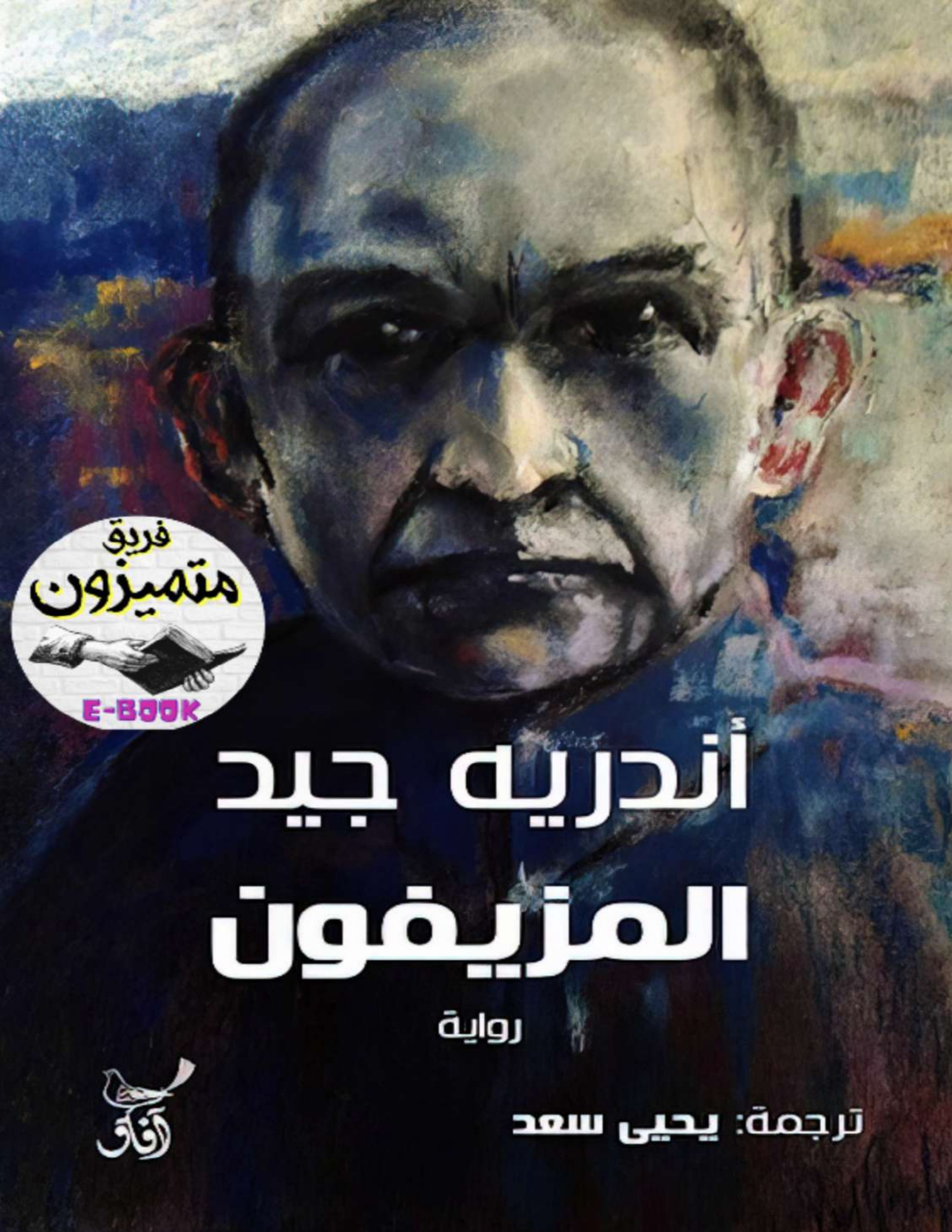

فريق
متميزون
E-BOOK

أندريه جيد

المزيفون

رواية

آفاق

ترجمة: يحيى سعد

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المزيفون

روایة مترجمة..

أندریه جید

ترجمة: یحي سعد

الجزء الأول

باريـــــس

الفصل الأول

حدث برنارد نفسه قائلًا: «إنها اللحظة التي يخيل إليَّ فيها أنني أسمع وقع أقدام». ثم رفع رأسه وأرهف السمع، ولكن لا، فوالده وشقيقه الأكبر في عملهما بدار القضاء، ووالدته في زيارة، وشقيقه في حفل موسيقي، أما شقيقه الأصغر «كالوب» فهو في معهد خاص يحتجزه إثر خروجه من المدرسة كل يوم. وقد بقي برنارد بروفيتا نديو في المنزل ليستذكر دروسه، فهو يتأهب لاجتياز الشهادة الثانوية، وليس بينه وبين الامتحان سوى ثلاثة أسابيع؛ إن أسرته لتحترم وحدته، ولكن الشيطان لا يبالي بها. لقد خلع برنارد سترته، ومع هذا كان يختنق من لفح الحرارة المتسربة إليه من النافذة المفتوحة المطلة على الشارع، وكانت جبهته تتصبب عرقًا، وانحدرت قطرة على أنفه، واستقرت فوق رسالةٍ كان يقرؤها.

وخاطب برنارد نفسه قائلًا:

كأن هذه القطرة دمعة... ولكن العرق خير من الدموع.

إن تاريخ الرسالة حاسم، وليس ثمة مجال للشك، فالأمر يتعلق ببرنارد نفسه، والرسالة موجهة إلى والدته. إنها رسالة حب انقضى عليها سبعة عشر عامًا، ولم تمهر بأي توقيع.

ولكن ما دلالة هذا الحرف؟ قد يكون «ف» وقد يكون «ن» ماذا يعني؟ هل يليق أن أسأل أمي في هذا الأمر؟ فلأثق بحسن ذوقها، ولي أن أفترض أن عشيقها كان أميرًا!. ولكن يا له من موقف لو علمت أنني ابن صعلوك!.. بيد أن جهلي باسم والدي يريحني من خشيتي أن أكون على شاكلته. الأفضل لي إذَنْ ألا أتعمق في بحث الأمر وكفاني اليوم ما علمته.

وطوى برنارد الرسالة... كانت في حجم الرسائل الاثنتي عشرة الأخرى في هذه المجموعة، وأعاد الشريط الحريري الدقيق، الذي كان يضمها إلى مكانه ولم يكن قد احتاج إلى حل عقدته، ثم وضع حزمة الرسائل في صندوقها وأرجع الصندوق إلى مكانه بدرج منضدة حجرة الاستقبال، ولم يكن الدرج مفتوحًا وقد فضح سره من أعلاه، وأعاد الألواح الخشبية لغطاء المنضدة إلى ما كانت عليه، ووضع فوقها اللوح الرخامي الذي يغطيها، وعالج الأمر ببطء وفي حذر. وفوق الرخام، وضع المصباحين البلوريين والساعة الثقيلة التي كان يلهو بإصلاحها منذ قليل.

ودقت الساعة التي كان برنارد قد ضبط توقيتها، معلنة الرابعة.

«إن السيد قاضي التحقيق والسيد ابنه المحامي لن يعودا قبل السادسة. أمامي إذَنْ وقت كاف، يجب أن يجد السيد القاضي على مكتبه عند عودته الرسالة التي سأخبره فيها برحيلي، ولكنني أشعر بأنني في حاجة ملحة إلى تنظيم أفكاري المشوشة قبل كتابتها، وإلى رؤية عزيزي أوليفييه لأضمن على الأقل ملجأ آوي إليه ولو مؤقتًا».

«أي صديقي أوليفييه، حان الوقت لأختبر ودك لي، ولأبلو قدرك في الملمات! إن أروع ما في صداقتنا هو أن أحدنا لم يسأل صاحبه خدمة حتى الآن».

- ولكن لا بأس! لن يكون طلبي ثقيلاً، ولكن ما يضايقني هو أن أوليفييه لن يكون وحيدًا، فليكن، سأعرف كيف أنفرد به، أريد أن أروعه بهدوئي؛ فلست أشعر أني على سجيتي إلا في الخارق من الأمور.

عاش برنارد حتى هذه اللحظة في شارع «ت...» على مقربة من حديقة اللوكسمبورج، وفي هذه الحديقة بجوار نافورة ميديسيس وفي الممر الذي يشرف عليها، اعتاد أن يلتقي كل أربعاء بين الرابعة والسادسة، ببضعة من رفاقه... وكانوا يتناقشون في أمور الفن والفلسفة والرياضة والسياسة والأدب.

وفي هذا اليوم سار برنارد مسرعًا، وما إن اجتاز سور الحديقة حتى لمح أوليفييه مولينييه، فأبطأ الخطى فورًا.

في ذلك اليوم كان عدد المجتمعين أكثر من المألوف؛ لأن الجو بديع، وانضم للجماعة رفاق لم يسبق لبرنارد معرفتهم، كان كل منهم يتقمص فور وجوده مع الآخرين شخصية غير شخصيته ويبدو عندئذ بعيدًا كل البعد عن طبيعته.

وما إن رأى أوليفييه صديقه برنارد يقترب منه حتى كسا الاحمرار وجهه، وانفلت مبتعدًا عن امرأة شابة كان يحادثها... برنارد هو صديقه الحميم وأقرب الناس إلى قلبه، وقد كان يؤثر ألا يبدو عليه أنه ينشده، وتظاهر بأنه لا يراه.

وتظاهر برنارد بدوره بأنه لا يتحرى صديقه، فراح يتباطأه هو الآخر -كأنه لا يراه- خاصة وأن جمعًا من الرفاق كان يفصل بينهما.

كان أربعة من الرفاق يحيطون بشاب قصير ملتح يضع على عينيه نظارة تمسك بأنفه... وكان واضحًا أنه أكبر منهم سنًّا، وكان في يده كتاب... إنه دورمير يحاور رفاقه.

- ما قولك؟

وكان يخص بحديثه أحدهم بالذات، ولكنه سعيد لأن الجميع يصغون إليه. قال:

«لقد قرأت الكتاب حتى الصفحة الثلاثين دون أن أجد كلمةً واحدةً معبرةً عن لون أو وصف... إن الكتاب يتحدث عن امرأة ولست أدري أثوبها أحمر اللون أم أزرقه، فأنا لا أرى شيئًا ألبتة فيما أقرأ، إذا افتقر الوصف إلى الألوان».

ولميل في نفسه إلى المبالغة، ولإحساسه بأن كلامه لم يؤخذ مأخذ الجد، أردف قائلًا:

- لم أر شيئًا على الإطلاق.

وكف برنارد عن الإصغاء إلى صاحب الحوار، ولكنه رأى أن الانصراف بسرعة أمر غير مناسب، وراح ينصت إلى آخرين يتشاجرون خلفه، وكان أوليفييه قد لحق بهم بعد أن ترك السيدة الشابة، وكان أحد هؤلاء يقرأ، وهو جالس على مقعد، جريدة «L’action Francaise»([1]).

وبدا أوليفييه مولينييه بين كل هؤلاء، جادًّا كئيبًا! مع أنه من أصغرهم سنًّا، إن وجهه، مع ما فيه من سمات الأطفال، ونظرته ينمان على فكر ناضج قبل الأوان. كان سريع الخجل بادي الرقة للجميع،

ومع هذا فثمة شيء من التحفظ أو الحياء في نفسه يجعلان زملاءه ينأون عنه، وإنه ليعاني من ذلك، ولولا برنارد لكان عناؤه أشد مضضًا.

تظاهر أوليفييه لحظةً بالإصغاء إلى كل المجموعة من حوله، وحذا برنارد حذوه. والحق أن أوليفييه لم يكن يهمه شيء ألبتة مما يقال.

وانحنى فوق كتف قارئ الجريدة، وسمعه برنارد دون أن يلتفت إليه وهو يقول:

- أنت مخطئ إذ تقرأ الجرائد. إن ذلك يدفع الضيق إلى نفسك.

فأجابه الآخر بلهجة مرة:

- أما أنت فوجهك يتغير بمجرد أن تتكلم عن «موراس»([2]).

وسأل ثالث بلهجة ساخرة:

- هل يلذ لك أن تقرأ مقالات «موراس»؟

وأجاب الأول: إنها تخنقني، ولكن أرى أنه على حق فيما يقول.

وقال رابع لم يتعرف برنارد على صوته:

- كل ما لا يضايقك تعتقد أنه خال من العمق.

وصاح الأول محتجًّا:

- أتعتقد أنه يكفي أن يكون الشخص تافهًا ليصبح ما يقوله ظريفًا؟

- «تعال يا أوليفييه»، قالها برنارد بصوت خفيف، وهو يسحبه من ذراعه، وسار به خطوات.

- أجبني بسرعة فإنني في عجلة من أمري. سبق أن أخبرتني أنك تنام في غرفة ليست بنفس الطابق الذي يسكنه والدك. أليس كذلك؟

- لقد أريتك باب غرفتي، وهو يقع مباشرة على السلم، وبينها وبين الطابق الذي نشغله نصف طابق.

- قلت لي أيضًا أن أخاك ينام بنفس الغرفة.

- جورج؟نعم.

- أنتما بمفردكما؟

- نعم.

- والصغير هل يعرف كيف يمسك لسانه؟

- إذ لزم الأمر. لماذا؟

- أصغ إليَّ. لقد تركت البيت، أو بالأصح سوف أتركه هذا المساء. ولست أدري بالتحديد أين أنا ذاهب. أيمكنك أن تستضيفني ليلةً واحدةً؟

وشحب وجه أوليفييه، وكان انفعاله شديدًا حتى تعذر عليه أن ينظر إلى برنارد.

- نعم. ولكن لا تأت قبل الحادية عشرة؛ لأن والدتي تمر لتحيتنا كل مساء، ثم تغلق بابنا بالمفتاح.

- ولكن إذا.....

وابتسم أوليفييه.

- معي مفتاح آخر. عليك أن تطرق الباب بخفة؛ حتى لا يستيقظ جورج إذا كان نائمًا.

- هل يسمح لي بواب المنزل بالدخول؟

- سوف أطلب منه ذلك؛ فعلاقتي به حسنة للغاية، وهو بنفسه الذي أعطاني المفتاح الآخر... إلى لقاء قريب.

وافترقا دون أن يشد أحدهما على يد الآخر.

وابتعد برنارد مفكرًا في الرسالة التي أزمع كتابتها، والتي كان يريد أن يجدها القاضي عند عودته.

ذهب أوليفييه للقاء لوسيان بركايل خشية أن يظن الرفاق أنه لا ينفرد إلا ببرنارد، وكان الرفاق قد تركوا لوسيان على مقربة. ولولا إيثار أوليفييه لبرنارد لأحب لوسيان حبًّا جمًّا. وبقدر ما كان برنارد مقدامًا، بقدر ما كان لوسيان خجولًا. إنك لتشعر بأنه ضعيف هش. يبدو كأنه لا يحيا إلا بقلبه وفكره. إنه لا يجرؤ على التقدم، ولكنه يكاد يفقد صوابه فرحًا إذا ما لمح أوليفييه يقترب منه. وقد يشك الجميع في أن لوسيان يكتب شعرًا، ولكن أوليفييه وحده – على ما أعتقد- هو الشخص الذي يقف على سر صاحبه ومشاريعه.

وتقدم لوسيان وأوليفييه نحو إحدى الشرفات في الحديقة.

قال لوسيان: «ما أريده، هو أن أحكي قصةً، لا قصة شخص، بل قصة مكان، وليكن على سبيل المثال ممرًّا بحديقة، مثل هذا الممر. أريد أن أحكي ما يحدث فيه منذ الصباح حتى المساء. تأتي إليه أولًا أشخاص قائمون لا تدري في أي سن هم، ولا تعرف أرجال هم أم نساء. فيكنسون الممر ويسقون العشب وأصص الزهر، أو بمعنى أصح يعدون المسرح والمناظر قبل أن تفتح أسوار الحديقة أبوابها، أتفهمني؟ وعندئذ يدخل الأطفال. وثمت صغار يصنعون فطائر من الرمال، وآخرون يتشاجرون، والمربيات يصفعنهم. ثم يحين وقت خروج التلاميذ الصغار من بيوتهم، وتتبعهم العاملات، ثم يحضر إلى الممر بعض الفقراء ليتناولوا طعامهم على مقاعد الحديقة. وبعد حين يحضر شباب؛ فمنهم من يتحرى رفاقه، ومنهم من يتهرب من صحبه، وثمت آخرون ينفردون بأنفسهم؛ إنهم الحالمون. ثم يتدفق جمهور من الناس عندما تعزف الموسيقى وعند خروج المحلات التجارية والطلبة كما يُرى الآن. وفي المساء ترى عشاقًا يتعانقون، وآخرون يتفارقون وهم يبكون. وأخيرًا وإذا ما أرخى الليل سدوله، ترى كهلًا وكهلةً معًا... وفجأة تسمع دقات الطبول، عند ميعاد إغلاق الحديقة، فيخرج الجميع.

هنا تنتهي التمثيلية. أتفهم ما أعنيه؟ إنني أعني قصة تعبر عن نهاية كل شيء، عن الموت... ولكن دون أن أتكلم عن الموت طبعًا».

فرد أوليفييه وكان فكرة مشغولًا ببرنارد ولم يسمع كلمةً واحدةً مما قاله صاحبه:

- «نعم أفهم ما تعنيه جيدًا».

وأردف لوسيان في حماس: «ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد... نعم لا ينتهي عند هذا الحد، بل أرغب في الختام هذا الممر نفسه في الليل وبعد رحيل الناس، وهو خاو، وأروع مما كان أثناء النهار، أصفه في السكون العميق وفي أصوات الطبيعة جميعًا؛ خرير النافورة، حفيف الريح بين الأوراق، وتغريد عصفور من عصافير الليل. لقد فكرت أولًا أن أجعل بعض الأشباح تتجول في الممر، ثم فكرت في شيء كالتماثيل... ولكن يبدو أن هذه الفكرة ليست رائعةً. ما رأيك في ذلك؟».

وأجاب أوليفييه: «لا تماثيل... لا تماثيل». قالها بلهجة شاردة، ثم أردف وهو يلمح النظرة الحزينة التي ارتسمت في عين صديقه:

- «ستكون يا صديقي... رائعًا إذا ما نجحت في ذلك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

(ليس في رسائل بوسان أثر يوحي بالعرفان لأهله. ولم يبد فيما بعد أسفًا لافتراقه عنهم. لقد استقر بإرادته في روما، وفقد كل رغبة في العودة، بل قد يخيل للمرء أنه فقد كل رغبة في الذكرى).

.«بول دي جاردان» من كتابه «بوسان»

كان السيد بروفيتا نديو يتعجل العودة إلى منزله، ووجد أن زميله مولينييه الذي رافقه طوال مرورهما بشارع «سان جرمان» يسير ببطء شديد، لقد قضى البيريك بروفيتا نديو يومًا مليئًا بالعمل في دار العدالة، وقلق لشعوره بشيء من الألم بجنبه الأيمن، إذ إن الإرهاق عادةً يؤثر على كبده الحساس.

كان يفكر في الحمَّام الذي سيأخذه بعد قليل، ثمت شيء يريحه من همومه مثل الاستحمام. واستعدادًا لهذا، لم يتناول غداءه؛ فهو يرى أن النزول في الماء -حتى لو كان فاترًا- يستلزم أن تكون المعدة خاويةً. وربما كان ذلك مجرد رأي فطير. ولكن الآراء الفطيرة هي دعائم المدنية.

أما أوسكار مولينييه فقد أحث الخطى جهد استطاعته محاولًا اللحاق ببروفيتا نديو، ولكنه كان أقصر منه قامةً وأضعف ساقًا، ثم إن قلبه مغلف بطبقة من الشحم مما يبهر أنفاسه سريعًا. ولكن بروفيتا نديو لا يزال نشيطًا وهو في الخامسة والخمسين، كما أنه عريض الصدر رشيق المشية في مقدوره أن يسبق زميله في السير. غير أنه حريص على أصول اللياقة، فزميله أكبر منه سنًّا وأرقى منه في سلك الوظيفة، وله في عنقه حق الاحترام، وعليه أن يتناسى في هذا المقام ثراءه الذي انتقل إليه بوفاة أقرباء زوجته، وكان ثراءً كبيرًا، بينما لم يكن مولينييه يملك إلا راتبه الذي يتقاضاه عن وظيفته كرئيس دائرة بالمحكمة، وهو راتب ضئيل لا يتناسب مع هيبة المركز الذي يتبوأه بجدارة كبيرة يحاول أن يخفي بها رقة حاله. وحاول بروفيتا نديو أن يخفي تبرمه، وكان يلتفت إلى مولينييه، وينظر إليه وهو يجفف عرقه. وإن ما يقوله مولينييه ليثير اهتمامه رغم اختلاف وجهات نظرهما فيما يتكلمان فيه، واحتدم الجدال بينهما.

قال له مولينييه: «ضع المنزل تحت الرقابة، وحاول أن تحصل على معلومات البواب والخادمة الزائفة. ولكن حذار أن يخرج الأمر من يدك إن أنت دفعت التحقيق إلى أكثر مما يقتضيه المجال... وأعني أن يؤدي بك التحقيق إلى أبعد مما كنت تظن في بادئ الأمر».

- لا علاقة بين هذه المخاوف وبين مقتضيات العدالة.

- صبرًا، صبرًا يا صديقي، إن كلًّا منا يعرف تمامًا ما يجب أن تكون عليه العدالة وما هي عليه فعلًا. إننا نبذل أقصى جهودنا، ولكننا مهما فعلنا فلن نبلغ إلا نتائج تقريبية. والقضية التي تشغلك هذه الأيام حساسة للغاية، إذ هناك من الخمسة عشر متهمًا -أو من بين من يصبحون متهمين بكلمة تقولها- هناك تسعة من القاصرين، وبعض هؤلاء الصغار كما تعلم من عائلات محترمة جدًّا. ولذلك أرى أن أي أمر بالقبض في هذه الحالة يعتبر سوء تقدير للعواقب. فلسوف تهتم الجرائد الحزبية بالأمر، وتفتح أنت الباب لكل أنواع التشهير وكل ألوان التجريح. ولن تستطيع مهما كنت حذرًا أن تمنع الإفصاح عن بعض الأسماء... وليس من حقي أن أبدي لك النصح إذ إنني أثق دائمًا في بعد نظرك، ورجاحة عقلك واستقامتك... ولكنني لو كنت مكانك لتصرفت على النحو الآتي: ألقي القبض على أربعة أو

خمسة، أي على المحرضين وأتجنب بذلك هذه الفضيحة... الشنيعة... نعم إنني أعلم أن إلقاء القبض عليهم شيء عسير، ولكن هذه طبيعة عملنا. لو كنت مكانك، لأمرت بإغلاق الشقة مسرح هذه الجرائم الأخلاقية، ودبرت الأمر بحيث ألفت نظر أولياء هؤلاء الصبية الفجرة، في سر، ودون ضوضاء، وفي بساطة حتى أضمن عدم عودة آبائهم إلى هذا المنكر. عليك مثلًا أن تأمر بالقبض على هؤلاء النسوة. إنني أوافقك على مثل هذا الإجراء، ورأيي أننا في هذه القضية نتعامل مع مخلوقات على جانب كبير من الانحطاط، ومن الأفضل أن نطهر المجتمع منها. ولكني أحذرك مرةً أخرى من أن تلقي القبض على هؤلاء الصغار بل اكتف بتخويفهم، ثم أخف كل هذه التصرفات تحت العبارة المألوفة «تصرف من دون تقدير للعواقب». ولا تنس أن ثلاثة منهم لم يتجاوزا الرابعة عشرة وأن ذويهم يضعونهم في عداد الملائكة ويعتبرونهم مثالًا للطهر والبراءة. ولكن يا صديقي أخبرني، أكنا نفكر في النساء ونحن في هذه السن؟

ووقف مولينييه وقد أرهقته فصاحته أكثر مما أرهقه السير، وأمسك بذراع بروفيتا نديو مرغمًا إياه على الوقوف. وأردف: «ولو قد فكرنا فيهن، ونحن في هذه السن، لكان ذلك على نحو مثالي، صوفي أو ديني لو جاز مثل هذا التعبير. أما صغار اليوم، كما ترى، فليس لهم أي مثل أعلى... وبهذه المناسبة كيف حال أولادك؟ بالطبع أنا لم أكن أعنيهم بما قلت وأنا أعلم أنهم تحت إشرافك وبفضل تربيتك لا يتعرضون لمثل هذه الانحرافات».

والحق أن بروفيتا نديو لم يصادف حتى هذه اللحظة ما يدعوه للشكوى من أولاده. ولكنه لم يخدع نفسه، وكان يعرف أن التربية الحسنة لا قبل لها بمقاومة غرائز الشر. حمدًا لله أن أولاده أبرياء من هذه الغرائز، وكذلك أولاد مولينييه دون شك. ولذا كانوا يحمون أنفسهم بأنفسهم من معاشرة قرناء السوء أو من القراءات المفسدة، إذ ما قيمة أن تمنع ما لا يمكن منعه، فالطفل يقرأ خفيةً ما تمنعه من قراءته. ولكن بروفيتا نديو لم يكن يمنع أولاده من القراءة، غير أنه كان يدبر أمره بحيث يباعد بينهم وبين الرغبة في مثل هذه القراءات. أما عن موضوع القضية التي يتولى تحقيقها فإنه سوف يفكر فيه، ووعد صديقه ألا يتخذ أي إجراء قبل أن يتحدث إليه فيه. وسوف يكتفي بأن تستمر الرقابة على هؤلاء الصبية عن قرب وبطريقة خفية، وما دام الأمر قد دام ثلاثة أشهر، فلا بأس من أن يستمر بضعة أيام أو بضعة أسابيع أخرى؛ وزيادة على ذلك فالإجازة الصيفية نفسها كفيلة بأن تشتت هؤلاء المنحرفين.

وحيا بروفيتا نديو صديقه، وافترقا.

واستطاع بروفيتا نديو أخيرًا أن يسرع الخطى.

وما إن دخل بيته، حتى أسرع إلى الحمَّام وفتح صنابير المياه. وكان أنتوان الخادم ينتظر عودته، ولذا دبر الأمر بحيث التقى به في الممر.

عمل هذا الخادم الأمين في البيت منذ خمسة عشر عامًا، وكبر الصغار على عينه، وما أكثر ما رأى من أمور، وتشكك في أخرى، ولكنه كان يتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئًا مما يحاولون إخفاءه عنه.

وكان برنارد يشعر بود حقيقي لأنتوان، ولم يرد أن يرحل عن البيت دون أن يودعه. بل ربما شعر وهو في ثورته على أسرته ببعض المتعة في أن يبث هذا الخادم سر رحيله في الوقت الذي سيجهل

فيه أهله سببه. ولكن تبرئة لبرنارد يجب الاعتراف بأن أحدًا من ذويه لم يكن في المنزل عند ذاك. ثم إنهم لو كانوا هناك لما استطاع أن يودعهم دون أن يحاولوا منعه من الرحيل. كان برنارد يخشى الاستفسارات. أما مع أنتوان ففي استطاعته أن يقول ببساطة: «إني ذاهب». وفعل ذلك، فمد يده بشكل فيه جد وجلال حتى دهش الخادم العجوز، وقال:

- ألا يعود السيد برنارد للعشاء؟

- ولا للنوم يا أنتوان.

وبينما كان هذا الأخير في حيرة من أمره يتساءل عما يمكن أن يفهمه من هذا التصرف، فكر: أكان عليه أن يطلب منه المزيد من الإيضاح؟

وأعاد برنارد قوله «إني راحل» بطريقة فيها المزيد من التأكيد. ثم أردف:

- تركت رسالة على منضدة...

ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة «والدي»، وأضاف:

- ... على منضدة حجرة المكتب. وداعًا.

وكان يشعر، وهو يشد على يد أنتوان بانفعال شديد وكأنه يفارق ماضيه كله، وكرر بسرعة كلمة «وداعًا»، ثم رحل قبل أن يترك الشهقة التي غص بها حلقه تفلت منه.

وشعر أنتوان بمسئولية إذ تركه يرحل هكذا، ولكن كيف السبيل إلى منعه من الرحيل؟

سيفاجأ أهل برنارد بهذا الرحيل، وسيكون أمرًا فظيعًا بالقياس إليهم، وإن أنتوان ليعلم هذا تمامًا، ولكن مقتضيات مهنته -باعتباره خادمًا ممتازًا- تفرض عليه أن يخفي دهشته، فليس من حقه أن يعرف ما يجهله السيد بروفيتا نديو. نعم كان يستطيع أن يقول له ببساطة: «هل يعرف سيدي أن السيد برنارد قد رحل؟»، ولكن سؤالًا كهذا خليق بأن ينزله من مكانته كما أنه غير مقبول. وبكل احترام، كأن ما كلفه برنارد بإبلاغه ليس أمرًا عاديًّا، ولكي يلقي له هذه الجملة التي أعدها بعناية:

- ترك السيد برنارد قبل أن يرحل رسالة لسيدي في حجرة مكتبه.

إنها جملة بسيطة تكاد لفرط بساطتها أن تمر فلا نلفت النظر. وقد بحث دون جدوى عن ألفاظ تكون أشد إيضاحًا، ولكنه لم يجد كلامًا آخر يبدو في شكل طبيعي. ولكن برنارد لم يعتد الغياب عن البيت، ولهذا لم يستطع السيد بروفيتا نديو - وكان أنتوان ينظر إليه من طرف عينه- أن يكبت انفعاله إذ صاح:

- كيف! قبل...

وتمالك نفسه في الحال، فليس من اللائق أن يدع دهشته تبدو أمام شخص أدنى منه مرتبة، ولم يكن إحساسه بكبريائه يزايله أبدًا. وأردف بلهجة هادئة وبصوت وقور حقًّا:

- حسنًا.

وأضاف وهو في طريقه إلى حجرة مكتبه:

- أين هذه الرسالة؟

- على مكتب سيدي.

وما إن دخل الحجرة، حتى رأى الرسالة موضوعةً بطريقة لافتة للنظر في مواجهة المقعد الذي اعتاد أن يجلس عليه ليكتب. ولكن أنتوان لم يكن ليتركه بهذه السرعة، ولذلك لم يكد بروفيتا نديو يقرأ سطرين من الرسالة، حتى سمع نقرًا على الباب وصوت خادمه يقول:

- نسيت أن أخبر سيدي أن هناك شخصين ينتظران في حجرة الاستقبال.

- أي شخصين؟

- لا أعرف.

- هل حضرا معًا؟

- لا يبدو عليهما ذلك.

- وماذا يريدان مني؟

- لا أعرف – إنهما يرغبان أن يريا سيدي.

وضاق بروفيتا نديو ذرعًا فقال:

- سبق أن قلت وكررت القول بألا يزعجني أحد هنا – ولا سيما في هذه الساعة؛ إن لي أيامًا وساعات محددةً لاستقبال الناس بالمحكمة... فلماذا سمحت لهما بالدخول؟

- قالا إن عندهما أمرًا ملحًا يريدان أن يخبرا سيدي به.

- هل هما هنا منذ وقت طويل؟

- منذ ساعة تقريبًا.

وسار بروفيتا نديو بضع خطوات في الحجرة، ومر بيده على جبينه، وكان يمسك بيده الأخرى رسالة برنارد.

وبقي أنتوان بجانب الباب محتفظًا بوقاره، ولا يبدو عليه أي انفعال، وأخيرًا استمتع لأول مرة في حياته بمنظر سيده وهو يفقد هدوءه، وسمعه يرعد وهو يدق الأرض بقدمه:

- ليتركاني وشأني – ليتركاني وشأني. قل لهما إني مشغول وليعودا مرةً أخرى. وما إن غادر «أنتوان» الغرفة، حتى جرى بروفيتا نديو نحو الباب صائحًا: «أنتوان! أنتوان!»... أغلق صنابير حوض الاستحمام. ولكن كان ينتظر السيد «بروفيتا نديو» حمَّاما من نوع آخر... لقد اقترب من النافذة، وقرأ ما يلي:

سيدي

اكتشفت بمحض الصدفة بعض الحقائق اليوم، وأدركت أنه يجب عليَّ أن أكف عن اعتبارك أبًا لي. وقد استرحت لمعرفة ذلك إذ كنت أتوهم أنني ابن عاق كلما شعرت بقلة حبي لك ولذلك سررت بالحقيقة التي اكتشفتها اليوم. ولعلك ترى أنني مدين لك بالعرفان لأنك عاملتني كابن من أبنائك، ولكني أشعر دائمًا بالفرق في معاملتك لي ومعاملتك لهم، وقد عرفت أن ما كنت تظهره لي من المحبة واللطف لم يكن إلا خشية الفضيحة، أي لإخفاء حقيقة لا تشرفك كثيرًا، وأخيرًا لأنك لم تكن تملك أن تتصرف على نحو آخر، وإني لأؤثر الرحيل دون أن أرى والدتي لأنني أخشى أن أضعف عند توديعها الوداع الأخير، ثم إنني لا أحب أن أسبب لها جرحًا. وأنا أشك في أن يكون حبها لي قويًّا. فلقد قضيت أغلب الوقت بالمدارس الداخلية، ولم يتح لها الوقت لتعرفني على حقيقتي، وربما كان في رؤيتها لي ما يذكرها بشيء في حياتها كانت تحب محوه، ولعلها ترى الآن في رحيلي نوعًا من العزاء، أو حتى من السعادة.

قل لها – إن كانت لك القدرة على ذلك- إنني لا أحمل لها في نفسي أي ضغينة لأنها جعلت مني ابنًا غير شرعي، بل إنني على العكس لأوثر أن أكون كذلك على أن أكون ابنًا لك (واعذرني إن كنت أقول ذلك. وليس قصدي أن أوجه لك سبابًا، وربما ساعدك قولي هذا على أن تحتقرني، وفي هذا ما يهون عليك).

وإذا كنت تريد أن أكتم الأسباب التي دفعتني إلى ترك بيتك، فإنني أطلب منك مقابل ذلك ألا تحاول إعادتي إليه فالقرار الذي اتخذته قرار لا رجعة فيه. ولا أدري مقدار ما تكبدته في الإنفاق عليَّ حتى اليوم. وقد كنت أقبل أن تعولني ما دمت أجهل حقيقة أمري، ولكن من البديهي أنني من الآن لا أقبل منك أي شيء. فمجرد شعوري بأنني مدين لك بأي شيء يسبب لي ألمًا شديدًا، ولو عشت حياتي مرةً أخرى لآثرت الموت جوعًا على الجلوس إلى مائدتك.

أذكر أني سمعت -لحسن الحظ- أن أمي كانت أكثر ثراء منك عندما تزوجتك. ومن حقي أن أعتقد أنني كنت أعيش على حسابها هي. وأنا أشكرها على ذلك، وأعتبرها قد قامت بالتزاماتها نحوي، كما أطلب منها أن تنساني. ولعلك تجد طريقةً تفسر بها أسباب رحيلي لمن يدهشهم الأمر. وأنا أسمح لك بأن تحملني مسئولية هذا العمل (ولكني أعرف أنك لا تنتظر سماحي هذا لكي تحملني تلك المسئولية).

وإني أوقع الرسالة بذلك الاسم الذي أود أن أعيده إليك.

«برنارد بروفيتا نديو»

ملحوظة: أترك لديك حاجياتي، فقد يستفيد بها ابنك «كالوب»، وأرجو أن يكون أحق مني بها...

واتجه السيد «بروفيتا نديو» إلى مقعد وثير وهو يترنح. كان بوده أن يفكر في الأمر، ولكن الأفكار تخبطت بغموض في رأسه. أضف إلى ذلك أنه شعر بألم في جنبه الأيمن. إنها أزمة الكبد.

ترى هل بالمنزل بعض الماء المعدني؟

آه لو كانت زوجته بالمنزل! ولكن كيف يخبرها بهروب برنارد؟ أيريها الرسالة؟ إنها لرسالة ظالمة. بل بالغة الظلم. جدير به أن يسخط عليها. وإنه ليود أن يأخذ حزنه مأخذ السخط. كان يتنفس بصعوبة وكل شهقة تصحبها هذه العبارة:

«آه يا إلهي!» وكان ينطقها بسرعة وضعف كأنه يتنهد... وامتزج ألم الجنب مع الحزن، وأكد الألم الحزن بل ركزه، حتى خيل إليه أن الحزن «في كبده» وارتمى على المقعد وأعاد قراءة الرسالة «برنارد»، وكان يرفع كتفيه في حزن. لا شك أن هذه الرسالة بالغة القسوة، ولكنه أحس بما فيها من حقد وتحد وسخرية... وأي ولد من أولاده الحقيقيين، لم يكن يستطيع أن يكتب هكذا. كما أنه هو نفسه يعجز عن ذلك بدوره، وهو يعرف هذه الحقيقة جيدًا، فما من شيء في نفوس أبنائه إلا وقد لمسه في نفسه. لقد شعر دائمًا بأن عليه أن ينتقد ما في برنارد من جدة وتصلب وتمرد. ولكن عبثًا ما شعر به، فقد كان يحس تمامًا أنه يعزه بسبب ما فيه من ذلك إعزازًا لم يعززه للآخرين.

ومنذ لحظات كان عزف سيسيل يُسمع من الحجرة المجاورة، فقد عادت من الحفل الموسيقي وجلست إلى المعزف، وراحت تعيد هذا اللحن في إصرار وعناد، وأخيرًا لم يطق «البيريك بروفيتا نديو» صبرًا فوارب باب حجرة الاستقبال لها بصوت فيه رجاء بل توسل - لأن ألم كبده بدأ يعذبه بقسوة- (فضلًا عن أنه كان في معاملته لها خجولًا بعض الشيء):

- يا صغيرتي. هل تستطيعين أن تبحثي عن بعض المياه المعدنية، فإن لم تجديها في المنزل، أرجوك أن ترسلي في إحضارها. كما أرجوك أن تكفي عن عزفك قليلًا.

- هل أنت متعب؟

- لا، لا، ولكني في حاجة إلى أن أفكر في شيء حتى يحين موعد العشاء، وعزفك يعوقني عن التفكير.

وأضاف برقة؛ لأن الألم يورثه الوداعة عادة.

- ما كنت تعزفينَهُ جميل جدًّا. ماذا كنت تعزفين؟

وخرج دون أن يسمع جوابها. ومع كلٍّ، فابنته التي تعرف جهله بالموسيقى لم يكن في نيتها أن تجيبه على سؤاله. ولكن ها هو ذا يفتح الباب ثانيةً ويسأل:

- هل عادت أمك؟

- لا. لم تعد بعد.

هذا مستحيل، ستعود متأخرةً ولن يكلمها قبل العشاء. وماذا يستطيع أن يجد من أسباب ليبرر ولو مؤقتًا تغيب «برنارد»؟ ومع كل ليس في مقدوره أن يسرد الحقيقة، فيكشف لأولاده عن الخطيئة العارضة التي ارتكبتها أمهم. آه! لقد شمل العفو كل شيء وطواه النسيان. وجاء ميلاد ابنهما الأخير فمهر صلحهما، وفجأةً برز هذا الشبح المنتقم من غياهب الماضي، هذه الجثة التي أعادتها الأمواج...

ما هذا أيضًا؟ لقد انفتح باب مكتبه دون ما صوت، وبسرعة وضع الرسالة في جيب سترته الداخلي. لقد ظهر خلفه «كالوب» وهو يقول:

- يا أبتاه... ما معنى هذه الجملة اللاتينية؟ إني لا أفهم منها شيئًا...

- سبق أن قلت لك ألا تفتح الباب دون أن تطرقه، ثم إنني لا أريد أن تحضر لإزعاجي في كل وقت. لقد اعتدت أن يساعدك الآخرون وأن تعتمد عليهم، بدلًا من أن تبذل مجهودًا ذاتيًّا. كانت أمس مادة الهندسة، وها أنت اليوم... لمن هذه الجملة اللاتينية؟

ومد «كالوب» يده بكراسته، وهو يقول:

- لم يقل لنا اسمه. ولكن خذ وانظر؟ إنك سوف تعرفه. لقد أملاها لنا. وربما أسأت كتابتها. وكنت أود أن أعرف على الأقل هل كتبتها صحيحة؟

وأمسك السيد «بروفيتا نديو» بالكراسة، ولكنه شعر بألم مبرح، ودفع عنه الطفل برفق وهو يقول:

- فيما بعد. سوف نذهب للعشاء. هل عاد «شارل»؟

- لقد نزل إلى مكتبه (وشارل المحامي يستقبل زبائنه بالطابق الأرضي).

- اطلب منه أن يحضر لمقابلتي. اذهب بسرعة.

ودق أخيرًا جرس الباب، ودخلت السيدة «بروفيتا نديو»، وهي تعتذر عن تأخيرها؛ إذ إنها اضطرت للقيام بعدة زيارات، وحزنت عندما رأت زوجها متألمًا. ترى ماذا تعمل من أجله؟ حقًّا إن دلائل الألم بادية عليه، ولن يستطيع العشاء، إذَنْ فليجلسوا إلى المائدة من دونه؛ ولتأت بعد العشاء لتراه هي والأولاد.

- آه! برنارد! لقد نسيت، إن صديقه... أتعرفينه؟ هذا الصديق الذي اعتاد أن يتلقى معه دروسًا في الرياضة، لقد جاء ليصحبه للعشاء.

وبدأ السيد «بروفيتا نديو» يشعر بشيء من التحسن. كان يخشى أول الأمر أن يعوقه الألم الشديد عن الكلام، وكان عليه أن ينتحل عذرًا لاختفاء «برنارد» وهو يعرف الآن ما يجب قوله، مهما كان ذلك أليمًا. وأحس في هذه اللحظة بالثبات والتصميم. كل ما كان يخشاه هو أن تقاطعه زوجته بالبكاء أو بالصياح، أو أن تنهار.

وبعد العشاء حضرت ومعها أولادها الثلاثة، ثم اقتربت منه، وأجلسها بجانبه، وقال لها في صوت خفيض ولكن في نبرة آمرة:

- حاولي أن تتماسكي ولا تردي بكلمة واحدة. وسنتحادث معًا فيما بعد. وبينما هو يتكلم احتفظ بإحدى يديها بين يديه.

- هيا، اجلسوا يا أولادي. لكم يضايقني أن أراكم وقوفًا أمامي وكأنكم في امتحان، ولكن عليَّ أن أنبئكم بأمر محزن للغاية... لقد غادرنا برنارد ولن نراه... لبعض الوقت. ويجب أن أخبركم اليوم بما أخفيته

عليكم حتى الآن لرغبتي في أن أراكم تحبونه كأخ لكم، فوالدتكم وأنا نفسي كنا نحبه وكأنه ابن لنا. ولكنه لم يكن ابننا... وقد جاء هذا المساء خال له، أخ لأمه الحقيقية التي عهدت به إلينا عند وفاتها - ليأخذه.

وأعقب كلماته هذه سكوت مؤلم، وأخذ الجميع ينتظرون اعتقادًا منهم أنه سوف يزيد شيئًا، ولكنه أبدى حركة بيده، وقال:

- اذهبوا الآن يا أولادي لأني في حاجة إلى أن أتحدث مع أمكم.

وبعد خروجهم، بقي السيد «بروفيتا نديو» طويلًا دون أن يقول شيئًا. وبدت يد زوجته التي تركتها بين راحتيه، وكأنها مجردة من الحياة، ورفعت يدها الأخرى منديلها إلى عينيها، واتكأت بمرفقها على المنضدة الكبيرة، وأشاحت بوجهها لكي تبكي. وسمعها «بروفيتا نديو» تتمتم ببعض العبارات التي كانت تهزها هزًّا، بهذه الكلمات:

- أواه؟ كم أنت قاس... أواه؟ لقد طردته...

كان قد قرر ألا يخبرها بشيء عن رسالة «برنارد»، ولكنه أمام هذا الاتهام الظالم مد يده بها، وقال:

- خذي، اقرئي.

- لا أستطيع.

- يجب أن تقرئيها.

ولم يعد يفكر في أوجاعه، وأخذ يتابعها بعينيه، وهي تقرأ الرسالة سطرًا بعد سطر. لقد كان منذ لحظات يجد صعوبةً في حبس عبراته عامًا، أما الآن فقد زايله انفعاله، وراح ينظر إلى زوجته. فيمَ تفكر؟

وبنفس الصوت الشاكي وخلال عبراتها غمغمت قائلةً:

- أواه! لماذا أخبرته بذلك... ما كان عليك أن تحكي له...

- ولكنك ترين جيدًا أنني لم أحك له شيئًا... اقرئي رسالته بإمعان.

- لقد قرأتها جيدًا... ولكن كيف اكتشف الأمر إذَنْ؟ من قال له إذَنْ؟

ماذا! أهي تفكر في ذلك! أهذه نبرة حزنها! كانت هذه المحنة خليقة بأن تجمعهما معًا: ولكن وا أسفاه! لقد أحس «بروفيتا نديو» إحساسًا غامضًا بأن أفكارها تسير في طريقين مختلفين. وبينما هي تحاول جاهدةً أن تشكو وأن تتهم وأن تطالب، حاول هو أن يوجه هذا الذهن الناشز إلى مشاعر أشد ورعًا. وقال:

- هذا هو التكفير.

ودفعته حاجة فطرية إلى السيطرة، فوقف منتصبًا بأوجاعه البدنية، بل ناسيًا إياها، ووضع يده بوقار وحنان بل بتسلط على كتف «مرجريت» وهو موقن تمامًا أنها لم تندم الندم الكافي على فعلتها التي اعتبرها هفوةً عابرةً. وهو يود الآن لو استطاع أن يقول لها إن هذا الأسى وهذه المحنة يمكن أن يساعداها على التكفير عن خطيئتها، ولكنه بحث دون جدوى عن صيغة يرضى بها وتقتنع هي بها، وشعر أن كتف «مرجريت» لا يريد أن يتجاوب مع ضغط يده الرقيق. وكانت «مرجريت» تعرف جيدًا أنه لا بد له أن يستخرج من كل حدث من أحداث الحياة -مهما كان تافهًا- موعظة من مواعظه الأخلاقية فهو يفسر كل شيء أو يؤوله طبقًا لعقيدته في الحياة. وها هو ينحني عليها. وكم ود لو قال لها هذه الكلمات:

«يا عزيزتي، لا يخرج الخير من الإثم أبدًا، ولم تنفعك في شيء محاولتي تغطية غلطتك. وا أسفاه! لقد بذلت كل ما في وسعي من أجل هذا الولد، وعاملته كما لو كان ابني. ولكن الله يرينا الآن أن هذا التصرف كان تصرفًا خاطئًا» ولكنه نطق أول جملة ثم كف عن الكلام.

ولا شك أنها فهمت هذه الكلمات القليلة المفعمة بالمعاني. ولا شك أنها نفذت إلى قلبها؛ فها هي العبرات تعاودها، ولكنها ازدادت انهمارًا مع أنها كانت قد كفت عن البكاء، ثم ها هي تنثني وكأنها تتأهب لتجثو أمامه، وها هو بدوره ينحني نحوها ويمسكها. ماذا تقول من بين عبراتها؟ لقد انحنى حتى لاصق شفتيها وسمعها تقول:

- ها أنت ترى... ها أنت ترى... آه! لماذا عفوت عني...؟ آه! لم أكن خليقة أن أعود!

كان صوتها خفيضًا، حتى اضطر أن يحدس ليفهم همسها. ثم سكتت إذ وجدت أنها هي أيضًا عاجزة عن أن تقول أكثر من ذلك. وأنها تختنق، وأنها لا تأسف في هذه اللحظة على خطيئتها بقدر ما تأسف لندمها عليها؟ وانتصب «بروفيتا نديو» قائلًا:

«يا عزيزتي -قالها بلهجة فيها وقار وحزم- إنني أخشى أن تكوني قد صُدمت هذه الليلة. الوقت متأخر والأفضل لنا أن نذهب لننام». ثم ساعدها على النهوض، وصحبها إلى غرفتها ووضع شفتيه على جبينها، وعاد إلى مكتبه وارتمى على مقعد. شيء غريب، لقد خفت أزمة كبده، ولكنه شعر أنه محطم، وبقي ممسكًا بجبينه بين راحتيه عاجزًا عن البكاء لفرط حزنه. ولم يسمع طرقًا على الباب فلما انفتح رفع رأسه إنه ولده شارل:

- جئت لأحييك تحية المساء.

واقترب شارل منه، ولقد فهم كل شيء وهو يريد أن يشعر أباه بأنه فهم، كما يريد أن يبدي له عطفه عليه وتفانيه في حبه، ولكن من يتصور أن محاميًا مثله يكون على هذا القدر من العجز في التعبير عن مشاعره، أو ربما بدا بهذا العجز في التعبير لصدق مشاعره، ولذا عانق والده. والطريقة الملحة التي وضع بها رأسه على كتف والده، وبقاؤه في هذا الوضع بعض الوقت أقنعت الوالد بأن ابنه قد أدرك كل شيء. لقد فهم كل شيء، حتى أنه سأل وهو يرفع رأسه -ولم يكن بارعًا في سؤاله كما هو شأنه دائمًا- ولكن قلبه كان منزعجًا لدرجة أنه لم يستطع أن يمسك لسانه – سأل هذا السؤال:

- و «كالوب»؟

وكان السؤال سخيفًا؛ لأنه بقدر ما كان «برنارد» مختلفًا عن الأسرة بقدر ما كان «كالوب» شبيها بها، وربت «بروفيتا نديو» برفق على كتف «شارل» وهو يقول:

- لا، لا، اطمئن. «برنارد» وحده.

وعندئذ قال «شارل» بوقار متكلف.

- طرد الله الدخيل إلى...

ولكن «بروفيتا نديو» أوقفه؛ لأنه لم يكن في حاجة لأن يقال له مثل ذلك الكلام، وقال:

- صه.

ولم يعد للأب والابن شيء يقولانه، فلنتركهما وقد قاربت الساعة الحادية عشرة. ولنترك السيدة «بروفيتا نديو» في غرفتها، جالسةً على مقعد صغير غير مريح. ولم تعد تبكي، بل إنها لا تفكر في شيء وإنها لتتمنى هي الأخرى أن تفر، ولكنها لا تستطيع ذلك. عندما كانت مع عشيقها والد «برنارد» -ولا تهمنا معرفته- كانت تقول لنفسها: «مهما فعلت، فستكونين امرأةً شريفةً»، كانت بطبعها تخاف الحرِية والجريمة والانسياق وراء الغرائز، ولهذا عادت بعد عشرة أيام إلى بيتها، نادمةً. كان أبواها إذَنْ على حق عندما قالا لها فيما مضى: «إنك لا تعرفين ما تريدين».

فلندعها هي الأخرى. قد نامت سيسيل. أما «كالوب» فإنه ينظر بيأس إلى شمعته؛ لأنها لن تستمر وقتًا كافيًا لتتيح له أن يفرغ من قراءة قصة مغامرات تلهيه عن رحيل «برنارد». إن الفضول ليدفعني إلى معرفة ما قال «أنتوان» لصديقته الطاهية، ولكن لا يمكن أن نسمع كل شيء. حان ميعاد اللقاء بين «برنارد» و«أوليفييه». ولا أدري بالضبط أين تناول عشاءه ذلك المساء إن كان قد تناوله. لقد مر بسلام أمام غرفة البواب، وصعد السلم خلسةً...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث

(الرخاء والسلم يلدان الجبناء، والتقشف أبو الإقدام).

«شكسبير».

آوى «أوليفييه» إلى فراشه، وانتظر قُبلة أمه، فقد اعتادت تقبيله وأخيه كل مساء وهما في سريرهما. ولم يكن ليتوانى عن ارتداء ملابسه ثانيةً ليستقبل «برنارد»، ولكنه ما برح يشك في مجيئه، كما خشي أن يثير شكوك أخيه الأصغر. وكان من عادة «جورج» أن ينام بسرعة كما كان من عادته أن يستيقظ متأخرًا. ولعله لم يشعر هذه الليلة بشيء غير عادي.

وسمع «أوليفييه» طرقًا خفيفًا على الباب، فقفز من سريره ووضع قدميه بسرعة في خف وأسرع إلى الباب يفتحه. ولم يكن في حاجة إلى إشعال الضوء لأن القمر المكتمل كان يضيء الغرفة.

وعانق «أوليفييه» «برنارد»...

- كم انتظرتك! ولكني ظننت أنك لن تأتي. أيعرف والداك أنك لن تقضي الليل بالبيت؟

ولكن «برنارد» كان ينظر أمامه في ظلام الليل، ورفع كتفيه:

- أتعتقد أنه كان عليَّ أن أسألهما إذنًا بذلك؟

وكانت في نبرة صوته برودة تمتزج بالسخرية حتى أن «أوليفييه» شعر فجأةً بسخف سؤاله. ولم يفهم بعد أن «برنارد» غادر داره دون رجعة. وظن أنه سيقضي هذه الليلة فقط بعيدًا عن بيته، ولم يدرك سبب هذا الهروب، وسأله:

- متى تنوي العودة إلى بيتك؟

- لن أعود إليه أبدًا!

وهنا بدأت الأمور تتضح في ذهن «أوليفييه». وكان همه أن يظهر أنه في مستوى الظروف وألا شيء يدهشه، ومع هذا أفلتت من شفتيه هذه الجملة: «إن ما تفعله لأمر خطير حقًّا».

ولم يسئ برنارد أن يدهش صديقه بعض الدهشة. وسرته لهجة التعجب في عبارة صاحبه وما تخفيه من إعجاز، ومع ذلك رفع كتفيه ولم يرد. وهنا أخذ «أوليفييه» يده بين يديه، وقال بلهجة جادة يستشف منها القلق:

- ولكن... لماذا تترك بيتك؟

- آه! هذا يا صديقي من شئوني، ولا أستطيع أن أقوله لك.

ولكي لا يبدو جادًّا أكثر من اللازم، راح يلهو بطرف حذائه، فأسقط الخف من قدم «أوليفييه» وكان الأخير يؤرجحه وهما جالسان على حافة السرير.

- في أي مكان تنوي إذَنْ أن تعيش؟

- لا أعرف.

- وبأي طريقة؟

- سوف أتدبر الأمر.

- ألديك مال؟

- عندي ما يكفيني لأتناول وجبة الإفطار غدًا.

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك عليَّ أن أبحث عن وسيلة. وسوف أجد شيئًا ما. سوف ترى. وسأقص عليك ما سأفعله.

وشعر «أوليفييه» بإعجاب فائق نحو صديقه، وهو يعلم أنه صلب المراس. ولكنه ما برح يشك في نجاحه. إنه لا مورد له، وستلح عليه الحاجة قريبًا فهلا يعود إلى بيته؟ وطمأنَهُ برنارد قائلًا إنه سوف يحاول أي شيء، ولكنه لن يعود إلى ذويه. ولما كرر عبارة «أي شيء» في عنف وشدة، استحوذ القلق على قلب «أوليفييه»، وأنه ليود أن يحدثه في الأمر ولكنه لا يجرؤ. وأخيرًا بدأ يقول بصوت متردد وهو يطأطئ رأسه:

- «برنارد»... ولكنك على أي حال... لا تنوي... ثم كف عن الكلام ورفع برنارد نظره إليه فلمس ارتباكه رغم أنه لم يره جيدًا.

- عن أي شيء تتكلم؟ ماذا تعني؟ تكلم. أتعني أنني سأسرق؟

وأومأ «أوليفييه» برأسه نفيًا. إنه لا يعني ذلك. وانخرط فجأةً في البكاء، ثم احتضن «برنارد» وهو ينتفض.

- عدني أنك لن...

وهنا عانقه «برنارد»، ثم أبعده عنه وهو يضحك. لقد فهم:

- إنني أعدك بهذا. لا لن أقوم بدور القواد... ثم أضاف:

- ولكنك تعرف طبعًا أن هذا أيسر السبل.

واطمأن «أوليفييه» وهو يعرف تمامًا أن برنارد لم يقل هذه الكلمات الأخيرة إلا متكلفًا.

- وامتحانك؟

- نعم هذا ما يضايقني حقًّا. ولا أحب أن أرسب فيه. وأعتقد أنني متأهب له. وغاية ما في الأمر هو أنني أرجو ألا أكون متعبًا في ذلك اليوم. ويجب أن أتصرف بلباقة وبسرعة لأتغلب على الأمر. وفي هذا بعض المجازفة، ولكنني سوف أخرج من المأزق، وسوف ترى.

وبقيا لحظةً صامتين. ووقع الخف الثاني من قدم أوليفييه، فقال «برنارد» سيصيبك البرد - هيا إلى سريرك.

- لا. هيا أنت إلى السرير.

- أتمزح؟ - هيا، أسرع، ودفع «أوليفييه» إلى سريره.

- ولكن أنت؟ أين ستنام؟

- في أي مكان – على الأرض- في ركن- يجب أن أعتاد ذلك.

- لا. أصغ إليَّ... أريد أن أقول لك شيئًا، ولكنني لن أستطيع ذلك إن لم أشعر بأنك قريب مني جدًّا. تعال إلى سريري.

ولحق به «برنارد» بعد أن خلع ملابسه، وقال «أوليفييه»:

- أتذكر ما سبق أن قلته لك في المرة السابقة... لقد انتهى الأمر. لقد ذهبت إلى ذلك المكان.

وفهم «برنارد» هذا الكلام المبهم. وضم صديقه إليه، وقال أوليفييه: إنه أمر تعافه النفس إنه شيء فظيع... وبعد أن أقدمت عليه شعرت بالرغبة في أن أبصق، وأن أفرغ ما في جوفي، أو أنتزع جلدي من جسدي، أو أن أقتل نفسي.

- إنك تبالغ في الأمر.

- أو أن أقتلها، إنها...

- من كانت؟ ألم تكن متهورًا على الأقل؟

- لا. إنها امرأة يعرفها «دورمير» جيدًا، وقد قدمني إليها. حديثها بخاصة هو الذي أغثى نفسي. لم تكف عن الكلام. وكم هي غبية!

إنني لا أفهم أن يتكلم الناس في هذه اللحظات. لقد تمنيت أن أضربها أو أن أخنقها...

- يا عزيزي! كان عليك أن تفهم أن «دورمير» لا يمكن أن يقدم إليك إلا مغفلةً... هل كانت جميلة على الأقل؟

- أتظن أنني نظرت إليها!

- إنك غبي، إنك ظريف للغاية. هيا بنا ننم... هل استطعت على الأقل أن...

- الشيء الذي يغثي نفسي أكثر من أي شيء آخر هو أني استطعت بالرغم من كل شيء... وكأنني أرغب فيها فعلًا.

- حسنًا يا صديقي.

- صه. إن كان هذا هو «الحب» فلقد شبعت منه ولأجل طويل.

- يا لك من طفل!

- كنت أريد أن أراك مكاني.

- أنا لا أسعى وراء ذلك. وسبق أن قلت لك إنني أنتظر الفرصة. أنتظرها بلا تحمس لأن الأمر لا يهمني كثيرًا. ولكن لا مانع إذا ما...

- إذا ما...

- إذا كانت... لا شيء. لننم. وأدار ظهره فجأةً وهو يبتعد قليلًا عن هذا الجسد الذي ضايقته حرارته. ولكن عاد أوليفييه بعد لحظة يقول:

- أتعتقد أن «بارس» سينتخب؟

- أهذا أمر يهمك؟

- لا. لا أهتم به على الإطلاق... أصغ إليَّ قليلًا...

وهنا ضغط على كتف «برنارد» الذي استدار وقال:

- لأخي خليلة.

- جورج؟

وعندما سمع «جورج» الصغير اسمه أمسك أنفاسه وكان يتظاهر بالنوم، ولكنه كان ينصت لحديثهما مرهفًا السمع في الظلام.

- أمعتوه أنت! إنني أحدثك عن «فنسان» (وفنسان أكبر سنًّا من «أوليفييه» وكان قد أتم سنواته الأولى في دراسة الطب).

- هل قال لك ذلك؟

- لا. علمت بالأمر دون أن يساوره في ذلك. أما والداي فلا علم لهما بشيء عن ذلك.

- وماذا يمكن أن يفعلا لو علما بالأمر؟

- لا أعرف. أمي خليقة بأن ينتابها يأس شديد. أما أبي فربما طلب منه أن يفصم علاقته بها أو أن يتزوجها.

يا للعجب لا يتصور السبور جوازيون الشرفاء شرفًا إلا عن طريقتهم. وكيف علمت بالأمر؟

- اعتاد «فنسان» منذ وقت ما أن يخرج في الليل بعد أن يأوى والدانا إلى فراشهما. يحاول ألا يحدث أي ضوضاء عند نزوله، ولكنني أعرف خطواته وأعرف دقاتها بالشارع. وفي الأسبوع الماضي، وكان يوم الثلاثاء على ما أعتقد، اشتدت الحرارة في الليل حتى لم أستطع أن أبقى راقدًا في فراشي. ووقفت في النافذة لأستنشق الهواء. وسمعت صوت الباب في أسفل البيت يفتح ويغلق، وانحنيت، ولما مر بالقرب من مصباح الشارع رأيت أخي فنسان. وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل. وكانت تلك أول مرة. أعني كانت أول مرة أراه فيها، ومنذ تلك الليلة بدأت أتابعه – أوه! وعلى غير إرادة مني... وكنت أسمعه كل ليلة تقريبًا يخرج. إنه يحمل معه مفتاحًا، وقد سبق أن أعد له والداي غرفتنا

القديمة، أي غرفتي أنا وجورج، وجعلا منها حجرةَ ليستقبل فيها المرضى مستقبلًا بعد تخرجه. وغرفته هذه تقع بالقرب من غرفتنا الحالية على يسار المدخل وباقي الشقة يوجد علىى اليمين. وفي إمكانه أن يخرج وأن يدخل متى شاء دون أن يشعر به أحد. وأنا لا أسمعه عادةً عند عودته إلى المنزل ولكني أول أمس، أي يوم الإثنين مساءً، ولم أدرِ ما كان بي، كنت أفكر في مشروع مجلة «دورمير»... ولا أستطيع النوم، فسمعت أصواتًا علىَ السلم، وظننت أنه «فنسان».

وسأله «برنارد» كم كانت الساعة وقتئذ؟ ولم يكن هذا السؤال لرغبة في أن يعرف ما حدث بقدر ما كان لإشعار «أوليفييه» أنه مهتم بحديثه.

- كانت الثالثة صباحًا على ما أعتقد. ونهضت وألصقت أذني بالباب. وكان «فنسان» يتحدث مع امرأة. أو على الأصح كانت هي التي تتكلم.

- كيف عرفت أنه هو «فنسان»؟ جميع السكان يمرون أمام باب بيتكم.

- هذا أمر يضايق للغاية، فكلما كان الوقت متأخرًا، زادوا ضجيجهم وهم يصعدون السلم، وهم لا يأبهون بالنائمين!.. لم يكن هناك مجال لأي لبس لأن المرأة كانت تناديه باسمه. وكانت تقول له... أواه إني لأشعر بالاشمئزاز إذا كررت ما سمعته منها.

- هيا. قل ما سمعته.

- كانت تقول: فنسان، يا عشيقي، يا حبيبي، لا تتركني!

- هل كانت تخاطبه بضمير الجمع(3)؟

- نعم، وهذا شيء غريب للغاية.

- أكمل قصتك.

- كانت تقوله له: ليس من حقك أن تتركني الآن. ماذا تريد مني أن أفعل؟

أين تريدني أن أذهب؟ قل لي شيئًا. كلمني! - ثم كانت تناديه باسمه وتكرر قولها (يا عشيقي، يا عشيقي) بنبرة تزداد حزنًا وبصوت يضعف شيئًا فشيئًا، ثم سمعت ضوضاء (لا بد أنهما كانا على درجات السلم). صوت شيء يسقط. وأعتقد أنها جثت على ركبتيها.

- وهو؟ ألم يجبها بشيء؟

- لا بد أنه صعد الدرجات الأخيرة الباقية؟ وقد سمعت صوت باب شقتنا وهو يغلق، ومكثت هي بعد ذلك طويلًا إلى باب غرفتي. وكنت أسمعها تجهش بالبكاء.

- كان عليك أن تفتح لها الباب.

- لم أجرؤ على ذلك، وفنسان خليق أن يثور لو عرف أني على علم بأموره الخاصة. ثم إنني خشيت أن أحرجها إذا ما فاجأتها وهي تبكي، ولم أكن أعرف ما يمكن أن أقوله لها.

واستدار «برنارد» نحو «أوليفييه» وقال:

- لو كنت مكانك لفتحت لها الباب.

- أوه! إنك تجرؤ على كل شيء، وتفعل كل ما يدور برأسك.

- هل تأخذ عليَّ ذلك؟

- لا. إنني أغبطك.

- هل تعرف من تكون هذه المرأة؟

- وكيف تريد مني أن أعرف ذلك؟ طابت ليلتك!

وأسر «برنارد» في أذن «أوليفييه»:

- قل لي... هل أنت متأكد من أن «جورج» لم يسمعنا؟

وبقيا بعض الوقت وهما يراقبانه.

وقال «أوليفييه» بصوته الطبيعي:

- لا. إنه نائم. ثم لو أنه سمع ما تقوله لما فهم معناه. هل تعرف أي سؤال سأله لوالدي منذ عدة أيام؟.. لماذا ال...

وفي هذه المرة لم يطق «جورج» صبرًا. وانتصب نصف انتصابة في سريره، وقاطع أخاه وهو يصيح:

- أيها المغفل. ألم تدرك أنني تعمدت ذلك؟.. حسنًا، نعم لقد سمعت كل ما قلتماه الآن. لقد كنت أعرف ما يعمله «فنسان» منذ وقت طويل. والآن يا عزيزيّ أرجوكما أن تخفضا صوتكما لأنني أشعر بالرغبة في النوم. أو اسكتا.

استدار أوليفييه ناحية الحائط، أما برنارد فأخذ يجيل نظره بين معالم الغرفة - لأن النوم لم يداعب أجفانه بعد- وكان القمر المكتمل قد جعلها تبدو أكبر حجمًا. وكان لا يعرفها إلا قليلًا؛ لأن «أوليفييه» نادرًا ما يبقى بها أثناء النهار، وفي الممرات القليلة التي جاء فيها استقبله صاحبه في الشقة بالدور الأعلى. ومس ضوء القمر الآن مقدمة السرير الذي رقد فيه «جورج» وقد نام أخيرًا. لقد سمع كل ما قاله أخوه وعنده الآن ما يمكن أن يحلم به. وفوق سرير «جورج» مكتبة صغيرة مكونة من رفين عليهما كتب مدرسية. وعلى منضدة بالقرب من فراش «أوليفييه» تبين «برنارد» كتابًا من حجم أكبر، ومد يده وأخذه وقرأ عنوانه: «توكفيل»(4)، ولكنه عندما همَّ بوضعه على المنضدة سقط على الأرض، فأيقظ «أوليفييه».

- هل تقرأ لتوكفيل الآن؟

- لقد أعارني إياه دوباك.

- وهل يعجبك؟

- إنه ممل إلى حد ما، ولكن به أشياء حسنة.

- اسمع... ماذا تفعل غدًا؟

اليوم التالي إجازة للطلبة، وبرنارد يفكر أنه سيلقى صديقه فيه. وقد انتوى العودة للمدرسة اعتقادًا منه أنه ليس في حاجة إلى متابعة الدروس وسيستعد للامتحان معتمدًا على نفسه.

وأجابه «أوليفييه»:

- سأذهب غدًا في الحادية عشرة إلى محطة سان لازار، فأنتظر قطار «دييب» لأقابل خالي «إدوارد» العائد من إنجلترا. وفي الثالثة بعد الظهر سأذهب للقاء «دوريبير» باللوفر. أما عن بقية ساعات النهار فيجب أن أستذكر دروسي.

- خالك «إدوارد»؟

- نعم إنه أخ غير شقيق لوالدتي. وهو غائب منذ ستة شهور، ولا أعرفه إلا قليلًا، ولكني أحبه كثيرًا. وهو لا يعلم أنني ذاهب، وأخشى ألا أتعرف عليه. فهو لا يشبهه إطلاقًا باقي أفراد العائلة، وهو شخص ممتاز.

- وماذا يعمل؟

- إنه كاتب. وقد قرأت معظم مؤلفاته، ولكن مضى عليه وقت طويل لم ينشر فيه شيئًا.

- هل يكتب قصصًا؟

- نعم، نوعًا من القصص.

- ولماذا لم تكلمني أبدًا عنه؟

- لو حدثتك عنه، لقرأت كتبه، ولو فرضنا أنها لم تعجبك...

- حسنًا. أكمل.

- لضايقني ذلك كثيرًا. وهذا ما أعنيه.

- وماذا الذي جعلك تقول عنه إنه ممتاز؟

- لا أعرف بالضبط. قلت لك إن معرفتي به ضئيلة. وحكمي عليه مبني على مجرد شعور خفي. وأشعر أنه يهتم بأشياء كثيرة لا يهتم بها والدي، كما أشعر بأن من الممكن أن يكلمه المرء في كل شيء. وذات يوم، قبيل رحيله، كان يتناول الغداء عندنا، وكان يتحدث مع والدي وشعرت بأنه لا يكف عن النظر إليّ، وبدأ الأمر يضايقني. وكنت على وشك الخروج من الحجرة - حجرة الطعام، وكانوا يتناولون القهوة بعد الأكل. ولكنه بدأ يوجه أسئلةً لوالدي بشأني. فضايقني ذلك أكثر وأكثر، ونهض أبي فجأةً ليحضر له أبيات شعر كنت قد نظمتها منذ وقت قصير، وكنت لسخفي قد عرضتها عليه.

- أبيات شعر من نظمك؟

- نعم – ألا تذكر القصيدة التي قلت إنها تشبه قصيدة «الشرفة»([5])؟

- كنت أعرف جيدًا أنها لا تساوي شيئًا، ولذلك ضايقني كثيرًا أن كلمه أبي عنها، وبقيت مع خالي وحيدين عندما ذهب أبي ليحضر قصيدتي، وشعرت باحمرار يصعد إلى وجهي. وكنت لا أجد شيئًا أقوله، ورحت أوجه نظراتي إلى مكان آخر، وفعل هو نفس الشيء وبدأ يصنع لفافة تبغ، ولكي يهون عليَّ الأمر – فلا بد أنه رأى احمرار وجهي- نهض من مكانه، وتوجه إلى النافذة، وراح ينظر خلالهما، وقال لي فجأةً:

- أشعر بحرج أكثر منك.

وأعتقد أنه قال ذلك ليجاملني. ثم عاد أبي أخيرًا، وأعطاه قصيدتي. فشرع في قراءتها، وكنت أحس ضيقًا شديدًا، حتى أنني أعتقد أنه لو أثنى عليَّ لكنت خليقًا أن أشتمه. ولا شك أن أبي كان يتوقع مديحًا، ولما لم يقل خالي شيئًا من ذلك سأله والدي:

- حسنًا. ما رأيك فيها؟ فأجابه وهو يضحك.

- يضايقني أن أكلمه عن هذه الأبيات أمامك.

وعندئذ خرج والدي وهو يضحك بدوره. ولما ظهرنا وحيدين قال لي إنه يجد أن قصيدتي رديئة جدًّا.

وقد طاب لي أن أسمع منه هذا القول، ومما زاد في سروري أنه أشار إلى بيتين، وهما وحدهما اللذان يعجبانني في القصيدة، ونظر إليَّ وهو يبتسم وقال: «هذا الجزء حسن».

أليس هذا شيئًا جميلًا؟ ليتك سمعت اللهجة التي حدثني بها. ولكم وددت أن أعانقه.

وقال لي إن خطئي أنني أبني أشعاري على فكرة واحدة، وأنني لا أترك الفرصة للكلمات حتى توجهني. ولكنني لم أفهمه لأول وهلة غير أنني أعتقد الآن أنني فهمت ما كان يعنيه، وإنه على حق في ذلك. وسوف أشرح لك هذا في مرةً أخرى.

- إنني أفهم الآن لماذا تريد أن تكون في استقباله عند وصوله.

- أوه! ما قصصته عليك الآن لا قيمة له. ولست أدري لأي سبب حكيته لك. لقد تحدثنا في أمور أخرى كثيرة.

- أتقول إنه سيصل في الحادية عشرة والنصف؟ وكيف علمت أنه سيصل بهذا القطار؟

- لقد كتب ذلك في رسالة بعث بها إلى أمي، ثم إنني راجعت المواعيد على دليل القطارات.

- هل في نيتك أن نتناول معه الغداء.

- لا، لا بد أن أعود إلى بيتي في الظهر. لن أجد إلا وقتًا قليلًا لأشد على يده، ولكن هذا يكفيني... آه! قل لي قبل أن أنام: متى سأراك؟

- لن تراني قبل أيام. لن تراني قبل أن أدبر أمري.

- ولكني... هل أستطيع أن أساعدك في شيء؟

- هل تستطيع أن تساعدني؟ - لا! ليس هذا في نيتي. سوف يبدو لي عندئذ أنني أغش نفسي. نم نومًا طيبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع

(كان والدي قليل الذكاء، ووالدتي فطنة، وكانت على مذهب التجرد(6). وهي امرأة صغيرة الحجم وديعة، وكثيرًا ما قالت لي: يا بني ستلقى عذاب السعير. ولكن هذا لم يؤلمها قط).

«فونتنيل».

لا، لم يكن «فنسان فولينييه» يتوجه كل ليله إلى عشيقته. إنه يسرع الخطى، فلنتبعه. إنه ينحدر من شارع «نوتردام دي شامب» حيث داره، إلى شارع «سان بلاسيد» الذي يُعتبر امتدادًا له، ثم يتجه إلى شارع «باك» حيث يسير بعض البورجوازيين المتأخرين في السهر. ويقف في شارع «نابليون» أمام باب كبير ينفتح أمامه، وها هو ذا في دار الكونت «دي باسافان». ولو لم يعتد المجيء هنا لما جرؤ على الدخول بهذه البساطة في هذا القصر الضخم. ويعرف الخادم الذي فتح له الباب جيدًا أن وراء مظهر «فنسان» المتسم بالثقة المفتعلة نفسًا خجولة، ويتظاهر «فنسان» بأنه لا يريد أن يعطيه قبعته، ويقذف بها من بعيد إلى مقعد. ومع هذا فإن «فنسان» حديث عهد بهذا المكان. أما «روبير دي باسافان» يبدو أكبر سنًّا من «فنسان» بشكل ملحوظ. كانا قد افترقا بضع سنوات، ثم تقابلا من جديد ذات مساء في أحد المسارح، وتصادف في هذه الليلة أن كان «فنسان» يصحب أخاه على غير العادة. وقدم باسافان لهما أثناء الاستراحة بعض الحلوى المثلجة. وعلم أثناء ذلك أن فنسان انتهى من الجزء الأول في الطب، وأنه متردد في التقدم للجزء الثاني.

كانت العلوم الطبيعية تستهويه أكثر من الطب، ولكن حاجته إلى كسب العيش... وخلاصة القول إن «فنسان» قَبِلَ راضيًا العرض السخي الذي قدمه إليه «روبير دي باسافان» وهو أن يحضر كل ليلة لعلاج أبيه العجوز الذي اعتلت صحته إثر جراحه، وكان الأمر لا يخرج عن تجديد بعض الضمادات أو إعطاء بعض الإبر، أي العناية الطبية التي كانت تستدعي يدًا خبيرة، ولكن فضلًا عن ذلك كانت هناك أسباب خفية جعلت الكونت يتقرب من فنسان، كما كان لهذا الأخير أسباب أخرى دفعته إلى قبول هذا العرض. وسوف نحاول فيما بعد أن نكشف السبب الخفي الذي دفع «روبير» إلى التقرب من «فنسان»، أما عن السبب الذي حدا بفنسان إلى قبول العرض فها هو: لقد دفعته إلى هذا، حاجة ملحة إلى المال، فالمرء ذو الضمير، والذي تدفعه تربيته السليمة إلى الشعور بالمسئولية، يصعب عليه جدًّا أن يكون له ولد من امرأة، ولا يحس ببعض الالتزامات نحوها، لا سيما إن كانت هذه المرأة قد تركت زوجها من أجله. لقد قضى «فنسان» حتى هذا الوقت حياةً فاضلةً. وكانت مغامراته مع «لورا» تبدو له بين ساعة وأخرى، طورًا بشعةً وطورًا آخر طبيعيةً. فيكفي في كثير من الأحيان أن نضيف كمية من الأحداث البسيطة بعضها إلى بعض، لكي نحصل منها على مجموع مروع. وكان يردد ذلك بينه وبين نفسه وهو يسير، ولا يخرجه هذا من ورطته. ومما لا شك فيه أنه لم يفكر أبدًا في أن يعول هذه المرأة مدى الحياة، أو أن يتزوجها بعد طلاقها أو أن يحيا معها من دون زواج، وكان مرغمًا على أن يعترف أمام نفسه بأنه لا يشعر نحوها بحب كبير، ولكنه كان يعرف أنها لا موارد لها في باريس، كما يعرف أنه سبب بأسها وبؤسها، وكان يعرف أن عليه أن يقدم لها معونة ولو كانت مؤقتة وهزيلة، ولكنه في كل يوم يزداد شكًّا في قدرته على ذلك. في الأسبوع الماضي كان لا يزال يملك مبلغ الخمسة آلاف فرنك الذي ادخرته أمه بصبر وبعناء شديدين لكي تيسر له المرحلة الأولى

من حياته العملية. وكل هذا المبلغ، ولا شك، يكفي لتغطية مصاريف الوضع، وأجر الإقامة في المستشفى والعناية بالطفل. ولكن هذا المبلغ الذي كان قد خصصه - في ذهنه- لهذه المرأة، والذي وقفه عليها وكرسه لها، والذي كان يعتبر نفسه مجرمًا إذا ما اختصر منه شيئًا، قد وسوس له الشيطان ذات مساء أنه غير كاف. ولم تكن هذه النصيحة صادرة عن «روبير دي باسافان» فإن «روبير» لم يقل شيئًا من هذا القبيل، ولكنه اقترح أن يصحبه إلى قاعة من قاعات القمار، وصادف أن كان ذلك في هذا اليوم بالذات. وقبل «فنسان» الاقتراح.

وكان ذلك المكان يتميز بشيء خداع، هو أن اللعب فيه يتم بين أصدقاء من علية القوم. وقدم «روبير» «فنسان» إليهم. وفوجئ «فنسان» بهذا الأمر، فلم يستطع أن يلعب ذلك المساء إلا لعبًا خفيفًا. ولم يكن معه إلا القليل جدًّا من المال، كما رفض المبلغ الذي اقترح الكونت أن يعطيه له، ولكنه ربح وشعر بالأسف؛ لأنه لم يجازف بمبلغ أكبر، ووعد بالحضور في اليوم التالي.

وقال له الكونت: «الجميع الآن يعرفونك، ولست في حاجة إلى أن أصحبك مرةً أخرى».

وكان هذا اللعب يدور عند «بيير دي بروفيل» الذي يسمونه «بيدرو» اختصارًا، ومنذ تلك الليلة الأولى وضع «روبير دي باسافان» سيارته تحت تصرف صديقه الجديد. وكان «فنسان» يحضر حوالي الحادية عشرة ويتجاذب أطراف الحديث مع «روبير» وهو يدخن لفافةً، ثم يصعد إلى الطابق الأول ليشرف على مريضه. ويمكث بجانبه وقتًا يطول أو يقصر تبعًا لمزاج الكونت العجوز، وتبعًا لصبره أو لما تستدعيه حالته، ثم تصحبه السيارة إلى شارع «سان فلورانتان» عند «بيدرو»، وتعود به بعد ساعة، وتوصله لا إلى داره، إذ كان يخشى أن يلفت ذلك الأنظار إليه، بل إلى أقرب تقاطع طريق إلى بيته.

ومنذ ليلتين جلست «لورا دوفييه» على درجات السلم الذي يؤدي إلى شقة عائلة «مولينييه»، وانتظرت «فنسان» حتى الثالثة صباحًا إذ لم يعد إلى بيته، إلا في تلك الساعة.

وفي تلك الليلة لم يكن «فنسان» قد توجه إلى «بيدرو»؛ فلم يعد معه مالٌ يخسره. ولم يبق معه منذ يومين شيء من الخمسة آلاف فرنك. وكان قد أخطر «لورا» بذلك. كتب لها وقال إنه لم يعد يستطيع أن يساعدها بشيء، ونصحها في رسالته بأن تلوذ بزوجها أو بأبيها، كما نصحها بأن تعترف بكل شيء، ولكن الاعتراف بدا مستحيلًا في نظر «لورا»، بل لم تكن تستطيع حتى أن تتخيله. وما طلبه عشيقها منها يسبب لها اشمئزازًا لا يزايلها إلا ليحل محله اليأس. وجدها «فنسان» في هذه الحالة عند عودته وأرادت أن تحتجزه، ولكنه انتزع نفسه من بين ذراعيها، واضطر أن يصطنع الشدة اصطناعًا؛ لأن قلبه حساس للغاية، وكان شهوانيًّا أكثر منه عاشقًا، ولذا سهل عليه أن يجعل من القسوة واجبًا. ولم يجب على توسلاتها وشكاياتها، وبقيت طويلًا على درجات السلم بعد أن تركها «فنسان»، وأغلق دونها الباب. وهي تسكب دموعًا في سواد الليل، كما أسرَّ ذلك «أوليفييه» لبرنارد فيما بعد، إذ كان قد سمع ما دار بينهما.

وانقضت على هذه الليلة أكثر من أربعين ساعةً، ولم يتوجه «فنسان» إلى منزل «روبير دي باسافان» في الليلة السابقة، ويبدو أن والده تماثل للشفاء، ولكنه تسلم برقية تستدعيه، إذ إن «روبير» يريد أن يراه.

ودخل «فنسان» حجرة مكتب «روبير» - وهي حجرة اتخذ منها أيضًا غرفة للتدخين واعتاد أن يقضي بها أغلب أوقاته، وعني بتنظيمها وتزيينها وفقًا لمزاجه، ومد له «روبير» يده بإهمال، دون أن ينهض ليلقاه. كان «روبير» يكتب جالسًا أمام مكتب مغطى بالكتب، وأمامه باب يفتح على شرفة تطل على حديقة، وكان الباب مفتوحًا على مصراعيه وتنفذ خلاله أشعة القمر، وكان يتكلم دون أن يلتفت نحو محدثه.

- هل تعرف ماذا أكتب الآن؟.. ولكني أرجوك ألا تبوح بهذا السر...! أتعدني بذلك؟.. إعلان يمهد لفتح مجلة «دورمير». وأنا بالطبع لا أوقع باسمي في هذه المجلة... لا سيما أنني أمتدح نفسي على صفحاتها... ثم إنني أوثر ألا يعرف الناس الآن أنني أساهم فيها ما دام سينتهي بهم الأمر إلى معرفة أنني ممولها. ولذا أطلب منك الكتمان! وبهذه المناسبة أذكر أنك أخبرتني بأن أخاك الصغير يميل إلى الكتابة والتأليف. ما اسمه؟

- إنه يدعى «أوليفييه».

- نعم «أوليفييه». كنت قد نسيت اسمه... أرجوك ألا تبقى واقفًا هكذا. اجلس على هذا المقعد. ألا تشعر بالبرد؟ أتريد أن أغلق النافذة؟.. إنه ينظم الشعر أليس كذلك؟ أرجو أن يأتيني ببعض شعره... ولكنني طبعًا لا أعد بالنشر... ومع كل يدهشني أن يكون شعره رديئًا لأن أخاك يبدو ذكيًا جدًّا. ثم إن المرء يشعر بأنه ملم بأشياء كثيرة. كنت أريد أن أتحدث معه. أرجو أن تطلب منه أن يأتي ليقابلني. إنني أعتمد عليك. هل لك في لفافة؟ - وقدم له علبة لفائفه الفضية.

- بكل سرور.

- والآن أصغ إلي يا «فنسان». يجب أن أكلمك في أمر جاد. لقد تصرفت كالأطفال ذلك المساء... وأنا أيضًا تصرفت مثلك. لا أقول إني أخطأت في اصطحابك إلى «بيدرو»؟ ولكني أشعر بأني مسئول - إلى حد ما- عن المبلغ الذي خسرته ولا أقول لنفسي إنني كنت السبب في أن تفقده. ولا أدري إن كان ذلك هو ما يسمونه وخز الضمير، ولكن هذا الأمر بدأ يؤرقني ويقض مضجعي، إنني أؤكد لك ذلك! ثم إنني أفكر في تلك المرأة التعسة التي حدثتني عنها... ولكن هذا موضوع آخر يجب أن لا نمسه، إنه شيء مقدس. إن ما أريد قوله لك، وما أرغب فيه تمامًا هو أن أضع تحت تصرفك مبلغًا يساوي ما خسرته في القمار. لقد كان خمسة آلاف فرنك، أليس كذلك؟ وسوف تقامر به من جديد. أكرر لك أنني أعتبر نفسي مسئولًا عما فقدت، وأنني مدين لك به، وعليك ألا تشكرني على ذلك فسوف ترده لي إذا ما ربحت. وإلا فليكن ما يكون وسأكون قد سددت ديني. عد إلى «بيدرو» هذا المساء، وكأن شيئًا لم يكن. وسوف تحملك إليه سيارتي، ثم ترجع السيارة لأستقلها إلى منزل «ليدي جريفيث»، وأرجو منك أن تلحق بي عندها بعد ذلك. إنني أنتظر مجيئك، وسترجع السيارة بعد ذلك لتحضر بها.

ثم فتح درج مكتبه، وأخرج منه خمس ورقات سلمها لفنسان:

- هيا اذهب بسرعة...

- ولكن والدك...

- آه! لقد نسيت أن أخبرك أنه توفي منذ... ثم أخرج ساعته، وصاح:

- كم الوقت؟ إنه متأخر! أوشكنا على منتصف الليل... اذهب بسرعة، نعم لقد توفي منذ أربع ساعات.

وقال «باسافان» ما قال في غير عجلة، بل كان في لهجته شيء من عدم المبالاة.

- ألا تبقى بجانبه لـ...

وقاطعه «روبير»: لأسهر بجواره؟ لا، أخي الأصغر يتكفل بهذا الأمر، وهو في الطابق الأعلى ومعه مربيته العجوز، وكانت تتفاهم مع الفقيد أكثر مما كنت أتفاهم معه...

ولمَّا رأى «فنسان» لا يتحرك من مكانه، أردف:

- أصغ إليَّ يا صديقي العزيز. إنني لا أريد أن أبدو أمامك شريرًا، ولكنني أشمئز من المشاعر المتعارف عليها. وكنت قد رضت قلبي على نوع من الحب البنوي، ولكنه كان كالثوب الفضفاض، ولذلك اضطررت إلى أن أضيق من حجمه. ولم يجلب لي أبي سوى الضيق والملل والمتاعب. وإن بقى في قلبه بعض الحنان، فما أشعرني به قط، ولم يقابل وثبات حبي الأولي نحوه – حين لم أكن أعرف التحفظ- إلا بالصد والجفاء، مما علمني الكثير... ولعلك لاحظت ذلك بنفسك عندما كنت تعالجه... هل شكرك يومًا؟ هل ألقى إليك نظرةً أو بسمةً عابرةً؟ كان يظن دائمًا أن الناس مدينون له. كان رجلًا من الذين يطلق عليهم شخصية، وأعتقد أنه آلم أمي كثيرًا رغم أنه كان يحبها هذا إذا فرض أنه عرف الحب، وأعتقد كذلك أنه آلم كل من حوله: خدمه وكلابه وجياده وعشيقاته. أما أصدقاءه - فلا- فلم يكن له صديق، لقد تنفس الكل الصعداء بموته وأعتقد أنه كان ذا قيمة كبيرة في عالمه كما يقولون، ولكنني لم أستطع أن أتبينها. كان ذكيًّا جدًّا، هذا أمر مؤكد. وكنت أشعر نحوه، ولا أزال، ببعض الإعجاب. أما أن أجفف بمنديلي دموعًا... أو أن أنتزع الدموع من عيني... فلست طفلًا لأفعل هذا. هيا! أسرع وعد بعد ساعة لمقابلتي عند ليليان – ماذا؟- هل يضايقك ألا تكون مرتديًا رداء السهرة؟ كم أنت أبله! لماذا؟ سنكون بمفردنا. أعدك أن أبقى بملابسي العادية. لقد اتفقنا. أشعل سيجارًا قبل أن تخرج، وأرسل لي السيارة بسرعة، وسوف ترجع لتحملك من جديد.

ونظر إلى «فنسانٍ» وهو يخرج ورفع كتفيه، وتوجه إلى غرفته ليستبدل ملابسه، وكانت بذلته في انتظاره موضوعةً على إحدى الأرائك.

وفي غرفة بالطابق الأول كان الكونت العجوز في فراش الموت. وقد وضعوا صليبًا فوق صدره، ولكنهم نسوا أن يضموا يديه، وكانت لحيته المستطيلة، التي لم تهذب منذ أيام، تخفف زاويتي ذقنه التي تدل على الحزم. أما التجاعيد العميقة المتقاطعة فوق جبهته من تحت شعره الذي وخطه الشيب وارتفع إلى أعلى كالفرجون فقد بدت وكأنها أقل عمقًا، بل وكأنها انبسطت شيئًا ما، وغارت عيناه تحت حاجبيه الغليظين. وإني لأمعن فيه النظر لأننا لن نراه بعد الآن. وكان بجانب فراشه مقعد وثير جلست فوقه «سيرافين» الخادم العجوز، وها هي تنهض وتقترب من منضدة عليها مصباح زيت من طراز عتيق يضيء الحجرة إضاءةً خافتةً. وفوق المصباح غطاء يعكس الضوء على كتاب يقرأه «جونتران» الصغير...

- إنك لمتعب يا سيد جونتران، وأفضل لك أن تذهب لتنام.

ونظر «جونتران» إلى «سيرافين» نظرة فيها حنان وكان شعره الأشقر الذي أبعده عن جبينه يطفو على جانبي رأسه. إنه في الخامسة عشرة من عمره. ووجهه كوجه النساء، ولا يعبر إلا عن الحنان والحب. ورد على «سيرافين» بقوله:

- حسنًا! وأنتِ! عليكِ أن تذهبي لتنامي فقد سهرتِ طوال الليلة الماضية.

- أوه! إني معتادة على السهر، لقد نمت في النهار، أما أنت...

- لا. لا أشعر بالتعب، ثم إنني أجد راحةً في البقاء هنا لأقرأ وأتأمل. إنني لم أعرف والدي إلا قليلًا، وأعتقد أنني سوف أنساه تمامًا إذا لم أنظر إليه بإمعان. وفي نيتي أن أسهر بجانبه حتى مطلع الفجر. كم قضيت من الزمن عندنا يا «سيرافين»؟

- أنا هنا منذ العام السابق لميلادك، وها أنت قد أوشكت على بلوغ السادسة عشرة من عمرك.

- وهل تذكرين أمي جيدًا؟

- أذكرها جيدًا؟ سؤال غريب! لكأنك تسألني إن كنت أعرف اسمي. بلا شك إنني أذكرها تمامًا.

- وأنا أيضًا أذكرها، أذكرها قليلًا... فلم تكن سني إلا خمس سنوات عندما توفيت... أخبريني... هل كان والدي يتحدث معها كثيرًا؟

- كان الأمر يختلف باختلاف الأيام. لم يكن والدك بطبيعته كثير الكلام. ولم يكن يحب أن يبدأه الناس بالكلام. ومع كل فقد كان في الأيام الأولى أكثر كلامًا مما كان عليه في الآونة الأخيرة. ثم إنه من الأفضل ألا نحرك هذه الذكريات كثيرًا، وأن نترك لله الحكم على كل هذا.

- أتعتقدين يا «سيرافين» العزيزة أن الله سيهتم حقًّا بكل هذه الأمور؟

- إن لم يهتم الله بهذه الأمور، فمن إذَنْ يهتم بها؟

وهنا وضع «جونتران» شفتيه على يد «سيرافين» التي كساها الاحمرار وقال لها:

- أتدرين ما يجب عليكِ أن تفعليه؟ عليكِ أن تذهبي لتنامي. وأعدكِ بأن أوقظكِ مع طلوع النهار. وعند ذلك أذهب أنا لأنام بدوري. إنني أرجوكِ.

وما إن تركته «سيرافين» بمفرده حتى جثا على ركبتيه عند أسفل الفراش، ودفع برأسه الأغطية، ولكنه لم يستطع البكاء، فليس من شيء يحرك قلبه وبقيت عيناه جامدتين. ثم نهض إذ يأس من البكاء ونظر إلى هذا الوجه الجامد. وكم ود أن يستشعر في هذه اللحظة المهيبة شعورًا نادرًا ساميًا، وأنْ يستمع إلى صوت من العالم الآخر، وأن يحلق بفكره في السماوات العلا، ولكن أفكاره بقيت عالقةً بالأرض، ونظر إلى اليدين التي جمدت الدماء في عروقها، وراح يسائل نفسه: «إلى متى ستستمر الأظافر في النوم؟»، وعاف منظر هاتين اليدين المنفرجتين، وود أن يضمهما وأن يجمعهما لتمسكا بالصليب. آه، هذه فكرة طيبة! وفكر أن «سيرافين» ستدهش عندما تجد هاتين اليدين منضمتين، وراح يتلهى مقدمًا بهذه الفكرة، ثم ما لبث أن احتقر نفسه على أنه يتلهى بمثل هذا. ومع كل فقد انحنى على الفراش وأمسك بذراع المتوفي البعيدة عنه، ولكنه وجد الذراع متصلبةً لا تطاوعه، وحاول

«جونتران» أن يثنيها، ولكن هذه الحركة هزت الجسم كله. ثم أمسك بالذراع الأخرى فبدت له أكثر طواعيةً.

وأوشك جونتران أن يحرك اليد إلى المكان الذي يريد، وأمسك بالصليب وحاول أن يضعه بين الإبهام والأصابع الأخرى. ولكن لمس هذا اللحم البارد أوهنه. وأحس أنه سيُغمى عليه، ورغب أن يستدعي «سيرافين»، وترك كل شيء، ترك الصليب مقلوبًا على الأغطية المتهدلة والذراع ساقطةً من جديد لتعود إلى مكانها الأول. ثم إذا به يسمع فجأةً في هذا الصمت الجنائزي هذه الكلمة: «اللعنة» وقد ألقيت بلهجة عنيفة... ويلتفت؟ ولكن لا، ليس هناك إله، هذه الكلمة لم تصدر إلا عنه هو الذي لم يلعن أبدًا من قبل، ثم يبتعد ليجلس من جديد في مكانه، وينغمس ثانيةً في القراءة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

(كان روحًا وجسدًا لا ينفذ الوخذ إليهما).

«سانت بوف».

انتصبت «ليليان» نصف انتصابة، ومست بطرف أناملها شعر «روبير» الكستنائي قائلةً:

- بدأت يا صديقي تفقد شعرك. حذار فأنت لم تتجاوز الثلاثين والصلع قبيح لا يناسبك. إنك تنظر إلى الحياة نظرةً صارمةً.

ورفع «روبير» وجهه نحوها، ونظر إليها باسمًا.

- ولكني بجانبك لا أنظر إلى الحياة بهذا الجد.

- هل أخبرت «فنسان مولينييه» ليحضر إلى هنا؟

- نعم، ما دمتِ قد طلبتِ مني ذلك.

- وهل أقرضته نقودًا؟

- خمسة آلاف فرنك كما قلت لك – وسوف يخسرها من جديد عند «بيدرو».

- ولماذا تعتقد أنه سيخسرها؟

- هذا ظاهر للعيان. وقد عرفت من أول ليلة لعب فيها أنه لا يجيد اللعب.

- لقد أتيح له الوقت ليتعلم... هل تراهنني أنه سيربح هذا المساء؟

- إذا شئتِ ذلك.

- أوه! ولكني أرجوك ألا تحمل هذا الاقتراح محمل العقاب. إنني أحب أن يعمل المرء ما يعمله عن طيب خاطر.

- لا تغضبني. اتفقنا. إذا ربح فسيرد الدين لك لا لي. أما إذا ما خسر فسوف تدفعينه لي أنتِ. أيرضيكِ هذا؟

وهنا ضغطت على زر جرس.

- أحضر لنا نبيذ «التوكيه» وثلاثة أكواب – وأردفت:

وإذا ما جاء ومعه الخمسة آلاف فقط أي إذا لم يربح، ولم يخسر فسوف تتركها له، أليس كذلك؟

- هذا لا يحدث أبدًا. إنه لأمر عجيب أن تهتمي به على هذا النحو.

- عجيب؟! ألا ترى أنه شخص يثير الاهتمام؟

- إنكِ ترينه على هذا النحو لأنكِ تحبينه.

- إنك على حق يا عزيزي. من الممكن أن أعترف لك أنت بهذه الحقيقة. ولكنه لا يثير اهتمامي لهذا السبب، بل على العكس من ذلك، فإذا شغل شخص فكري بردت عاطفتي. وهنا ظهر خادم يحمل النبيذ والأكواب.

- سنشرب الآن نخب الرهان، ثم نشرب مع الرابح. وسكب الخادم النبيذ، وشربا نخب رهانهما.

وقال «روبير»: إنني أعتقد أن صديقكِ «فنسان» هذا شخص ممل.

- تقول «صديقك فنسان»، وكأنك لست أنت الذي أحضرته إليّ. ثم إنني أنصحك بألا تكرر في كل مكان أنك تسأمه فسرعان ما سيدرك الناس لماذا تعاشره.

واستدار «روبير» قليلًا، ووضع شفتيه على قدمها العارية، وسرعان ما سحبتها «ليليان»، وأخفتها تحت مروحتها.

وقال: هل أخجل؟

- لا تحاول أن تخجل معي. فلن تستطيع.

وأفرغت ما في كأسها، ثم أردفت:

- أتريد أن أقول لك رأيي فيك يا عزيزي؟ إنك تتمتع بكل صفات الأدباء: فأنت مغرور، ولئيم، وطموح، ومتقلب، وأناني...

- إنك تخلعين على كل الصفات الطيبة!..

- نعم كل هذه الصفات التي تتمتع بها تجعلك جذابًا، ولكنك لن تصير أبدًا قصصيًّا ممتازًا.

- ولماذا؟

- لأنك لا تجيد الإصغاء.

- يبدو لي أنني أصغي إليك كل الإصغاء.

- أما «فنسان» – وهو ليس أديبًا- فإنه يجيد الإصغاء إليَّ أكثر منك، ولكننا عندما نكون معًا فإنني أنا التي أصغي!

- إنه يجهل فن الكلام تقريبًا.

- لأنك تتكلم طوال الوقت. إنني أعرفك جيدًا. أنت لا تترك له الفرصة لينطق بكلمتين.

- أعرف مقدمًا كل ما يمكن أن يقول.

- هل تظن ذلك؟ أتعرف قصته مع هذه المرأة؟

- أوه! المسائل العاطفية في رأيي أكثر الأشياء مجلبةً للسأم!

- إنني أحب كثيرًا أن أصغي إليه عندما يتكلم في التاريخ الطبيعي.

- التاريخ الطبيعي أيضًا أسخف من المسائل العاطفية. هل ألقي عليك إذَنْ محاضرةً؟

- آه لو استطعت أن أعيد على مسامعك كل ما قاله في هذا الشأن... إنه لشيء مثير يا عزيزي. لقد قص عليَّ أمورًا كثيرةً تتعلق بحيوانات البحر. وأنا دائمًا شغوفة بكل ما يعيش في البحار. أتعرف أنهم يبنون في أمريكا الآن سفنًا جوانبها من الزجاج ليستطيع المرء أن ينظر من حوله ويرى ما يجري في المحيطات! يبدو إنه شيء عجيب. يرى الإنسان مرجانًا حيًّا و... و... كيف تسمي هذه الأشياء؟ إسفنجًا، وطحالب، وأسرابًا من السمك. ويقول «فنسان» إن هناك ضربًا من الأسماك تنفق في المياه التي تزداد أو تقل فيها نسبة الملح، وأن ثمت أنواعًا أخرى تحتمل نسبًا متفاوتةً من هذا الملح، وهي تبقى على حافة التيارات حيث المياه أقل ملوحةً؛ لكي تأكل الأسماك الأخرى عندما ينتابها الوهن. خليق بك أن تطلب منه أن يسرد عليك هذه الأشياء... وأؤكد لك أنها أمور غريبة. عندما يتكلم «فنسان» عنها يصبح شخصًا غير عادي. فلا تكاد تتعرف عليه... ولكنك لا تعرف كيف تحثه على الكلام... وكذلك حديثه عندما يحكي قصته مع «لورا رفييه»... نعم إنه اسم تلك المرأة... أتدري كيف تعرف عليها؟

- هل روى لكِ هذه القصة؟

- يحكي لي الناس كل شيء، وأنت تعرف هذا جيدًا أيها الرجل الفظيع!

وطفقت تداعب وجهه بريش مروحتها المغلقة، وقالت:

- هل تشك في أنه يأتي ليراني كل يوم منذ المساء الذي جئت به إليَّ؟

- كل يوم؟! أهذا حقيقي؟ لم أكن أتصور ذلك.

- في اليوم الرابع لم يطق صبرًا، وحكى لي كل شيء... ولكنه راح كل يوم بعد ذلك يضيف بعض التفاصيل.

- أولم يضايقكِ ذلك؟ إنكِ لا شك تستحقين الإعجاب.

- قلت لك إنني أحبه.

ثم أمسكت ذراعه بحركة فيها تكلف.

- وهو... أيحب هذه المرأة؟

وجعلت ليليان تضحك وقالت:

- كان يحبها. أوه! لقد اضطررت بادئ الأمر أن أتظاهر بالاهتمام بأمرها، حتى لقد كنت أبكي معه، ومع ذلك كنت أشعر بغيرة مروعة. أما الآن، فلا. اسمعني سأحكي لك كيف بدأت علاقتهما، كانا معًا في مدينة «بو» في مصحة أرسلا إليها لاعتقاد ذويهما أنهما مصابان بالسل، والحقيقة أنهما ليسا مصابين، ولكنهما توهما أنهما في غاية المرض.

ولم يكن أحدهما يعرف الآخر، وتقابلا هناك للمرة الأولى. كان كلاهما متعددًا على مقعد طويل في شرفة بحديقة المصحة، ومن حولهما مرضى آخرون يستلقون هكذا طيلة النهار في الهواء الطلق للاستشفاء... واعتقد كلاهما أن لا أمل في شفائهما، واقتنعا بأن كل ما يفعلانه لن يؤدي إلى نتيجة، وأعاد على مسامعها أن ليس أمامهما غير شهر يعيشانه، وكان ذلك في الربيع. وقد حضرت إلى المصحة تاركةً وراءها زوجها، وهو مدرس بسيط للغة الفرنسية بإنجلترا، وكانت قد تزوجته منذ ثلاثة أشهر، ولا شك أنه تكبد الكثير ليبعث بها إلى هذا المكان، وكان يراسلها يوميًّا. أما هي، فإنها من أسرة محترمة جدًّا، حسنة التربية، محتشمة وخجولة، وإذ ألفت نفسها في هذا المكان... ولا أعرف ما استطاع فنسان أن يقوله لها، ولكنها في اليوم الثالث اعترفت له بأنها وهي في صميم الحياة الزوجية لم تكن تعرف حتى تلك اللحظة معنى اللذة.

- وبماذا أجابها عندئذ؟

- أخذ يدها – وكانت متدليةً إلى جانب مقعدها المستطيل- وضغطها طويلًا على شفتيه.

- وماذا قلتِ له عندما سرد عليكِ هذا؟

- أنا! إن ما عملته لفظيع... تصور أنني انفجرت ضاحكةً بشكل جنوني. لم أستطع مقاومة الضحك، كما لم أستطع السيطرة على نفسي...، ولم يضحكني ما قاله بقدر ما أضحكني ما تكلفته من اهتمام ودهشة، ولأحمله على الاستمرار في الحديث.

وخشيت أن أبدو متلهيةً بما يقول، وكان ما يقصه رائعًا جدًّا. مؤلمًا جدًّا، وكان في غاية التأثر وهو يقص عليَّ ذلك.

ولم يكن قد حكى هذه الأمور لأحد من قبل. أما عن ذويه، فلا يعرفون بالطبع شيئًا عنها.

- أنتِ الجديرة بأن تكتبي قصصًا.

- يا إلهي! إذا ما حاولت ذلك فلا أدري بأي لغة أكتب هذه القصص؟! بالروسية أم الإنجليزية أم بالفرنسية؟ لن أستقر أبدًا على رأي في هذا الشأن... وأردفت: ...وفي اليوم التالي ذهب «فنسان» إلى لقاء صديقته الجديدة في غرفتها، وهناك علمها كل ما عجز زوجها عن تعليمها إياه، واعتقد أنه أحسن تعليمها، ولما كانا مقتنعين أن ليس أمامهما غير فترة قليلة يعيشانها، فإنهما طبعًا لم يتخذا أي احتياط، واستمرت حالتهما الصحية في التحسن الملموس، وقد ساعدهما الحب على ذلك. فلما أحست بالحمل، وبُهت كلاهما –وكان ذلك في الشهر الماضي- وقد بدأ الحر وهو في مدينة «بو» لا يطاق، وعاد الاثنان إلى باريس، وكان زوجها يعتقد أنها لدى والديها اللذين يديران مدرسةً داخليةً بالقرب من حي «اللوكسمبورج»، ولكنها لم تجرؤ على أن تذهب إليهما. أما والداها، فاعتقد أنها لا تزال بمدينة «بو»، ولكن سوف يُكشف كل شيء بعد قليل، وكان «فنسان» يقسم في البدء أنه لن يتركها، وراح يقترح عليها أن يرحلا إلى أي مكان، إلى أمريكا، أو إلى بلاد المحيط الهادي، ولكنهما افتقرا إلى المال، وفي ذلك الوقت بالذات تعرف عليك، وبدأ يلعب الميسر.

- لم يحك شيئًا من ذلك.

- أرجوك -بصفة خاصة- ألا تقول له إنني سردت عليك هذه الأشياء. وهنا سكتت وأرهفت السمع:

- حسبت أنه هو...، وقال لي: إنه خلال الرحلة من بو إلى باريس اعتقد أنها في سبيلها إلى الجنون، لقد فهمت وشيكًا أنها حامل، وكانت تجلس أمامه بمقصورة في القطار، وكانا بمفردهما، ولم تقل له شيئًا منذ الصباح؛ إذ كان عليه أن يعد كل ما يتعلق برحلتهما، وتركته يتصرف في كل شيء، وقد بدا أنها فقدت الشعور بما يدور حولها، وأمسك بيديها، ولكنها كانت تنظر أمامها بنظرات زائغة وكأنها لا تراه، وكانت شفتاها ترتجفان، وانحنى نحوها. كانت تقول: «عشيق! عشيق! لي عشيق». وتردد هذه الكلمة بنبرة واحدة كأنها لا تعرف سواها، وأؤكد لك يا صديقي أنه بعد أن سرد لي هذه القصة لم تعد لي رغبة في الضحك، فلم أسمع طوال حياتي قصةً أدعى إلى إثارة الشفقة منها، ومع ذلك شعرت أنه كلما استرسل في حديثه كلما فصم الرباط بينه وبين مغامرته هذه، وكأن عاطفته تتلاشى مع كلماته، وبدا وكأنه يحمد لي أن حل تأثري بالأمر محل تأثره هو به.

- لست أدري كيف يمكن أن تقولي هذا بالروسية أو بالإنجليزية، ولكني أؤكد لك أنه رائع بالفرنسية.

- شكرًا. أعرف ذلك، وعقب حديثه هذا بدأ يكلمني في التاريخ الطبيعي، وحاولت أن أقنعه بأنه من الخطل أن يضحي بمستقبله من أجل حبه.

- أي أنكِ بذلت له النصح ليضحي بحبه، وهل انتويتِ أن تعوضيه عن هذا الحب؟

ولم تجب «ليليان» بشيء.

وقال «روبير» وهو ينهض:

- في هذه المرة أعتقد أنه هو الذي حضر... سأقول لكِ كلمةً سريعةً قبل أن يدخل: لقد مات أبي لتوه.

- آه! قالتها ببساطةٍ.

- ألا يهمكِ أن تصبحي الكونتيسة «دي باسافان»؟

وفي الحال استقلت «ليليان» على ظهرها وهي تنفجر من شدة الضحك.

- ولكن يا عزيزي... ما زلت أذكر أنني نسيت زوجًا بإنجلترا! ماذا؟! ألم أقل لك ذلك من قبل؟

- ربما لم تقوليه.

- هناك لورد يُدعى «جريفيث» وهو موجود بمكان ما. وابتسم الكونت «دي باسافان» ولم يكن قد صدق قط صحة لقب صديقته، وأردفت:

- قل لي: أتقترح عليَّ الزواج؛ لأنك تجد فيه قناعًا تخفي وراءه حياتك؟ لا يا عزيزي، لا، لنبق – كما نحن- صديقين.. أليس كذلك؟ ومدت له يدها فطبع عليها قبلة.

وصاح «فنسان» وهو يدخل الحجرة:

- حقًّا، كنت متأكدًا من ذلك، لقد لبس ملابس السهرة، الخائن.

وأجاب (روبير): نعم، وعدته أن أبقى بملابسي العادية حتى لا أحرجه، ولكن أطلب صفحك يا صديقي العزيز، فقد تذكرت فجأةً أنني في حداد.

وكان (فنسان) رافع الرأس، وكل شيء فيه ينضح بالانتصار والفرح، وكانت (ليليان) قد قفزت عند مجيئه، وصوبت إليه نظرها لحظة، ثم انطلقت نحو (روبير) بمرح، وأخذت تضرب ظهره بقبضة يدها وهي تقفز وتصيح (إن ليليان لتثيرني عندما تقلد الأطفال هكذا).

- لقد خسر رهانه! لقد خسر رهانه!

وسأل فنسان: أي رهان؟

- لقد راهنني على أنك ستخسر من جديد، هيا. قل بسرعة: كم ربحت؟

- كانت لديَّ الشجاعة الخارقة، والقدرة بأن أقف عند خمسين ألف، وأن أترك اللعب عند هذا الحد.

وصاحت ليليان سعيدة:

- مرحى! مرحى! وقفزت وطوقت عنق فنسان بيديها؛ وشعر بليونة جسدها المتقد الذي يضوع منه شذى الصندل العجيب، ولثمته على جبينه وعلى وجنتيه وعلى شفتيه، واستخلص نفسه منها وهو يترنح، وأخرج من جيبه حزمةً من الأوراق النقدية، وقال لروبير:

- خذ، استرد ما أقرضته لي.

- أنت مدين بهذا المبلغ الآن لليدي (ليليان).

وسلمها (روبير) الأوراق، فقذفت بها على الأريكة، وتلاحقت أنفاسها، فذهبت إلى الشرفة تستنشق الهواء. كانت الساعة التي يلفظ فيها الليل أنفاسه، والتي يقدم فيها الشيطان حسابه، وفي الخارج صمت كل شيء، وجلس (فنسان) على الأريكة واستدارت (ليليان) نحوه، وقالت له وهي تكلمه بضمير المفرد لأول مرة بلا كلفة:

- وماذا في نيتك أن تفعل الآن؟

وأمسك برأسه بين راحتيه، وقال في لهجة تشبه البكاء:

- لم أعد أعرف.

واقتربت (ليليان) منه، ووضعت يدها على جبينه، فرفع رأسه، وكانت عيناه جافتين متقدتين، وقالت:

- سنشرب الآن الأنخاب. وملأت الأقداح الثلاثة بنبيذ (التوكي)، وبعد أن شربوا قالت لهما:

- والآن اتركاني، الوقت متأخر، ولم أعد قادرة على البقاء، وصحبتهما إلى الغرفة الخارجية، وبينما كان (روبير) يمر أمامها، دفعت إلى يد (فنسان) بشيء معدني، وهمست:

- اخرج معه، وعد بعد ربع ساعة.

وكان بالغرفة الخارجية خادم ينعس، فهزت ذراعه بقوة، وقالت له:

- أشعل شموعك، واصحب هؤلاء السادة حتى باب البيت.

وكان السلم معتمًا. وكان من الأسهل طبعًا أن يضاء بالكهرباء، ولكن (ليليان) كانت تصر على أن يرى دائمًا أحد خدمها ضيوفها وهم يخرجون من بيتها.

وأضاء الخادم الشموع المثبتة في شمعدان كبير، وأمسك به رافعًا إياه إلى أعلى، وسار أمام (روبير) و (فنسان) وهما ينزلان الدرج، وكانت سيارة، (روبير) تنتظر أما الباب الذي أغلقه الخادم بعد خروجهما.

وقال (فنسان) لروبير – عندما فتح باب السيارة ودعاه للركوب معه-:

- أفضل أن أعود إلى منزلي سيرًا على الأقدام، فأنا في حاجة إلى المشي قليلًا؛ لأسترد اتزاني.

- ألا تريد حقًّا أن أوصلك إلى منزلك؟ وفجأة أمسك (روبير) بيد (فنسان) - وكان هذا الأخير قد أبقاها مغلقة- وقال له:

- هيا افتح يدك؛ أرني ما تمسك به.

وكان فنسان لسذاجته يخشى غيرة (روبير). ولذا احمر وجهه وهو يبسط أصابعه فوقع مفتاح صغير على الرصيف. والتقطه (روبير) في الحال. ونظر إليه، ثم أعاده لفنسان وهو يضحك قائلًا:

- حسنًا! ورفع كتفيه، ودخل السيارة، واستند بظهره إلى المقعد، وقال لفنسان الذي ما زال خجلًا حائرًا:

- اليوم الخميس، قل لأخيك إنني أنتظره اليوم ابتداءً من الساعة الرابعة (ثم أغلق باب السيارة بسرعة دون أن يدع لفنسان وقتًا ليرد عليه).

وانطلقت السيارة، وسار (فنسان) بضع خطوات على رصيف نهر السين، ثم عبر النهر، ووصل إلى خارج أسوار حديقة التويلري، ثم اقترب من حوض ماء صغير، وغمس منديله في الماء، ووضعه على جبينه وعلى جانبي رأسه، ثم عاد ببطء إلى حيث تسكن (ليليان). لنتركه الآن وشأنه، إن الشيطان لينظر إليه وهو يولج المفتاح الصغير في قفل الباب دون ضوضاء.

وفي هذه الساعة، وفي غرفة حقيرة بأحد الفنادق كانت (لورا) – عشيقته بالأمس- على وشك أن تنام بعد أن بكت طويلًا، وأنَّتْ كثيرًا. أما (إدوارد) فها هو ذا في خيوط الفجر الأولى على ظهر سفينة تعود به إلى فرنسا يقرأ الرسالة التي تسلمها من (لورا)، وهي رسالة شاكية تطلب فيها النجدة، وهذا شاطئ بلاده الحبيبة على مرأى النظر، ولكن لا بد من عين خبيرة لترى الشاطئ خلال الضباب، ولم يكن ثمت غيمة في السماء، وأوشكت الشمس على الطلوع، واحمر جفن الأفق وأخذ ينفرج.

سيكون الطقس حارًّا اليوم في باريس، حان الوقت لنرجع إلى (برنارد)، وها هو ذا يستيقظ من نومه في فراش (أوليفييه).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

(كلنا أبناء غير شرعيين، وهذا الرجل الموقر، الذي كنت أدعوه أبي، لست أدري أين كان يوم أن ولدتُ).

«شكسبير».

حلم «برنارد» حلمًا سخيفًا، وهو لا يذكر ماذا حلم، ولا يحاول أن يتذكر، بل يريد أن يتخلص منه، وعندما عاد إلى عالم الواقع أحس بجسد «أوليفييه» يضغط عليه. كان صديقه، أثناء نومهما -أو أثناء نوم برنارد- قد اقترب منه، كما أن ضيق الفراش لم يتح فسحةً فيه، وكان «أوليفييه» قد تقلب، وهو ينام الآن على جنبه فيشعر «برنارد» بأنفاسه تلفح عنقه، ولم يكن يرتدي إلا قميصًا عاديًّا، ثم يلتف ذراع (أوليفييه) حول جسده، ويضغطه بطريقة تضايقه، حتى ليشك لحظة أن صديقه نائم حقًّا فيخلص نفسه من ذراع صاحبه برفق، وينهض يرتدي ملابسه دون أن يوقظ (أوليفييه)، ويعود ويضطجع على الفراش.

الوقت مبكر جدًّا، ولم تحن ساعة الرحيل، فالساعة الآن الرابعة، وقد بدأ الفجر في الشحوب، ولا تزال أمامه ساعة يستريح فيها، ويستعيد نشاطه، ليبدأ نهاره بإقدام؛ فقد زايله النعاس نهائيًّا.

وينظر (برنارد) إلى زجاج النافذة الذي ازرق، وإلى جدران الغرفة الرمادية، وإلى السرير الحريري الذي يضطرب فوقه (جورج) وهو يحلم.

وقال (برنارد) لنفسه: سأذهب بعد لحظة إلى مصيري، يا لها من كلمة جميلة: المغامرة! ما يخبئه القدر! ما ينتظرني من مفاجآت! ولست أدري إن كان غيري مثلي، ولكنني ما إن أستيقظ حتى أشعر باحتقار من ينامون، سأرحل يا صديقي (أوليفييه) دون أن أودعك. هيا! قف أيها المقدام، حان الوقت.

ومسح وجهه بطرف منشفة مبللة بالماء، ثم أعاد تمشيط شعره، ولبس حذاءه، وفتح الباب دون ضوضاء. إنه في الخارج!

آه! ما أصح الهواء الذي لم يستنشقه أحد! وسار (برنارد) بحذاء أسوار حديقة اللوكسمبورج، ثم اتجه إلى شارع (بونابرت)، وبلغ أرصفة السين، وعبر النهر. إنه ليفكر في حياته الجديدة وقد وجد لها منذ قليل شعارًا: (إذا لم تفعل ذلك، فمن يفعله؟ وإذا لم تفعله في التو، فمتى تفعله؟)، إنه يفكر في أشياء عظيمة، ويخيل إليه أنه سائر نحو أشياء عظيمة، وجعل يردد وهو سائر (أشياء عظيمة) آه لو عرف هذه الأشياء!.. ولكنه يعرف في هذه اللحظة، يعرف أنه يشعر بالجوع، وها هو بجانب الـ «هال»[7] وفي جيبه أقل من فرنك، ودلف إلى مقهى، وتناول قهوةً باللبن، وهلال خبز وهو واقف أمام خوان المقهى، وثمن هذه الوجبة نصف فرنك، وبقي معه بعد ذلك 1/ 5 فرنك، ولكنه ترك بكل جرأة نصف ما معه على الخوان، وأعطى الباقي لمسكين كان يُنَقِّب في صندوق القمامة. أهو إحسان؟ أم تحد؟ الأمر سواء، وإنه ليشعر الآن بالسعادة وكأنه ملك، فلم يبقَ معه شيء وكل شيء له! وحدث نفسه قائلًا: إنني أنتظر من القدر كل شيء، وإذا ما سمح القدر فوضع أمامي ساعة الظهيرة شريحةً طيبةً

من الشواء لالتهمتها بشغف! فهو لم يتناول عشاءه في الليلة السابقة، وكانت الشمس قد أشرقت منذ وقت طويل.

وعاد (برنارد) إلى رصيف النهر، وأحس خفةً في الحركة، فكان إذا جرى خُيِّل إليه أنه يطير. وهنا وثبت – في لذة- إلى ذهنه فكرة، وطفق يفكر:

العسير في الحياة هو أن يحمل الإنسان شيئًا ما محمل الجد فترةً طويلةً، وهكذا فإن حب أمي لمن كنت أدعوه أبي، هذا الحب آمنت به خمسة عشر عامًا. كنت أؤمن به حتى أمس، ولكن أمي لم تستطع أن تحمله محمل الجد طويلًا، ولست أدري هل أحتقرها أو أبجلها لأنها جعلت من ابنها ابنًا غير شرعي...؟ ومع هذا فلست أصر على أن أعرف حقيقة شعوري؛ فمن الأفضل للمرء أن لا يستوضح حقيقة شعوره نحو من أنجبوه. أما عن شعوري نحو من تخونه زوجته، فإنه شعور الكراهية، ويجب أن أعترف لنفسي اليوم –بعد أن علمت ما علمت- أن هذا الإحساس طبيعي، وذلك سبب أسفي اليوم؛ لأنني لو لم أفتح هذا (الدرج) عنوةً لقضيت عمري كله أعتقد أن شعوري نحو هذا الأب شعور غير طبيعي! فيا له من عزاء لي أن عرفت الحقيقة!.. ثم إنني على أي حال لم أفتح الدرج عنوةً كما يبدو، بل لم أفكر في فتحه... وهناك أيضًا ظروف مخففة؛ إنني كنت أشعر ذلك اليوم بملل فظيع، وهناك حب الاستطلاع الذي يقول عنه فنلون: (حب الاستطلاع المردي)، ويبدو أنني ورثته عن أبي الحقيقي لأنه لا أثر لهذه الخصلة في عائلة «بروفيتا نديو» ولم أصادف في حياتي رجلًا أقل تطلعًا من السيد زوج أمي، وبنوه الذين أنجبهم منها على شاكلته في هذا الأمر، ويجب أن أفكر فيهم بعد أن أتناول غدائي... رفع الغطاء الرخامي من فوق منضدة واكتشاف درج مفتوح تحته ليس كفتح قفل عنوةً، ولست ممن يفتحون الأقفال عنوةً، ويمكن أن يحدث لأي إنسان أن يرفع الغطاء الرخامي من فوق منضدة، ولعل (تيزيه)([8]) كان في مثل سني عندما رفع الصخرة، وما يعوق عن رفع تلك الرخامة عادة هو وجود ساعة ثقيلة فوقها، ولولا رغبتي في إصلاح تلك الساعة لما رفعت الغطاء الرخامي... ولكن الذي لا يحدث عادةً هو أن يجد المرء تحت هذا الغطاء أسلحة، أو رسائل حب أثيم، ولكن لا بأس، المهم في كل هذا أني علمت الحقيقة، وليس لكل الناس حظ «هاملت» الذي أوتي (الشبح الكاشف).

(هاملت)! كم يبدو الأمر غريبًا؛ فإن وجهات النظر تختلف حسبما يكون المرء ابنًا شرعيًّا أو غير شرعي، وسوف أفكر في هذا الأمر ثانية بعد أن أتناول غدائي... أكان شرًّا أن قرأت تلك الرسائل؟ لو كان شرًّا لشعرت بتأنيب الضمير، ولو لم أقرأ هذه الرسائل لعشت في جهل وكذب وخنوع، فلنخرج إلى الهواء الطلق، لنخرج إلى عرض البحر! (برنارد)! (برنارد)! دع هذا الشاب الغض... كما وصفه (بوسويه) – أجلسه على هذا المقعد يا برنارد. ما أجمل الجو هذا الصباح! هناك أيام تبدو فيها الشمس وكأنها تداعب الأرض. آه لو أطلقت نفسي قليلًا، لنظمت الشعر. وتمدد على أريكة، وأطلق نفسه... فنام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

ارتفعت الشمس، وأتت من النافذة لتداعب قدم فنسان العارية على السرير العريض، حيث ترقد ليليان إلى جواره، ونهضت ليليان قليلًا وهي لا تعرف أنه استيقظ، ونظرت إليه، وأدهشها ما ارتسم على وجهه من هموم.

ربما كانت «الليدي جريفيث» تهوى «فنسان»، ولكنها كانت تحب فيه النجاح؛ ففنسان طويل القامة، جميل الملامح، رشيق، ولكنه لا يعرف كيف يتصرف في حضرة الناس، ولا كيف يجلس، ولا كيف ينهض. كان وجهه معبرًا، ولكنه لا يحسن تصفيف شعره، وإنها لتعجب خاصةً بجرأته، وبقوة فكره. وفنسان –ولا شك- على قسط وافر من العلم ولكنه يبدو لها غير مثقف، وكانت تحنو على هذا الطفل الكبير مدفوعةً بغريزة العاشقة والأم معًا، كانت تريد أن تجعله خلقًا آخر وكأنه تمثال تصنعه، وكانت تعلمه كيف يُعنى بأظافره، وكيف يمشط شعره ويفرقه إلى جانب بدلًا من تصفيفه إلى الوراء – كما اعتاد- مما كان يظهر جبهته شاحبةً عريضةً، ثم علمته أن يستبدل بأربطة عنقه المتواضعة أنواعًا من الأربطة الملائمة. نعم، كانت ليدي جريفيث تحب فنسان، ولكنها لم تحتمل أن تراه واجمًا أو عابسًا على حد قولها.

وراحت تمر بإصبع رفيق فوق تقطيبة مزدوجة رأسية وسط جبهته، وكأنها تبغي محوها، وانحنت عليه قائلةً: «إن كنت ستحمل إلى هنا همومك وأسفك على الماضي، وتأنيب ضميرك، فمن الأفضل ألا تعود».

وأغمض فنسان عينه، وكأن ضوءًا ساطعًا سلط عليه، فقد بهره المرح الساطع من نظرات ليليان.

- أنت هنا وكأنك في معبد، يجب أن تخلع حذاءك ساعة الدخول حتى لا تحمل أوحال الخارج. لعلك تتصور أنني لا أعرف فيم تفكر!- ولما أراد فنسان أن يضع يده على فمها قالت في ثورة:

- لا، اتركني أكلمك بجد: لقد فكرت طويلًا فيما حدثتني به منذ أيام؛ يعتقد الناس أن النساء لا يعرفن التفكير، ولكن ذلك يتوقف على نوع النساء... ما زلت أذكر ما كنت تقوله لي عما ينتج عن جمع جنسين من الحيوانات... وأنه لا يمكن الحصول على نتاج طيب إلا عن طريق الانتقاء... أتراني حفظت الدرس الذي ألقيته على مسامعي...؟ حسنًا! أعتقد أنك في هذا الصباح تفكر في أمر عجيب... إنني أقرأ ذلك في تقطيبة جبينك. أنت حانق؛ لأنك تركت لورا. إنني أقرأ ذلك أقرأ ذلك في تقطيبة جبينك، إن شئت أن تعود إليها فلتقل لي ذلك الآن واتركني، عندئذ أكون أخطأت في تقديرك، فأتركك ترحل دون أسف عليك. أما إذا أردت أن تبقى معي، فاخلع هذا الوجه المكتئب. إنك تذكرني ببعض الإنجليز؛ فكلما تحررت أفكارهم كلما تمسكوا بالأخلاق، حتى إن بعض مفكريهم الأحرار يعتبرون أكثر الناس تمسكًا بالدين. أتتصور أنني امرأة بلا قلب؟ إنك إذَنْ تخطئ: أفهم جيدًا أن تشفق على «لورا». ولكن في هذه الحال، ما عساك تفعل هنا؟

ولما أدار فنسان وجهه عنها أضافت:

- أصغ إلي. اذهب إلى الحمام، وحاول أن تترك همومك تذهب عنك مع مياه الاستحمام، وسوف أطلب شايًا، وعندما تعود إليَّ سأشرح لك أمرًا يبدو أنك لا تفهمه جيدًا.

وكان قد نهض، ووثبت نحوه قائلة:

- لا ترتد ملابسك مباشرةً، ستجد في صوان الملابس بجانب السخان برانس، وملابس شرقية، وبيجامات، فاختر منها ما يحلو لك.

وعاد فنسان مرةً أخرى بعد عشرين دقيقة مرتديًا جلبابًا من الحرير الأخضر الفاتح، وصاحت ليليان مظهرةً إعجابها به:

- انتظر! انتظر حتى أنسق ملابسك، وأخرجت من درج في خزانة شرقية ملفحتين في لون (الباذنجان) وربطت إحداهما حول وسطه، وعممت بالثانية رأسه، وأضافت:

- تتلون أفكاري دائمًا بلون ملابسي (وكانت قد ارتديت منامة (بيجامة) حمراء اللون عليها خطوط من لون الفضة الزاهي) أذكر يومًا - وكنت لا أزال حديثة السن في (سان فرانسيسكو)، ألبسوني ثوبًا أسود؛ لأن خالة لي توفيت، ولم أكن رأيتها قط، وبقيت أبكي طوال النهار، وشعرت بحزن عميق، وتصورت أن قلبي مفعم بالأسى، وأنني متألمة جدًّا على خالتي... ولم يكن ذلك الشعور إلا بسبب الملابس السوداء، وأعتقد أن الرجال يبدون اليوم أكثر وقارًا من النساء؛ لأنهم يرتدون ملابس أكثر تحشمًا، وأنا أراهن أن أفكارك الآن ليست كما كانت منذ لحظات، اجلس هنا على حافة السرير، وبعد أن تشرب قدحًا من (الفودكا) وفنجانًا من الشاي، وتأكل شطيرتين أو ثلاثًا، سوف أقص عليك قصةً، وقل لي متى تريد أن تبدأ... ، وكانت هذه الأثناء قد جلست على الطنفسة الصغيرة بجانب السرير بين ساقي (فنسان) وقد التفت في أرديتها كتمثال فرعوني، وأسندت ذقنها على ركبتها، وبعد أن شربت وأكلت بدأت قصتها:

كنت على الباخرة «البورجوينا» في اليوم الذي غرقت فيه، وكنت في السابعة عشرة من عمري - وهذا بمثابة اعتراف مني اليوم بسني- وكنت أتقن السباحة، ولأثبت لك أن قلبي ليس صلدًا كالحجر، أقول إن فكرتي الأولى كانت أن أنقذ نفسي، وفكرتي الثانية أن أنقذ شخصًا آخر، بل وربما كانت هذه الفكرة الثانية أول ما راود ذهني، أو لعلني بالأحرى لم أفكر في شيء على الإطلاق، ونفسي لا تعاف شيئًا كما تعاف أولئك الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم في مثل تلك اللحظات، وكذلك أشعر بمثل هذا الشعور نحو هؤلاء النساء اللواتي يصرخن، وكانوا قد ملأوا أول قارب من قوارب الإنقاذ بالنساء والأطفال، وطفق بعضهم يصرخ حتى إن صياحهن كاد يفقد الناس صوابهم، وجرت عملية الإنقاذ بطريقة سيئة، حتى أن القارب بدلًا من أن ينزل إلى الماء في وضع أفقي مال بمقدمته، فأفرغ من فيه قبل أن يصل إلى الماء. وجرى كل ذلك على أضواء المشاعل والمصابيح، ولا تتخيل كم كان المشهد مؤسيًا رهيبًا مقبضًا، وكانت الأمواج عاليةً شيئًا ما، وكل شيء لا يغمره الضوء يختفي وراء الموج في غياهب الليل، ولم يتح لي قط أن عشت حياةً مليئةً كما عشت في تلك الأثناء، وكنت عاجزةً عن التفكير، ولا أذكر جيدًا ما يمكن أن يكون قد حدث، ولكن ذهني يحتفظ بشيء واحد وهو أنني لمحت في القارب ينقلب قررت أن أنقذها هي، وكانت في بادئ الأمر مع أمها غير أن أمها لم تكن تجيد السباحة، ثم إن رداءها عاق حركتها كما يحدث دائمًا في هذه اللحظات. أما أنا فقد خلعت ملابسي بطريقة آلية، وكانوا ينادونني لآخذ مكاني في القارب التالي، واضطررت أن أصعد إليه، ولا بد أني قفزت إلى الماء من هذا القارب نفسه، وأذكر أنني سبحت مدةً طويلةً ومعي الطفلة وهي متعلقة حول

عنقي، وكانت في حالة فزع شديد وتضغط عنقي بقوة حتى إنني لم أقو على التنفس، ومن حسن الحظ أنهم استطاعوا رؤيتنا من القارب، وانتظروا وأخذوا يجدفون حتى لحقوا بنا. وهذا الذي أرويه لك ليس هو ما يعنيني من القصة، فثمة ذكرى بقيت عالقةً بذهني، ولن تُمَّحي أبدًا من عقلي أو من قلبي: كنا مكدسين في هذا القارب، وكان عددنا يربو على الأربعين بعد أن التقطوا الكثيرين من السباحين كما التقطوني أنا، وكان الماء يصل إلى حافة القارب، وكنت في المؤخرة، أضم إليّ الطفلة التي أنقذتها ضمًّا قويًّا؛ لأدفئها ولأمنعها من رؤية ما كنت أراه. وكنت مضطرةً أن أراه، كان في القارب ملاحان مسلحان، أحدهما يحمل بلطةً، والآخر سكينًا. أتعرف ماذا كانا يفعلان؟.. كانا يقطعان أصابع وأيدي بعض السباحين الذين كانوا يحاولون جاهدين أن يصعدوا إلى قاربنا.. واستدار نحوي (وكان الآخر زنجيًّا) وكانت أسناني تصطك من البرد، ومن الهول والفزع، وقال: (إذا زاد عددنا واحدًا هلكنا جميعًا، القارب ممتلئ) وأضاف: إنه في جميع حوادث الغرق يضطرون أن يفعلوا هذا، ولكنهم يخفون ما يفعلون.

وأعتقد أنه أغمى عليَّ، وعلى أي حال لا أذكر شيئًا مما حدث بعد ذلك، كما يصم المرء مدةً طويلةً بعد سماعه دويًّا مروعًا، وإذ عدت إلى صوابي على ظهر السفينة التي التقطتنا، أدركت أنني أصبحت امرأةً أخرى، فلم أعد نفس الفتاة العاطفية التي كنتها قبل هذا الحادث. لقد أدركت أني تركت قطعةً من نفسي تغرق مع الباخرة (البورجوينا)، وأنني منذ تلك اللحظة قادرة أن أقطع أصابع وأيدي كثير من العواطف الرقيقة في نفسي؛ حتى لا تصعد إلي، وتُغرق قلبي.

ونظرت إلى (فنسان) بطرف عينها، وقالت – وهي تميل بجذعها إلى الخلف-:

- هذه عادة يجب أن يكتسبها المرء.

وكان شعرها قد انسدل على كتفيها، فنهضت واقتربت من مرآة، وأخذت تصلح من تصفيفه وهي تكمل حديثها.

- عندما تركت أمريكا بعد وقت طويل، شعرت أنني شيء ثمين، وأنني راحلة بحثًا عمن يقهر قلبي، ولقد أسأت التصرف أحيانًا، وأخطأت أحيانًا..، وربما كنت مخطئةً اليوم في أن أحدثك – كما أفعل الآن- ولكني أرجو ألا تتصور أنك غزوت قلبي، لأنني استسلمت لك، وتأكد من ذلك؛ فإنني أحتقر العادي من الرجال، ولا أستطيع أن أحب إلا قاهرًا، فإذا أردتني فليكن ذلك؛ لأساعدك على أن تكون قاهرًا. أما إذا شئت أن أكون معك لأشفق وأهون عليك، ولأدللك... فلا يا صديقي، لن تكون في حاجة إلي، بل إلى (لورا).

قالت ذلك دون أن تلتفت، واستمرت في تنسيق شعرها النافر، ولكن لمح فنسان نظرتها في المرآة، وقال لها – وهو ينهض-:

- اسمحي لي ألا أجيبك على هذا إلا عندما ألتقي بك في هذا المساء. (قالها وهو يخلع ملابسه الشرقية ليرتدي ملابسه العادية) – أما الآن فيجب أن أعود سريعًا إلى بيتي قبل أن يخرج (أوليفييه) فهناك شيء مهم للغاية يجب أن أقوله له.

قال ذلك على سبيل الاعتذار ولكي يبرر رحيله، ولكنه ما إن اقترب من (ليليان) حتى استدارت نحوه باسمةً جميلةً فاتنةً، فتردد وقال:

- اللهم إلا إذا تركت له رسالةً ليقرأها وقت الغذاء.

- هل تتحادثان كثيرًا؟

- نادرًا ما نتحدث، ولكنها دعوة يجب أن أوصلها له.

- من لدن (روبير)؟.. أوه فهمت... – قالتها وهي تبتسم بطريقة غريبة- يجب أن نتحدث أيضًا في مرةً أخرى عن (روبير) هذا... إذن، ارحل بسرعة. ولكن عد في السادسة لأن سيارته ستمر علينا في السابعة لتصحبنا لتناول العشاء في الغابة.

وكان فنسان غارقًا في تأملاته وهو سائر. وكان يشعر بأن إشباع الرغبات يمكن أن يولد نوعًا من اليأس يصحب المتعة، وكأنه يحتمي وراءها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن

(علينا أن نختار شيئًا من اثنين: إما أن نعشق النساء وإما أن نفهمهن، وليس ثمت حد وسط بين الاثنين).

«هامفور».

جلس (إدوارد) في قطار باريس السريع، يقرأ قصة «القضيب الثابت» «لباسافان»، وقد ظهرت حديثًا واشتراها لتوه من محطة «دييب». وهذا الكتاب ينتظره ولا ريب في باريس، ولكنه متلهف على معرفة حقيقة هذه القصة، فالجميع يتكلمون عنها ولم يحظ أي كتاب من كتبه هو بالظهور في واجهات مكتبات المحطات. سبق أن قيل له ما يجب أن يبذله من مسعى لتظهر كتبه في هذه المكتبات إلا أنه لا يبالي، وأعاد على نفسه القول بأنه لا يهتم كثيرًا بعرض كتبه في واجهات مكتبات المحطات، ولكنه وجد أنه في حاجة لأن يكرر ذلك القول لنفسه عندما رأى كتاب «باسافان» معروضًا فيها.

كل ما يعمله «باسافان» يقض مضجعه، وكذلك كل ما يحيط به، مثل المقالات التي تشيد بكتابه حتى لتسمو به إلى أوج المجد، بل إن الأمر يبدو وكأنه مقصود، فالجرائد الثلاث التي اشتراها لحظة أن رست به الباخرة تشيد بكتاب «القضيب الثابت» وفي جريدة رابعة قرأ رسالة من «باسافان» يحتج فيها على مقال نشرته الجريدة وكان قليل الإشادة بالكتاب. وفي الرسالة دافع «باسافان» عن كتابه وشرحه وادعى أنه يبغي تنوير الجمهور، وهكذا استجلب رضاه بلباقة. لم يحدث قط أن أثار كتاب من كتب «إدوارد» مثل هذا العدد من المقالات، كما أن إدوارد لم يهتم أبدًا بأن يكتسب رضاء النقاد، فإذا لم يبال هؤلاء به، فهذا أمر لا يهمه. ولكنه شعر وهو يقرأ المقالات عن كتاب منافسه أنه في حاجة لترديد هذا القول: إنه لا يهمني.

وليس معنى ذلك أنه يكره «باسافان». لقد قابله من قبل ووجد فيه شخصًا جذابًا. وكان (باسافان) دائمًا لطيفًا جدًّا معه. إلا أن مؤلفاته لا تعجبه. كان (سافان) في رأيه مؤلفًا أكثر منه فنانًا. والآن كفاه تفكيرًا في (باسافان).

وأخرج (إدوارد) من جيب سترته رسالة (لورا)، وكان قد أعاد قراءتها على سطح السفينة، وراح يتلوها للمرة الثالثة وها هي ذي:

أي صديقي،

كانت آخر مرة قابلتك فيها – ولعلك تذكر ذلك- بحديقة (سانت جيمس) في اليوم الثاني من شهر أبريل عشية رحيلي إلى جنوب فرنسا – وجعلتني أعدك بأن أكتب لك إذا ما وجدت نفسي في مأزق- وها أنا أفي بوعدي.

ولمن غيرك ألجأ؟ أولئك الذين أتمنى أن أستند عليهم، هم ذاتهم الذين يجب عليَّ أن أخفي عنهم ما أنا فيه من يأس، وأنا يا صديقي في يأس عظيم. ربما قصصت عليك ذات يوم قصة حياتي منذ أن تركت زوجي (فليكس). لقد صحبني حتى مدينة (بو) ثم عاد وحيدًا إلى (كامبرج) حيث محاضراته. أما ما

حدث لي هناك بعد أن أصبحت وحيدةَ، وتركت نفسي لنفسي وللنقاهة، وللربيع... هل سأستطيع أن أبوح لك بما لا أقدر أن أبوح به لفيلكس؟ حان الوقت لألحق به. وا أسفاه! لم أعد أهلًا لأن أراه، الرسائل التي أكتبها له منذ مدة رسائل كاذبة. أما رسائله لي فليس فيها إلا التعبير عن بهجته لتحسن صحتي. لماذا لم أبقَ مريضةً! لماذا لم أمت هناك! لقد اضطررت يا صديقي أن أخضع للواقع، إنني حامل، والطفل الذي أنتظره ليس منه. لقد تركت (فيلكس) منذ أكثر من ثلاثة أشهر، ولست قادرة على أن أخدعه هو بالذات. ولا أجرؤ على العودة إليه، بل ولا أستطيع ذلك، ولا أريده. إنه رجل بالغ الطيبة، وإني على ثقة أنه سيصفح عني، ولكنني لا أستحق ذلك ولست أريد منه أن يغفر لي، ولا أجرؤ على العودة إلى والديَّ اللذين يعتقدان أنني ما زلت في (بو)، لو علم والدي ذلك أو فهم حقيقة ما فعلت لاستنزل اللعنة عليَّ ولأبعدني، وكيف أواجه فضيلته وكراهيته للخطيئة وللكذب ولكل دنس؟ وأخشى كذلك أن أفجع أمي وأختي. أما عن هذا الذي... ولكني لا أريد أن أتهمه، فهو عندما وعد بمساعدتي كان قادرًا أن يفعل ذلك. ولكنه - ليكون أقدر على ذلك- بدأ لسوء الحظ يقامر وخسر المبلغ المخصص لإعالتي ولنفقات الوضع. لقد خسر كل شيء، وكنت قد فكرت في بادئ الأمر أن أرحل معه إلى أي مكان، وأن أعيش معه بعض الوقت على الأقل، لأنني لم أكن أرغب في إزعاجه أو في أن أكون عالةً عليه، ومما لا شك فيه أنني كنت سأهتدي إلى طريقة أكسب بها عيشي، ولكني لست قادرةً على ذلك في الحال. وأنا أرى بجلاء أنه يتألم لتخليه عني، ولأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر، ولذا تراني لا أتهمه. ولكنه هجرني على أي حال، وأنا هنا خاوية الوفاض وأعيش في فندق صغير مرجئةً دفع أجر إقامتي فيه إلى حين، ولكن هذا لا يمكن أن يستمر، ولست أدري ما يمكن أن أصير إليه. وا أسفاه! إن هذه الطرق المفعمة باللذات التي سلكتها لم تكن لتؤدي إلا إلى غياهب الظلمات.

وأنا أكتب إليك على العنوان الذي أعطيتنيه بمدينة (لندن)، ولا أعرف متى ستصل إليك هذه الرسالة؟ أنا التي كنت أتمنى أن أصبح أمًّا! إني لا أكف عن البكاء طوال اليوم، انصحني إن استطعت فلست آمل في مساعدة أحد غيرك. ابذل لي النصح فلست أنتظر شيئًا إلا منك.. أنجدني إن كان ذلك في طاقتك وإلا... وا أسفاه! لو كنت في ظروف أخرى لكنت أكثر شجاعةً، ولكنني الآن في وضع مختلف، إذا أنني لن أموت بمفردي، فإذا لم تحضر إليّ، أو إذا ما قلت لي في رسالتك: لا أستطيع أن أفعل شيئًا من أجلك، فلن ألومك. وسوف أحاول وأنا أترك الحياة ألَّا آسف عليها كثيرًا. وإذ أودعك، أعتقد أنك لم تفهم تمامًا أن الصداقة التي منحتني إياها ستبقى بالقياس إليّ أطيب ما عرفت، وأعتقد كذلك أنك لم تفهم أن ما أدعوه صداقتي لك إنما كانت تحمل في قلبي معنى أكبر..

لورا فيلكس دوفييه

ملحوظة:

سأذهب للقائه للمرة الأخيرة قبل أن أضع هذه الرسالة بصندوق البريد، سأنتظره عند بيته هذا المساء. إذا تسلمت هذه الرسالة يكون معنى ذلك حقيقة... وداعًا، وداعًا، فلم أعد أعرف ماذا أكتب.

وتسلم (إدوارد) هذه الرسالة صبيحة يوم رحيله، ومعنى ذلك أنه قرر الرحيل بمجرد أن استلمها، وعلى العموم لم يكن في نيته أن يطيل إقامته بإنجلترا، ولا أعني بذلك أنه كان قادرًا على الامتناع عن

العودة إلى باريس خصيصًا لنجدة لورا، بل وأضيف أنه كان سعيدًا بالعودة. لقد حرم من المتع حرمانًا أثناء هذه الفترة الأخيرة بإنجلترا.

وأول ما سيفعله بباريس هو أن يتوجه إلى مكان من أمكنة اللهو، ولما كان حريصًا على ألا يحمل معه في مثل هذه الحالات أوراقًا شخصيةً فقد أنزل حقيبته من فوق رف القطار وفتحها ليضع فيها رسالة (لورا).

ليس مكان هذه الرسالة بالحقيبة بين البذلات والقمصان، لقد وصل في بحثه إلى ما تحت ملابسه وأمسك بكراسة مغلفة بالورق المقوى بخط يده، ووضع رسالة (لورا) بين الورقات الأولى في الكراسة، وهي أوراق كان قد كتبها في العام الماضي، وها هو ذا يعيد قراءتها.

يوميات «إدوارد»

18 أكتوبر – لا يبدو على (لورا) أنها تعرف حقيقة تأثيرها عليّ، وإني أعرف ما في صميم قلبي، وأدرك جيدًا أنني لم أكتب سطرًا حتى الآن إلا وكانت هي بطريقة غير مباشرة، ملهمتي فيه، إنها تبدو وهي إلى جواري كأنها لا تزال بعد طفلة، وبراعتي في الحديث لا ترجع إلا لرغبتي الدائمة في أن أعلمها وأفتنها. لست أرى شيئًا أو أسمع شيئًا دون أن أسأل نفسي في الحال: ما رأيها في ذلك؟ وأتخلى عن انفعالي ولا أعرف إلا انفعالها. ويبدو لي أنها لو لم تكن إلى جواري لتشعرني بشخصيتي لضاعت تلك الشخصية في إطار مبهم غير محدد المعالم، إني لا أجمع شتات نفسي ولا أحدد معالمها إلا إذا كانت هي إلى جواري. ولست أدري كيف خدعت نفسي وقتًا ما، فخلت أني سأجعل منها شخصيةً على شاكلتي بينما كنت أخضع لتأثيرها هي، ولكنني لم ألاحظ ذلك في حينه! أو بمعنى أصح: أدمج الحب كان كل منا في الآخر فتغير كلانا!

وكل من عشق يتشكل – دون وعي منه أو إرادة- على نسق معشوقة، فهو يعمل على أن يشبه هذه الدمية التي يتأملها في قلب الآخر. وكل من عرف العشق حقًّا فإنما يتخلى عن بعض ذاته.

وهكذا خدعتني. كان فكرها مع فكري في كل مكان. وكنت أعجب بذوقها وتطلعها وبثقافتها، ولم أكن أدري أن حبها لي هو الذي جعلها تهيم بكل ما أشغف به. لم تكن قادرةً على الاكتشاف، وكان إعجابها بالشيء -وإني لأفهم ذلك الآن- بمثابة أريكة تمد عليها فكري إلى جوار فكرها، ولم يكن في ذلك صدى حقيقي لشيء يعتمل في نفسها، وربما قالت: «إن أفكاري لا تتزين ولا تتجمل إلا من أجلك»، والحق أنني كنت أؤثر أن يكون ذلك من أجلها هي، وأن يكون مبعثه حاجة ملحة في نفسها، ولكني أعرف أن كل ما تدثر نفسها به من أجلي سيذهب، ولن يبقى منه حتى الأسف عليه والإحساس بأن ثمت شيء قد ضاع. ويأتي يوم يبزغ فيه الكائن الحقيقي من جديد بعد أن يعريه الزمن من كل ملبس مستعار، وإذا كان المحب قد عشق فيه الزينة الزائفة، فسيحس عندئذ أنه لم يعد يضم إلى صدره غير سراب وذكرى وحزن ويأس.

أواه! كم من الفضائل وكم من صفات الكمال خلعت عليها! إن مسألة الصدق لتثير الحنق حقًّا. كلما تحدثت عن الصدق فلا أفكر إلا في صدقها هي، وإذا أدرت وجهي نحو نفسي فإنني أكف عن فهم ما تعنيه هذه الكلمة. لست إلا ما أؤمن أنني هو. وذلك أمر دائم التغير بحيث لو لم أحرص دائمًا على

المزج بين الحالين فلن يعرف (كياني في الصباح) (كياني في المساء). ولن يكون ثمت شيء أكثر بعدًا عن ذاتي سوى ذاتي، إنني لا أتبين نفسي على حقيقتها إلا في العزلة فقط، وعندئذ أشعر بنوع من الاستمرار للصفات الكامنة في نفسي، ولكن يبدو لي في هذه اللحظات أن حياتي تتجه إلى التوقف، أو أنني في طريقي إلى العدم. إن قلبي لا يخفق إلا بدافع الحب. ولا أعيش إلا بغيري، إلا بوكالة من غيري أو بامتزاج به -إن استطعت هذا التعبير-، ولا أشعر أنني أعيش حقًّا إلا عند ما أهرب من ذاتي لأصبح شخصًا آخر أيًّا كان.

إن هذه القوة المضادة للأثرة الكامنة في نفسي تبدو وكأنها تبخر في ذاتي الإحساس «بالتملك»، وذلك يؤدي إلى التجرد من الإحساس بالمسئولية. إن شخصًا مثلي لا يمكن أن تتزوجه امرأة. كيف أستطيع أن أقنع «لورا» بذلك؟

26 أكتوبر - لا يمكن أن أشعر بوجود شيء إلا إن كان هذا الشيء «شاعريًّا».

(وأضفي على هذه الكلمة كل ما تحمله من معان) - وأول هذه الأشياء هو ذاتي.

يبدو لي أحيانًا أنني لست موجودًا حقًّا، وأنني أتخيل فقط أنني كائن، وأصعب ما أصل إليه هو الإيمان بحقيقة ذاتي. إنني أهرب دائمًا من ذاتي، وعندما أنظر إلى نفسي وهي تعمل أعجب لما أرى، لأني لا أصدق أن الذي يعمل هو نفس من يدهش لهذا العمل، إذ لا يمكن أن يكون الشخص فاعلًا ومتفرجًا معًا.

لقد فقد التحليل النفسي كل أهمية بالقياس إليَّ منذ تبينت أن الإنسان لا يشعر إلا بما يتصور أنه يحس به، ومعنى ذلك أنه يتخيل الإحساس بما يشعر به، وأنا أرى هذا عن طريق حبي للورا - إذ كيف يمكن أن أتبين الفارق بين الحب وتوهم الحب أو بين توهم نقص حبي لها ونقص هذا الحب فعلًا؟ في عالم المشاعر لا يمكن التمييز بين الواقع والوهم.

وإذا كفى توهم الحب لكي يحب المرء حقًّا، فكذلك يكفي أن يقول المحب لنفسه إنه يتخيل الحب، فينقص حبه في الحال ويبتعد شيئًا ما عمن يحب، ولكن حين يقول المرء لنفسه هذا، أليس ذلك دليلًا على أن حبه قد نقص فعلًا؟

وبمثل هذا التعليل، سيحاول «س» في كتابي أن ينفصل عن «ز»-، وسيحاول بخاصة أن يفصلها عن نفسه.

28 أكتوبر - لا يكف الناس عن التحدث عن (التبلور) المفاجئ للحب. أما (التميع) التدريجي للحب، فلا أسمع أحدًا يتحدث عنه، وأنا أعتبر هذا ظاهرةً سيكولوجيةً تثير اهتمامي أكثر مما يثيره (تبلور) الحب، وأعتقد أنه من الممكن تتبع مراحل هذا (التميع) بعد وقت يطول أو يقصر في كل حالات الزواج الناتج عن الحب. لن يخشى على «لورا» من ذلك (لحسن الحظ) إذا ما تزوجت (فيلكس دوفييه) كما ينصحها بذلك العقل وعائلتها، وأنا نفسي. إن «دوفييه» مدرس أمين جدًّا، وله كثير من الخلال الحميدة، كما أنه كفء في مادته (وقد قيل لي أن تلاميذه يقدرونه جدًّا)، وسوف تكتشف فيه «لورا» بعد المعاشرة كثيرًا من الحسنات، وإن كانت قد تتخيل فيه العكس قبل الزواج. إنني أشعر

بأنها عندما تتكلم عنه وعندما تمتدحه فإنها لا تفيه حقه، وفي اعتقادي أن «دوفييه» أفضل بكثير مما تعتقد «لورا».

يا له من موضوع رائع لقصة! «التميع» التدريجي للحب بين الزوجين ومن الطرفين بعد خمسة عشر عامًا أو عشرين عامًا من الحياة الزوجية. طالما أحب العاشق وأراد أن يحب، فلا يمكن أن يبدو على حقيقته كما أنه في الواقع لا يرى الطرف الآخر، ولكنه يرى مكانه دمية - يزينها ويؤهلها ويخلقها.

إذَنْ حذرت «لورا» من نفسها ومني، وحاولت أن أقنعها بأن حبنا لا يمكن أن يوفر لا لها ولا لي أسباب السعادة الحقيقية الدائمة، وآمل أن أكون قد وفقت في إقناعها بعض الشيء.

وهنا رفع «إدوارد» كتفيه، وأغلق كراسة مذكراته بعد أن وضع بين طياتها رسالة «لورا». أودع الكراسة بدورها في الحقيبة، كما وضع في الحقيبة حافظة نقوده بعد أن أخذ منها ورقةً من فئة المائة فرنك سوف تكفيه ولا شك إلى أن يعود لاسترداد حقيبته من الأمانات، حيث أزمع أن يتركها هناك عند وصوله إلى محطة باريس. وما يضايقه هو أن هذه الحقيبة لا تغلق بمفتاح، أو بمعنى أصح ليس معه مفتاح ليغلقها به. وقد دأب على إضاعة مفاتيح حقائبه. ولكن لا بأس لأن عمال الأمانات يكونون عادةً مرهقين بالعمل أثناء النهار، ولا يكونون أبدًا بمفردهم، وسوف يستردها حوالي الساعة الرابعة، ويحملها إلى حجرته، ثم يذهب إلى نجدة «لورا» في محنتها، وسوف يحاول اصطحابها للعشاء.

وشعر (إدوارد) بالنعاس، وراحت أفكاره تأخذ مجرى آخر، وتساءل: لو لم يعرفها أكان يستطيع أن يستنتج من قراءة رسالتها فحسب لون شعرها الأسود؟ ثم قال: لنفسه إن مؤلفي القصص عندما يصفون شخصيات قصصهم وصفًا دقيقًا فإنهم بهذا يعوقون عمل الخيال، ويا حبذا لو تركوا للقارئ حرية تخيل هذه الشخصيات بالطريقة التي تحلو له. وجعل يفكر في القصة التي يعدها، والتي أزمع أن لا تُشابه في كل شيء كل ما كتب حتى الآن.

ترى، هل أحسن اختيار العنوان «المزيّفون»؟ لقد أخطأ في أن أعلنه. إنها ولا شك عادة سخيفة أن يعلن الكاتب عما لا يزال في دور الإعداد حتى يُغري قرَّاءه. فهذا لا يُغري أحدًا بل إنه يقيد المؤلف... ثم إن (إدوارد) ليس متأكدًا من حسن اختياره للموضوع. إنه دائب التفكير في هذا الأمر، ومنذ زمن طويل لم يكتب سطرًا واحدًا في هذه القصة - لم يفعل سوى أن سجل في مفكرته بعض ملاحظاته وتأملاته.

وأخرج المفكرة من حقيبته، وأخرج قلمه من جيبه وخط هذه السطور:

(يجب تجريد القصة من كل العناصر التي تعتبر دخيلة على طبيعتها في حد ذاتها)، وكما أن فن التصوير الشمسي قد خلص الفنانين من الرغبة في تصوير بعض الدقائق، فإن الحاكي سوف يخلص الكتاب الواقعيين، في القريب العاجل، من رغبتهم في سرد تفاصيل الحوار بين شخصياتهم، وهم حتى الآن، كثيرًا ما يشعرون بالفخر لذلك.

ومن الأفضل أن تترك القصة للسينما الوقائع الخارجية والأحداث والمضاعفات الناتجة عنها، فهي داخلة في نطاق طبيعتها. بل حتى وصف الشخصيات، لا أعتقد أنه من عمل القصة. نعم، يبدو لي أنه

ليس للقصة الخالصة النقية – والنقاء هو ما يهمني في الفن- أن تعني بمثل هذه الأمور.

والأمر كذلك أيضًا فيما يتعلق بالفن المسرحي، ولا يأتين أحد فيقول إن الكاتب المسرحي لا يصف شخصياته لأن المتفرج يراهم أحياء على خشبة المسرح، فلكم رأينا مدى الضيق الذي يعترينا في المسرح بسبب الممثل، ولكم قاسينا لأنه بعيد عمن كنا خليقين بأن نتخيله دون عون منه – إن الروائي عادة لا يثق بخيال القارئ.

ما هي المحطة التي اجتزناها الآن كالبرق؟ إنها (أزنييره) وهنا وضع (إدوارد) مفكرته في الحقيبة. ولكن لا شك أن التفكير في «باسافان» لا يزال يؤرقه. وأخرج مفكرته مرةً أخرى ودوَّن فيها:

ليس العمل الفني بالقياس إلى «باسافان» هدفًا بقدر ما هو وسيلة. آراؤه الفنية التي يتفاخر بها لا تبدو عنيفةً كما هي عليه إلا لعدم عمقها، فليس ثمت دافع قوي في نفس الكاتب يسيطر عليها، إنها صدى لوحي الساعة، وشعارها هو: انتهاز الفرص.

أما فيما يتعلق بقصة (القضيب الثابت) فما يبدو في بادئ الأمر جديدًا جدًّا سرعان ما سيظهر قدمه بعد قليل. فكل تملق للذوق العام، وكل تكلف، إنما هو علامة من علامات الشيخوخة. ولكن هذا هو سر إعجاب الشباب بباسافان، وهو لا يهمه المستقبل في شيء. إنه يوجه كلامه إلى جيل اليوم (وهذا في رأيي أفضل من أن يوجه حديثه لجيل الأمس) – ولكنه إذ لا يوجه كلامه إلا للجيل الحاضر فإن ما يكتبه سيزول مع الجيل الحاضر، وهو يعرف ذلك ولا يعد نفسه بالخلود. وهذا هو سبب دفاعه المستميت عن نفسه، ليس عندما يهاجمونه فقط، بل عندما يبخلون عليه بالمديح أيضًا. لو شعر «باسافان» بأن عمله الفني باق مع الزمن لترك لهذا العمل الفني وحده مهمة الدفاع عن نفسه، ولما حاول باستمرار أن يبرر آراءه. على أنني أعتقد أيضًا أنه ربما سره أن يساء فهمه، أو أن يحكم عليه بحكم قاس على أمل أن يضمن له ذلك اهتمام نقاد الغد؟

ونظر «إدوارد» إلى ساعته. لقد بلغت الحادية عشرة وخمسًا وثلاثين دقيقة. وسأل نفسه: أيمكن أن يجد «أوليفييه» في انتظاره عند نزوله من القطار؟ إنه لا يتوقع ذلك ألبتة. وكيف يمكنه أن يتصور أن يكون «أوليفييه» قد علم بأمر البطاقة التي أرسلها لأهل هذا الأخير ليخبرهم بعودته – وقد حدد لهم فيها ساعة وصوله، دون أن يبدو أنه تعمد إخبارهم بذلك. وقال لهم هذا وكأنه لا يعني ما قال، وكأنه مجرد سهو منه.

ووقف القطار، وفكر لحظة أن ينادي بسرعة حمَّالًا. لا! لا داعي لذلك فالحقيبة ليست ثقيلة، ومحل الأمانات ليس بعيدًا... ولكن لنفرض أن «أوليفييه» حضر فهل سيستطيعان أن يتعرف أحدهما على الآخر في هذا الزحام؟ لم ير أحدهما الآخر إلا مرات قليلة جدًّا. وربما تغير شكله كثيرًا!..

آه! يا للسماء! هل من الممكن أن يكون هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع

لم نكن لنرثي لما حدث فيما بعد لو أظهر كل من «إدوارد» و«أوليفييه» سروره بلقاء الآخر، ولكن عجز كل منهما عن تقدير مكانته في قلب الآخر قد شلهما معًا، واعتقد كل منهما أنه وحده متأثر بهذا اللقاء، وشغل بفرحته عن كل شيء، واستشعر كأنه خجل لفرط هذه البهجة، ولم يكن له هم سوى أن يخفي شدتها.

وهذا ما جعل «أوليفييه» يعتقد أنه من المناسب أن يتحدث إلى صاحبه عن مجيئه قرب المحطة في ذلك الصباح لتأدية بعض الأعمال. فعل هذا بدلًا من أن يساعد على فرح «إدوارد» بإظهار لهفته على المجيء للقائه، ولفرط حساسيته، حاول أن يقنع نفسه بأن مجيئه ربما ضايق (إدوارد). ولم يكد يكذب حتى علت الحمرة وجهه ولحظ أوليفييه هذه الحمرة. ولكنه عزاها – لفرط حساسيته أيضًا- إلى أنه كان ممسكًا بذراع صديقه ضاغطًا عليه في لهفة.

كان قد قال: حاولت أن أقنع نفسي أنك لن تكون هنا، ولكنني كنت واثقًا في قرارة نفسي بأنك ستأتي.

واعتقد أن «أوليفييه» ربما رأى فيما قاله نوعًا من الغرور:

وعندما سمع «أوليفييه» يقول بمظهر من لا يبالي: جئت إلى هذا الحي لبعض الأعمال، ترك ذراع صاحبه وفتر حماسه. وتمنى لو سأل «أوليفييه»: هل فهم أن البطاقة التي أرسلها لوالديه لم تكن إلا له هو؟ ولكنه ما إن هم بسؤاله، حتى خانته شجاعته. وخشي أوليفييه أن يضايق إدوارد، أو أن يسيء الحكم عليه إذا ما تكلم عن نفسه فآثر السكوت. وراح ينظر إلى إدوارد وقد دهش عندما لمح رعشة شفتيه، وخفض ناظريه، أما إدوارد، فإنه كان يتمنى أن ينال هذه النظرة من أوليفييه، كما كان يخشى في الوقت عينه أن يعتبره عجوزًا. وراح يلف في عصبية قصاصة من الورق بين أصابعه. كانت هذه الورقة هي الإيصال الذي سلمته إياه الأمانات، ولكنه لم يلتفت إلى فعلته.

ورأى أوليفييه إدوارد يضغط الورقة بين أصابعه بغير اهتمام، ثم يقذف بها وهو شارد، فحدث نفسه قائلًا: لو كانت هذه الورقة هي إيصال الأمانات لما قذف بها على هذا النحو. ولم يلتفت أوليفييه إلا لحظةً ليرى الريح وهي تدفع بهذه القصاصة بعيدًا خلفهما على الرصيف. ولكن لو نظر إليها مدةً أطول لرأى شابًّا يلتقطها. وكان ذلك الشاب هو «برنارد» الذي تتبعهما منذ خروجهما من المحطة... وشعر أوليفييه بالأسى لعدم اهتدائه إلى شيء يقوله لإدوارد وأصبح السكوت بينهما شيئًا لا يطاق.

وحدث نفسه قائلًا: عندما نصل إلى مدرسة «موندورسيه» سأقول له: الآن يجب أن أعود إلى البيت، إلى اللقاء – فلما بلغا المدرسة قرر أن يقول ذلك عندما يصلان إلى منعطف شارع «بروفانس». ولكن «إدوارد» – الذي ضايقه هذا الصمت أيضًا- لم يستطع أن يتصور أن يفترقا على هذه الصورة، فدعا صديقه إلى دخول مقهى، فربما ساعدهما نبيذ البورتو على التغلب على ما يشعران به من حرج. وشربا الأنخاب.

وقال إدوارد وهو يرفع كأسه:

- أشرب نخب نجاحك – ما ميعاد امتحانك؟

- بعد عشرة أيام.

- أتشعر أنك متأهب له؟

وهنا رفع أوليفييه كتفيه، وقال:

- هل يمكن للمرء أن يعرف ذلك؟ يكفي أن لا يكون الشخص في حالته الطبيعية في ذلك اليوم.

ولم يجرؤ على أن ينطق بكلمة «نعم» خشية أن يظهر بمظهر الواثق من نفسه. وكان يشعر بالضيق إذ كانت تتنازعه الرغبة والخوف معًا في أن يكلمه بصيغة المفرد، وكان يحاول أن يعطي لجمله صيغةً غير مباشرة ليتحاشى كلمة أنت، وكان بعمله هذا يحرم إدوارد لذة أن يطلب منه الكلام بلا كلفة. وهو يذكر أن إدوارد كان قد حصل منه على ذلك قبل سفره بأيام.

- هل ذاكرت دروسك جيدًا؟

- لا بأس بها، ولكن ليس بقدر ما كنت أستطيع. وأجابه إدوارد بلهجة جادة:

- يشعر المجدون دائمًا بأنه في مقدورهم أن يعملوا أكثر مما عملوا. لقد نطق بهذه اللهجة رغمًا عنه شعر في الحال بأن جملته سخيفة، فأردف:

- هل ما زلت تنظم الشعر؟

- من حين إلى آخر... وأنا في حاجة شديدة إلى النصائح، ورفع نظره إلى إدوارد وكأنه يريد أن يقول: إلى نصائحك. وكانت نظرته تعبر عما يعنيه أكثر مما يعبر كلامه، ولذا اعتقد إدوارد أن أوليفييه قال ذلك على سبيل الاحترام أو المجاملة. ولكن ما الذي دفعه إلى هذه الإجابة الجافة؟:

- أوه! النصائح يجب أن نعطيها لأنفسنا، أو يجب أن نطلبها من رفقائنا! أما نصائح من هم أكبر منا سنًّا، فليس لها أي قيمة.

وقال أوليفييه لنفسه: ولماذا يحتج؟ إنني لم أطلب منه أي نصائح. وكان كل منهما – بالرغم منه- لا يجد إلا ألفاظًا جافةً أو متكلفةً ينطق بها، فاعتقد كل منهما أنه المسئول أو المتسبب فيما يقوله الآخر من ألفاظ جافة.

إن مثل هذه الأحاديث لا يمكن أن ينتج عنها شيء طيب، إلا إذا تصادف وجدَّ عليها جديد. ولكن لم يجد عليها شيء.

كان أوليفييه يشعر بضيق منذ استيقظ هذا الصباح. فقد اعتراه الحزن عند يقظته إذ لم يجد برنارد بجانبه وكان قد رحل دون أن يودعه، ونسى هذا الحزن فترةً لسروره بلقاء برنارد، ولكن عاوده الحزن، وكأنه أمواج قاتمة تغرق كل أفكاره. لقد ود لو تحدث إلى إدوارد عن برنارد وعما وقع له، وتمنى لو كلمه في أمور أخرى كثيرة، ولو جعله يهتم بأمر صديقه. ولكن خشى أن يجيبه إدوارد ببسمة، مما كان خليقًا أن يؤلمه أشد الألم، كما خشى أن ينطق هو بما يمكن أن يفصح عما يعتمل في نفسه من مشاعر عنيفة ومتضاربة، فاكتفى بالسكوت. وأحس أن ملامحه تزداد جمودًا، ولكنه كان في قرارة نفسه يشعر بحاجة ملحة إلى أن يرمي بنفسه بين أحضان إدوارد وأن يجهش بالبكاء. وأساء

إدوارد فهم هذا السكوت ومعنى هذا الوجه المتقلص. ولم يكن قادرًا على النظر إليه مع أنه كان يشعر برغبة في ضمه إلى صدره وفي ملاطفته، كأنه طفل، وكان يقول لنفسه عندما تلتقي عينه بنظرته الحزينة: نعم إنني أضايقه وأتعبه. يا له من مسكين، إنه لا ينتظر سوى كلمة مني ليتركني. ثم قال إدوارد بالرغم عنه وهو مشفق على أوليفييه:

- يجب أن تتركني الآن فوالداك ينتظرانك للغداء، إنني متأكد من ذلك.

وأساء أوليفييه مرةً أخرى فهم هذه العبارة. ونهض باندفاع ومد يده.

كان يريد أن يسأل إدوارد: متى أراك ثانيةً؟ أو متى نلتقي ثانيةً؟

وكان إدوارد ينتظر تلك العبارة: ولكن لم تأتِ سوى هذه الكلمات العادية. وداعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل العاشر

أيقظت الشمس برنارد، ونهض من مقعده وهو يشعر بصداع شديد. كان العزم الذي لازمه في الصباح قد زايله، وشعر بوحدة بشعة، وملأ قلبه شيء لاذع لم يكن يرغب في أن يسميه بالحزن، ولكنه أصعد العبرات إلى عينيه، وطفق يتساءل: «ماذا أفعل؟ وأين أذهب؟»... إنه إذ توجه إلى محطة «سان لازار» في الساعة التي يعرف أن أوليفييه سيكون فيها هناك، فلم يكن ذلك بقصد معين ولا لرغبة ما سوى رؤية صاحبه. وطفق يلوم نفسه على الطريقة المفاجئة التي ترك بها صديقه في الصباح؛ إذ ربما تضايق أوليفييه من هذا التصرف. ألم يكن أوليفييه المخلوق الذي يحبه برنارد أكثر من أي شخص آخر على هذه الأرض؟.. ولكنه عندما أبصر صديقه ممسكًا بذراع إدوارد اعتراه شعور غريب، شعور جعله يتبع الاثنين، ولا يظهر نفسه لهما. وشعر شعورًا مؤلمًا بأن وجوده غير مستحب، ومع هذا تمنى لو أقحم نفسه بينهما. وبدا له إدوارد بديعًا، وأعلى قامةً بقليل من أوليفييه، ولا يكبره في السن إلا قليلًا. وقرر برنارد أن يتحدث إلى إدوارد بعد أن يتركه أوليفييه. ولكن أي ذريعة يتذرع بها؟

وفي هذه اللحظة رأى القصاصة تقع من يد إدوارد الشاردة. وتبين بعد أن التقطها أنها وصل «الأمانات»... حسنًا، هذه هي الذريعة!

ورأى الصديقان يدخلان المقهى معًا، ومكث لحظةً مرتبكًا، ثم استأنف حديثه مع نفسه قائلًا: «أي صعلوك عادي لا بد أن يفكر توًّا في إعادة هذه الورقة. كم تبدو لي أمور هذه الحياة تافهةً لا قيمة لها ولا جدوى! سمعت هذه العبارة تقال لهاملت. ولكن أي فكرة تراودك يا برنارد؟ بالأمس فقط كنت تنقب في أحد الأدراج. أي طريق تسلك الآن؟.. ولكن حذار، حذار يا بني... عامل الأمانات الذي سلمه إدوارد حقيبته سيذهب الآن لتناول غدائه وسيحل آخر محله. ألم تعد صديقك بالإقدام على عمل أي شيء؟».

ولكنه فكر مع ذلك أن الاندفاع ربما أضاع كل شيء، وربما أثار شكوك العامل بعجلته، وقد يراجع العامل سجل الإيداع لتشككه في أن تسحب وديعة أودعت قبل الظهر بدقائق، وربما قد رآه عابر سبيل أو متطفل وهو يلتقط الورقة، وقرر برنارد أن يتجه نحو ميدان «الكونكورد» دون عجلة ليستغرق وقتًا يكفي لأن يتناول فيه أي شخص وجبةً غذائيةً. فمن المألوف أن يضع المرء حقيبته في الأمانات للمدة التي تستغرقها وجبة الغداء، ثم يستردها. أليس كذلك؟

وزايله الصداع. والتقط من دون كلفة وهو يمر أمام شرفة مطعم عودًا من الخلة (وكانت أعواد الخلة موضوعة على شكل حزم فوق المناضد)، وكان في نيته أن يخلل بها أسنانه أمام مكتب الأمانات ليبدو عليه مظهر من أكل وشبع، وكان من حسن حظه أن تبدو عليه مظاهر الصحة والأناقة، والرقي وصراحة البسمة والنظرة.

وشعر بفزع عندما طلب منه الموظف عشرة سنتيمات أجرًا للإيداع، ولم يكن يمتلك مليمًا واحدًا. ما العمل؟ الحقيبة أمامه على الرف. وسوف ينتبه الموظف إليه إن بدر منه ما يشتم منه عدم الثقة بنفسه أو عدم وجود نقود معه. ولكن الشيطان لن يدعه في هذا الموقف، ولذا فإنه يضع في يد برنارد القلقة

– التي كانت تبحث في الجيوب واحدًا تلو الآخر في يأس- قطعة صغيرة من ذات الخمسين سنتيمًا، قطعة نسيها في أحد جيوب صدريته منذ مدة لا يعلمها إلا الله. فيمد يده بها للموظف دون أن يظهر من ارتباكه شيئًا. وأخذ الحقيبة، ثم وضع بقية النقود التي أعادها إليه في جيبه بحركة بسيطة كما يفعل أي شخص شريف.

أف! إنه يشعر بحرارة. إلى أين يذهب؟ ساقاه تخونانه، والحقيبة ثقيلة. ماذا يمكن أن يفعل بها؟.. وتذكر فجأةً أنه لا يملك مفتاحها، ولكن لا، لا، لا، لن يحاول أن يكسر قفلها، إنه ليس لصًّا؛ يا للشيطان!.. ولكنه أحس بالرغبة في أن يعرف ما بداخلها فقط، إن ذراعه ليشعر بثقلها وهو يسبح في عرقه، فيقف لحظة ويضع حمله على الرصيف. لا شك أن في نيته إعادتها إلى صاحبها. آه لو عرف ما بداخلها؟ وامتدت يده مصادفةً إلى قفلها. أواه! يا لها من معجزة! الحقيبة تفتح ويظهر من فتحتها هذه اللؤلؤة الثمينة: حافظة نقود تبرز منها أوراق نقدية. ويستحوذ برنارد على اللؤلؤة، ويغلق القوقعة في الحال.

إنه يملك الآن مالًا، فهيا بسرعة! إلى أي فندق؟ إنه يعرف أحد الفنادق بشارع «أمستردام» وهو على مقربة منه. ثم إنه يشعر بجوع شديد. ولكنه قبل أن يجلس ليأكل يريد أن يضع الحقيبة في مأمن. الخادم الذي يحمل الحقيبة يسير أمامه على السلم ثلاثة طوابق، ثم ممر... وباب. فيغلق هذا الباب على كنزه... ثم يهبط الدرج.

وها هو يجلس وأمامه شريحة من اللحم، إلا أنه لا يجرؤ على إخراج حافظة النقود من جيبه (من يدري لعل أحدًا يراقبك؟) ولكن يده اليسرى تتحسسها بشغف في أسفل جيبه الداخلي.

وكان يقول لنفسه – إن الصعوبة هي أن أقنع إدوارد بأنني لست لصًّا. ترى أي نوع من الرجال يكون إدوارد؟ قد تجيبنا الحقيبة على هذا السؤال. أما أنه رجل جذاب؛ فهذا أمر لا شك فيه. ولكن كم من الرجال الجذابين لا يفهمون معنى الدعابة. ولكنه إذا اعتقد أن حقيبته سرقت فلا شك في أنه سيفرح بعودتها إليه، وسوف يشكرني على أني أرجعتها وإلا كان إنسانًا فظًّا. وسوف أعرف كيف أجعله يهتم بي، فلأتناول بعضِ الحلوى بسرعة، ثم لأصعد إلى غرفتي لأتدارس الموقف. فلأطلب الحساب، ولأترك للخادم منحةً سخيةً.

وبعد لحظات كان في غرفته.

- والآن أيتها الحقيبة، لنتفاهم معًا!.. ها هي حلة تبدو أكبر حجمًا مني قليلًا. إن نسيجها فاخر وذوقها سليم. وها هي بعض الملابس الداخلية. ثم أدوات للزينة. لست متأكدًا من أنني سأعيد إليه كل هذه الأشياء. ولكن ما يثبت أنني لست لصًّا هو أن هذه الأوراق التي بيدي الآن سوف تشغلني أكثر من أي شيء آخر. لنقرأ أولًا هذه:

إنها الكراسة التي وضع فيها إدوارد رسالة لورا. إننا على علم بما جاء في صفحاتها الأولى، وها هو ما جاء بها بعد ذلك مباشرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر

يوميات «إدوارد»

أول نوفمبر: - منذ خمسة عشر يومًا- لقد أخطأت في أنني لم أسجل ذلك في حينه. وليس سبب هذا أن الوقت لم يسعفني، ولكن الحقيقة أن قلبي كان لا يزال مفعمًا بحب لورا - أو بمعنى أصح لم أكن أريد أن أشغل فكري بشيء سواها. ثم إنني لا أريد أن أذكر هنا أشياء جاءت عن طريق الصدفة، ولم أكن أتصور بعد أن ما سأقصه الآن ستكون له آثار. أو على الأقل كنت أرفض أن أتصور مثل ذلك الأمر. ولكي أقنع نفسي بذلك، تعمدت ألا أذكره في مذكراتي. ولكنني أشعر جيدًا، مهما حاولت أن أدافع عن نفسي، إن وجه أوليفييه يجذب الآن كل أفكاري وأنه يحول مجراها وأنني إذا لم أعمل له حسابًا، فلن أستطيع أن أفهم جيدًا أو أن أتبين حقيقة ذاتي.

منذ خمسة عشر يومًا، كنت عائدًا من عند «بيران» حيث كنت أشرف على إعادة طبع كتابي القديم. وإذ كان الجو جميلًا، فقد أخذت أسير على غير هدى على أرصفة النهر في انتظار حلول وقت الغداء.

وقبل أن أصل إلى محل (فانييه) بقليل، وقفت أمام معرض للكتب القديمة. ولم تكن هذه الكتب لتهمني، وإنما لفت نظري تلميذ صغير في حوالي الثالثة عشرة من عمره، كان ينقب في الرفوف باحثًا عن كتاب، كانت عين الملاحظ الجالس على مقعد من القش أمام باب الحانوت تراقبه في هدوء، وتظاهرت بأنني أتفرج على المعروضات، ولكنني كنت بدوري أراقب هذا الصبي بركن عيني، وكان يرتدي معطفًا باليًا جدًّا، قصير الكمين حتى ظهر من تحتهما كما سترته، وكان الجيب الجانبي الكبير منفرجًا رغم أنه خاو، وكان ممزقًا في ركن من أركانه. وفكرت أن هذا المعطف سبق أن أستعمله إخوة عديدون، وأن هؤلاء الإخوة اعتادوا أن يضعوا أشياءَ كثيرةً جدًّا في جيوبهم، وفكرت أيضًا في أن والدة هذا الصبي مهملة جدًّا أو مشغولة جدًّا؛ لأنها لم تصلح هذا المعطف. ولكن الصغير استدار قليلًا في هذه اللحظة فرأيت عندئذ أن الجيب الآخر كان مرقعًا بطريقة غليظة، بخيط أسود سميك متين. وفي الحال تخيلت اللوم الذي توجهه له أمه: لا تضع كتابين معًا في جيبك، ستمزق بهذه الطريقة معطفك، وتمزق جيبك مرةً أخرى. إنني أنبهك إلى أنني لن أرتقه لك في المرة القادمة، ألا ترى كم تبدو مهملًا!.. تخيلت كل هذه العبارات، التي كانت ترددها على مسامعي المرحومة والدتي، ولم أكن مثله أعيرها أي اهتمام، كانت صدريته المهلهلة تظهر خلال معطفه المفتوح، ولفت نظري ما يشبه الوسام الصغير، شريط صغير على شكل زهرة صفراء اللون كان يثبتها في عروة سترته، وأنا أذكر هذه الأشياء بحكم ما رضت نفسي عليه من نظام، ولأن تسجيل هذا يضايقني.

ونُودي الملاحظ فدخل الحانوت، ولكنه لم يبق فيه إلا لحظة، ثم عاد ليجلس على مقعده، ولكن هذه اللحظة كانت كافيةً لتسمح للصبي بأن يضع في جيب معطفه خلسة الكتاب الذي كان يمسك به في يده، ثم شرع بعد ذلك مباشرةً في التنقيب بين الرفوف، وكأن شيئًا لم يحدث. ومع هذا كان قلقًا، ورفع رأسه وتبين نظرتي، وفهم أنني رأيته، أو على الأقل قال لنفسه: إن من المحتمل أن أكون قد رأيته. ولا شك أنه لم يكن متأكدًا تمامًا من هذا، غير أنه فقد ثقته بنفسه بسبب هذا الشك، ولذا احمر وجهه، وبدأ يتظاهر بأنه في حالته الطبيعية، إلا أن ذلك كان يكشف ما هو فيه من حرج. ولم أرخ نظري

عنه، فأخرج الكتاب المسروق من جيبه، ثم وضعه في جيبه ثانية، وابتعد بضع خطوات، ثم أخرج من داخل سترته حافظة أوراق صغيرةً باليةً، وتظاهر بأنه يبحث فيها عن نقود يعلم هو جيدًا أنها لا وجود لها بحافظته. ثم رسم على وجهه نظرةً مسرحيةً معبرةً لا شك أنني مقصود بها. وكأنه يقول. يا لسوء الحظ! ليس معي ما أشتري به، وكأنه يعني أيضًا: أن هذا أمر عجيب، كنت أعتقد أن معي نقودًا. وكان في هذه الحركة شيء من المبالغة، وكأنه ممثل يخشى أن لا يفهم الجمهور ما يعنيه، ثم اقترب من جديد من رفوف المعرض، ويمكنني أن أؤكد أنه فعل ذلك تحت وطأة نظرتي، وأخرج الكتاب من جيبه ووضعه بعنف في المكان الذي كان يشغله من قبل، وفعل كل ذلك بشكل طبيعي لدرجة أن الملاحظ لم يلحظ شيئًا. ثم رفع الصبي رأسه من جديد وهو يأمل أن يظهر في هذه المرة بأن الأمر قد سوي. ومع ذلك كنت لا أزال ألاحقه بنظرتي، وكأنها عين قابيل. ولكن الفرق بين عيني وعين قابيل، هو أن عيني كانت تبتسم كنت أرغب في أن أكلمه، وكنت أنتظره حتى يبتعد عن معرض الكتب لكي أفعل ذلك، ولكنه لم يتحرك، وبقي واقفًا أمام الكتب. وفهمت أنه سيبقى كذلك ما دمت أنظر إليه. وعندئذ تظاهرت بالابتعاد بضع خطوات، وكنت في موقفي هذا كمن يلهو بفريسته. ورحل هو ولكنه ما إن وصل إلى عرض الشارع حتى لحقت به، وسألته فجأةً: ما اسم هذا الكتاب؟ وحاولت أن أجعل نبرات صوتي وملامح وجهي تعبر عن أقصى ما أستطيع من رقة.

ونظر إليَّ في ثبات، وشعرت بأن خوفه مني قد زال. ولم يكن جميلًا، ولكن كم كانت نظرته رائعةً! رأيت في تلك النظرة كل المشاعر تهتز، وكأنها أعشاب في قاع جدول من الماء.

- إنه دليل الجزائر. ولكن ثمنه باهظ... ولست أملكه.

- كم ثمنه؟

- فرنكان ونصف.

- ولكن هذا لا يمنع أنك كنت تنوي أن تهرب به في جيبك، لولا أنك لاحظت أنني أراك.

وهنا أتى الصغير بحركة تدل على الاحتجاج والثورة، وأجابني بلهجة وقحة جدًّا:

- لا، أتتهمني بأنني سارق؟.. قالها بقوة إقناع جعلتني أشك فيما رأيت، وشعرت بأنني سوف أفقده إن أنا أصررت على اتهامه. فأخرجت ثلاث فرنكات من جيبي وقلت له:

- هيا! اذهب واشتره. إنني أنتظرك.

ورأيته بعد دقيقتين يخرج من الحانوت وهو يفتح الكتاب الذي كان يتمناه. وأخذته من بين يديه، وكان دليلًا قديمًا من عمل «جوان» صور في سنة 1871 وسألته وأنا أعيده إليه:

- ماذا تنوي أن تفعل بهذا الدليل؟ إنه قديم جدًّا، ولم يعد له نفع. فأجابني بأنه على العكس من ذلك مفيد، وأن «الدليل» الأحدث عمرًا غال جدًّا، وأن الخرائط التي فيه وافية بالغرض الذي يقصده من شراء الكتاب.

ولن أحاول أن أعيد عباراته لأنها ستفقد طابعها إذا ما تجردت من لهجة سكان الضواحي التي كان يتكلم بها. ثم إن عباراته كان فيها نوع من التأنق.

... ...

يجب أن أختصر جدًّا هذه الفقرة. رأيي أننا لا نحصل على الدقة في الوصف بسرد تفاصيل الحديث، بل يكفي أن نرسم في مخيلة القارئ خطين أو ثلاثة خطوط تأتي في المكان الصحيح. ثم إني أعتقد أن رواية الصبي للأمر بنفسه شيء أكثر إثارة للاهتمام. ولا شك أن وجهة نظره تكون في هذه الحال أدق تعبيرًا عن وجهة نظري. وهذا الصبي يشعر في وقت واحد بالضيق وبالفخر؛ لأنه كان محل اهتمامي. إلا أن ثقل نظرتي قد زيف اتجاهه شيئًا ما. الشخصية الغضة والتي ما برحت بعد غير واعية تحاول أن تحتمي وأن تختفي وراء مظهر مفتعل. ليس ثمت أصعب من ملاحظة من هم في دور التكوين!

يجب محاولة النظر إليهم من زاوية، من جانب، لا مواجهة.

وأعلن الصبي فجأة أن أكثر شيء يستهويه هو «الجغرافيا». وأعتقد أن وراء هذا الحب غريزة التشرد.

وسألته: أتحب أن تذهب إلى هناك؟

وأجابني وهو يرفع كتفيه: نعم!

واعتقدت أنه قد لا يكون سعيدًا مع ذويه. فسألته: أيعيش مع والديه؟

- نعم.

ثم سألته هل الإقامة معهم تطيب له؟

وهنا احتج بطريقة رخوة، وبدا أنه يأسف أن كشف عن حقيقة نفسه، وأضاف:

- لماذا تسألني هذه الأشياء؟

وأجبته في الحال: لا أعني من ذلك شيئًا؟ ثم قلت وأنا أضع إصبعي على الشريط الأصفر المثبت في عروة سترته: ما هذا؟

- إنه شريط كما ترى.

ولا شك أن أسئلتي ضايقته، واستدار فجأةً نحوي بطريقة عدائية، وسألني بلهجة وقحة فيها تحد، لهجة لم أكن أتصور أنه يستطيع أن يتكلم بها، لهجة أحرجتني:

- قل لي... أمن عادتك أن تطارد تلاميذ المدارس؟

وبينما كنت أحاول متلعثمًا أن أجيبه بشيء، فتح حقيبة المدرسة التي يحملها تحت إبطه ليضع فيها الكتاب الذي اشتراه، وكان قد كتب عليها اسمه بحروف غليظة. وهنا وثب قلبي من مكانه عندما تبينت في هذا الاسم ابن شقيقتي: «جورج مولينييه».

وهنا قفز قلب «برنارد» بدوره وهو يقرأ هذه السطور. وهنا أيضًا بدأت هذه القصة تستهويه كل الاستهواء.

سوف أصادف عند كتابة قصة «المزيفون» صعوبةً في إقناع قارئي بأن من سيقوم بدوري في القصة لم يكن يعرف أبناء شقيقته، مع أنه كان على صلات طيبة بها، لقد شعرت دائمًا بعجزي عن أن أضع قناعًا على الحقيقة. وأعتقد أن مجرد تغيير لون الشعر مثلًا هو نوع من الغش، خليق في رأيي أن يجعل الحقيقي يبدو بعيدًا عن الواقع.

وأشعر بأن كل شيء في الحياة يتماسك وأن هناك بين وقائع هذه الحياة روابطَ خفيةً، وأن أي تغيير يصيب جزءًا من أجزائها كفيل بأن يغير من معالمها جميعًا. ولا أستطيع إغفال أن أم هذا الصبي ليست سوى أخت غير شقيقة، وأنها ثمرة الزواج الأول لوالدي، وأنني بقيت لا أراها طوال المدة التي عاشها والدي، وأن أمورًا تتعلق بالميراث اضطرتنا إلى إيجاد نوع من الصلة بيننا... كل هذا لا مفر منه، ولا أتصور أنه يمكنني أن أخترع أسبابًا أخرى كتمانًا للأسرار وحفظًا لها، وكنت أعرف أن لأختي هذه ثلاثة أبناء، ولا أعرف منهم إلا الابن الأكبر، الطالب بكلية الطب، ولم أره إلا قليلًا جدًّا؛ لأنه اضطر أن يقطع دراسته وأن يرحل إلى الجنوب للعلاج من مرض السل الذي أصابه. ولم يصادف أبدًا أن رأيت الآخرين في منزلهما عندما كنت أذهب لأرى «بولين»، ولا شك أن الصبي الذي أتكلم عنه الآن هو الأصغر، ولم أظهر له شيئًا من دهشتي، ولكنني تركت «جورج» الصغير فجأةً لما علمت أنه عائد إلى بيته لتناول الغداء، وقفزت إلى سيارة أجرة لأصل قبله إلى شارع «نوتردام دي شامب» حيث يسكن.

وتصورت أن وصولي في هذه الساعة سوف يجعل «بولين» تحتجزني لتناول الغداء، وهذا ما حدث، وكان إهداؤها النسخة التي أحملها من كتابي والتي جئت بها من مطبعة «بيران» عذرًا كافيًا، لأبرر به زيارتي لها في وقت غير مناسب.

وكانت هذه أول مرة أتناول فيها الغداء عند «بولين». كنت مخطئًا في شعوري بعدم الارتياح إلى زوج شقيقتي، إنه ليس على كفاءة كبير في القانون، ولكنه يعرف كيف يتحاشى التحدث في شئون مهنته، كما أتحاشى ذلك أنا أيضًا، ولهذا تفاهمنا.

ومن الطبيعي أنني لم أشر بكلمة واحدة إلى مقابلتي في هذا الصباح لابنهما. وقلت لبولين عندما رجتني أن أبقى للغداء:

- ستتيح لي هذه الفرصة التعرف على أبنائك، وأنت تعرفين أنني لم أتعرف بعد على اثنين منهما. وأجابتني:

- سيعود «أوليفييه» متأخرًا؛ لأنه يأخذ دروسًا خاصةً، سنتناول الغداء من دونه، ولكني ها أنا أسمع خطوات «جورج». سوف أستدعيه. وصاحت وهي تجري نحو الغرفة المجاورة:

- جورج! تعال لتحيي خالك.

واقترب الصغير ومد لي يده، وعانقته... كم أعجب بقوة الأطفال في إخفاء مشاعرهم! لم تبدر عليه أي بادرة تدل على الدهشة، وكأنه لم يتعرف عليَّ، وكل ما حدث هو أن وجهه كساه احمرار شديد.

ولم تر أمه في ذلك إلا مظهرًا من مظاهر الخجل. واعتقدت عندما تركنا في الحال وعاد إلى الغرفة المجاورة أنه متضايق من لقاء الشخص الذي فضح أمره منذ قليل، وكانت الغرفة المجاورة -كما فهمت- هي حجرة الطعام. وكانت تستغل ما بين الوجبات كغرفة للاستذكار للأولاد، ولكنه ظهر بعد قليل، وانتهز اللحظة التي دعانا فيها والده للدخول إلى حجرة الطعام ليمسك بيدي دون أن يرانا والده. وتصورت في بادئ الأمر أن هذه علامة من علامات الصداقة ولكني كنت مخطئًا، إذ فتح يدي ووضع فيها ورقة صغيرة لا شك أنه كتبها منذ قليل، ثم ثنى أصابعي عليها وضغط يدي بشدة. وتجاوبت معه، فوضعت الورقة في جيبي خلسةً ولم أخرجها إلا بعد الغداء. وها هو ما قرأته فيها:

إذا ما سردت على والدي قصة الكتاب (وهنا شطب عبارة: سوف أبغضك) سأخبرهم بأنك عرضت عليَّ عروضًا.

وكتب أسفل هذه العبارة:

- «إنني أخرج كل يوم من المدرسة في الساعة العاشرة».

عاقتني زيارة «س» أمس عن متابعة كتابة مذكراتي. لقد ترك حديثه في نفسي شعورًا بالضيق.

فكرت كثيرًا فيما قاله لي «س». إنه لا يعرف شيئًا عن حياتي، ولكني حدثته كثيرًا فيما أنويه بخصوص قصة «المزيفون». إن نصائحه تفيدني دائمًا؛ لأن وجهة نظره تختلف تمامًا عن وجهة نظري، وهو يخشى أن أجنح إلى الافتعال وأن أبتعد عن الموضوع الحقيقي؛ لأتمسك بظل الموضوع المرتسم في مخيلتي، وما يزعجني حقًّا هو أن أشعر أن الحياة «حياتي» تنفصل عن عملي الفني، وأن عملي الفني ينفصل عن حياتي. ولكنني لم أستطع أن أقول له هذا. وأنا حتى الآن، لا يغذي مؤلفاتي إلا ذوقي وشعوري وتجاربي الخاصة. وكنت وما زلت أشعر عند قراءة جملي -وأحسنها صياغةً- أن قلبي يخفق فيها، ولكن منذ هذه اللحظة أرى الرباط بين ما أفكر فيه وما أحس به قد انفصم. وربما كان امتناعي اليوم عن ترك العنان لقلبي هو الذي دفع بكتابي إلى هذا التجرد وهذا التكلف. وقد أتاح لي التفكير في هذا الأمر فهم معنى أسطورة «أبولون ودافنيه»([9]) فقلت لنفسي: سعيد من استطاع أن يحتضن في وقت واحد إكليل الزهور ومحبوبه.

كتبت طويلًا جدًّا عن مقابلتي لجورج بحيث وجب عليَّ أن أكف عن الكلام عنه بعد أن ظهر «أوليفييه»، والواقع أني لم أتكلم إلا عن «جورج» وحين أتكلم عن أوليفييه أدرك أن الرغبة في إرجاء هذه اللحظة كانت بسبب تلكئي. ما إن رأيت «أوليفييه»، وما إن جلس إلى المائدة معنا، ومن أول نظرة مني إليه، أو بالأحرى من أول نظرة منه إلي، شعرت أن تلك النظرة قد استحوذت عليَّ، وأني لم أعد أتصرف في حياتي.

تصر «بولين» على أن أزورها أكثر مما أفعل، وترجوني بإلحاح أن أهتم قليلًا بأمور أولادها. وتشعرني بأن أباهم يفهمهم جيدًا. وكلما تحدثت معها بدت لي أكثر جاذبية. ولست أفهم ما جعلني أبقى أمدًا طويلًا لا أتردد عليها. لقد تربى أولادها في أحضان الدين الكاثوليكي، إلا أنها لم تنس نشأتها البروتستانتية. لقد تركت بيت والدنا في اللحظة التي دخلته فيها أمي، ومع هذا فقد اكتشفت كثيرًا من

أوجه الشبه بيني وبينها. لقد ألحقت أولادها بالمدرسة التي يملكها والدا «لورا»، حيث مكثت أنا بها وقتًا طويلًا في القسم الداخلي.

ومدرسة «آزائيس» - وهذا اسمها- تهتم بألا يكون لها لون ديني خاص. «وعندما كنت طالبًا بها كنت أرى فيها حتى الأتراك» بالرغم من أن «آزائيس» العجوز «صديق والدي»، والذي أنشأها ولا زال يديرها، كان فيما سبق راعيًا بروتستانتيًّا.

تتلقى بولين أخبارًا حسنةً من المصحة التي يستكمل فيها فنسان شفاءه. وقد قالت لي أنها تحدثه عني في رسائلها، وهي تود أن أعرفه أكثر مما عرفته، لأنني في الواقع لم أره إلا قليلًا، وهي تبني آمالًا عريضةً على ابنها الأكبر. وهم يضحون أكبر التضحيات في سبيل أن يرتب حياته - ومعنى ذلك أن يكون له مسكن مستقل ليستقبل فيه مرضاه، وقد استطاعت مؤقتًا أن تحتجز له جزءًا من المسكن الصغير الذي يشغلونه بعد أن نقلت كلًّا من «أوليفييه» و«جورج» إلى غرفة خالية بالطابق الذي يقع تحتهم. والهم الأكبر الآن هو: هل سيضطر فنسان إلى عدم استكمال دراسته بسبب حالته الصحية؟

والحق أنني لا أهتم كثيرًا بأمر «فنسان»، وإن كنت أتكلم عنه كثيرًا مع والدته؛ فذلك مجاملة لها فقط، ولكي أتمكن بعد ذلك من التحدث طويلًا عن «أوليفييه». أما عن «جورج» فإنه يعاملني ببرود، ولا يكاد يجيب عن أسئلتي، وهو يلقى عليَّ عندما أصادفه نظرة ملؤها الشطوط. ويبدو أنه لا يغفر لي أنني لم أذهب لانتظاره أمام باب مدرسته كما طلب، أو أنه لا يغفر لنفسه أن عرض عليَّ ذلك.

وأنا لا أرى أوليفييه كثيرًا، وعندما أذهب لرؤية والدته لا أجرؤ على الذهاب إلى الغرفة التي أعرف أنه يستذكر دروسه فيها، وإذا قابلته صدفةً شعرت باضطراب ولم أجد ما أقوله له. وإن ذلك ليشقيني، حتى أنني أوثر أن أذهب لرؤية والدته في الأوقات التي أعرف أنه غير موجود فيها بالمنزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني عشر

يوميات «إدوارد» (تابع)

2 نوفمبر- حديث طويل مع دوفييه بعد خروجنا من بيت والدي لورا. وقد اصطحبني حتى مسرح الأوديون عبر حديقة اللوكسمبورج. إنه يعد رسالة دكتوراه عن «ورد زورث»، ولكني أشعر من الكلمات القليلة التي قالها عنه أن أهم مميزات شعر هذا الشاعر تفوت إدراكه. وكان أحسن لو اختار الشاعر «تنيسون». أشعر بأن ثمت لدى دوفييه شيئًا من عدم الكفاية والتجرد والسذاجة. إنه يرى في الأشياء وفي الكائنات مظهرها الخارجي، ولعل مرجع ذلك أنه هو نفسه يظهر دائمًا بما هو عليه فعلًا. وقال لي:

- أعرف أنك أحسن صديق للورا. وكان يجب أن أشعر بشيء من الغيرة منك. ولكني لا أستطيع ذلك- بل على العكس لقد ساعدني كل ما قالته لي عنك على أن أفهمها أكثر مما فهمتها، وجعلني أتمنى أن أصبح صديقك. وقد سألتها منذ أيام: هل يضايقك أنني سأتزوجها؟ فأجابتني بأنك على العكس من ذلك نصحتها بأن تتزوجني (وأعتقد أنه قال هذه العبارة بنفس الطريقة السطحية التي أذكرها هنا). وأنا أود أن أشكرك على ذلك، وألا تجد في هذا الأمر ما يدعو للسخرية لأنني أفعله بإخلاص، ولقد قال هذه العبارة وهو ينتزع الابتسام، ولكن كان صوته مرتعشًا والعبرات تملأ عينيه.

ولم أكن أدري بماذا أجيبه، فقد شعرت بأنني أقل انفعالًا مما كان يجب أن أكون، أحسست بعجزٍ عن أن أتأثر مثله. ولعلني ظهرت أمامه بمظهر جاف، ولكن على أي حال ضايقني ما قال. ومع كلٍ، فقد شددت على اليد التي مدها لي بكل حرارة. هذه المواقف التي يقدم المرء فيها من قلبه أكثر مما يطلب إنما هي مواقف مؤلمة للغاية. كان يتصور بذلك أنه سيكسب مودتي. ولو أنه كان أثقب نظرًا لأحس أنه قد سرق. ولكنني رأيت على العكس من ذلك أنه راض، وأنه يتصور أن ما قاله وجد صدًى في نفسي. وإذ لم أقل شيئًا – ولعله شعر ببعض الحرج من سكوتي هذا- أضاف:

- إنني أعتمد على أن غربتها في كامبريدج ستحول بينها وبين مقارنة ستكون في غير صالحي.

ماذا قصد بها؟ حاولت ألا أفهم. لعله كان يأمل أن أحتج على هذا القول، ولكن احتجاجًا كهذا ربما زاد الموقف بيننا حرجًا. إن دوفييه من هؤلاء الناس الذين لا يحتملون –من فرط خجلهم- السكوت، وهو أيضًا من الذين يتصورون في هذه المواقف أن عليهم أن يشجعوا محدثهم بإظهار شعور مبالغ فيه نحوه، وهم يقولون بعد ذلك: لقد كنت دائمًا صريحًا معك.

ولكن ليس المهم في نظري أن تكون صريحًا، ولكن المهم أن تترك لمحدثك الفرصة ليكون صريحًا. ولم يفهم دوفييه أن صراحته منعتني من أكون صريحًا.

ولكن إذا لم أستطع أن أكون صديقًا، له فليس هذا بمانع أن يكون زوجًا ممتازًا للورا. على أن ما آخذه عليه هو حسناته. ثم تكلمنا عن مدينة كامبريدج، ووعدت بالذهاب إليها لزيارتهما.

أي رغبة سخيفة حدت بلورا إلى أن تكلمه عني؟

عجيب ميل المرأة إلى التضحية! إن الرجل الذي تحبه ليس في أغلب الأحيان في نظرهما إلا مشجبًا تعلق عليه حبها. إن لورا قادرة على أن تبدل شخصًا بآخر في يسر صادق. إنني أفهم أن تتزوج من دوفييه، وكنت أول من نصحها بذلك، ولكن كان من حقي أن أنتظر منها بعض الأسى. سيتم الزواج بعد ثلاثة أيام.

لقد ظهرت بعض المقالات عن كتابي. الصفات التي ينسبونها إليَّ هي بالذات التي أمقتها... هل وفقت في أن أعيد نشر هذه الآراء العتيقة؟ إنها لم تعد تعبر عما أحبه الآن. ولكني لم أشعر بذلك إلا الساعة. لا أعتقد أنني تغيرت، ولكن يبدو أنني بدأت الآن فقط أفهم نفسي. ولم أكن أعرف ذاتي حتى الآن. هل من الممكن أن أكون دائمًا في حاجة إلى من يوضح لي حقيقة نفسي؟ تبلور هذا الكتاب لما أرادته لورا، ولذا لا أحب أن أعثر على نفسي خلال سطره.

ثقابة النظر هذه المصنوعة من التعاطف، هل حُرِّمت علينا؟ ثقابة النظر التي تتيح لنا أن نسبق الزمن؟

أي مشاكل سوف تقلق جيل المستقبل؟ إنني أريد أن أكتب لهذا الجيل الجديد. أريد أن أقدم قوتًا لتطلعهم الذي لم يزل غامضًا، وأن أرضي فيهم رغبات لم تتحدد بعد، بحيث يدهش من لا يزال طفلًا اليوم، عندما يلقاني في طريقه مستقبلًا.

كم يعجبني أن أجد لدى أوليفييه كل هذا التطلع، وعدم الرضا عن الماضي... يبدو لي أحيانًا أن الشعر هو الشيء الوحيد الذي يلقى اهتمامًا منه. وأشعر عندما أقرأ الشعر وأنا أفكر فيه مدى قلة أولئك الشعراء الذين تركوا للفن العنان ليقودهم، بدلًا من أن يقودهم قلبهم أو عقلهم. والغريب في الأمر أن أوسكار مولينييه عندما أراني أشعار أوليفييه، نصحت هذا الأخير بأن يحاول أن يترك نفسه للألفاظ تقوده، بدلًا من أن يحاول إخضاعها. ولكن يبدو لي الآن أن أوليفييه نفسه هو الذي يعلمني.

كم يبدو لي كل ما كتبته حتى الآن سخيفًا ومملًا ومضحكًا من فرط ما فيه من منطق!

5 نوفمبر – تمت مراسم الزواج في الكنيسة الصغيرة التي تقع بشارع «مدام» والتي لم أدخلها منذ زمن بعيد. وكانت عائلة «فيدال آزائيس» حاضرةً بكامل هيئتها: جد «لورا» وأبوها وأمها وشقيقتاها وشقيقها الأصغر، ثم عدد من الأعمام والعمات ومن أبناء عمومتها. أما عن عائلة «دوفييه» فكان يمثلها ثلاث من العمات يلبسن الحداد ولا شك أن الكاثوليكية كانت خليقةً أن تجعلهن راهبات. وقد علمت أنهن يعشن معًا، وأن «دوفييه» كان يعيش معهن أيضًا منذ وفاة والديه. وكان تلاميذ مدرسة «آزائيس» يملأون المقاعد بالشرفة. وملأ البقية الباقية من مقاعد القاعة أصدقاء العائلة وجلست في آخر القاعة. ورأيت – غير بعيد عني- شقيقتي ومعها أوليفييه ولا بد أن جورج كان في الشرفة – مع رفاق في مثل سنه. وكان «لابيروز» العجوز يعزف على الأرغن، ورأيت عليه أمارات الشيخوخة وقد زاد وجهه حسنًا ووقارًا، ولكن تجردت نظرته من ذلك البريق الذي كان ينقل إليَّ حماسته وقت أن كان يلقنني دروسًا في العزف على البيانو. والتقت نظراتنا وشعرت خلال الابتسامة التي حياني بها مدى أساه، ولذا قررت أن أنتظره عند الخروج. وتحرك بعض الحضور من أماكنهم، وخلا مقعد بجانب «بولين». وفي الحال أشار إلى «أوليفييه» ثم دفع أمه لكي أتمكن من الجلوس بجانبه، وأمسك بيدي وتركها طويلًا في يده. وكانت تلك أول مرة يتصرف فيها معي بمثل هذه الألفة، وقد أغلق عينيه

طوال المدة التي استغرقها القس في إلقاء موعظته مما أتاح لي أن أتملى منه طويلًا. إنه يشبه تمثال ذلك الراعي النائم المنحوت على الحجر والموجود في متحف مدينة «نابولي»، والذي أحتفظ بصورة له على مكتبي. ولولا ارتعاش أصابعه لاعتقدت أنه نائم فعلًا، وكانت يده تنتفض كالعصفور في يدي.

ورأى القس أن يسرد تاريخ العائلة جميعها. فبدأ بتاريخ «آزائيس» الجد وكان زميله في الدراسة بمدينة «ستراسبورج» قبل الحرب، ثم زميلًا له في الدراسة بكلية اللاهوت. وحاول أن يشرح في جملة معقدة لا تكاد تنتهي أن «آزائيس» عندما أدار مدرسته، وعندما كرس حياته لتربية النشء، لم يبتعد بهذا العمل عن حياة رجال الدين. ثم تكلم عن الجيل الجديد، كما أشاد بعائلة «دوفييه» وإن كان يبدو أنه لا يعرف عنها شيئًا يذكر. وكان سمو عاطفته يغطي ضعف خطابته، وسمع بعض الحضور يمسحون أنوفهم من عبرات التأثر. وكنت أود أن أعرف رأي أوليفييه في كل ما يجري.

وأعتقد أن ما يجري في هذا الجو البروتستانتي لا بد أن يكون جديدًا عليه فقد نشأ نشأةً كاثوليكيةً ولا شك أن هذه أول مرة يحضر فيها إلى هذا المعبد. إن السهولة التي أتجرد بها من شخصيتي والتي تتيح لي أن أشعر بما يشعر به الآخرون، جعلتني أحس بما يحس به «أوليفييه»، أحس ما تصورت أنه يشعر به. وبالرغم من أن عينيه كانت مغلقتين، أو ربما لهذا السبب نفسه، كنت أرى أنني أنظر بعينيه -وللمرة الأولى- إلى هذه الجدران العارية وهذا الضوء الغامض الشاحب الذي شمل الحاضرين، ثم منصة الخطابة التي يتعارض لونها مع لون الحائط الأبيض خلفها، ثم هذه الخطوط المستقيمة وهذه الأعمدة المجردة من الزخرف والتي تحمل الشرفات، وطابع هذا الفن المعماري الذي يتميز بميله إلى الزوايا والنفور من الألوان. وكان كل ذلك يظهر لي بجموده وصرامته وتقشفه. وإن كنت لم أشعر بذلك من قبل، فسبب هذا ولا شك أنني تعودت عليه منذ الصبا... ورجعت بذاكرتي إلى أول عهدي بالأشياء الدينية وإلى حماستي الدينية عند ذاك وإلى لورا، وإلى قداس يوم الأحد، حيث كنا نلتقي، وكان كل منا يشرف على فرقته. وكانت الحماسة تملأ قلبينا كما كنا لا نميز - في هذه النشوة التي تستنفد كل ما في نفوسنا من دنس- بين ما على أحدنا للآخر وبين ما عليه لله. وأسفت في الحال؛ لأن «أوليفييه» لم يشعر مثلي هذا الحرمان الحسي الذي ينأى بالروح عن مظاهر الحياة، أسفت أن لا يكون له مثلي ذكريات كهذه. ولكن شعوري بأن هذه الأمور الغريبة عليه ساعدني على التخلص منها.

وضغطت بلهفة على يده التي تركها في يدي، ولكنه سحبها فجأةً في هذه اللحظة، وفتح عينيه لينظر إليَّ، ثم مال عليَّ، وتمتم في لهجة فيها خبث الطفولة، وإن كان يلطف من حدتها وقار جبينه العجيب، وكان القس في هذه اللحظة بالذات يذكر جميع المسيحيين بواجباتهم ويعطي نصائحه للعروس وزوجها، وتمتم:

- أما عني فلا يهمني كل ذلك. إنني كاثوليكي.

إن كل شيء فيه يجذبني، ويستغلق عليَّ.

وقابلت عند باب الخروج «لابيروز» العجوز، وبادرني بلهجة حزينة وإن كانت مجردة من العتاب:

- إنك تتساني قليلًا، على ما أعتقد.

وانتحلت بعض الأعذار بمشاغلي؛ لأني لم أزره كل هذه المدة الطويلة، ووعدته بأن أزوره بعد يومين، وحاولت أن أصحبه إلى بيت عائلة «آزائيس» -إذ كنت مدعوًّا لتناول الشاي بعد حفل القران- ولكنه اعتذر عن ذلك، وقال: إن مزاجه منقبض، وأنه يخشى أن يصادف كثيرًا من الناس يضطر إلى محادثتهم، بينما هو يشعر بعدم قدرته على ذلك.

واصطحبت «بولين جورج»، وتركتني مع «أوليفييه»، وقالت لي ضاحكةً:

- إنني أعهد به إليك.

ويبدو أن قولها هذا ضايق أوليفييه؛ لأنه أشاح بوجهه، وجذبني إلى الشارع، وقال:

- لم أكن أدري أنك تعرف جيدًا عائلة آزائيس.

وقد اندهش لما أخبرته أنني قمت عندهم سنتين، فسألني:

- كيف أمكنك أن تفضل هذا النوع من الإقامة على أي نمط آخر من الحياة يحفظ لك حريتك؟

وأجبته:

- لقد وجدت في ذلك بعض الراحة. ولم أكن أستطيع أن أخبره أن لورا كانت تشغل بالي في هذه الفترة، وأنني كنت أقبل أقسى الأنظمة في سبيل أن أكون إلى جوارها، وسألني ثانيةً:

- أولم تكن تشعر بالاختناق وأنت تعيش في ذلك الجو؟ ولما لم أجبه بشيء، أضاف:

- على العموم، لا أدري كيف أطيق هذا الجو أنا نفسي، ولا كيف بقيت فيه؟ فإنني، وأنا في القسم نصف الخارجي، يبدو لي أن ذلك شيء لا يطاق.

واضطررت إلى أن أشرح له مدى الصداقة التي كانت تربط جده بمدير هذه المدرسة، وكيف أن ذكرى هذه الصداقة دفعت أمه إلى هذا الاختيار.

وأضاف: -إنني على العموم- أفتقر إلى الأسباب التي تمكنني من المقارنة بين هذا المكان وغيره من الأماكن، ولكن لا شك في أن كل هذه الأماكن الخانقة متشابهة، بل وأعتقد -تبعًا لما سمعته- أن المدارس الأخرى أسوأ حالًا من مدرستي؛ ولكن ذلك لا يمنع أن أسعد أعظم السعادة لو استطعت الخروج منها، ولولا اضطراري إلى تعويض ما فاتني بسبب مرضي لما دخلتها ألبتة. على أن هناك سببًا آخر، وهو أنني منذ وقت طويل لا أتردد عليها إلا للصداقة التي تربط بيني وبين أرمان.

وعلمت عندئذ أن هذا الأخ الأصغر للورا كان زميلًا لأوليفييه، وقلت لأوليفييه: إنني لا أعرف أرمان إلا معرفةً بسيطةً جدًّا.

فأجابني: ومع ذلك فهو أكثر أفراد هذه العائلة ذكاءً واستهواءً للنفوس.

وأجبته: أي هو الشخص الوحيد في هذه العائلة الذي اهتممت بأمره أكثر من غيره.

- لا، لا، أؤكد لك أنه عجيب، وإذا أردت، فلنذهب إلى غرفته لنتجاذب معه أطراف الحديث، وأرجو أن يجرؤ على الحديث أمامك.

وكنا في هذه اللحظة قد وصلنا إلى المدرسة.

وكانت عائلة «فيدل آزائيس» قد استعاضت عن وليمة الزفاف بحفل شاي أقل تكاليف، وكانت غرفة الاستقبال الكبيرة وغرفة مكتب القس فيدا مفتوحتين لاستقبال المدعوين، أم حجرة الاستقبال الصغيرة الخاصة بزوجة القس فلم يكن مسموحًا بدخولها إلا لبعض الخاصة، وكان الباب الموصل بين هذه الغرفة وغرفة الاستقبال الكبيرة قد أُغلق ليمنع المدعوين من احتلال الغرفة الصغيرة، ولذا كان أرمان يجيب من يسألونه عن كيفية دخولهم هذه الغرفة لمقابلة والدته: بأن ذلك يكون عن طريق المدفأة.

وكان الازدحام كبيرًا، والحرارة شديدةً، وكان المدعوون جميعًا من البروتستانتيين ما عدا زملاء دوفييه من هيئة التدريس. كانت روح البروتستانتية المتطهرة تفوح في كل مكان، وكانت رائحتها أشد مما في اجتماعات الكاثوليكية أو اليهود عندما يلتقون ويتركون لأنفسهم العنان، ولكني أعتقد أن اجتماعات الكاثوليكيين تتميز بنوع من التقدير للفرد، وأن اجتماعات اليهود تمتاز بالتقليل من شأنه، أما البروتستانتيون فهم لا يستطيعون هذا التقدير إلا فيما ندر، وإذا كان اليهود يمتازون بطول أنوفهم، ويشمون كل شيء، فإن البروتستانتيين مسدودو الأنوف. أما أنا، فلم ألحظ شيئًا من هذه الخصيصة في الجو البروتستانتي طالما كنت منغمسًا فيه، لم ألحظ ما فيه من سمو ونورانية وسذاجة.

وفي آخر القاعة مدت مائدة على شكل مقصف، وقدمت الشاي راشيل شقيقة لورا الكبرى، وسارة شقيقتها الصغرى، ومعها بعض صديقاتها من الفتيات في سن الزواج.

وما إن لمحتني لورا، حتى قادتني إلى مكتب أبيها حيث عقد اجتماع ديني، واستطعنا أن نتحادث دون أن يسمعنا أحد، ونحن نحتجب في تجويف نافذة من النوافذ، وكنا فيما مضى من الزمان قد سجلنا اسمينا على إطار هذه النافذة، وقالت لي:

تعال وانظر ما زال اسمانا هنا، وأعتقد أن احدًا لم يلحظهما، كم كان عمرك حينئذ؟

وكنا قد سجلنا فوق اسمينا تاريخًا، وحسبت حسابي وأجبتها:

ثمانية وعشرين عامًا، وكنت أنا في السادسة عشرة، ها قد مرت عشرة أعوام منذ ذلك التاريخ.

لم يكن الظرف مناسبًا لتحريك هذه الذكريات، وكنت أحاول أن أبتعد بحديثنا عن هذه الأمور، بينما كانت تعيدني بإلحاح قلق إلى ذلك الموضوع، ثم سألتني فجأة -وكأنها خشيت أن تتخاذل- أما زلت أذكر ستروفيلهو؟

كان «ستروفيلهو» تلميذًا بالقسم الداخلي، وكان يزعج والدي لورا إزعاجًا كبيرًا في ذلك الوقت، وكان المفروض أنه يحضر لبعض الدراسات، ولكنه كان يجيبك بإهمال قائلًا عندما تسأله: أي دراسات هذه؟ أو أي امتحانات ينوي دخولها.

- إنني أنوِّع دراساتي.

وكانوا يتظاهرون في أول عهدهم به بتقبل وقاحاته على أنها دعابات، لكي يخففوا من وطأتها، وكان بدوره يصحب هذه الدعابات بضحكة عريضة، إلا أن هذه الضحكة أخذت تزداد سخرية، بينما كانت تعليقاته تتخذ صفة الهجوم المتزايد، ولم أكن أفهم السبب الذي يجعل القس يقبل مثل هذا التلميذ في مدرسته، اللهم إلا إن كان هذا السبب ماليًّا، أو لأنه يشعر نحو ستروفيلهو بنوع من الود المختلط بالشفقة عليه، وربما كان القس يتمسك بأهداب أمل ضعيف في إقناعه، أو بمعنى أصح في إصلاح أمره، وكذلك لم أكن أفهم السبب الذي من أجله استمر ستروفيلهو في الإقامة بهذه المدرسة، وقد كان في مقدوره أن يذهب إلى مكان آخر، ولم يكن يبدو عليه أن ثمة أسبابًا عاطفيةً تشجعه على البقاء مثلي.

ولكن ربما كان السبب في بقائه ما كان يشعر به من متعة في محاوراته مع القس المسكين الذي كان يعجز دائمًا عن الدفاع عن نفسه، وكان يدع لستروفيلهو الفرصة لينتصر عليه دائمًا.

وسألتني «لورا» هل أذكر اليوم الذي سأل فيه ستروفيلهو والدها إن كان يحتفظ وهو يلقي خطابه الديني على المنبر بسترته من تحت عباءته.

وأجبتها بأنه سأل هذا السؤال بطريقة لطيفة للغاية، حتى أن والدها لم يلمح ما في السؤال من خبث، وأن هذا الحديث كان يجري على المائدة، وأنني أذكر كل ذلك جيدًا...

- أو تذكر اللهجة البريئة التي أجابه بها والدي حين قال: إن عباءته ليست ثقيلة، وأنه يخشى أن يصاب بالبرد إن خلع سترته؟

- ومظهر الأسف الزائف الذي بدا على ستروفيلهو عندئذ، وكيف اضطر أن يعلن أخيرًا أن هذا الأمر ليس له أي أهمية سوى أن والدك من عادته أن يقوم بحركات، ولهذا كانت تظهر أكمام سترته من تحت عباءته مما كان له تأثير غير مستحب على بعض الحاضرين.

- وكانت نتيجة ذلك أن ألقى المسكين خطبته الدينية بأكملها لاصقًا ذراعيه بجسمه، وفوت عليه ذلك كل تأثيرات فصاحته.

- ثم إنه عاد يوم الأحد التالي وهو مصاب بزكام شديد؛ لأنه خلع سترته، وكذلك المناقشة عن التينة العقيم التي جاء ذكرها في الإنجيل، والأشجار التي لا تثمر فاكهة... وقوله للقس: لست شجرة فاكهة. إني لا أحمل غير الظل يا سيدي الراعي. إنني أفيء عليكم ظلي.

- وهذا القول أيضًا قاله على المائدة.

- بالطبع؛ إذ إننا لم نكن نراه إلا وقت الوجبات.

- وكل هذا قاله بلهجة مليئة بالتحدي، وعندئذ طرده جدي. أتذكر كيف انتصب جدي واقفًا فجأةً –وهو الذي لم يكن يرفع رأسه عن طبقه؟ عادةً- وكيف قال له وهو يمد ذراعه: أخرج؟

- لقد بدا مهولًا ومخيفًا، وكان غاضبًا، وأعتقد أن ستروفيلهو خاف حقًّا.

- لقد ألقى منشفته على المائدة واختفى، وقد ذهب دون أن يسدد ما عليه، ولم نره منذ ذلك الحين.

- ترى، ماذا صار الآن؟

وأردفت لورا بلهجة حزينة، يا لجدي المسكين، كم بدا لي جميلًا في ذلك اليوم! إنه يحبك كثيرًا كما تعلم، عليك أن تصعد إليه لزيارته في مكتبه، ولو للحظة، وأنا واثقة أنه سيسر كثيرًا لذلك.

لقد سجلت كل هذه الأشياء في حينها؛ لأنني شعرت بأن تسجيل ذلك بعد حدوثه يفقد الحوار كثيرًا من دقته، ولكنني بدأت منذ تلك اللحظة أصغي إلى «لورا» بشرود، وكنت قد تبينت على مسافة مني «أوليفييه» الذي غاب عن ناظري منذ اللحظة التي قادتني فيها «لورا» إلى غرفة مكتب أبيها، وكانت عينا «أوليفييه» تلمعان، وملامح وجهه تعبر عن الانفعال بطريقة غريبة.

وعلمت فيما بعد أن «سارة» أخذت تلهو، فدفعته إلى شرب ست كؤوس متوالية من «الشمبانيا»، وكان «أرمان» معه، والاثنان يلاطفان ويتبعان بين المدعوين «سارة» وفتاة إنجليزية في مثل سنها كانت قد التحقت بالقسم الداخلي بالمدرسة منذ أكثر من عام، وأخيرًا خرجت «سارة» وصديقتها من الحجرة، ورأيت خلال الباب المفتوح الشابين وهما يندفعان للحاق بهما على السلم، وكنت على وشك أن أخرج بدوري لأنفذ ما طلبته مني «لورا» أي زيارة جدها، ولكنها أوقفتني قائلةً:

- أصغ إليَّ يا «إدوارد». بودي أن أقول لك شيئًا... ثم أصبحت لهجتها جادةً جدًّا، وأردفت:

- ربما بقينا طويلًا دون أن نلتقي، وأود أن تعيد على مسامعي... أريد أن أعرف: أما زلت أستطيع الاعتماد عليك... كصديق؟

ولم أشعر قط فيما مضى بمثل هذه الرغبة في تقبيلها، ولكنني اكتفيت بتقبيل يدها بحنان وشدة، وأنا أتمتم: مهما يحدث.

ولكي أخفي عنها الدموع التي طفرت إلى عيني، هربت منها بسرعة، وذهبت أبحث عن «أوليفييه». وكان أوليفييه يترقب خروجي جالسًا بالقرب من «أرمان» على درجة من درجات السلم، وكان -ولا شك- ثملًا قليلًا، ونهض وجذبني من ذراعي وهو يقول:

- تعال. سنذهب إلى غرفة «سارة» لندخن لفافةً، وهي تنتظرنا.

- سوف ألحق بكم بعد لحظة، يجب أن أزور «آزائيس» أولًا، ولكني لن أهتدي أبدًا إلى هذه الغرفة.

وهنا صاح «أرمان»: إنك تعرفها جيدًا، إنها غرفة «لورا» سابقًا، ولما كانت هذه الغرفة من أفضل غرف البيت، فإننا خصصناها للنزيلة الجديدة، ولكن نظرًا لأنها لم تكن تدفع مبلغًا مناسبًا مقابل ذلك، فإن «سارة» تقتسم الغرفة معها. لقد وضعوا لهما سريرين، وهذا لمجرد المحافظة على المظهر، ولكن لم يكن لهذا لزوم...

وهنا قال «أوليفييه» ضاحكًا وهو يدفع أرمان: لا تصغ إليه، إنه ثمل. فرد أرمان: إذَنْ تكلم أنت. ثم وجه الحديث لإدوارد قائلًا:

- سوف تأتي، أليس كذلك؟ إننا ننتظرك.

ووعدت أن ألحق بهما في غرفة سارة.

تغير شكل العجوز آزائيس كثيرًا منذ أن اعتاد تصفيف شعره على شكل الفرجون، لقد تنازل لعائلة صهره عن الطابق الأول والطابق الثاني من البيت الكبير، وبقي في الطابق الثالث، وهو يطل -من هذا الارتفاع- من نافذة حجرة مكتبه - المؤثثة بأثاث مصنوع من خشب الأرو، مكسو بالحرير والمشمع- فيرى التلاميذ وهم يغدون ويروحون في الفناء، وقال لي آزائيس:

- أترى كيف يدللونني؟ قالها وهو يشير إلى باقة كبيرة من زهر «الكريزانتيم» كانت قد أحضرتها والدة أحد التلاميذ وهي صديقة قديمة للعائلة، وكان جو الحجرة يتسم بوقار جديد بأن تذبل فيه أي أزهار في الحال، وأردف:

- لقد تركت جموع المدعوين، فقد تقدمت بي السن، وأصبح ضجيج المناقشات يرهقني، ولكن هذه الأزهار سوف تؤنس وحدتي، إنها تتحدث بطريقتها الخاصة وهي تصف أمجاد الله أحسن مما يصفها الناس (أو قال شيئًا من هذا القبيل).

هذا الرجل الوقور لا يمكن أن يتصور إلى أي مدى يصل الملل بالتلاميذ عندما يقول لهم مثل هذه الأشياء، وإن كان فيما يقوله بنبرة إخلاص تمنعك من أن تسخر منه. إن القلوب البريئة -مثل قلب آزائيس- هي أصعب القلوب استغلاقًا على فهمي، لو لم يكن المرء بسيطًا مثلهم، لاضطر لكي يجاريهم إلى أن يمثل دورًا ما، وهذا وضع غير أمين، ولكن ما العمل في مثل هذه الظروف؟ إن المرء لا يستطيع أن يناقشهم، ولا أن يحاول أن يستوضحهم، ولذا يضطر إلى موافقتهم على ما يقولونه. إن آزائيس يدفع من حوله إلى نوع من أنواع النفاق إن لم يشاركوه معتقداته، لقد كنت في أول عهدي بهذه العائلة أغضب إذ أرى أحفاده يكذبون عليه، ولكنني اضطررت أن أسايرهم.

أما عن القس بروسبير فيدل، فهو رجل جم المشاغل.

وزوجته السيدة «فيدل» على شيء من البساطة، وإنها لغارقة في نوع من الشرود الشاعري الديني يجعلها تفقد إحساسها بكل ما هو واقعي.

والجد هو الذي أخذ على عاتقه تربية النشء في العائلة وتعليمهم، وكنت أستمع مرة في الشهر -في المدة التي قضيتها عندهم- إلى مناقشاته العاصفة، وكان يختتمها دائمًا بتلك العبارات المؤثرة:

«من الآن فصاعدًا، لن يخفي بعضنا عن بعض شيئا، سوف نبدأ عهدًا جديدًا شعاره الصراحة والإخلاص (ومن دأبه أن يستعمل مترادفات كثيرة في التعبير عن شيء واحد؛ وهي عادة قديمة اكتسبها منذ كان من رجال الدين). وسوف نلقي عنا هذه النيات السيئة، هذه الأفكار القبيحة التي تعتمل داخل نفوسنا، وسيواجه بعضنا بعضا بصراحة، ولن يخفي بعضنا عن بعض شيئًا، أليس كذلك؟ لقد اتفقنا».

وبعد هذه المناقشات، كان الجميع ينغمسون فيما دأبوا فيه: هو في سذاجاته، وأولاده في كذبهم عليه.

وكانت هذه النصائح توجه بصفة خاصة إلى شقيق للورا يصغرها بعام، وكانت فورة الشباب تدفعه إلى محاولات لإرضاء غرائزه (ولقد رحل إلى المستعمرات؛ ليعمل في التجارة، ولم أره بعد ذلك). وذات مساء، وبعد أن أعاد العجوز جملته التقليدية، ذهبت إلى مكتبه لأقابله، وحاولت أن أفهمه أن

هذه الصراحة التي يطلبها من حفيده كانت مستحيلة، ما دام هو بدوره لا يتساهل أبدًا، وغضب عندئذ «آزائيس» وصاح قائلًا:

- إذَنْ، يجب عليه ألا يرتكب ما يخشى أن يعترف به. قالها بلهجة لا تسمح بالجدل.

وهو مع ذلك رجل ممتاز، بل هو أفضل من هذا، إنه مثال للفضيلة، إنه ما اتفق الناس على التعبير عنه بقولهم: «له قلب من ذهب»، إلا أن أحكامه على الناس صبيانية، ومصدر تقديره لي أساسه اعتقاده بأن لا عشيقة لي، ولم يخف عني أمنيته في أن يراني زوجًا للورا، وهو يشك في أن يكون «دوفييه» زوجًا صالحًا لها، وكرر لي قوله هذا: «إن اختيارها يدهشني». ثم أردف: «على العموم أعتقد أنه رجل شريف... ما رأيك فيه؟» وقد أجبته قائلًا:

- بالتأكيد.

كلما انغمست النفس في التدين، كلما فقدت الإحساس بالواقع وتذوقه وحبه والحاجة إليه، وقد تبينت ذلك أيضًا عند «فيدل» رغم أنه لم يتح لي أن أحدثه إلا قليلًا، فبهرة إيمان الناس تعميهم عن رؤية العالم الذي يحيط بهم، بل عن رؤية أنفسهم، أما بالقياس إليَّ -وهمي أن أرى ما يجري في هذه النفوس-، فإني أذهل حين أبصر جسامة الكذب الذي يمكن للإنسان المتدين أن يعيش فيه راضيًا.

حاولت أن أجعل «آزائيس» يكلمني عن «أوليفيه» ولكن اهتمامه موجه بخاصة إلى جورج.

وبدأ حديثه عن «جورج» قائلًا: لا تجعله يشعر بأنك تعرف ما سأقوله لك، وعلى العموم كل ما سأقوله مشرف له... تصور أن ابن أختك الصغير، وبعض رفاقه قد كوّنوا فيما بينهم نوعًا من الحلف هدفه أن يحفز بعضهم بعضًا على فعل الخير، وهم لا يشركون معهم إلا من يرونه جديرًا بذلك؛ أي من يثبت تمسكه بالفضيلة. إنه نوع من «جوقة الشرف» مكونة من الأطفال، ألا ترى أن ذلك شيء لطيف؟ وكل واحد منهم يثبت في عروة سترته شريطًا صغيرًا غير واضح، إلا أنني لمحته مع ذلك، وقد أحضرت الطفل إلى مكتبي فارتبك عندما طلبت منه أن يشرح لي معنى هذا الشعار، وكان الصغير العزيز يتوقع تأنيبًا مني، ثم أفصح لي وهو مرتبك ووجهه يكسوه الاحمرار عن تكوين هذا النادي، يجب ألا نبتسم عند سماع مثل هذا خشية خدش هذه العواطف الرقيقة... وقد سألته عما يحدو به وبزملائه إلى إخفاء هذه الأمور، وعدم إعلانها، ثم كلمته عن مدى الدعاية التي يمكن أن يبذلوها، وعن قوة التبشير بمذهبهم، وعن الدور الجميل الذي يمكن أن يقوموا به... ولكنهم في مثل هذه السن يحبون الغموض... ولأكسب ثقته قلت له: إنني عندما كنت في مثل سنه انتميت إلى جمعية من هذا القبيل، وكان أعضاؤها يحملون اسم فرسان الواجب، وكان كل منا يستلم من رئيس الجمعية مفكرة يدون فيها أخطاءه وهفواته بإخلاص تام. وأخذ جورج يبتسم عند سماع ذلك، وأعتقد أن مسألة المفكرات هذه أوحت إليه فكرة جديدة، ولم ألح عليه في أن يفعلوا ذلك، ولكني لن أدهش إن علمت يومًا أنه أقنع زملاءه باتباع هذا النظام. من رأيي أنه يجب أن نعرف كيف نعامل هؤلاء الأطفال، ويجب أن نظهر لهم أولًا أننا نفهمهم، وقد وعدته أن أكتم السر عن والديه، وشجعته على أن يكلم والدته في هذا الأمر؛ إذ سوف يسعدها ذلك للغاية، ولكن يبدو أنه وزملاءه قد أقسموا بشرفهم على أن يظل الأمر طي الكتمان، ورأيت من الحكمة ألا ألح في النصح، ولكني سألت معه الله ونحن نصلي - قبل أن يتركني- أن يبارك حلفهم.

لك الله أيها الأب العجوز العزيز المسكين! إنني واثق أن الصبي قد سخر منه في كل ما قاله له، وأن ليس في قوله كلمة صدق واحدة، ولكن كيف كان يتسنى لجورج أن يجيبه إلا بهذه الطريقة؟ سوف نحاول أن نوضح حقيقة هذا الأمر فيما بعد.

لم أتعرف في بادئ الأمر على غرفة «لورا» إذ كانوا قد أعادوا تنظيمها واختلف جوها تمامًا، وبدت لي سارة أيضًا مجهولة، وكنت أعتقد أنني أعرفها تمام المعرفة، وكانت تشعرني دائمًا بثقتها فيَّ، وقد كنت دائمًا بالنسبة لها «الشخص الذي يمكن أن تبوح له بكل شيء»، إلا أن شهورًا عديدةً قد انصرمتْ، ولم أذهب خلالها لزيارة عائلة فيدل.

وكان ثوب «سارة» يكشف عن ذراعيها وعن عنقها. كانت تبدو وقد كبرت وازدادت جرأةً، وكانت تجلس على أحد السريرين بجانب «أوليفييه» ملتصقةً به، وكان هذا الأخير مستلقيًا دون كلفة حتى ليبدو نائمًا. كان بالتأكيد ثملًا، وقد تألمت لرؤيته على هذه الحال. إلا أنه كان يبدو أجمل من أي وقت مضى، ولقد كان الأربعة ثملين إلى حد ما، أما الإنجليزية الشابة، فتنفجر في الضحك عند سماعها سخافات أرمان، وآلمت ضحكتها الحادة أذني، وكان أرمان يقول كلامًا لا معنى له، ولكنه كان مزهوًّا بضحكاتها، وكانت سخافاته لا تقل تفاهةً ووقاحةً عن هذه الضحكات، وكان يتظاهر بأنه يرغب في أن يشعل سيجارته من خد أخته وخد أوليفييه الملتهبين، كما كان يتظاهر بأن أصابعه ستحترق عند لمس خديهما، ويحاول بحركة وقحة، أن يقرب بالقوة جبهتيهما، وكان كل من أوليفييه وسارة يتجاوبان معه في لهوه، وكان هذا الأمر بالنسبة لي مؤلمًا للغاية، ولكني أستبق الحوادث...

كان أوليفييه لا يزال يتظاهر بالنوم عندما سألني أرمان فجأةً عن رأيي في دوفييه، وكنت جالسًا على مقعد منخفض أشعر بالانفعال والتلهي والضيق معًا بسبب سكرهم، وعدم كلفتهم، ولكن سرني مع ذلك أنهم طلبوا مني الانضمام إليهم بينما كان يبدو في الحقيقة أن مكاني ليس بينهم.

وأردف «أرمان» – لما وجد أنني لا أجد ما أجيب به، وأنني أكتفي بالابتسام لأجاملهم في مجلسهم وأسايرهم- إن هاتين الآنستين الموجودتين هنا... وفي هذه اللحظة أرادت الفتاة الإنجليزية أن تمنعه من الاسترسال في الكلام، وطاردته لكي تضع يدها على فمه، فقاوم وصاح...

- هاتان الآنستان مستاءتان من مجرد التفكير في أن «لورا» سوف تضاجع «دوفييه»، وتركته الفتاة الإنجليزية وقالت وهي تفتعل الغضب: أوه! يجب ألا تصدق ما يقوله. إنه كاذب.

وأضاف «أرمان»: لقد حاولت أن أفهمهما أنه في مقابل العشرين ألف فرنك التي دُفعت كبائنة لم يكن ثمت أمل في الحصول على رجل أحسن منه، وأن «لورا» بصفتها مسيحيةً حقيقيةً يجب أن تراعي بخاصة الصفات الروحية، -على حد تعبير والدنا القس- نعم يا أولادي، ثم ماذا كانت تؤول إليه مشكلة تعمير العالم إذا حكمنا بالعزوبة على من لم يوهب جمال أدونيس([10]) قديمًا، أو جمال «أوليفييه» حديثًا.

وتمتمت سارة: يا له من أبله! لا تصغ إليه، فلم يعد يعي ما يقول.

- إنني أقول الحقيقة.

ولم أكن سمعت «أرمان» قط يتكلم بهذه الطريقة، فقد كان اعتقادي -وما زال- أنه رقيق الطبع حساس، وكانت وقاحته تبدو متكلفةً، ولعل مرجعها هو سكره، وكذلك رغبته في أن يسلي الفتاة الإنجليزية، ولا بد أن هذه الأخيرة -برغم جمالها الذي لا ينكر- بلهاء حتى تتلهى بمثل هذه البذاءات، وكنت أتساءل: أي تسلية يمكن أن يجدها «أوليفييه» في مثل هذه الأقوال؟.. وآليت على نفسي ألا أخفي عنه اشمئزازي بمجرد أن أنفرد به.

وأضاف أرمان وهو يلتفت نحوي فجأةً: ولكن أنت، أنت الذي لا تأبه للمال، وتملك مالًا يتيح لك أن تتمتع بالنبيل من المشاعر، أيمكنك أن تخبرنا لماذا تتزوج لورا وأنت تحبها -كما يبدو- وهي - والكل يعلم ذلك- مولعة بك كل الولع؟

وهنا فتح أوليفييه عينيه -وكان حتى هذه اللحظة يتظاهر بالنوم- وتقابلت نظراتنا، ولا شك أنني إذا كنت لم أشعر بالخجل؛ فذلك لأن الآخرين لم تكن حالتهم تسمح لهم بأن يلاحظوني.

وقالت سارة: أرمان، إنك لا تطاق. وكأنها تريد بذلك أن تنقذني من الحرج؛ لأنني لم أجد ما أجيبه به، ثم ألقت جسمها بطوله على السرير الذي كانت تجلس عليه ملاصقةً لأوليفييه حتى تلامس رأساهما.

وهنا وثب أرمان وأمسك بساتر كبير «برفان» كان مطويًّا عند مقدمة السرير ومستندًا إلى الحائط، فنصبه بحيث جعله يحجب الاثنين، ثم قال بصوت عال - وهو يسخر وينحني فوقي-:

- لعلك لم تكن تعرف أن شقيقتي عاهرة؟

وكان هذا أكثر مما أحتمل، فنهضت ورفعت الساتر، ونهض من ورائه في الحال أوليفييه وسارة واقفين، وكان شعر سارة مشعثًا، وتوجه أوليفييه إلى دورة المياه، وغسل وجهه.

وقالت سارة - وهي تجذبني من ذراعي-:

- تعال هنا؛ أريد أن أريك شيئًا.

وفتحت باب الغرفة، وقادتني إلى الردهة الخارجية، وقالت لي:

- رأيت أن هذه الفكرة قد تثير اهتمام قصصي، وإنها مفكرة وجدتها مصادفةً، وكان والدي يكتب فيها مذكراته، ولست أدري كيف تركها تضيع منه. كان في مقدور أي إنسان أن يقرأ ما فيها. وقد أخذتها لكي لا يراها أرمان. لا تكلمه في هذا الأمر. ليس فيها الكثير، ويمكنك أن تقرأ ما فيها في عشر دقائق، وأن ترجعها لي قبل أن ترحل.

وقلت لها -وأنا أحدق فيها-: ولكن يا سارة إن ما تفعلينه فضول فظيع.

فرفعت كتفيها، وقالت:

- أوه! إن كنت تعتقد ذلك فسيخيب ظنك، إن ما في هذه الفكرة لا يثير الاهتمام إلا للحظة فقط... خذ، سوف أريك هذا، وأخرجت من طيات ثوبها مفكرةً صغيرةً جدًّا -مر عليها أربع سنوات- وتصفحتها لحظةً، ثم أعطتني إياها مفتوحة وهي تشير إلى صفحة، وقالت:

- اقرأ بسرعة.

ورأيت أولًا -تحت تاريخ بين قوسين- هذه النبذة من الإنجيل.

(من كان أمينًا في صغائر الأمور، كان أمينًا في كبائرها)؛ ثم. لماذا أرجئ دائمًا إلى اليوم التالي القرار الذي أريد أن أتخذه لأمتنع عن التدخين؛ حتى لا أحزن ميلاني (وهو اسم زوجته) على الأقل؟ يا إلهي – هبني القوة لأتخلص من هذه العبودية المخجلة. (وأعتقد أنني أسجل ما قرأته بالضبط).

وتبع ذلك ذكر أنواع الصراع، والجهود التي لا جدوى منها؛ لأنه كان يكرر هذه الأقوال لنفسه كل يوم، ثم قلبنا الصفحة، وفجأةً تغير الموضوع.

وقالت سارة -في لهجة فيها شيء من السخرية الخفيفة- بعد أن أكملت قراءتي:

- هذا أمر مؤثر، أليس كذلك؟

ولم أستطع أن أمتنع عن أن أقول لها وأنا ألوم نفسي:

هذا عجيب أكثر مما تتصورين. تخيلي أنني منذ عشرة أيام سألت والدك: هل حاول أن يكف عن التدخين؟ وكنت أشعر بأنني أنقاد لعادة الإسراف في التدخين بدوري و... بالاختصار، أتعرفين بماذا أجابني؟ قال لي: إنه يعتقد أن الناس يبالغون في تصوير مضار التدخين، وأنه من جانبه لم يشعر أبدًا بتلك الأضرار، ولما أصررت على سؤالي أجابني أخيرًا قائلًا:

- أف! لقد قررت مرتين أو ثلاث مرات أن أكف عن ذلك بعض الوقت.

وسألته: وهل نجحت في ذلك؟

فأجابني، وكأنه أمر طبيعي: «طبعًا ما دمت قد قررت ذلك!».

- هذا أمر مدهش للغاية. وأضفت أنه ربما لا يذكر، ولم أرغب أن أظهر أمام سارة كل ما كنت أتهمه به من نفاق.

وأضافت سارة -أو ربما أثبت ذلك-: أن كلمة تدخين قد استعملها للدلالة على شيء آخر!

هل هذه سارة التي تقول ذلك؟ كنت لا أصدق نفسي، ونظرت إليها وأنا لا أجرؤ على فهم ما تعنيه...، وفي هذه اللحظة خرج أوليفييه من الغرفة، وكان قد مشط شعره، ونسق هندامه، وبدا أكثر هدوءًا.

وقال لي أمام سارة: أترحل؟ الوقت متأخر.

ونزلنا، وقال لي بمجرد أن وصلنا إلى الشارع:

- أخشى أن تسيء فهم بعض الأشياء. وربما تصورت أنني أحب سارة. لا، الأمر ليس كذلك... أوه! إنني لا أكرهها أيضًا... ولكنني لا أحبها.

وأمسكت بذراعه، وضغطته دون أن أقول شيئًا.

وأردف: وكذلك يجب أن لا تصدر حكمك على أرمان بناءً على ما قاله اليوم. إنه يمثل دورًا... بالرغم منه، وهو في حقيقة أمره مختلف تمامًا عن ذلك... ولا أستطيع أن أشرح لك هذا الأمر. إنه يشعر برغبة خفية في أن يهدم كل ما يعتز به، ولم يصبح كذلك إلا أخيرًا. إنني أعتقد أنه تعس جدًّا، وهو لهذا السبب يسخر من كل شيء.

إنه معتز بنفسه جدًّا، ووالداه لا يفهمانه على الإطلاق، وكانا يريدان أن يصنعا منه قسًّا.

وهذه جملة سأضعها على رأس فصل من فصول قصة «المزيِّفون» وقد أخذتها عن «بول بورجيه» وهي:

«العائلة... هذا السجن الاجتماعي».

أما عنوان الفصل فهو: «نظام السجون».

ليس هناك أي سجن «فكري» إلا واستطاع العقل القوي أن يتحرر منه، وليس فيما يدفعنا إلى التمرد خطر حقيقي، ولو أن التمرد قد يفسد الشخصية، فهو يطويها أو يغير من معالمها، أو يجعلها تلجأ إلى الخديعة، والطفل الذي لا يخضع لأثر الأسرة يبذل كل طاقته للتخلص منها، والتربية التي تقاوم الطفل، وتكبته إنما تعمل على تقوية شخصيته، ضحايا التدليل. أي قوة يجب أن يتمتع بها المرء لكي يتمكن من أن يكره ما يُرضي غروره! كم رأيت من والدين «والأم بخاصة» يحلو لهما أن يبعثا في نفوس أبنائهما نفورهم السخيف من أشياء أو تحيرهم لأشياء لا معنى لها، أو عدم فهمهم أو خوفهم... كأن يقولا لهم على المائدة:

- اترك هذا، ألا ترى أن به دهنًا؟ قشر هذا. إنه غير ناضج تمامًا... أو يقولون له -خارج المنزل في المساء-: أوه! هذا خفاش... غط نفسك بسرعة، سوف يهبط على شعرك... الخ... منهم من يقولون مثلًا، إن الخنافس تعض، وأن الجراد يلدغ، وإن دود الأرض يسبب البثور، ويرددون هذه السخافات في كل نواحي الحياة الفكرية والأخلاقية وغيرها.

سمعت في القطار الذي حملني من «أوتي» أول أمس -أمًّا شابة تتمتم في أذن بنتها- وعمرها عشر سنوات وكانت تدللها:

- أنت وأنا، أنا وأنت، أما الآخرون فلا شأن لنا بهم.

«أوه! إنني أعرف أنهما من عامة الناس، ولكننا إذا كنا نمتعض من تصرفات كبار القوم فإن من حقنا أن نمتعض أيضًا من تصرفات عامة الناس».

وكان الزوج -في ركن من العربة- يقرأ جريدته وهو هادئ، مستسلم، وقد لا يكون ممن تخونهم زوجاتهم.

هل يمكن أن نتصور سمًّا أكثر فتكًا مما تقوله هذه الأم لابنتها؟

إن المستقبل للأولاد غير الشرعيين؛ أي بمعنى يمكن أن يكون لهذه التسمية: ابن طبيعي؟ هل للابن غير الشرعي وحدَهُ الحق في أن يكون طبيعيًّا؟

«الأنانية العائلية أقل بشاعة... من الأنانية الفردية».

6 نوفمبر - لم أستطع أبدًا أن أخترع شيئًا، ولكني أمام الحقيقة كالرسَّام أمام نموذجه، يقال له: قم بهذه الحركة، ارسم على وجهك هذا التعبير الذي يناسبني. يمكنني أن أجعل نماذج الشخصيات التي يقدمها لي المجتمع تتحرَّك على هواي إذا عرفت سر حركاتها، أو على الأقل أستطيع أن أضع أمام هذه النماذج بعض المشكلات، وأترك لهم حرية حلها كُلًّا بطريقته الخاصة، وبهذا أستفيد من أثر هذه المشكلات على كل منهم. إن حاجتي الملحة إلى التدخل والتأثير على مصيرهم مبعثها أنني كاتب قصصي. لو كان خيالي أخصب مما هو، لأمكنني أن أوجدهم في مواقف أتخيلها أنا، ولكنني بدلًا من ذلك أتسبب في خلق المواقف، ثم ألاحظ ما يعمله الممثلون فيها، ثم أكتب ما يملون.

7 نوفمبر - ليس هناك شيء حقيقي في كل ما كتبته بالأمس. ويبقى أن أقول هذا: يهمني الواقع كأنه مادة تشكيلية. وإني لأبذل من الانتباه لما قد يكون أضعاف ما أبذله لما كان، وإني لأحنو على مقدرات كل فرد وأرثى لكل عجز سببته التقاليد.

* * *

اضطر «برنارد» إلى قطع حبل قراءته لحظةً. لقد تشوشت نظرته، وتلاحقت أنفاسه، وكأنه كان قد نسي أن يتنفس طوال الوقت الذي استغرقته قراءته؛ لأن اهتمامه كان بالغًا بكل ما يقرأ. ففتح النافذة وملأ رئتيه بالهواء قبل أن يستغرق في القراءة من جديد.

كانت صداقته لأوليفييه حميمةً قويةً ولم يكن له صديق خير منه، ولم يكن يحب شخصًا على هذه الأرض كما أحبه، فهو لم يستطع أن يحب والديه. وكان قلبه معلقًا بهذا الحب تعلقًا زائدًا، ولكن اختلف فهم كل منهما للصداقة. وزادت دهشته كلما استرسل في قراءته، وزاد إعجابه وإن خالط هذا الشعور بعض الألم إذ تبين له كيف انطوى هذا الصديق -الذي حسب أنه يفهمه كل الفهم- على تنوع كثير. لم يقل له «أوليفييه» قط شيئًا مما قرأه في هذه اليوميات. وهو لا يكاد يشعر بوجود «أرمان» و «سارة» ولشد ما كان «أوليفييه» مختلفًا معهم عما كان معه!.. أكان يمكن لبرنارد أن يتعرف على صديقه في غرفة «سارة» هذه وهو مستلق على السرير؟ واختلط بفضوله البالغ الذي كان يدفعه إلى هذه السرعة في القراءة بعض الضيق: أهو شعور بالاشمئزاز أو الغيظ؟ غيظ كالذي شعر به عندما رأى «أوليفييه» متعلقًا بذراع «إدوارد»، حيث إنه ليس معهما. وهذا الغيظ قد يصل بالمرء إلى مدى بعيد جدًّا، وقد يجعله يقترف حماقاتٍ كثيرةً كما هو الحال في كل ألوان الغيظ.

لنترك كل هذا. كل ما ذكرته هنا ليس إلا لإيجاد متنفس بين صفحات اليوميات، والآن وقد تنفس برنارد بما فيه الكفاية فلنعد إلى اليوميات. ها هو برنارد يستغرق مرةً أخرى في القراءة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث عشر

(قليل ما نكسبه من خدمات الكهول).

«فوفنارج».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- يوميات «إدوارد»

8 نوفمبر – غيّر الزوجان العجوزان «لابيروز» مسكنهما من جديد. لم أر حتى الآن شقتهما الجديدة، التي تقع في الطابق الأول بشارع «فوبورج سان هونوريه» قبل تقاطعه مع شارع «هوسمان». ضغطت على زر الجرس، وجاء «لابيروز» ففتح لي الباب، وكان يرتدي قميصه من دون سترة، كما كان يضع على رأسه قلنسوةً بيضاء تخالطها صفرة. وقد استنتجت أن هذه القلنسوة جورب قديم للسيدة لابيروز، وكانت قدم الجورب المعقودة تترجح فوق خده كشرابة قلنسوة القضاء... وكان يحمل في يده قضيبًا منثنيًا «كالذي يستخدم في إشعال نيران المدفأة» ولا شك أنني فاجأته في وقت كان يقوم فيه ببعض الأعمال الخاصة بتنظيف المدفأة، ولما ظهر عليه الحرج سألته:

- هل تريد أن أحضر في وقت آخر؟

وأجابني: لا، لا، ادخل هنا.

ودفعني إلى غرفة ضيقة مستطيلة، تطل نافذتاها على الشارع في مستوى مصباح الطريق وقال:

- كنت أنتظر مجيء إحدى تلميذاتي في هذه الساعة «وكانت السادسة حينذاك»، ولكنها أبرقت لي معتذرةً عن عدم المجيء. إنني سعيد جدًّا برؤياك.

ووضع القضيب على منضدة مستديرة، وأضاف وكأنه يعتذر عن هيئته:

- تركت الخادمة المدفأة تخبو، وهي لا تحضر إلا في الصباح، واضطررت إلى تنظيفها...

- أتريد أن أساعدك في إشعالها من جديد؟

- لا، لا... هذا عمل يوسخ الملابس... ولكن، اسمح لي أن أتركك لأرتدي سترةً.

وخرج وهو يزحف في خطوات قصار، ثم عاد في الحال مرتديًا سترةً خفيفةً من الصوف فقدت أزرارها، وكانت ممزقة الأكمام باليةً، بحيث لا يجرؤ المرء أن يعطيها لمتسوّلٍ. وجلسنا.

وقال: أتجدني تغيرت؟

وأردت أن أعترض على هذا، ولكنني لم أجد ما أجيبه به، وكنت متألمًا جدًّا لرؤية هذا الوجه المكدود الذي عرفته فيما مضى جميلًا. وأضاف:

- نعم لقد تقدمت بي السن كثيرًا في الفترة الأخيرة. وضعفت ذاكرتي. وعندما أريد أن أعزف قطعةً موسيقيةً لباخ أضطر إلى الالتجاء لكراستي الموسيقية...

وأجبته: كثير من الشباب يقنعون لو كانت لهم ذاكرتك!

وأردف وهو يهز رأسه: أوه! ليست الذاكرة فقط هي التي تخونني، عندما أسير يبدو لي أنني أسير بسرعة معقولة، ولكن عندما أكون في الشارع أجد المارة جميعًا يسبقونني.

وقلت: حقيقة الأمر أن الناس يسرعون في السير في هذه الأيام.

وأجاب: أليس كذلك؟. الأمر كذلك بالنسبة للدروس التي أعطيها، فتلميذاتي يرين أن دروسي تعطلهن، وهن يردن أن يسرن بسرعة أكبر. ولهذا السبب ينفض الجميع عني... الناس في عجلة في هذه الأيام.

وأضاف بصوت خفيض جدًّا سمعته بصعوبة:

- لم يبق منهم أحد تقريبًا.

وشعرت بأن يأسه كبير، حتى أنني لم أجرؤ أن أسأله أي سؤال.

وأردف: مدام لابيروز لا تريد أن تفهم حقيقة هذا الأمر. وهي تلومني على أنني أدرّس كما يجب، وتقول إنني لا أبذل أي مجهود لاستبقاء تلميذاتي، وإنني لا أحاول أن أحصل على دروس جديدة.

وسألته في غير لباقة: وهذه الطالبة التي كنت تنتظرها؟وأجاب: أوه! إنني أعدها لدخول معهد الموسيقى. وهي تحضر لتتمرن هنا كل يوم.

- ومعنى هذا أنها لا تدفع لك شيئًا.

- مدام «لابيروز» تؤاخذني على ذلك بما فيه الكفاية! وهي لا تفهم أن الشيء الوحيد الذي ما زال يهمني هو هذه الدروس نفسها. نعم تلك الدروس التي أجد متعةً حقيقيةً في إعطائها. إنني أفكر كثيرًا منذ بعض الوقت. اسمع... هناك شيء كنت أريد أن أسألك عنه: لماذا لا يذكرون شيئًا تقريبًا عن المسنين في الكتب؟.. سبب ذلك -على ما أعتقد- هو أن المسنين لم تعد لهم القدرة على الكتابة، وعندما يكون المرء شابًّا، لا يهتم بالشيوخ. فالمسن لا يثير اهتمام أحد... ومع ذلك فثمت أشياء ممتعة جدًّا يمكن أن تقال في هذا المجال عنهم، لم أفهم معنى بعض ما قمت به من أعمال في الماضي إلا الآن فقط. نعم بدأت أفهم الآن فقط أن ليس له إطلاقًا المعنى الذي كنت أتصوره فيما مضى عندما قمت به... والآن فهمت أنني كنت مخدوعًا طيلة حياتي. لقد خدعتني مدام «لابيروز»، وخدعني الجميع... وسخر الله مني...

بدأ الليل يُرخي سدوله، ولم أعد أتبين ملامح أستاذي العجوز، وفجأة انبثق ضوء مصباح الشارع المجاور، ورأيت عبراتٍ تلمع على خده. شعرت بقلق بادئ الأمر لرؤية بقعة غريبة على جانب صدغه كأنها تجويف أو حفرة، ولكني فهمت بعد أن حرك رأسه حركةً خفيفةً وبعد أن تغير مكان البقعة أن ذلك لم يكن إلا ظل حلية من المصباح انعكس على وجهه، ووضعت يدي على ذراعه النحيل وكان يرتجف، فقلت له:

- ستصاب بالبرد. أحقًّا لا تريد أن أشعل نار مدفأتك؟. هيا بنا.

- لا.. يجب أن نخشوشن.

- ماذا؟ أهذا تقشف؟

- إلى حد ما. إنني لم أرتد أبدًا ملفحةً لأن حجرتي ضعيفة. لقد قاومت دائمًا رغباتي.

- كل ذلك حسن ما دمنا نستطيع الانتصار على أنفسنا، ولكن إذا ما ضعف جسدنا...

وأمسك يدي وقال بلهجة جدية وكأنه يسر إليَّ سرًّا:

- عندئذ يكون الانتصار الحقيقي.

وترك يدي، وأضاف:

- كنت أخشى أن ترحل دون أن تحضر لرؤيتي.

وسألته: أرحل إلى أين؟

- لا أعرف. إنك تسافر كثيرًا. هناك شيء كنت أريد أن أقوله لك.. إنني أنوي أن أرحل بدوري قريبًا.

وسألته وأنا أتظاهر بعدم فهم ما يعنيه بالرغم مما لمسته في نبرة صوته من جد.

- ماذا! أفي نيتك أن تسافر؟

وهز رأسه وقال:

- إنك تفهم جيدًا ما أعنيه. نعم، نعم، سوف يحين الوقت قريبًا. لقد بدأت مكاسبي تنقص عن تكاليف حياتي، وهذا أمر لا أحتمله. إن هناك حدًّا معينًا في حياتي عاهدت نفسي ألا أتخطاه.

وكان يتكلم بلهجة منفعلة أقلقتني، وأضاف: أنت أيضًا ترى أن ما أنوي فعله إثم؟ لم أفهم أبدًا لماذا حرّم علينا الدين هذا الفعل. لقد فكرت في الأمر مليًّا في الآونة الأخيرة. قضيت فترة شبابي متقشفًا، وكنت أهنئ نفسي في كل مرة أتغلب فيها على رغبة من رغباتي. وكنت لا أفهم أنني بعملي هذا أصبح عبدًا أكثر وأكثر لكبريائي، في الوقت الذي كنت أتصور أنني أحرر نفسي. كان كل انتصار من هذه الانتصارات على نفسي بمثابة إدارة المفتاح لإغلاق باب سجني. هذا ما كنت أعنيه منذ قليل عندما قلت لك إن الله سخر مني. لقد جعلني أتصور أن كبريائي نوع من الفضيلة...

وأمسك برأسه بين راحتيه وكأنه طفل غاضب، وبقي ساكتًا فترةً طويلةً، حتى ارتبت أنه نسي وجودي. وبقيت بلا حراك خشية أن أزعجه في تأملاته. ورغم ضوضاء الشارع المجاور، كانت الغرفة الصغيرة تسبح في هدوء غير عادي، وكان مصباح الشارع يضيء لنا الغرفة من أسفل إلى أعلى بطريقة غريبة كما يحدث في توزيع الضوء على خشبة المسرح، لكن راحت مساحات الظل على جانبي النافذة تتسع، وأخذت الظلمات من حولنا تتركز مثلما يتجمد الماء في البرد الشديد. أخذت تتركز حتى بلغت قلبي ذاته. وأردت أخيرًا أن أنفض عن نفسي شعوري بالقلق وتنفست بصوت مسموع، وسألته وأنا أفكر في الرحيل وأتأهب له، سألته مجاملةً ولكي أقطع حبل السكوت:

- هل السيدة «لابيروز» على ما يرام؟

وبدا على العجوز أنه استيقظ من سباته. وكرر قولي بلهجة استفهامية: السيدة «لابيروز»؟ وكأن هذه الكلمة أصبحت لا تعني بالنسبة له أي معنى. ثم قال لي فجأةً وهو ينحني نحوي:

- السيدة «دي لابيروز» تجتاز أزمةً عنيفةً... وهذا أمر يؤلمني كثيرًا. فسألته:

- أي أزمة؟

فأجاب وهو يرفع كتفيه، وكأن هذا شيء بديهي.

- لقد جنّت تمامًا. وأصبحت لا تجد جديدًا تهذي به.

وكنت أحس منذ زمن طويل بانفصام ما بين هذين الزوجين الهرمين، ولكني كنت يائسًا من أن أحصل منه على تفاصيل أكثر.

وقلت له في لهجة مشفقة:

- يا صديقي المسكين... منذ متى وهي على هذه الحال؟

وأخذ يفكر هنيهة، وكأنه لم يفهم معنى سؤالي ثم قال:

- إنها على هذه الحال منذ وقت طويل... منذ عرفتها، ولكنه أردف في الحال:

- لا. إنني مخطئ. بدأ الوضع يسوء منذ اهتممنا بتربية ابني.

وبدر مني ما يدل على دهشتي إذ كنت أعتقد أنهما لم ينجبا أطفالًا. ورفع جبهته وكان يمسك بها بين راحتيه وقال بصوت أكثر هدوءًا.

- ألم أكلمك أبدًا عن ابني؟ سوف أخبرك بكل شيء حتى تعرف اليوم الحقيقة كاملةً. ليس في مقدوري أن أحكي هذا لشخص غيرك... نعم، دب هذا الخلاف عندما بدأ اهتمامنا بتربية ابني. وها أنت ترى أن هذا أمر مر عليه زمن طويل. كانت حياتنا معًا لطيفةً للغاية في بدايتها. وعندما تزوجتها كنتُ طاهرًا كل الطهارة. لقد أحببتها ببراءة... ثم أردف:

- نعم هذا هو التعبير الصحيح. ولم يكن في مقدوري أن أجد فيها أي عيب، إلا أن نظرتنا فيما يختص بتربية الأطفال كانت مختلفةً تمامًا. وفي كل مرة حاولت أن أؤنب فيها ابني، وقفت السيدة «دي لابيروز» موقفًا مناوئًا لموقفي، وكان يبدو على حد قولها أن عليّ أن أغفل كل نزواته. وكانا يتفقان ضدي. وكانت تعلمه الكذب. وما إن بلغ العشرين حتى اتخذ لنفسه عشيقةً، وكانت تلميذةً من تلميذاتي، روسيةً شابةً، وعازفةً قديرةً، وكنت قد تعلقت بها كثيرًا. وكانت مدام «دي لابيروز» على علم بهذا الأمر، إلا أنهما أخفيا عني كل شيء. وبطبيعة الأمر لم ألحظ شيئًا، لم ألحظ أنها حملت منه. لم ألحظ أي شيء كما قلت لك، ولم أكن أرتاب في شيء. وذات يوم أخبروني أن تلميذتي متوعكة وأنها سوف تمتنع عن الحضور بعض الوقت. ولما فكرت في زيارتها أخبروني أنها غيرت مسكنها وأنها على سفر... ولم أعلم أنها ذهبت إلى بولندا – إلا بعد فترة طويلة- لكي تضع طفلها هناك. وكان ابني قد رحل ليلحق بها. وعاشا معًا عدة أعوام، ولكنه توفى قبل أن يتزوجها.

وسألته: هل قابلتها بعد ذلك؟

فرد وكأنه يجد عناءً فيما يقول:

- لم يكن في مقدوري أن أسامحها على خديعتها لي. ولكن السيدة «دي لابيروز» ما زالت تراسلها. ولما علمت أنها تقاسي من الفاقة أرسلت لها نقودًا... وكانت مساعدتي هذه من أجل الصغير. إلا أن السيدة «دي لابيروز» تجهل كل شيء عن ذلك. بل إن الفتاة نفسها لم تعلم أنني أرسلت إليها هذه النقود.

وسألته: وماذا عن حفيدك؟

وهنا ارتسمت ابتسامة غريبة على محياه. ونهض وهو يقول:

- انتظر لحظةً. سوف أريك صورته.

وخرج مرةً أخرى، وهو يجري في خطوات قصيرة ورأسه تميل إلى الأمام. وعند عودته، كانت أنامله ترتعش وهي تبحث عن الصورة في حافظة كبيرة. ومد يده بها إليَّ وهو ينحني وقال بصوت خافت:

- لقد أخذتها من مدام «دي لابيروز» دون أن تشعر بذلك. وهي تعتقد أنها فقدتها.

وسألته: وكم يبلغ من العمر؟

فأجاب: ثلاثة عشر عامًا. إنه يبدو أكبر سنًّا في الصورة. أليس كذلك؟ إنه ولد رقيق.

واغرورقت عيناه بالدموع مرةً أخرى، ومد يده إلى الصورة وكأنه يريد أن يستردها بسرعة. وتقدمت نحو ضوء مصباح الشارع ولم يكن كافيًا، وبدا لي أن الطفل يشبهه، ووجدت أن له نفس جبهة لابيروز العجوز البارزة ونفس الأعين الحالمة.

واعتقدت أنني أسعده إذا قلت له ذلك ولكنه قال:

- لا، لا، بل إنه يشبه أخًا لي فقدته...

وكان الطفل يرتدي قميصًا روسيًّا مطرزًا ذا شكل غريب.

وسألته: وأين يعيش؟

وصاح لابيروز فيما يشبه اليأس:

- وكيف يتسنى لي أن أعرف؟ لقد أخبرتك بأنهم يخفون عني كل شيء.

وكان قد استرد الصورة، وأعادها إلى حافظته بعد أن فحصها لحظة ثم وضع الحافظة في جيبه وقال:

- عندما تحضر أمه إلى باريس لا ترى إلا السيدة دي لابيروز، وعندما أسألها عن أي شيء يخص الطفل تجيبني:

- عليك أن تسأل أمه- تقول ذلك، ولكنها تتمنى أن لا أراها. لقد كانت دائمًا غيورةً بطبعها. وكل شيء تعلقت به حاولت هي دائمًا أن تأخذه مني... وبوريس الصغير تلميذ بمدرسة ببولندا في فارسوفيا على ما أعتقد. ولكنه كثيرًا ما يصحب والدته في أسفارها.

ثم سألني في انفعال شديد: قل لي! هل كنت تتصور أن من الممكن أن يحب المرء طفلًا لم يره أبدًا؟.. أتتصور أن هذا الصغير يعتبر بالنسبة لي اليوم أعز ما أملك في الدنيا؟.. ولكنه لا يعرف عن شعوري هذا شيئًا!

وكانت العبرات تخنق صوته وتقطع عباراته. ونهض من مقعده وارتمى -أي وقع تقريبًا- بين ذراعيّ. وودت أن أفعل أي شيء لأخفف من شعوره باليأس، ولكن ماذا كان في مقدوري أن أفعل؟ ونهضت، إذ شعرت بأن جسمه النحيل ينزلق من فوق جسمي وأنه سيقع على ركبتيه. فسندته وضممته إلى صدري، ودللته كطفل فتماسك. وسمعنا السيدة دي لابيروز تناديه من الغرفة المجاورة.

وقال: ستحضر... إني أعرف أنك لا تهتم كثيرًا برؤيتها، أليس كذلك...؟ ومع كل لقد أصبحت صماء تمامًا. اذهب سريعًا... وأردف وهو يصحبني إلى السلم:

- لا تغب عني كثيرًا (وكانت في صوته نبرة التوسل): وداعًا، وداعًا.

9 نوفمبر – يبدو أن هناك مأساةً أهملها الأدب. اهتمت القصة بغدر القدر وبالحظ – حسنًا كان أو سيئًا- وبالعلاقات بين الناس في المجتمع، وبالصراع بين ألوان الحب المختلف، وبأخلاق الناس، ولكنها لم تبال بشيء من كوامن النفس في حد ذاتها. ومع كل حاولت المسيحية أن توجه القصة إلى الأمور الأخلاقية، ولكن لا توجد قصة مسيحية بمعنى الكلمة. هناك قصص هدفها أخلاقي. إن ما أعنيه هو المأساة الأخلاقية التي تعبر عنها أصدق تعبير كلمة الإنجيل المشهورة:

(إذا فقد الملح طعمه، فأي شيء يمكن أن يُرجعه إليه). تلك هي المأساة التي تهمني.

10 نوفمبر – أوشك أوليفييه أن يتقدم للامتحان. وبولين تود أن تلحق بعد ذلك بمدرسة المعلمين. قد أعدوا له مستقبله من قبل... يا ليته كان بلا أهل، بلا سند، إذَنْ لجعلته سكرتيري الخاص. ولكنه لا يبالي بي، ولا يلحظ اهتمامي به وقد أضايقه إذا استرعيت نظره إلى ذلك. ولكي لا أضايقه أتعمد أن أظهر أمامه بعدم المبالاة، ولا أجرؤ على النظر إليه بحرية إلا عندما أشعر بأنه لا يراني. إنني أتبعه أحيانًا في الشوارع دون أن يلحظ ذلك. وبالأمس كنت أسير خلفه، ولكنه عاد أدراجه فجأةً، ولم أجد الوقت الكافي لأختبئ ولذا سألته:

إلى أين تسرع هكذا؟ وأجابني: ليس لي هدف معين. لا يبدو عليَّ أبدًا أنني متعجل إلا عندما أسير على غير هدى.

وسرنا معًا بضع خطوات، ولكننا لم نجد ما نقوله. لا شك أنه تضايق لأنني قابلته.

13 نوفمبر-... له والدان وأخوه الأكبر. وله رفاق... ولا مكان لي بينهم. كررت هذا القول لنفسي طوال النهار. كان في إمكاني أن أعوضه عن كل ما يفتقر إليه، ولكنه لا يفتقر إلى شيء. وهو ليس في حاجة إلى شيء، إن كانت رقته معي تسعدني فليس فيها ما يسمح لي بأن أفسرها... آه! إنها عبارة

سخيفة، أكتبها بالرغم مني، وهي تظهر الازدواج الذي يعتمل في قلبي... سأبحر غدًا إلى لندن. لقد صممت فجأةً على أن أسافر.

حان الوقت للرحيل على الرغم من الشعور برغبة في البقاء... إنه نوع من الحب لكل ما هو عسير، واشمئزاز من كل ما هو سهل يسير «وأعني بذلك ما يريح النفس»، ولعل هذا أثر من آثار نشأتي الدينية التي علمتني قهر نفسي... وإني لأجد صعوبةً في التحرر من هذا الأثر.

اشتريت أمس من مكتبة سميث كراسةً جديدةً سوف أكتب فيها مذكراتي بإنجلترا، وسوف تكون مكملةً لكراستي هذه التي ليس في نيتي أن أكتب فيها شيئًا بعد الآن - كراسة جديدة...

آه! لو كنت أستطيع أن أمنع نفسي من الرحيل!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع عشر

(قد تصادف الناس أحداث لا ينجو منها إلا من كان على شيء من الجنون).

«لاروشفوكوه».

أنهى «برنارد» قراءته لمذكرات إدوارد برسالة لورا المخبأة بين طياتها، وقد بهرته هذه الرسالة؛ لم يكن في مقدوره أن يشك في أن تلك التي كانت تشكو من يأسها في هذه الرسالة هي نفس العاشقة اليائسة التي كان يكلمه أوليفييه عنها مساء اليوم السابق، العشيقة التي هجرها فنسان مولينييه. وبدا لبرنارد فجأة أنه ما زال الوحيد الذي يعلم حقيقة هذا الأمر من ناحيتيه؛ وذلك لِمَا سمعه من أوليفييه ولِمَا قرأه في مذكرات إدوارد. وانفراده بمعرفة هذه الحقيقة أمر لن يستمر طويلًا، وعليه الآن أن يقوم بلعبته بسرعة وبدقة. ولذا حزم أمره في الحال. ورغم أنه لم ينس شيئًا مما قرأ في مذكرات إدوارد فإنه لم يعد يهتم إلا بلورا.

وقال لنفسه وهو ينطلق خارج غرفته: حتى هذا الصباح، كان ما يجب عليّ عمله غير واضح المعالم، أما الآن فلم يعد عندي شك أن الأمر الملح هو إنقاذ لورا. ولعله ليس من واجبي أن أستحوذ على الحقيبة، ولكني ما دمت قد استحوذت عليها، فلا شك أنني وجدت فيها ما يوحي إليّ الشعور بالواجب. المهم الآن هو أن أفاجئ لورا قبل أن يتمكن إدوارد من رؤيتها، وأن أقدم نفسي لها بطريقة لا تسمح لها بأن تتصور أن من الممكن أن أكون لصًّا. أما ما يجب أن أعمله بعد ذلك فيأتي من تلقاء نفسه. إنني أملك في حافظة نقودي الآن ما يسمح لي بأن أواسيها في محنتها بالبذخ الذي يمكن أن يسمح به كرم رجل كإدوارد وحنانه، والشيء الوحيد الذي يحيرني هو الطريقة التي يجب أن أتبعها. فهي ولو أنها حامل حملًا غير مشروع إلا أنها لا بد محتفظة بكبريائها. إنني أتخيلها من هؤلاء النساء اللواتي يثرن ويظهرن احتقارهن ويمزقن الأوراق المالية التي تقدمها لهن إحسانًا إذا قدمتها في مظروف غير لائق. كيف أقدم لها هذه الأوراق المالية؟ كيف أقدم نفسي لها؟ هذه هي الصعوبة. كم يصادف المرء من تعقيدات بمجرد أن يخرج من الطريق المطروق ومن الطريق المستقيم! لا شك أن حداثة سني لا تسمح لي بأن أقحم نفسي في مشكلة معقدة كهذه، ولكن هذه الحداثة هي التي ستساعدني. فلأخترع لها قصةً أعترف فيها في براءة بما يجعلها تشفق على وتهتم بأمري. إن الذي يضايقني هو أن هذه القصة يجب أن تصلح لكي أسردها لإدوارد.

لا بأس. سوف أهتدي إلى هذه القصة. يجب أن أعتمد على إيحاء اللحظة..

وبلغ برنارد شارع بون، وهو العنوان الذي ذكرته لورا. وكان الفندق الذي تنزل به متواضعًا جدًّا، إلا أنه كان نظيفًا وحسن المظهر. وبعد أن أرشده البواب، صعد إلى الطابق الثالث، ووقف أمام الباب الذي يحمل رقم 16. وأراد أن يعد نفسه للدخول وأخذ يبحث عن العبارات المناسبة ولكنه لم يجد شيئًا. وعندئذ استجمع أطراف شجاعته ودق الباب.

وسمع صوتًا رقيقًا كأنه صوت راهبة، صوتًا خائفًا يقول له:

- ادخل.

كانت لورا ترتدي ملابس بسيطة للغاية، كانت تتشح بالسواد، وتبدو وكأنها في حداد. ومنذ أن وصلت إلى باريس من أيام - كانت كمن ينتظر حدوث شيء أو مجيء شخص ينقذها. لقد سلكت طريقًا غير سوية، لا شك في ذلك. وكان من عادتها للأسف أن تعتمد على الظروف أكثر من اعتمادها على نفسها.

ولم تكن امرأةً دون فضيلة. إلا أنها كانت تشعر أن لا قوة لها ولا سند. وعندما رأت برنارد رفعت يدها لتخفي وجهها كمن يحبس صيحةً، أو كمن يحمي عينيه من وهج ضوء قوي. وكانت واقفة فتقهقرت خطوةً، وأمسكت بالستار لما وجدت نفسها على مقربة من النافذة.

وانتظر برنارد حتى تسأله إيضاحًا. ولكنها صمتت وانتظرت منه أن يبدأ الكلام. وكان برنارد ينظر إليها محاولًا أن يبتسم، بينما كان قلبه يخفق وقال أخيرًا: معذرةً يا سيدتي أن أزعجك هكذا. إدوارد... وأعلم أنك تعرفينه وصل إلى باريس هذا الصباح. ولديَّ أمر مهم جدًّا أريد أن أخطره به وقد ظننت أن في إمكانك أن تدليني على عنوانه و... وأنا آسف جدًّا لحضوري هكذا بغير كلفة لأسألك عن هذا العنوان؟

ولو لم يكن برنارد حديث السن لانزعجت لورا أيما انزعاج دون شك، ولكنه كان لا يزال يافعًا. وكانت عيناه تنطقان بالصدق، كما كانت جبهته تدل على البراءة وتنم حركاته عن الخوف ويفتقر صوته إلى الثقة بالنفس. وأمام هذا زايل لورا الخوف، وحل محله التطلع والاهتمام والود الذي يثيره مخلوق ساذج جميل. وبدأت الثقة تعود إلى صوت برنارد.

وأجابته لورا: ولكنني لا أعرف عنوانه. لو كان إدوارد بباريس لجاء ليراني دون تأخير. إنني آمل ذلك. قل لي من أنت. سوف أخبره بذلك.

وقال برنارد لنفسه: حان الوقت لأجازف بكل شيء. ومر بقلبه ما يشبه الجنون وأخذ ينظر إلى لورا بثبات وقال:

- من أنا؟ أنا صديق أوليفييه مولينييه... ثم تردد قليلًا. ولكنه لما رأى شحوب وجهها بعد سماعها هذا الاسم جرؤ على أن يقول لها:

- إنني صديق أوليفييه شقيق فنسان عشيقك الذي هجرك بنذالة... واضطر أن يقطع حديثه فقد كانت لورا تترنح، كما راحت يداها القلقتان تبحثان خلفها عن سند، ولكن الأنين الذي سمعه برنارد أزعجه أيما إزعاج. كان هذا الأنين كصوت صادر عن فريسة جريحة.

وفجأةً شعر الصائد بالخجل إذ رأى أنه جلاد. وكانت هذه الصرخة غريبة، ومختلفة تمامًا عن كل ما كان يتوقعه، حتى أنه ارتجف وفهم فجأةً أن الأمر يتعلق بحياة حقيقية، بألم حقيقي. وبدا له أن كل ما شعر به قبل الآن لم يكن إلا تظاهرًا ولهوًا. واعتراه انفعال شديد، كان شعورًا جديدًا لم يتمكن من السيطرة عليه، وكاد الإحساس يخنقه...

ماذا! أهو يجهش بالبكاء؟ هو «برنارد»؟.. ويندفع ليسندها ويركع أمامها، ويتمتم بين عبراته:

- آه! أطلب عفوك، لقد جرحت شعورك... عرفت أنك لا مورد لك... كنت أريد أن أساعدك.

ولكن لورا كانت تتنفس بعناء، وشعرت بانهيار. وها هي تبحث بعينها عن مقعد تجلس عليه. وفهم برنارد معنى نظرتها وكانت عيناه تنظران إليها. فوثب نحو مقعد صغير عند مقدمة السرير وأحضره بحركة عنيفة بالقرب منها. وتركت هي نفسها تقع عليه بكل ثقلها.

وهنا وقع حادث مضحك أتردد في أن أذكره، إلا أنه كان له الفضل في تقرير نوع الصلات بين برنارد ولورا، لأنه أنقذها من الحرج الذي وجدا نفسيهما فيه، ولن أحاول أن أفتعل ما يسمو بهذا المشهد. إن الثمن الذي كانت تدفعه لورا عن إقامتها «وأعني بهذا المبلغ الذي كان يطالبها به صاحب الفندق» لم يكن يسمح بأن يكون أثاث الغرفة أنيقًا. ولكن من حق النزيل بها أن يأمل في أن يكون متينًا. إلا أن المقعد الصغير المنخفض الذي دفعه برنارد نحو لورا كان يعرج قليلًا، أي أنه كان يشبه الطائر الذي ثنى إحدى قدميه تحت جناحه، وهذا شيء طبيعي بالنسبة للطائر، ولكنه شيء يؤسف له بالنسبة لمقعد؛ ولذا كان هذا الأخير يحاول أن يخفي عاهته هذه تحت غطاء سميك، وكانت لورا تعرف هذه الحقيقة، كما كانت تعلم أن استعماله يجب أن يكون بمنتهى الرفق؛ ولكنها لم تستطع التفكير في هذا الأمر أثناء انفعالها الشديد، ولم تذكره إلا عندما شعرت بالمقعد يتأرجح تحتها. وأطلقت فجأةً صيحةً، مختلفةً تمامًا عن الأنين الطويل الذي صدر عنها منذ هنيهة؛ وانزلقت على جنبها ووجدت نفسها بعد لحظة جالسة على السجاد بين ذراعي برنارد الذي أسرع في احتضانها. وشعر برنارد بالحرج وإن كان هذا الحادث قد سره، ولا بد أنه كان قد وضع ركبته على الأرض. ووجدت لورا وجهها ملتصقًا بوجهه ونظر إليها وكانت الحمرة قد كست وجهها، واجتهدت في أن تنهض، فساعدها وسألها:

- أتشعرين بألم؟

- لا، شكرًا، وهذا بفضلك. إن هذا المقعد مضحك وقد أصلحوه مرةً... وأعتقد أنه يمكن أن يصلح للجلوس إذا وضعت ساقه في وضع مستقيم.

وقال برنارد: سوف أصلح من أمره... ها هو قد أصلح!.. هل تريدين تجربته؟ ثم أسرع يقول:

- أو اسمحي لي.. يجب علي سبيل الحذر أن أجربه أولًا؛ أترين؟ إنه متماسك الآن. إنني أستطيع تحريك ساقي «وحركهما فعلًا وهو يضحك» ثم قال وهو ينهض:

- اجلسي عليه من جديد، وإذا ما سمحت لي بذلك فسوف أجلس على مقعد آخر سوف أجلس بجانبك وأمنعك من السقوط، لا تخافي. إنني أريد أن أساعدك في أي شيء آخر.

وكانت في كلماته حرارة شديدة، وفي تصرفاته احترام، وفي حركاته رشاقة، ولذا لم تستطع لورا أن تمنع نفسها من الابتسام وسألته:

- لم تقل لي اسمك؟

- برنارد.

- نعم. ولكن اسم عائلتك؟

- ليس لي عائلة.

- أي اسم والديك.

- ليس لي والدان، ومعنى ذلك أنني مثل ما سيكونه هذا الطفل الذي تنتظرينه، ابن غير شرعي.

وزايلت الابتسامة فجأةً وجه لورا، وشعرت بالمهانة من هذا الإصرار على التدخل في أمور حياتها الخاصة واغتصاب سرها، وسألته: ولكن كيف عرفت؟ من قال لك؟ ليس من حقك أن تعرف!

ولكن برنارد كان قد انطلق، وراح يتكلم بصوت مرتفع وبجرأة:

- أعرف ما يعرفه صديقي أوليفييه، وكذلك ما يعرفه صديقك إدوارد، إلا أن كلًّا منهما لا يعرف إلا نصف سرك، ولا شك أنني الوحيد الذي يعرف سرك كله، وأنت ترين إذَنْ أنه يجب أن أصبح صديقك، وأضاف هذا بلهجة رقيقة.

وتمتمت لورا بحزن: يعجز الرجال عن كتم السر؟. ولكنك، إن كنت لم تر إدوارد، فهو لم يستطع أن يكلمك – هل كتب لك؟ هل هو الذي أرسل لك؟.

وكان برنارد قد أوجد نفسه في مأزق، لقد تسرع في الكلام لرغبته في الظهور بمظهر الشخص المهم، وهز رأسه دلالةً على النفي، وأخذ الحزن يزداد ارتسامًا على وجه لورا. وفي هذه اللحظة سمعا دقًّا على الباب.

يخلق الانفعال المشترك بين أي شخصين صلةً ما، سواء أرادا ذلك أم لا، وشعر برنارد بأنه وقع في الفخ، وانتاب الحنق لورا لأنها فوجئت هكذا في صحبة غريب. ونظرا الاثنان كل منهما إلى الآخر وكأنهما متآمرين، وسمع الدق على الباب من جديد وقال الاثنان معًا:

- ادخل.

منذ لحظات كان إدوارد ينصت من وراء الباب إذ أدهشه سماع أصوات في غرفة لورا، وكانت الجمل الأخيرة التي نطق بها برنارد قد أوضحت له الموقف، لم يكن من الممكن أن يشك في أن الذي نطق بهذه الكلمات هو نفسه سارق حقيبته، وحزم أمره في الحال، وكانت سرعته في البت في الأمور يعتريها الوهن في الظروف العادية. ولكنه كان من الأشخاص الذين يهرعون إلى العمل وتملأهم اليقظة أمام مفاجآت الحياة، ولذا فتح الباب في الحال ولكنه بقي على عتبته. وكانت الابتسامة ترتسم على شفتيه. وأخذ ينظر تارةً إلى برنارد وتارةً إلى لورا، وكان الاثنان قد انتصبا واقفين؛ وقال للورا:

- اسمحي لي بالدخول يا عزيزتي – وأرفق ذلك بحركة معناها أن تؤجل الكلام إلى حين- يجب أولًا أن أقول بضع كلمات للسيد إذا سمح بالمجيء لحظةً إلى الممر.

وما إن لحق به «برنارد»، حتى صارت ابتسامته أكثر تهكمًا:

- كنت أتوقع أن أجدك هنا.

وفهم «برنارد» أن «إدوارد» كان حانقًا أشد الحنق، ولذا رأى أن الوسيلة الوحيدة أمامه هي أن يتسلح بالجرأة، وهذا ما عمله. قال هو يشعر بأنه يلعب لعبته الأخيرة:

- وكنت أرجو أن أجدك هنا.

وأجابه «إدوارد»: إن لم تكن قد سددت ما على مدام «دوفييه» (لأنني أود أن أعتقد أنك جئت من أجل ذلك)، فعليك أن تنزل إلى مكتب الفندق وأن تدفع ما عليها من النقود التي وجدتها بحقيبتي، والتي لا بد أنها معك الآن، ولا تعد إلا بعد عشر دقائق.

قال له كل ذلك بلهجة جادة، وإن كانت مجردةً من التهديد، وأثناء هذا كان «برنارد» قد استرد هدوءه، وقال:

- جئت فعلًا من أجل ذلك، ولم تخطئ في ظنك، وبدأت أصدق أنني بدوري لم أخطئ.

- ماذا تعني بذلك؟

- أعني أنك كما كنت أرجو.

وكان «إدوارد» يحاول دون جدوى أن يتخذ مظهرًا جادًّا، إلا أنه وجد في هذا الموقف نوعًا من التسلية. وحيا «برنارد» تحيةً ساخرةً، وقال:

- أشكرك. بقي أن أرى بدوري إن كنت كما تخيلتك. أعتقد – ما دمت هنا- أنك قرأت أوراقي.

وابتسم «برنارد» بجرأة لا تخلو من الوقاحة، وكان بدوره يجد تسلية في الموقف كما جابه نظرة «إدوارد» بثبات، ثم قال وهو ينحني:

- لا تشك في ذلك. إنني هنا في خدمتك.

- وانطلق على السلم كالسهم.

وعندما دخل «إدوارد» الغرفة كانت «لورا» تنشج بالبكاء. واقترب منها، فوضعت جبهتها على كتفه. ولكن إظهار الانفعال أمر كان يضايقه ولا يحتمله، وألفى نفسه يربت على ظهرها كما يفعل المرء مع طفل يسعل، وقال لها:

- يا صديقتي المسكينة، كفى، كفى... كوني عاقلةً.

وأجابته: أوه! دعني أبك قليلًا، فذلك يريحني.

وقال: المهم هو أن نعرف ما تنوين عمله الآن.

- ماذا تريد مني أن أفعل؟ إلى أين تريدني أن أذهب؟ لمن تريدني أن أبث همي؟

- وأبواكِ...

- إنك تعرفهما جيدًا.. معنى ذلك أن ألقي بهما في اليأس. لقد صنعا كل شيء من أجل إسعادي.

- و«دوفييه»؟

- لن أجرؤ أبدًا على مقابلته. إنه طيب القلب للغاية. لا تتصور أنني لا أحبه... إذا عرفت الحقيقة... إذا عرفت..! قل إنك لا تحتقرني.

- على العكس من ذلك يا عزيزتي، الأمر على العكس تمامًا. كيف يمكنك أن تتصوري ذلك؟ وراح يربت على ظهرها من جديد.

- الحقيقة أنني وأنا بجانبك يزول خجلي.

- كم من الأيام قضيتها هنا؟

- لم أعد أعرف. عشت فقط لأنتظرك، وكنت أحيانًا أشعر بأنني لم أعد أحتمل البقاء، وأعتقد الآن أنني لن أستطيع البقاء هنا يومًا آخر.

وعادت تجهش بالبكاء، ولكن بصوت مكتوم، وقالت:

- خذني من هنا. خذني من هنا.

كان إدوراد يشعر بالحرج أكثر وأكثر. وقال لها:

- استمعي إليّ يا لورا... اهدئي. ال... الآخر... إنني لا أعرف حتى اسمه...

وقالت لورا: أين برنارد؟

- برنارد سيصعد بعد لحظة. هيا! انهضي. يجب ألا يراك على هذه الحال. شيئًا من الشجاعة، سنخترع شيئًا ما، أعدك بذلك. جففي عينيك فلا جدوى من البكاء. انظري إلى نفسك في المرآة. وجهك محتقن. ألقي بعض الماء على وجهك. عندما أراك تبكين أعجز عن التفكير... ها هو ذا، إنني أسمع وقع قدميه.

وذهب إدوارد إلى الباب وفتحه ليدخل برنارد، وسأله بينما كانت لورا تدير ظهرها لهذا المشهد لتصلح زينتها وتعيد مظهر الهدوء إلى ملامحها.

- والآن يا سيدي هل يمكنني أن أسألك متى أستطيع استرداد أشيائي؟

قال ذلك وهو يحدق في «برنارد» بينما ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه.

وأجابه «برنارد»: حالما تطلب مني ذلك يا سيدي، ولكن يجب أن أعترف أنك لست في حاجة إلى هذه الأشياء مثل حاجتي أنا إليها. وأنا متأكد أنك ستفهم معنى كلامي هذا عندما تعلم قصتي. اعلم يا سيدي أنني منذ هذا الصباح وأنا بلا مأوى، بلا بيت، بلا عائلة. وأنني كنت موشكًا أن ألقي بنفسي في الماء إن لم أصادفك. لقد تبعتك طويلًا هذا الصباح وأنت تتحدث مع صديقي «أوليفييه»، وكان قد كلمني عنك كثيرًا، وودت أن أحدثك وكنت أبحث عن عذر، عن وسيلة... وعندما رأيتك ترمي إيصال الأمانات حمدت الأقدار. أوه! لا تحسبني لصًّا. إن كنت قد استحوذت على حقيبتك؛ فذلك لأنني كنت أود أن أوجد نوعًا من الصلة بيننا.

قال «برنارد» كل ذلك مرةً واحدةً، وكان يظهر في سياق حديثه وعلى ملامحه انفعال غير عادي يشبه الطيبة، وبدا من ابتسامة «إدوارد» أنه يجده جذابًا وقال له:

- والآن؟

وفهم «برنارد» أنه بدأ يكسب قلب «إدوارد»، وقال:

- والآن، ألم تكن في حاجة إلى سكرتير؟ لا يمكن أن أتصور أن أفشل في عمل كهذا ما دمت أقوم به وأنا مغتبط.

وهنا بدأ «إدوارد» يضحك، ونظرت «لورا» إليهما وقد وجدت تسلية في هذا الموقف.

وأجاب «إدوارد»: سأبحث الأمر. عُد غدًا لمقابلتي في هذه الساعة، في هذا المكان بالذات، إذا سمحت مدام «دوفييه» بذلك... لأنه يجب أن أقرر أشياءَ كثيرةً معها هي الأخرى. إنك في فندق على ما أتصور؟ لا يهمني أن أعرف في أي مكان. هذا لا يهمني في شيء إلى اللقاء غدًا.

ومد له يده.

قال برنارد:

- أتسمح لي يا سيدي أن أذكرك قبل أن أتركك بأن مدرس بيانو عجوزًا يقطن في شارع «فوبورج سانت هونوريه»، واسمه على ما أعتقد «لابيروز» يسعده كثيرًا أن تزوره.

- حسنًا، هذا حسن بالنسبة لبدايتك في وظيفتك، وأرى أنك تفهم طبيعة عملك كما يجب.

- إذَنء... أحقًّا توافق؟

- سنتكلم في ذلك غدًا... وداعًا.

وبعد أن قضى إدوارد وقتًا عند لورا ذهب لزيارة عائلة مولينييه، وكان يرجو أن يقابل أوليفييه إذ كان يرغب في أن يحدثه عن برنارد، ولكنه لم يجد إلا بولين بالرغم من إطالته زيارته.

وكان أوليفييه في نفس هذه الساعة، في آخر النهار، قد استجاب لدعوة ملحة سلمها له أخوه. فذهب لمقابلة مؤلف «القضيب الثابت» أي الكونت دي باسافان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس عشر

قال «روبير دي باسافان» لأوليفييه عندما رآه يدخل غرفته:

- خشيت ألا يكون أخوك قد نقل إليك رسالتي.

وأجابه «أوليفييه» ممسكًا بقبعته في يده، فأخذها منه «روبير» وقال له:

- اترك قبعتك هذه. كن على حريتك. ستجد راحتك على هذا المقعد. لست متأخرًا، والساعة تشهد بذلك. إلا أن رغبتي في أن أراك سبقت الساعة. هل تدخن؟

قال أوليفييه وهو يبعد علبة اللفائف التي مدها له الكونت دي باسافان:

- شكرًا.

رفض خجلًا؛ لأنه كان في الواقع يشعر بحاجة ملحة إلى تدخين هذه اللفائف العنبرية الرفيعة، وهي روسية ولا شك، وكان يراها مصفوفة في العلبة في نظام جميل:

- نعم إنني سعيد لأنك استطعت الحضور. كنت أخشى أن تعوقك مذاكرتك استعدادًا للامتحان. متى ستؤدي امتحانك؟

- بعد عشرة أيام سأؤدي الامتحان التحريري. ولكني لم أعد أذاكر كثيرًا. وأعتقد أنني مستعد للامتحان، وإن كنت أخشى أن أتقدم له وأنا متعب.

- هل ترفض أن تشغل نفسك منذ الآن بشيء آخر؟

- لا... إن لم يكن هذا العمل يقتضي جهدًا كبيرًا.

- سأشرح لك لماذا طلبت منك الحضور، أولًا لأنه يسرني أن أراك، كنا قد بدأنا حديثًا -ذلك المساء- في ردهة المسرح أثناء الاستراحة. لقد اهتممت جدًّا بما قلته لي ذلك اليوم. إنك لا تذكر هذا الحديث دون شك؟

وقال أوليفييه!: بلى، بلى... (وكان يعتقد أنه لم يقل إلا سخافات في ذلك اليوم).

- ولكني اليوم أريد أن أطلب منك شيئًا محددًا... إنك ولا شك تعرف يهوديًّا اسمه «دورمير» أليس من زملائك؟

- لقد تركته منذ لحظة.

- آه! أتتقابلان كثيرًا؟

- نعم. كنا متفقين على أن نتقابل في اللوفر لنتناقش في شأن مجلة سيرأس تحريرها.

وأطلق روبير ضحكةً عاليةً ومتكلفةً وقال:

- آه! آه! آه! رئيس التحرير... إنه يبالغ! إنه يتسرع... أحقًّا قال لك ذلك؟

- كلمني عن هذا الأمر منذ وقت طويل.

- نعم فكرت في هذا الأمر منذ وقت طويل. لقد صادف أن سألته ذات يوم إذا كان يوافق على قراءة بعض أصول المقالات معي، وهذا ما أسماه في الحال: عمل رئيس التحرير. وقد تركته يتكلم... هذا من طبيعته، أليس هذا رأيك؟ يا له من شخص! إنه يحتاج إلى أن يفهمه المرء على حقيقته... أحقًّا لا تدخن!

رد أوليفييه وهو يتقبل اللفافة هذه المرة شاكرًا: بلى، ما دمت تصر.

- اسمح لي أن أقول لك يا أوليفييه... أتحب أن أناديك بـ أوليفييه! على أي حال لا أستطيع أن أناديك بيا سيد؛ إذ إنك حديث السن جدًّا، ثم إن صلتي بأخيك قوية جدًّا بحيث أستطيع معها أن لا أناديك «مولينييه»([11]) حسنًا. اسمح لي يا أوليفييه أن أقول لك إن ثقتي في ذوقك أكبر بكثير من ثقتي في ذوق سيدي دورمير. أتقبل أن تشرف على تحرير هذه المجلة! سوف يكون ذلك الإشراف بإرشادي إلى حد ما بطبيعة الحال، على الأقل في الفترة الأولى. وأنا أفضل ألا يذكر اسمي على غلاف المجلة، وسوف أشرح لك الأسباب فيما بعد... هل لك في كأس من نبيذ البورتو؟ عندي نوع فاخر منه.

والتقط من فوق صوان صغير بجانبه، على مسافة تدركها يده، زجاجة وكأسين ثم ملأهما.

- حسنًا ما رأيك!

- إنه ممتاز فعلًا.

قال روبير محتجًّا وضاحكًا:

لا أسألك عن البورتو، ولكني أسألك عما كنت أحدثك فيه منذ برهة. وتظاهر أوليفييه بعدم الفهم. كان يخشى أن يتسرع في القبول وأن يظهر فرحته، واحمر وجهه قليلًا، وقال متلعثمًا:

- إن امتحاني لا...

وقاطعه روبير قائلًا: لقد ذكرت لي منذ قليل أنه لا يشغلك كثيرًا. ثم إن المجلة لن تظهر في الحال. وإني لأسأل نفسي: أليس من الأفضل تأجيل ظهورها حتى دخول المدارس؟ - إلا أنني كنت مهتمًّا على أي حال- بأن آخذ رأيك في الأمر. يجب أن نعد بضعة أعداد قبل شهر أكتوبر، ومن الضروري أن نتقابل كثيرًا في هذا الصيف لنتكلم في الأمر. ماذا تنوي عمله أثناء هذه الإجازة؟

- أوه! لا أعرف على وجه التحديد. من المحتمل أن يذهب والدي إلى مقاطعة نورماندي كما يفعلان كل صيف.

- وهل لا بد أن تصحبهما!.. أتقبل أن تنفصل عنهما قليلًا!..

- لن توافق والدتي على ذلك.

- سوف أتناول العشاء هذا المساء مع أخيك، فهل تسمح لي أن أحدثه في الأمر؟

- أوه! لن يصحبنا «فنسان». ثم أردف لما تبين أن هذه الجملة لا تتناسب مع السؤال:

- ثم إن هذا لن يجدي في شيء.

- وإذا ما وجدنا أعذارًا مقبولةً نقنع بها الوالدة؟

ولم يجب أوليفييه بشيء. كان يحب أمه بحنان، ثم إن اللهجة الساخرة التي تحدث بها روبير عن أمه لم تعجبه. وأدرك روبير أنه تسرع أكثر مما يجب، فقال ليغير مجرى الحديث:

- أيعجبك مشروب البورتو، أتريد كأسًا أخرى.

- لا، لا شكرًا... وإن كان ممتازًا.

- نعم لقد أدهشني صحة حكمك على الأشياء عندما تقابلنا في ذلك المساء. أليس في نيتك أن تهتم بالنقد الأدبي؟

- لا.

- والشعر، عرفت أنك تنظم أشعارًا.

- واحمرّ وجه أوليفيه من جديد.

- نعم لقد باح أخوك بسرك. ولا شك أنك تعرف شبانًا آخرين يمكنهم أن يساهموا... يجب أن تصبح هذه المجلة مكانًا تلتقي فيه آراء الشباب، هذا هو الهدف من وجودها. كنت أريد أن تساعدني في تحرير تقرير أو بيان يوضح -دون مبالغة في التحديد- الاتجاهات الحديثة، وسنتكلم مرةً أخرى في هذا الأمر. يجب أن نختار في الكلام صفتين أو ثلاث صفات، ولا نختار كلمات حديثة وإنما كلمات قديمة الاستعمال نحملها معاني جديدة جدًّا ونفرض استعمالها. لقد ظهرت بعد فلوبير كلمتا: عديد وموزون وظهرت بعد الكونت دي ليل كلمتا: مراسم ونهائي.

ما رأيك في كلمة حيوي...، لا شعوري وحيوي... لا... بدائي، قوي وحيوي؟

وتحمس أوليفييه وأجاب: في رأيي أنه يمكننا أن نجد أحسن من ذلك. وكان أوليفييه يبتسم دون أن تبدو عليه الموافقة التامة على ما يسمعه.

- هيا. ألك في كأس أخرى من البورتو؟

- أرجوك ألا تملأها.

- في رأيي أن ضعف المدرسة الرمزية ناتج عن أنها لم تبتكر إلا (استطيقا) جديدة. لقد أتت كل المدارس الأدبية الكبرى بأسلوب جديد، ومفهوم جديد للأخلاق ومواصفات جديدة ووجهة نظر جديدة في فهم الحب وفي السلوك. أما الأديب الرمزي فقد تصرف بطريقة أخرى بسيطة: لم يسلك أي مسلك في الحياة لم يحاول أن يفهمها، بل أنكرها وأدار ظهره لها. وهذا تصرف سخيف، أليس كذلك، كانوا أناسًا بلا شهية، بلا نهم، لم يكونوا مثلنا... أليس هذا رأيك؟

وكان أوليفييه قد شرب كأسه الثانية من البورتو ودخن لفافته الثانية، وأغمض عينيه نصف إغماضة وهو شبه مضطجع في مقعده الوثير، لا يقول شيئًا، وإنما يعبر عن موافقته بإيماءات خفيفة من رأسه.

وفي هذه اللحظة سمعا صوت الجرس، ودخل خادم قدم بطاقة لروبير. وتناول روبير البطاقة وألقى عليها نظرةً، ثم وضعها قريبًا منه على مكتبه وقال:

- حسنًا. أرجوه أن ينتظر لحظة. وخرج الخادم. وقال روبير:

- أصغ إليّ يا عزيزي أوليفييه. إنني أحبك كثيرًا، وأعتقد أننا سوف نتفاهم، ولكن هذا شخص لا بد أن أستقبله، وهو يصر على أن يقابلني بمفردي.

وكان أوليفييه قد نهض واقفًا.

- سأطلب منك الخروج عن طريق الحديقة إذا سمحت... آه! قبل أن أنسى! أيسرك أن تحصل على نسخة من كتابي الجديد؟ عندي الآن نسخة طبعت في هولندا...

وأجابه أوليفييه: لقد قرأته، ولم أنتظر حتى تهديه إليّ. ولم يكن الكتاب قد راق أوليفييه كثيرًا، وحاول أن يتصرف بطريقة لطيفة وليس فيها تملق رخيص.

ترى هل أحس روبير في عبارته شيئًا من الاستخفاف؟ وأضاف بسرعة:

- أوه! لا تحاول أن تكلمني في هذا الأمر. لو قلت لي إن الكتاب يعجبك، لارتبت في ذوقك أو في صدقك. لا، إنني أعرف أكثر من أي شخص آخر ما يعوز هذا الكتاب. لقد كتبته بسرعة فائقة. والحقيقة أنني كنت أفكر –طوال الوقت الذي استغرقته كتابته- في مؤلفي التالي. آه! أما عن هذا الكتاب الجديد فإنني مهتم به، مهتم به جدًّا. سوف ترى، سوف ترى... إنني آسف ولكن يجب أن تتركني الآن... اللهم إلا... ولكن لا، لا، لم يعرف كل منا الآخر معرفة كافية بعد، ثم إن والديك ينتظرانك على العشاء. إلى اللقاء إلى اللقاء. إلى لقاء قريب. سوف أكتب اسمك على الكتاب، اسمح لي بذلك.

وكان قد نهض واقترب من مكتبه، وبينما كان ينحني ليكتب، تقدم أوليفييه خطوةً إلى الأمام، ونظر بطرف عينه إلى البطاقة التي أحضرها الخادم منذ قليل وكان عليها هذا الاسم «فكتور سترو فيلهو».

ولم يكن يعرف هذا الاسم.

ومد روبير يده إلى أوليفييه بكتاب «القضيب الثابت» وبينما كان أوليفييه يتأهب لقراءة الإهداء، قال له باسافان وهو يدفع بالكتاب تحت إبطه:

- سوف تقرأ ذلك فيما بعد.

ولم يقرأ أوليفييه العبارة إلا وهو في الشارع، وهي مأخوذة من الكتاب نفسه ومكتوبة على شكل إهداء.

(تكرم يا أورلاندو واخط بضع خطوات، لست بعد متأكدًا من أن أجرؤ تمامًا على فهمك).

وأضاف تحت هذه العبارة.

إلى أوليفييه مولينييه.

من صديقه

الكونت روبير دي باسافان.

وهي عبارة مبهمة جعلت أوليفييه يفكر في مراميها، إلا أنه كان له على أي حال مطلق الحرية في أن يؤولها بالمعنى الذي يحلو له.

وعاد أوليفييه إلى بيته لحظة خروج إدوارد منه. كان قد يئس من لقائه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السادس عشر

كانت ثقافة فنسان المادية تحول بينه وبين الإيمان بما فوق الطبيعة، مما أتاح للشيطان فرصًا كثيرةً معه. ولم يكن الشيطان يهاجم فنسان رأسًا، وإنما اتخذ لذلك سبلًا ملتويةً. ومن براعة الشيطان أنه يصور لنا فشله على أنه انتصار.

لقد اعتبر فنسان مسلكه مع لورا نصرًا لإرادته على غرائزه؛ لأنه -وهو الطيب بطبعه- اضطر أن يتصنع ويتشدد ليبدو قاسيًا معها.

وعندما أحاول أن أمعن النظر في تطور سلوك فنسان في هذه المغامرة أتبين فيها مراحل مختلفة وأحب أن أذكرها لأوضح الأمر للقارئ:

أولًا: فترة الدوافع النبيلة، وتمتاز بالتمسك بالشرف والأمانة، والحرص على التكفير عن خطيئة ارتكبت. وفي موضوع فنسان يظهر ذلك في شعوره بالتزام أدبي، هو أن يخصص للورا المبلغ الذي ادخره أبواه بعناء ليعاوناه على مواجهة الفترة الأولى من حياته العملية. أليس في هذا معنى التضحية؟ أليس هذا الدافع نبيلًا كريمًا خيرًا؟

ثانيًا: فترة القلق والوساوس والشك في ألا يكون المبلغ كافيًا، ومعنى هذا التأهب للاستسلام للشيطان عندما يلوح له بإمكان مضاعفة المبلغ.

ثالثًا: فترة الثبات وقوة الروح والحاجة إلى الشعور بالجلد أمام الملمات بعد خسارة المبلغ. وقوة الروح هذه هي التي جعلته يعترف للورا بخسارة المبلغ في الميسر، وهي التي سوف تجعله يقطع علاقته بها في هذا الظرف.

رابعًا: التخلي عن الدافع النبيل واعتباره نوعًا من المغالطة، وذلك على ضوء الخلق الجديد الذي كان على فنسان أن يبتكره ليبرر مسلكه لأنه سيبقى كائنًا خلقيًّا ولن يغلبه الشيطان إلا حين يزودَّه بأسباب تبرِّئُهُ أمام نفسه: نظرية الوجود والكل في اللحظة، والبهجة المباشرة بلا باعث.

خامسًا: نشوة الرابح. الاحتقار للاعتدال. شعوره بالسيطرة وعند هذا يكون الشيطان قد انتصر، وعند هذا الحد أيضًا يصبح الشخص -الذي يتصور أنه حر- لعبةً في يد الشيطان. ولذا لن يقف الشيطان حتى يسلم فنسان أخاه إلى ذلك اللعين باسافان.

ومع هذا فليس فنسان شريرًا، كل ما يعمله مهما يكن، يدعه ساخطًا متبرمًا، ولنضف إلى ما قلنا بضع كلمات.

أعتقد أننا ندعو غربة كل ثنية من ثنايا السعادة الموهومة التي تحس النفس إزاءها بأنها غريبة. فالسعادة الموهومة تحرم النفس من كل عماد وقد تكون إحدى الفضائل خليقة بالقدر على الصمود، ولكن الشيطان -قبل أن يوجه هجومه- يبعد هذه الفضيلة. ولا شك أنه لولا وجود لورا وفنسان تحت سماوات جديدة، بعيدين عن ذويهما وعن ذكريات ماضيهما وعن كل ما يربطهما بنفسيهما، لولا هذا لما استسلمت لورا لفنسان، ولما حاول فنسان إغراءها. ولا شك أنه قد خيل لهما أن ما ارتكباه -هناك-

لا يدخل في نطاق ما يحسب حسابه. وتبقى أشياء كثيرة يمكن قولها، ولكن ما سبق قوله في هذا الصدد يكفي ليوضح لنا أمر فنسان.

وكان فنسان أيضًا يشعر وهو مع ليليان بأنه في غربة، قال لها في ذلك المساء:

- لا تسخري مني. إنني أعرف أنك لن تفهميني، ومع ذلك أشعر بحاجة شديدة إلى أن أحدثك وكأنك تفهميني، لأنني منذ الآن لن أستطيع أن أقصيك من فكري.

ووضع رأسه في حب على ركبتي عشيقته وهو راقد عند قدميها، واضطجعت هي على أريكة منخفضة وراحت تداعب رأسه بحنان.

وأردف فنسان: ما كان يحزنني هذا الصباح... نعم، ربما كان شعوري بالخوف. أتستطيعين أن تبقي جادةً لحظةً! أيمكنكِ أن تنسي لحظة لكي تفهميني، ليس معتقداتكِ لأنه لا معتقدات لكِ -ولكن أن تنسي أنكِ لا تؤمنين بشيء! أنا أيضًا لم أكن أعتقد في شيء كما تعرفين، كنت أتصور أنني لن أعتقد في شيء، لن أفكر في شيء إلا فيكِ وفي نفسي، وفيما يمكن أن أكونه معكِ، فيما سأكونه بفضلكِ...

وقاطعته بقولها: سيحضر روبير في السابعة، لا أقول ذلك لكي تسرع، ولكن خوفًا من أن يفاجئنا في اللحظة التي يصبح فيها حديثك ممتعًا. لأنني أعتقد أنك تؤثر ألا تستمر في الحديث أمامه. عجيب أن تتصور اليوم أن عليك اتخاذ كل هذه الاحتياطات. إنك كالأعمى الذي يتحسس بعصاه كل مكان قبل أن يضع قدمه فيه، وأنت ترى مع ذلك أنني أحتفظ بمظهري الجاد. لماذا لا تثق في نفسك؟

وأجاب فنسان: إنني منذ عرفتكِ أشعر بثقة غير عادية، أشعر بأنني أستطيع عمل الكثير. وأنتِ ترين أني أوافق في كل شيء غير أن هذا هو بالذات ما يخيفني. لا. صه... لقد فكرت طوال النهار فيما حدثتني فيه عن غرق الباخرة (لابورجوني) وعن قطع أيدي من كانوا يحاولون الصعود إلى زورق الإنقاذ، يبدو لي أن شيئًا ما يريد الصعود إلى زورقي -لقد استعملت تشبيهكِ لكي تفهميني- شيء ما أريد أن أمنعه من الصعود إلى زورقي...

- وهل تريد مني أن أساعدك على إغراقه أيها الجبان...! وواصل كلامه دون أن ينظر إليها.

- شيء أبعده، ولكني أسمع صوته... صوتًا لم تسمعيه أبدًا، صوتًا كنت أسمعه في طفولتي...

- ماذا يقول ذلك الصوت! إنك لا تجرؤ على تكراره، هذا لا يدهشني. إنني أراهن أن هناك مواعظ دينيةً فيما تتحدث به. أليس كذلك؟

- ولكن، حاولي أن تفهميني يا ليليان الوسيلة الوحيدة أمامي لأتخلص من هذه الأفكار هي أن أقولها لك، أما إذا سخرت منها فسوف أحتفظ بها لنفسي وسوف تسممني.

فأجابته بلهجة المستسلمة: تكلم إذَنْ. ثم أردفت لما رأته يسكت ويخفي جبهته في طيات ثوبها وكأنه طفل، هيا! ماذا تنتظر!

وأمسكت به من شعره، وأجبرته على أن يرفع رأسه، وقالت:

إنه يحمل هذا محمل الجد حقًا! لقد شحب لونه، اصغ يا صغيري، إن شئت أن تكون كالأطفال، فهذا لا يناسبني على الإطلاق. على المرء أن يعرف ما يريد، ثم إنني لا أحب الغشاشين، إذا أنت حاولت - في مدارة- أن تُصعد إلى زورقك من لا مكان له فيه فإنك تغش. إنني أريد أن ألعب معك ولكن لعبًا نزيهًا، إني أصنع هذا لأساعدك على النجاح. أعتقد أن في إمكانك أن تصبح شخصًا مهمًّا جدًّا، عظيم القدر. وأشعر أنك تمتاز بذكاء كبير وبقوة هائلة، وأريد أن أساعدك. هناك كثيرات من النساء يتسببن في إضاعة مستقبل من يحببنه، أما أنا فأريد أن يكون الأمر على عكس ذلك تمامًا. سبق أن أخبرتني برغبتك في أن تترك الطب لتتفرغ لأبحاثك في علم الأحياء، وكنت تأسف لعدم وجود مال كاف لذلك معك... لقد كسبت لتوك في اللعب خمسين ألف فرنك، وهذا مبلغ له قيمة. ولكن عدني بأنك لن تلعب بعد الآن. وسوف أضع تحت تصرفك كل المال الذي ستحتاجه بشرط أن تكون لك الشجاعة الكافية في أن تسخر ولا تبالي إذا ما قال لك قائل: إن امرأةً تعولك!

ونهض فنسان واقترب من النافذة. واستطردت ليليان:

- أولًا، ولكي ننتهي من موضوع لورا أعتقد أن في الإمكان أن ترسل لها مبلغ الخمسة آلاف فرنك الذي وعدتها به، إنك تملك الآن مالًا، فلماذا لا تفي بوعدك؟ أهي الرغبة في أن تستمر في شعورك بالإثم حيالها! هذا لا يعجبني، فأنا أنفر من هذه التصرفات الخشنة، إنك لم تتصرف في هذا بأمانة، وبعد أن تسدد المبلغ سوف نذهب لقضاء الصيف في مكان ملائم لأبحاثك، لقد حدثتني عن بلدة روسكوف، ولكنني أفضل موناكو؛ لأنني أعرف أميرها حق المعرفة، وسوف يصحبنا في يخته خلال رحلاته، كما يمكن أن يجعلك تعمل في معهد الأحياء الذي يملكه.

وسمع فنسان هذا الكلام ساكتًا، وكان يؤسفه أن يعترف لليليان -ولم يروِ لها ذلك إلا فيما بعد- أنه مر قبيل حضوره بالفندق الذي تنزل فيه لورا -حيث انتظرته يائسةً- وإذ كان يشعر بالحاجة إلى تبرئة ذمته فقد وضع ذلك المبلغ في مظروف -ذلك الذي لم تعد لورا تعتمد عليه- وعهد به إلى صبي ليوصله إليها، ثم انتظر في مدخل الفندق ليتأكد من أن الصبي أسلمه لصاحبته، وعاد الصبي بعد لحظات وفي يده المظروف وكانت لورا قد كتبت عليه:

«لقد فات الأوان».

دقت «ليليان» الجرس وأمرت بأن يحضروا لها معطفها. ولما خرجت الخادمة قالت:

- نسيت أن أقول لك قبل أن يحضر «روبير» بأن تكون على حذر منه إذا ما اقترح عليك طريقة لاستثمار مبلغ الخمسين ألف فرنك. إنه على ثراء كبير، ولكنه دائمًا في حاجة إلى المال. صه، أعتقد أنني أسمع صوت نفير سيارته. لقد حضر قبل ميعاده بنصف ساعة، ولكن لا بأس... أما عن الموضوع الذي كنا نتكلم فيه...

وظهر «روبير» وكان يقول أثناء دخوله، حضرت مبكرًا لأنني اعتقدت أننا سنجد متعةً إذا تناولنا العشاء في ضاحية «فرساي». أيناسبكما هذا؟ وأجابته «ليدي جريفيث» بقولها: لا؛ لأن هذه المنطقة لا تروقني. لنذهب بدلًا من ذلك إلى ضاحية «رامبوييه»، وأمامنا وقت كاف لذلك. سنتناول هناك طعامًا أقل جودةً، ولكننا سنتحدث حديثًا أشهى. أريد أن يروي فنسان حكاياته عن الأسماك فهو يعرف

عنها قصصًا مدهشة، ولا أدري إذا كان ما يقصه واقعي أم لا، ولكنه مع ذلك يسلي أكثر مما تسلي أروع قصص العالم.

قال فنسان: ربما لا يشاطرك القصصيون رأيك هذا...

وقال روبير. وكان يمسك في يده بجريدة مسائية: أتعرفان أن برونيار قد عُين مدير إدارة بوزارة العدل؟ وأردف وهو يلتفت نحو فنسان: حان الوقت ليحصل والدك على وسام.

ورفع فنسان كتفيه. وأردف روبير باسافان: يا عزيزتي فنسان أتسمح لي أن أخبرك بأنك ستؤلمه إن لم تطلب منه هذه الخدمة الصغيرة، هذه الخدمة التي سيسعده جدًّا أن يرفض أداءها.

ورد فنسان: ولماذا لا تبدأ بطلب ذلك الوسام لنفسك؟

وتصنع روبير الامتعاض وقال:

- لا. إنني أحاول ألا تعلوني الحمرة، وحتى ولو كانت حمرة وسام في عروة سترتي. ثم أردف وهو يلتفت نحو ليليان، أتعرفين أنهم نادرون من يبلغون الأربعين في أيامنا دون أن يُصابوا بالجدري أو دون أن يحصلوا على وسام!

وابتسمت ليليان وهي ترفع كتفيها، وقالت:

- روبير يوافق على أن يعترف بكبر سنه في نظير أن يقول دعابةً.. قل لي: هل هذه العبارة فقرة من فقرات كتابك، سوف تكون فكرةً جديدةً. انزلا، سأرتدي معطفي وألحق بكما.

وقال فنسان لروبير وهما يهبطان السلم:

- كنت أعتقد أنك لم تعد ترغب في أن تراه.

- من؟ برونيار؟

- أترى أنه سخيف إلى هذا الحد...

وأجاب روبير باسافان وهو يتأخر في الرد، إذ رأى ليدي جريفيث آتيةً، وكان يأمل أن تسمع ما يقوله، فأوقف فنسان على درجة السلم:

- أحب أن تعرف.. لقد ثبت لي أن جميع أصدقائي – بعد معاشرة طويلة لهم- على قدر من البلاهة. وأؤكد لك أن برونيار قد صمد في هذا الامتحان أكثر من غيره.

وأجابه فنسان: ربما أكثر مني؟

- وهذا لم يمنعني من أن أبقى أوفى صديق لك. وأنت ترى ذلك.

وقالت ليليان وكانت قد لحقت بهما: أهذا ما يسمونه في باريس فن الدعابة؟ كن على حذر يا روبير؛ فإن التظرف سريع الذبول.

وأجابها روبير بقوله: اطمئني يا عزيزتي، الكلمات لا تذبل إلا بعد طبعها في الكتب.

واتخذوا أماكنهم في السيارة، واستمر حديثهم ظريفًا بحيث لا أرى داعيًا لترديده هنا. وجلسوا حول مائدة في شرفة فندق أمام حديقة لفها الليل بظلاله. وبدأ حديثهم يتثاقل. ودفعت ليليان وروبير صاحبنا فنسان إلى الكلام، فلم يعد يتحدث أحد سواه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

كان روبير قد قال: كنت خليقًا بأن أزيد اهتمامي بالحيوان، لو قللت اهتمامي بالناس.

وأجابه «فنسان»: ربما اعتقدت أن الإنسان يختلف كثيرًا عن الحيوان. ولكن لم يظهر اكتشاف في علم الحيوان إلا وكان لدى صدى في معرفة حقيقة البشر. كل هذه الأمور تتقارب وتتماسك، وفي رأيي أنه لا يجوز للروائي المهتم بعلم النفس أن يتغاضى عما يحدث في الطبيعة وأن يتجاهل نواميسها. وقد قرأت في مذكرات الأخوين «جونكور» التي أعطيتها لي وصفًا لزيارة قاما بها للقسم الخاص بالتاريخ الطبيعي بحديقة الحيوانات، وهما يأسفان فيها على افتقار الطبيعة إلى الخيال. وهما بهذا التطاول يظهران حماقتهما وعدم قدرتهما على الفهم. فما أعظم تنوع الطبيعة على عكس ما يقولان! يبدو أن الطبيعة سلكت كل السبل لتكون حيةً ولتستطيع الحركة وأنها استنفدت كل ما تسمح به المادة وقوانينها. وما أعظم الدرس الذي يمكن أن نتعلمه من الحفريات. وما أعظم الاقتصاد الذي أبقى بعض صور الكائنات وأتى على البعض الآخر. وعندما أتأمل الصور الباقية أفهم لماذا اندثرت الصور الأخرى!

وعلم النبات بدوره يعلمنا الكثير؛ فعندما أفحص عود نبات، أجد تحت كل ورقة من أوراقه برعمًا يمكن أن يثمر بدوره في العام التالي، وعندما ألاحظ أن اثنين فقط من هذه البراعم الكثيرة سينموان، وأنه بنموها هذا سيقضيان على البراعم الأخرى بالموت، فإنني لا أستطيع إلا أن أؤمن بأن الأمر على هذا المنوال أيضًا في عالم الإنسان، فالبراعم التي تنمو هي التي توجد عادةً في أبعد مكان عن أرومة الساق وتقليم الساق -أو ثنيها- كفيل بإجبارها على تغذية البراعم المجاورة لها والتي كانت تبقى خامدةً لولا ذلك الإجراء الذي يدفع العصارة إليها لتغذيتها. وبهذه الوسيلة تثمر أكثر النباتات تخلفًا عن الإثمار، ولولا ذلك، ولو تركت وشأنها لما أعطت غير الأوراق. آه! إن البستان حقًّا لمدرسة عظيمة! وإن البستاني لخليق بأن يكون مربيًا عظيمًا.

وإننا لنتعلم أشياء كثيرةً إذا ما عرفنا كيف نلاحظ ما يجري حولنا في حظائر الدواجن أو الكلاب أو في جحور الأرانب أو في معرض الأحياء المائية، أو في حظيرة الماشية. إننا لنتعلم منها أكثر مما نتعلمه من الكتب أو من مجتمع الناس حيث يشوب الزيف كل شيء.

ثم تكلم «فنسان» عن نظرية «الانتقاء»، وعرض الطريقة المألوفة عند النباتيين الذين ينتقون أكثر الأنواع احتمالًا؛ ليحصلوا على أجود البذور. وتحدث عن تزودة ذلك البستاني الجريء الذي تعمد -وكأنه أراد ذلك على سبيل التحدي- أن يختار أضعف الأصناف فإذا به يحصل على نتائج باهرة.

ولم يكن «روبير» يصغي إليه إلا بأذن واحدة، كأنه لا ينتظر من حديث كهذا إلا الملل. ولكنه لم يعد يحاول مقاطعته. وكان اهتمامه الزائف هذا يسعد «ليليان» وحسبته تكريمًا لعشيقها.

وقالت له ليليان: هل لك أن تحدثنا عما قصصته عليّ منذ أيام عن الأسماك وعن مدى تجاوبها مع درجة ملوحة مياه البحر... ألم يكن الحديث في ذلك؟

وأردف فنسان: إن درجة الملوحة هذه ثابتة بشكل عام، باستثناء مناطق قليلة، والأحياء المائية لا تحتمل عادةً إلا تغييرات طفيفةً في هذه الكثافة. ولكن المناطق التي أتكلم عنها ليست مهجورةً على أي

حال، وهي معرضة لعمليات تبخير كبيرة تزيد درجة الملوحة. وثمة مناطق أخرى تصل إليها باستمرار كميات من المياه العذبة تخفف من كثافة الملح أو بمعنى أصح تجرد مياه البحر من ملوحتها، وهي مناطق قريبة من مصاب الأنهار الكبيرة، أو مناطق تصلها تيارات قوية كالمنطقة التي تُسمَّى «بجولف ستريم». وفي هذه المناطق تضعف الحيوانات المسماة بـ «ستنيوهالان» (Stenohalins) وقد تنفق لأنها تكون عندئذ عاجزةً عن الدفاع عن نفسها ضد الحيوانات المسماة «أوريهالان» (Euryhalins)، فلا مفر من أن تصبح فريسةً لهذه الأخيرة التي تفضل أن تعيش عند مصاب التيارات الكبيرة، حيث تتغير نسبة كثافة الماء. وتحتضر الحيوانات المسماة بالـ (ستينوهلان:Stenohalins). ولقد فهمتها دون شك أن حيونات الستينوهالان هذه هي التي لا تحتمل إلا درجة ملوحة ثابتةً بينما الـ (أوريهالان)...

وقاطعه روبير قائلًا: هي التي جردت من ملحها –وكانت عادته أن ينسب لنفسه كل فكرة- ولم يكن يهمه في أي نظرية إلا ما يمكن أن يستخدمه.

وأضاف فنسان بلهجة جادة: وأغلب هذه الحيوانات مفترسة.

وصاحت ليليان بحماسة: ألم أقل لك أن ما يرويه أفضل من جميع القصص؟ وبدا فنسان وكأن سحنته قد تبدلت، وكأن هذا الفوز لم يؤثر فيه، فبدا مظهره جادًا للغاية، وأردف بصوت خفيض وكأنه يحدث نفسه:

- إن أعظم الاكتشافات في الآونة الأخيرة، أو على الأقل تلك التي علمتني أشياء كثيرةً، هي الاكتشافات الخاصة بآلات تصوير الحيوانات التي تعيش في أعماق البحار.

وقالت ليليان: أوه! احك لنا هذا، وكانت قد تركت سيجارتها تنطفئ، كما تركت الحلوى المثلجة تذوب.

- إنكما تعرفان ولا شك أن ضوء النهار لا يتغلغل كثيرًا في مياه البحر، وأعماق البحار تسودها ظلمة حالكة، وهي مساحات شاسعة، اعتقد الناس لمدة طويلة أنها غير مأهولة بالكائنات، ثم تبين من عمليات التنقيب التي حاولها الإنسان في هذه المناطق أن بها كثيرًا من الحيوانات العجيبة. وكان الاعتقاد السائد أن هذه الحيوانات عمياء وأنها ليست في حاجة إلى حاسة البصر في هذا الظلام الدامس، وكان من الطبيعي ألا يكون لها أعين. ومع ذلك فُحصت هذه الحيوانات ولوحظ –وهذا أمر يدهش للغاية- أن أغلبها له أعين، وإن كان لبعضها أحيانًا، زيادة على ذلك زوائد حساسة للغاية تكشف لها كل ما يدور حولها كما يفعل الرادار([12]).

وكان لا يزال الشك يراود العلماء، ودهشوا إذ تساءلوا، لماذا يكون لها أعين وهي لا ترى بها شيئًا؟ إنها أعين حساسة، ولكن أي شيء تحس به؟ وأخيرًا اكتشفوا أن كلًّا من هذه الحيوانات يصدر ضوءًا يلقيه أمامه ومن حوله. كل منها يضيء ويسطع ضوؤه وينتشر حوله، فإذا ألقيت هذه الحيوانات على ظهر الباخرة بعد إخراجها من الأعماق، كانت الأضواء الصادرة عنها تسطع في الليل. وهي أضواء تشبه النيران المتحركة، أضواء ترتجف، لها ألوان متعددة، تشبه المنارات الدائرة، ولها بريق النجوم، أو بريق الأحجار الكريمة الخاطف، ولا شيء يمكن أن يعادلها في جمالها على حد قول من رأوها.

وسكت فنسان، وبقوا طويلًا صامتين.

وقالت ليليان فجأة: فلنعد. إنني أشعر بالبرد.

وجلست ليليان بجانب السائق، وكان الحاجز الزجاجي للسيارة يحميها شيئًا ما، أما الرجلان فقد قبعا خلفها واستمرا في الحديث، وكان روبير قد سكت طوال الوقت الذي استغرقه تناول الطعام، وكان يصغي إلى فنسان وهو يحاضر، أما الآن فقد جاء دوره ليتكلم:

- إن أسماكًا مثلنا يا عزيزتي فنسان تحتضر في المياه الساكنة. قالها وهو يربت بيده على كتف صديقه. وكان يسمح لنفسه مع فنسان ببعض حركات تدل على عدم الكلفة، ولكنه لم يكن ليسمح بأن يعامله هذا الأخير بالمثل، ولم يكن فنسان على أي حال يميل إلى مثل ذلك التصرف، وأردف:

- أتعرف أنني أجد حديثك جذابًا جدًّا! إنك تصلح أن تكون محاضرًا ممتازًا! يجب أن تترك مهنة الطب. ولا يمكن أن أتصورك وأنت تصف الملينات أو تعالج المرضى. ما يناسبك هو كرسي الأستاذية في علم البيولوجيا المقارنة أو شيء من هذا القبيل.

وقال فنسان: سبق أن فكرت في هذا الأمر.

- لعل ليليان تستطيع أن تحقق لك ذلك بأن تحمل صديقها أمير موناكو يهتم بأبحاثك، وهو على ما أعتقد ممن يهتمون بهذه الأمور – يجب أن أحدثها في هذا الأمر.

- سبق أن كلمتني فيه.

- إذَنْ لا فائدة في أن أؤدي لك أي خدمة (وتظاهر بأنه تضايق من ذلك). على حين أني كنت أود أن أطلب منك خدمة.

- هل جاء دورك لتطلب مني خدمة؟ أتعتقد أن ذاكرتي ضعيفة؟

- ماذا؟ أما زلت تفكر في الخمسة آلاف فرنك! ولكنك أعدتها لي يا صديقي! لم تعد مدينًا لي بشيء... اللهم إلا ببعض الصداقة. وأضاف ذلك بلهجة فيها ما يشبه الحنان وهو يضع يده على ذراع فنسان: إنني ألجأ إلى صداقتك هذه.

وقال فنسان عندئذ: إنني مصغ إليك.

ولكن «روبير فنسان» صاح في الحال، وهو يرمي فنسان بما فيه من لهفة: كم أنت متسرع! أمامنا وقت طويل حتى تصل إلى باريس لتتكلم في هذا الأمر.

وكان باسافان ماهرًا في أن يخلع على غيره صفاته هو، وكل ما يؤثر إنكاره. ثم قال وهو يتصنع تغيير الحديث، وكان في ذلك كصيادي الأسماك الذين يخشون أن تنزعج فريستهم، فيلقوا بالطعم بعيدًا جدًّا، ثم يقربونه بطريقة غير محسوسة:

- بهذه المناسبة، أشكرك على أنك أرسلت لي أخاك. وكنت أخشى أن تكون قد نسيت.

وبدرت من فنسان حركة فأردف روبير:

- ألم تره منذ ذلك الحين!.. ألم يكن لديك الوقت! عجيب أنك لم تسألني شيئًا عن تلك المقابلة، ولكن ذلك لا يهمك. إنك لا تبالي بأخيك على الإطلاق، لا بما يفكر فيه أوليفييه ولا بما يشعر به ولا بما هو عليه ولا بما يريد أن يصير إليه، إنك لا تقلق نفسك بكل هذه الأشياء...

- أهذا عتاب!

- نعم، إنني لا أفهم ولا يمكن أن أوافق على إهمالك هذا. وكان من الممكن أن تفكر في نفسك فقط عندما كنت مريضًا في مدينة بو. لقد كانت الأنانية جزءًا من العلاج ولكن الآن... ماذا؟ أتكون إلى جانبك هذه النفس الشابة التي تنبض بالحياة وذلك الذكاء المتيقظ الذي يبشر بالكثير، والذي لا ينتظر منك إلا نصيحةً وسندًا... ونسى روبير في هذه اللحظة أن له هو أيضًا – شقيقًا مثله، ولم يكن فنسان أبله، لقد نبهته هذه المبالغة في إظهار العواطف بأن شعور باسافان ليس مخلصًا، وأن وراء استيائه الظاهر شيئًا آخر.

وسكت فنسان وأخذ ينتظر البقية، ولكن روبير وقف فجأةً، لقد تبين منذ لحظة ضوء السيجارة التي كان يدخنها فنسان زمة ترتسم على شفته، وتصور أنها زمة السخرية، وكان أخشى ما يخشاه هو السخرية، أكان هذا الشعور هو الذي جعله يغير لهجته؟ الأرجح أنه أدرك فجأة أن ثمت شيئًا من التشابه بينه وبين فنسان... ولذا أردف وهو يبدو طبيعيًّا جدًّا، وكأن لسان حاله يقول: لست في حاجة إلى أن أتظاهر أمامك بشيء.

- حسنًا! لقد كان لي مع أوليفييه حديث ممتع جدًّا، إن هذا الصبي ليعجبني أيما إعجاب.

وكان روبير يحاول أن يلتقط نظرة فنسان ليفهم ما فيها (ولم يكن الليل حالك السواد)، ولكن هذا الأخير كان ينظر بثبات أمامه، ثم قال:

- ها هي الخدمة الصغيرة يا عزيزتي التي أريد أن أطلبها منك.

ولكن هنا أيضًا شعر بالحاجة إلى أن ينتظر لحظةً، وكأنه ممثل يريد أن يتجرد قليلًا من دوره، وهو متأكد تمامًا من سيطرته على جمهوره، وراغب في أن يثبت لنفسه ولجمهوره أنه يسيطر عليه. وانحنى إلى الأمام نحو ليليان وقال لها بصوت عال جدًّا – وكأنه يريد أن يشعر محدثه بالفرق بين لهجة بث الأسرار التي كان يكلمه بها واللهجة التي سيتكلم بها الآن.

- يا صديقتي العزيزة، أمتأكدة أنت تمامًا أنك لن تصابي بالبرد؟ عندنا غطاء للسفر لسنا في حاجة إليه...

ثم أردف بصوت خفيض دون أن ينتظر إجابةً عن سؤاله، وهو قابع في السيارة قريبًا من فنسان.

- ها هي الخدمة: أريد أن أصطحب أخاك هذا الصيف، نعم أقول لك ذلك بكل بساطة، ولماذا ألجأ معك إلى اللف والدوران؟.. لم أحظ بشرف معرفة والديك لي، وهما بالطبع لن يتركا أوليفييه يسافر معي إذا لم تتدخل في الأمر بطريقة فعالة. لا شك أنك ستجد طريقة تجعلهما يرضيان عني. إنك تعرفهما جيدًا على ما أعتقد وتعرف كيف تقنعهما. هل تتكرم بأن تفعل ذلك من أجلي؟

وانتظر لحظةً، ثم أردف لما رأى فنسان صامتًا.

- أصغ إليَّ يا فنسان... سوف أترك باريس عما قليل... ولا أعرف إلى أين أنا ذاهب، وأنا في حاجة ملحة إلى سكرتير... وأنت تعرف أنني أنشئ مجلة، وقد كلمت أوليفييه في هذا الأمر، ويبدو لي أنه يتمتع بكل الصفات المطلوبة... ولكنني لا أريد أن أفكر في الأمر من وجهة نظري الخاصة. إنني أعتقد أن كل صفاته ستجد مجالها هنا. لقد اقترحت عليه أن يصبح رئيسًا للتحرير... رئيس تحرير مجلة في مثل سنه...! أعترف بأن هذا أمر غير عادي.

وقال فنسان وقد أدار عينيه نحوه أخيرًا ونظر إليه بثبات.

- هذا أمر غير عادي لدرجة أنني أخشى أن ينزعج والديّ.

- نعم لعلك على حق. ربما كان من الأفضل ألا تكلمهما في هذا الأمر. ولكنك تستطيع ببساطة أن تفهمهما مدى النفع الذي يمكن أن يعود عليه من السفر الذي سأمكنه من القيام به، أليس كذلك؟ يجب أن يفهم والدك أن من في سنه يحتاجون إلى رؤية بلاد جديدة. سوف تدبر الأمر، أليس كذلك؟

واسترد فنسان أنفاسه، وأشعل سيجارةً، وأضاف بنفس اللهجة:

- ثم هل ترغب في أن تسمح لي بشيء؟ سأحاول أن أؤدي لك خدمةً. أعتقد أن في استطاعتي أن أجعلك تتمتع بميزات عرضوها عليّ في صفقة نادرة... عرضها عليّ صديق يعمل في شئون المصارف، وهو يؤثر بها بعض معارفه المقربون. ولكنني أرجوك أن تبقى ذلك الأمر سرًّا بيننا، ولا تقل كلمةً عن ذلك لليليان؛ لأنه لا يمكن لي أن أتصرف إلا في عدد قليل جدًّا من الأنصبة، ولا يمكنني أن أشركها وأشركك في ذلك في وقت واحد... مبلغ الخمسين ألف فرنك الذي ربحته أمس مساء.

- لقد تصرفت فيه فعلًا (قالها فنسان بلهجة جافة بعض الشيء؛ لأنه تذكر تحذير ليليان).

وأجابه روبير وكأنه تضايق من ذلك: هذا حسن، هذا حسن... لن ألح عليك. ثم أردف - وكأنه يريد أن يقول: لا أحقد عليك إذا ما رجعت في رأيك، أسرع في إخباري بذلك؛ لأن غدًا بعد الساعة الخامسة سوف تفوت عليك الفرصة.

وازداد إعجاب فنسان بالكونت دي باسافان منذ أن كف عن أخذ كلامه مأخذ الجد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن عشر

يوميات إدوارد

الساعة الثانية:- فقدت حقيبتي. إنني أستحق ذلك. ولم أكن أعتز بشيء مما تحتويه، إلا بيومياتي. وكان اعتزازي بها كبيرًا، وإني لأجد في قرارة نفسي تسليةً كبرى في هذه المغامرة وفي انتظار ما سيحدث. أرجو أن أسترد أوراقي؟ ترى من سيقرأها؟ لعلني منذ فقدتها أبالغ في قيمتها. وقفت هذه المذكرات عند رحيلي إلى إنجلترا. وهناك دونت كل ما راود أفكاري في كراسة أخرى، وأنا أتركها الآن وقد عدت إلى فرنسا. والكراسة الجديدة التي أكتب فيها يومياتي هذه لن تترك جيبي إلا بعد وقت طويل. إنها المرآة التي أحملها أينما حللت، ولست أشعر بوجود شيء مما يقع لي إن لم أره منعكسًا على هذه الكراسة. ولكن يخيل إليَّ منذ عودتي أنني أضطرب في حلم - كم كانت مؤلمةً محادثتي مع «أوليفييه»! وكنت أمني النفس ببهجة كبيرة منها... هل تركته هذه المحادثة قليل الرضا مثلي، قليل الرضا عن ذاته وعن ذاتي؟ إنني لم أوفق للأسف سواء في التحدث إليه أو في حمله على التحدث إليّ! ما أعسر الاهتداء إلى أبسط كلمة تؤدي إلى رضا النفس الكامل! وما إن يتدخل القلب في ذلك، حتى يخمد التفكير ويشله.

الساعة السابعة:- وجدت حقيبتي، أو على الأقل وجدت من استحوذ عليها. وكونه أعز صديق «لأوليفييه» يُوجِد بيننا نوعًا من الروابط، عليّ أنا وحدي أن أشد أواصرها. والخطر الذي يهددني هو أنني أجد في كل حدث يفاجئني متعةً تنسيني الهدف الذي أريد إدراكه.

لقد قابلت «لورا». رغبتي في أن أؤدي خدمةً تتضاعف بمجرد أن تصادفني عقبات، وبمجرد أن أضطر في سبيل ذلك إلى أن أحطم التقاليد والعرف وما ألفه الناس.

ذهبت لزيارة العجوز «لابيروز» ومدام «لابيروز» نفسها هي التي جاءت لتفتح لي الباب. لقد مر أكثر من سنتين لم أرها خلالهما، ومع ذلك تعرفت عليّ في الحال (ولا أعتقد أنهما يستقبلان الكثير من الناس). وجدتها لم تتغير، ولكن ملامحها (ولعلني أقول ذلك لأنني قد تحيزت ضدها) بدت لي أكثر قسوةً، ونظرتها أكثر مرارةً، وابتسامتها أكثر زيفًا مما كانت في أي وقت مضى.

وما إن رأتني حتى قالت: أخشى ألا يكون السيد «لابيروز» في حالة تسمح له باستقبالك. وكانت تظهر عليها الرغبة في أن تنفرد بي. ثم قالت وهي تستغل صممها لكي تجيب قبل أن أسألها:

- ولكنك يا صديقي لا تزعجني على الإطلاق. أرجوك أن تدخل. وأدخلتني في الحجرة التي اعتاد «لابيروز» أن يعطي دروسًا فيها، وبها نافذتان تطلان على الفناء، وقالت لي بمجرد أن دلفت إلى الغرفة:

- إنني سعيدة لأني أستطيع أن أكلمك لحظةً ونحن بمفردنا. إن حالة السيد «لابيروز» - وأنا أعرف مدى صداقتك الطويلة وإخلاصك له- تزعجني كثيرًا. ألا تستطيع -وأنت صاحب الكلمة المسموعة لديه- إقناعه بمعالجة نفسه؟ أما عني، فكل ما أكرره له في هذا الصدد لا جدوى له.

ثم أخذت شكاياتها منه تنهال: «لابيروز» العجوز يرفض أن يعالج نفسه لا لسبب إلا لرغبته في أن يعذبها. وهو يعمل ما لا يجوز أن يعمل، ولا يعمل أي شيء مما يجب أن يعمل، وهو يخرج أيًّا كان الجو، ولا يوافق على وضع ملفحة حول رقبته. وهو يرفض أن يأكل في ساعات الوجبات لأنه لا يشعر بالجوع. وإنها لعاجزة عن إيجاد أي وسيلة لكي تفتح شهيته، ولكنه ينهض أثناء الليل ويقلب نظام المطبخ كله لكي يأكل أي شيء.

ولم تكن المرأة العجوز تخترع أي شيء فيما تقول، وفهمت من حديثها أن مجرد تأويل بعض التصرفات البريئة يُضفي عليها معنى مهينًا، وأن الحقيقة تلقي على جدران مخيلتها الضيقة ظلًّا مرعبًا. ولكن، ألم يكن العجوز بدوره يسيء تأويل كل عنايتها به وكل اهتمامها بأمره، وهي التي كانت تشعر بأنها شهيدة وبأنه جلادها؟

إنني أدع الحكم عليهما وأنزل عن فهمهما. أو بمعنى أصح -كما يحدث دائمًا- كلما زاد فهمي لهما زادت اعتدالًا في الحكم عليهما. وملخص القول هو أننا حيال شخصين ارتباطًا لمدى الحياة، وراح كل منهما يعذب الآخر عذابًا غليظًا. وكثيرًا ما لاحظت عند المتزوجين مدى ما يسببه أي نتوء في طباع أي منهما من مضايقات لا يحتملها الآخر، لأن «الحياة المشتركة» تجعل الاحتكاك بهذا النتوء مستمرًّا. وإذا كان الاحتكاك متبادلًا أصبحت الحياة الزوجية جحيمًا.

بدت مدام «دي لابيروز» - من تحت شعرها المستعار الأسود الذي يجعل ملامح وجهها الشاحب جامدةً، وبقفازها المثقوب الأسود الذي يبين عن أصابعها القصيرة الشبيهة بالمخالب- وكأنها من الجان.

وأضافت: إنه يلومني على أنني أتجسس عليه. وهو دائمًا في حاجة إلى أن ينام كثيرًا، وفي الليل يتظاهر بالرقاد، وعندما يتصور أنني نائمة ينهض من فراشه، ويقلب في أوراق قديمة، ويظل أحيانًا حتى الصباح يقرأ بعض الرسائل القديمة التي أرسلها له أخوه المتوفي، وهو لا ينفك عن البكاء، ويريد مني أن أحتمل كل هذا دون أن أقول شيئًا.

ثم شكت من أن العجوز أراد أن يدخلها في ملجأ للعجائز. وأضافت أن ما يزعجها أكثر وأكثر في هذا الأمر أنه عاجز تمامًا عن أن يعيش بمفرده، وأن يستغني عن خدماتها. وعبرت عن كل هذا بكلمات تدل على الشفقة، ولكن تشتم منها رائحة النفاق.

وبينما كانت تسرد شكاياتها فتح باب غرفة الاستقبال برفق من خلفها، ودخل «لابيروز» دون أن تسمعه. وابتسم لي بسخرية عند سماعه العبارات الأخيرة التي قالتها زوجته، ووضع يده على جبهته بحركة يعني بها أنها معتوهة. ثم قال بطريقة تدل على نفاد صبره، وبقسوة لم أكن أتصوره قادرًا عليها -قسوة بدت أنها تبرر اتهامات المرأة العجوز- (ولعل من أسبابها أيضًا اضطراره إلى رفع صوته لكي تتمكن من أن تسمع ما يقوله):

- هيا يا سيدتي! كان يجب عليكِ أن تفهمني أنكِ ترهقين السيد بأحاديثك. لم يأتِ صديقي ليراكِ أنتِ! اتركينا.

وهنا احتجت المرأة العجوز بأن المقعد الذي تجلس عليه ملك لها وأنها لن تتركه، وأجاب «لابيروز» ساخرًا:

- في هذه الحال سنخرج نحن إذا سمحت. ثم قال، وهو يلتفت نحوي، وبلهجة أرق:

- تعال! فلنتركها.

وحاولت أن أحييها وأنا محرج، وتبعته إلى الغرفة المجاورة، التي استقبلني فيها في المرة السابقة وقال لي:

- إنني سعيد لأنك استطعت أن تسمع ما تقوله. هي كذلك طوال اليوم.

وذهب ليغلق النوافذ وقال:

- لا يمكن أن يسمع أحدنا الآخر مع ضوضاء الشارع، إنني أقضي وقتي في إغلاق هذه النوافذ التي تقضي مدام «دي لابيروز» وقتها في فتحها، وهي تدعي أنها تختنق وتبالغ دائمًا، وترفض الاعتراف بأن الجو في الخارج أحر منه في الداخل. ومع ذلك عندي مقياس للحرارة، وعندما أريها إياه تقول لي إن الأرقام لا تثبت شيئًا. إنها تريد أن تبدو على حق حتى ولو كانت تعرف أنها على خطأ. وشاغلها الأكبر هو أن تعارضني.

وبدا لي وهو يتكلم أنه ليس هو الآخر، متزنًا تمامًا. وأضاف وهو في انفعال يزداد شيئًا فشيئًا:

- إنها تتهمني بأنني السبب في كل ما تخطئ فيه، وكل أحكامها خاطئة. سأحاول أن أجعلك تفهم ما أعنيه. أنت تعرف أن الصور تصل إلى المخ مقلوبةً، ثم يرجعها إلى وضعها الطبيعي جهاز عصبي، أما مدام «دي لابيروز» فليس عندها هذا الجهاز الضابط، فكل شيء يبقى مقلوبًا في مخيلتها، وأنت ترى كم يكون هذا مؤلمًا!

وكان يشعر ولا شك براحة وهو يشرح ما في نفسه، وأمسكت عن مقاطعته، وأردف: كانت مدام «دي لابيروز» دائمًا شرهةً في الأكل، ومع ذلك تدعي أنني أنا الذي آكل كثيرًا، فإذا رأتني الآن وفي يدي قطعة من الشيكولاتة «وهي غذائي الرئيس» تتمتم: إنك دائمًا تقرض شيئًا!.. إنها تتجسس عليّ، وهي تتهمني بأنني أنهض من فراشي أثناء الليل لكي آكل في الخفاء، لأنها فاجئتني مرةً وأنا أعد لنفسي قدحًا من الشيكولاتة في المطبخ... لا حول لي في ذلك، عندما أراها على المائدة أمامي تلتهم ما في الأطباق تزايلني شهيتي نهائيًّا. وعندئذ تدعي أنني أتمتع رغبة في إزعاجها.

وسكت مدةً، ثم أردف في انفعال:

- إنني أعجب بما تعاتبني به!.. فعندما تشعر بآلام عرق النساء أشفق عليها، وعندئذ توقفني وترفع كتفيها قائلةً: لا تتظاهر بأنك رقيق القلب. وهي تتصور أن كل ما أعمله وكل ما أقوله إنما دافعه رغبتي في إيلامها.

وكنا جالسين إلا أنه كان ينهض ثم يجلس مباشرةً، وهو فريسة لقلق كالداء العضال، ثم قال:

- أتتصور أن في كل غرفة من هذه الغرف قطع أثاث لها، وقطع أثاث لي؟ لقد رأيتها منذ لحظة وهي تتكلم عن مقعدها. إنها تقول للخادمة التي تحضر إلينا أحيانًا لتقوم بأعمال المنزل: لا، هذا ملك السيد، لا تلمسيه! وذات يوم نسيت كراسةً موسيقيةً مجلدةً على منضدة لها، فألقت بها على الأرض. وتحطمت أركان الكراسة... أوه! هذا لا يمكن أن يستمر أكثر من ذلك... ولكن أصغ إليَّ...

وأمسك بذراعي، وقال وهو يخفض صوته:

- لقد دبرت أمري... إنها تهددني دائمًا إذا ما استمرت هذه الحال بأن تبحث عن مأوى لها في ملجأ العجائز. وقد ادخرت مبلغًا من المال يكفي لإقامتها في ملجأ سانت بيرين، ويقال إنه أفضل ما يوجد من الملاجئ. إن الدروس التي ما زلت أعطيها لم تعد تدر عليّ شيئًا، وستنفذ مواردي عما قريب وأضطر حينئذ إلى أن أنفق من هذا المبلغ، ولست أريد أن يحدث هذا، ولذا اتخذت قرارًا... وسوف أنفذه بعد ثلاثة أشهر تقريبًا. نعم لقد حددت التاريخ، ولا تتصور مدى ما أشعر به من راحة لمعرفتي أن كل ساعة تمر تقربني من هذا التاريخ.

وكان قد انحنى فوقي، ولكن انحناءه ازداد وقال:

- إنني أحتفظ كذلك بسند من السندات كنت قد ادخرت قيمته، أوه! ليست قيمته كبيرةً، ولكنني لم أستطع أكثر من هذا، إن مدام دي لابيروز تجهل هذا الأمر، وأنا أحفظ السند في مكتب صغير في مظروف يحمل اسمك، وبه كل ما أطلب منك عمله، هل أستطيع أن أعتمد عليك لكي تساعدني في هذا الصدد؟ إنني أجهل تمامًا عالم الأعمال، ولكن أحد مسجلي العقود أخبرني أن أرباح السند يمكن أن تدفع مباشرةً لحفيدي حتى بلوغه سن الرشد، وعند ذاك يحصل على السند. وأعتقد أن صداقتنا القديمة تتيح لي أن أطلب منك السهر على تنفيذ رغبتي هذه، وأنا لا أثق أبدًا في المسجلين!.. وإذا كنت ترغب في أن تطمئني فأرجوك أن تقبل الاحتفاظ بهذا المظروف معك منذ الآن... نعم، أليس كذلك؟.. سوف أحضره لك.

وخرج وهو يقفز قفزاتٍ قصيرةً كعادته، وعاد وهو يحمل مظروفًا كبيرًا، وقال لي: لا تؤاخذني لأنني أغلقت المظروف، ذلك إجراء شكلي، خذه.

وألقيت نظرةً على المظروف، وقرأت تحت اسمي بحروف منمقة: يُفتح بعد موتي.

وأضاف: ضعه بسرعة في جيبك؛ لكي أطمئن على أنه في أمان، وشكرًا... آه! كنت أنتظرك بفارغ الصبر!..

أحسست كثيرًا في مثل هذه المناسبات بأن ثمت لونًا من الرهبة الروحية الصوفية يحل في نفسي محل المشاعر الإنسانية، فأستشعر لونًا من الحماس، وأشعر بأن كياني كله قد تسامى، أو بمعنى أصح أنه تجرد من قيود الأنانية، فكأنني خلعت شخصيتي، وكأن نفسي انتزعت مني. ولا يمكن لأي شخص لم يشعر بذلك الشعور أن يفهم ما أعنيه بهذا القول. وكنت أشعر أن لابيروز يفهم ما أشعر به، كان كل اعتراض من قبلي في هذه اللحظة يعتبر شيئًا لا قيمة له، وكان الاعتراض في لحظة كهذه عملًا غير مناسب. ولذا اكتفيت بأن أشد بقوة على يده التي تركها في يدي، وكانت عيناه تلمعان ببريق عجيب ورأيت في يده الأخرى -التي كانت تمسك بالمظروف- ورقةً ثانيةً، وقال:

- سجلت هنا عنوانه؛ لأنني أعرف مكانه الآن: في مدينة «ساس فيه» هل تعرف هذا المكان؟ إنه في سويسرا، لقد بحثت عنه على الخريطة، ولكنني لم أجده.

وقلت: نعم إنها قرية صغيرة بالقرب من جبل سرفان على قمة الألب، وسألني: أهو مكان بعيد جدًّا؟

وأجبته: ليس بعيدًا إلى الحد الذي يمنعني من الذهاب إليه.

وقال: ماذا؟.. أتفعل ذلك؟.. أوه! كم أنت طيب القلب! أما عنّي فإن سنّي لم تعد تسمح لي بهذا، ثم إنه ليس في مقدوري بسبب أمه... ومع ذلك يبدو لي أنني... وتردد وهو يبحث عن الكلمة، ثم أردف:

- آه لو استطعت رؤيته، إذَنْ لرحلت عن هذا العالم قرير العين.

وأجبته:

- سأعمل كل ما يستطيع البشر عمله لأحضره لك، وسوف ترى بوريس الصغير. أعدك بذلك.

- شكرًا... شكرًا.

وضمني بين ذراعيه وهو يرتجف، قلت:

- لكن عدني بألا تفكر بعد في...

وأجابني وهو يقاطعني بقوة، أوه؛ هذا أمر مختلف- ثم قال في الحال وكأنه يمنعني من الإلحاح، وليغير مجرى أفكاري:

- تصور أن والدة إحدى تلميذاتي أرادت منذ أيام أن تصطحبني إلى المسرح! لقد مضى على ذلك شهر تقريبًا. كانت الحفلة نهاريةً في مسرح الكوميدي فرانسيز، وكان قد مضى عليَّ أكثر من عشرين عامًا لم تطأ فيها قدمي قاعة عرض، وكانوا يمثلون فيها رواية «إرناني» لفكتور هوجو، أتعرفها؟ كان يبدو أنها مُثِّلَتْ بإتقان؛ لأن الجميع كانوا متحمسين، أما أنا فقد تألمت بطريقة أعجز عن وصفها. ولولا الحياء لما استطعت البقاء... لقد كنا في مقصورة، وكان أصدقائي يحاولون تهدئتي، ولولا ذلك لوجهت حديثي إلى النظارة، أوه؛ كيف يسمحون لأنفسهم! كيف يسمحون لأنفسهم!

ولما لم أفهم في بادئ الأمر سبب مؤاخذته سألته:

- ألم يعجبك الممثلون؟

وأجابتني: بالطبع، كيف يجرؤون على مثل هذه الأشياء المخجلة على المسرح؟

وكان الجمهور بالرغم من ذلك يصفق لهم! وكان يوجد بين الحضور أطفال، أطفال اصطحبهم ذووهم وهم يعرفون الرواية... هذا أمر مخيف، ويجري هذا على مسرح تمده الدولة بإعانتها.

وكان استياء هذا الرجل الممتاز يسليني وكدت أضحك، وأجبته بأن الفن المسرحي لا يمكن أن يقوم إلا على تصوير العواطف.

ورد بدوره قائلًا إن تصوير المشاعر سيئ الأثر لا محالة، واستمر الحديث بيننا على هذا المنوال وقتًا ما، وبدأت أشبه هذا العامل الانفعالي بارتفاع الأصوات الصادرة عن الآلات النحاسية في فرقة موسيقية بقولي:

- مثل البداية الموسيقية على الآلات النحاسية التي تعجب بها في سيمفونية (بيتهوفن).

ولكنه قاطعني وهو يصيح: ولكن هذه البداية لا تعجبني على الإطلاق.

لماذا تريد مني أن أعجب بما يثير القلق في نفسي؟

وراح جسمه كله يرتجف، وفوجئت بما بدا في نبرة صوته من استياء وعداء، ويظهر أنه فوجئ هو أيضًا بذلك؛ لأنه أضاف بصوت أكثر هدوءًا:

- هل لاحظت أن كل مجهودات الموسيقى الحديثة تنصب على أن تجعلنا نحتمل ونتذوق أيضًا بعض الألحان التي كنا نعتبرها في بادئ الأمر نشازًا؟

وأجبته: هذا ما يحدث فعلًا؛ لأن كل شيء يجب أن ينتهي به الأمر إلى الخضوع لأوامر التناسق والانسجام.

- الانسجام! (كررها وهو يرفع كتفيه) إنني لا أرى في ذلك إلا استسلامًا للرذيلة، للخطيئة، ضعفت حساسية الناس واعترى الشحوب النفوس، ووهنت الانفعالات، وأصبح الناس يتساهلون، ويتقبلون.

- عندما يسمعك الإنسان يتصور أن الناس أصبحوا لا يجرؤون على فطام الأطفال، ولكنه استرسل دون أن يصغي إليّ:

- لو عاودنا حماس الشباب وتطرفه، لكان أول ما يسخطنا هو ما صارت إليه حال الناس.

وكان الوقت متأخرًا لا يسمح لنا بالاسترسال في مناقشة حول أهدافنا في الحياة، وحاولت أن أعود به إلى عالمه هو، ولذا قلت:

- إنك لا تريد على ما أظن أن تجعل من الموسيقى شيئًا يعبر عن النقاء فحسب، ففي هذه الحال يكفي نغم واحد، نغم كامل مستمر!

وأخذ يدي بين يديه، وكرر – وكأنه في حالة وجد، وقد تاهت نظراته في العبادة- كرر عدة مرات...

- نغم كامل مستمر، نعم، هو ذلك، نغم كامل مستمر.

ولكنه أضاف بحزن: ولكن عالمنا كله فريسة للنشاز.

واستأذنته في الانصراف، واصطحبني حتى الباب وتمتم وهو يعانقني: آه! كم سيطول انتظارنا لنحقق هذا الانسجام؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الجزء الثاني
«ساس فيه»

الفصل الأول

من برنارد إلى «أوليفييه»

يوم الاثنين.

صديقي العزيز،

عليَّ أولًا أن أخبرك بأنني رسبت في امتحان إتمام الدراسة الثانوية، ولا شك أنك أدركت هذا عندما لم تجدني في لجنة الشفهي. سأتقدم لهذا الامتحان في شهر أكتوبر، لقد سنحت لي فرصة نادرة لأسافر، واغتنمتها في الحال ولست آسفًا على ذلك. كان عليّ أن أحزم رأيي في الحال ولم يكن أمامي وقت للتفكير ولا حتى لتوديعك. وبهذه المناسبة، كلفني رفيقي في السفر أن أبلغك أسفه على أنه رحل قبل أن يراك. هل تعرف من صحبني؟ لعلك عرفت أنه «إدوارد». إنه خالك العظيم. وقد صادفته ليلة وصوله إلى باريس في ظروف غير عادية ومثيرة سوف أشرحها لك فيما بعد. لقد كان كل شيء في هذه المغامرة خارجًا عن المألوف، وإن رأسي لتدور عندما أفكر في كل ما حدث، وما زلت حتى اليوم أتردد في تصديق كل ما جرى، وفي أنني أنا الذي أكتب لك ذلك. أنا الآن في سويسرا مع إدوارد... ولكن لا بأس، لا بد من أن أعترف لك بكل شيء، غير أني أرجو أن تمزق هذه الرسالة وأن تحتفظ بما فيها سرًّا لنفسك.

هل تتصور أن هذه المرأة التي هجرها أخوك، تلك التي سمعت نحيبها ذات ليلة بالقرب من باب غرفتك (اسمح لي أن أقول لك أنك كنت مغفلًا لأنك لم تفتح لها بابك) هذه السيدة صديقة حميمة لإدوارد، وهي ابنة «فيدل» نفسه وشقيقة صديقك «أرمان»، كان يجب ألا أذكر لك كل هذه الحقائق؛ لأنها تتعلق بشرف امرأة، ولكنني أعتقد أنني سأموت إن لم أسردها على أحد... وأطلب منك ثانيةً أن تحتفظ بهذا السر لنفسك. أنت تعرف أنها تزوجت منذ قليل، ولعلك تعرف أيضًا أنها لم تلبث أن مرضت، وأنها ذهبت إلى الجنوب لتعالج. وهناك تعرفت بفنسان بمدينة «بو». لعلك تعرف ذلك أيضًا، ولكن ما تجهله هو أن هذه المقابلة كان لها نتائج. نعم، يا صديقي!

إن أخاك الأحمق قد أنجب منها طفلًا، وعادت إلى باريس وهي حامل، ولم تجرؤ على الظهور أمام ذويها وهي على هذه الحال، ولم تجرؤ كذلك طبعًا على العودة إلى منزل الزوجية. ومع ذلك هجرها أخوك على الصورة التي تعرفها. ولن أعلق أنا على هذا الموقف، ولكنني أؤكد لك أن «لورا دوفيه» لم تنطق بكلمة عتاب واحدة، أو بكلمة تدل على احتقارها له، بل على العكس من ذلك تحاول أن تجد كل الأعذار لتبرّر فعلته. إنها بالاختصار امرأة ممتازة تنطوي نفسها على الطيبة. وهناك شخص لا شك أنه ممتاز أيضًا، وأعني به «إدوارد». ونظرًا لأنها لم تعرف ماذا تفعل، أو أين تذهب، فقد اقترح عليها أن يصطحبها إلى سويسرا، واقترح عليّ في الوقت عينه أن أصحبهما بدوري؛ لأن سفره معها بمفرده يحرجه. إن شعوره نحوها لا يعدو الصداقة البريئة.

وها نحن قد رحلنا ثلاثتنا، وقد تقرر هذا الأمر في خمس دقائق فقط، لم يستغرق كل هذا إلا المدة التي استلزمها إعداد الحقائب، وشراء ما يلزمني من ملابس (وأنت تعرف أنني تركت البيت دون أن أحمل معي أي شيء)... ولا يمكنني أن أصف لك ما كانت عليه رقة إدوارد في هذه المناسبة، وزيادةً على

ذلك كان يكرر قوله بأنني أنا الذي أؤدي له خدمة. نعم يا صديقي إنك لم تبالغ حينما قلت إن خالك إنسان مدهش.

كانت الرحلة شاقةً؛ لأن لورا كانت متعبةً جدًّا وتطلبت حالتها كثيرًا من الاحتياطات، فهي تبدأ شهرها الثالث في الحمل، ثم إن المكان الذي قررنا الذهاب إليه (وقد اخترناه لأسباب لا يسمح المجال بذكرها الآن) ليس من السهل الوصول إليه. وكانت لورا تعقد الأمور برفضها أن تحتاط، وكان يجب علينا أن نجبرها على ذلك. وكانت طوال الوقت تكرر قولها بأن أي حادث يقع لها يعتبر حلًّا سعيدًا بالنسبة لها. ولعلك تدرك مدى اهتمامنا بأمرها.

آه! يا صديقي. إنها امرأة تستحق الإعجاب. إنني أشعر بأنني لست نفس الإنسان الذي كنته قبل أن أعرفها، وثمت أفكار تراودني لا أجرؤ على تبيان حقيقتها. كما أن هناك رغبات تعتمل في قلبي ولكني أخنقها، لأنني أخجل عندما أتصور أن من الممكن ألا أكون جديرًا بثقتها. نعم وإن المرء عندما يكون إلى جوارها ليضطر إلى أن يسموه بتفكيره، وهذا لا يمنع من أن تكون المحادثات بين ثلاثتنا محادثاتٍ مجردةً من القيود؛ لأن لورا ليست ممن يتظاهرون بالتمسك بأهداب التقاليد والعرف، ونحن نتكلم في أي شيء، ولكني أؤكد لك أنني في حضرتها أشعر بجدّية أمور كنت أسخر منها من قبل.

سوف تتصور أنني أهيم بها. حسنًا! يا صديقي أنت تخطئ في ذلك. إن هذا ضرب من الجنون، أليس كذلك؟ هل تتصور أنني أهيم بامرأة حامل، وأنني أشعر نحوها باحترام شديد، وأنني لا أجرؤ على أن ألمسها بأطراف أصابعي؟ ألا ترى أنني لم أعد الشخص الذي يلهو؟!

ولما وصلنا إلى «ساس فيه» بعد أن صادفتنا صعاب لا حصر لها (وكنا قد استأجرنا للورا مقعدًا يحمله رجلان؛ لأن العربات لا تستطيع الوصول إلى هذا المكان)، لم يستطع الفندق أن يقدم لنا إلا غرفتين إحداهما كبيرة وبها سريران والأخرى صغيرة- وقد اتفقنا على أن أتظاهر أمام مدير الفندق بأنها ستكون لي لأن لورا اضطرت -لكي تخفي شخصيتها- إلى التظاهر بأنها زوجة إدوارد. ولكنها تشغل الغرفة الصغيرة عندما يأتي الليل، وأتوجه أنا إلى غرفة إدوارد. وفي كل صباح تضطر إلى القيام بنقل أشياء كثيرة من هذه الغرفة إلى تلك لكي لا يشعر الخدم بشيء. ومن حسن الحظ أن هناك بابًا يوصل بين الغرفتين، وهذا يبسط الأمور.

ها قد مرت علينا ستة أيام في هذا المكان، ولم أكتب لك إلا الآن؛ لأن أفكاري كانت مبلبلةً، ولأنه كان لزامًا عليَّ أن أتبين حقيقة نفسي، وقد بدأت الآن فقط أتبين حقيقتها.

لقد قمت مع إدوارد برحلات قصيرة فوق الجبال، وكانت مسلية للغاية. لكن الحقيقة أن هذا المكان لا يعجبني كثيرًا، وهو لا يعجب إدوارد كذلك؛ لأنه يرى أن جمال المناظر الطبيعية هنا جمال صارخ لا ترتاح إليه نفسه. وهذا صحيح!

إن أحسن ما نجده هنا هو الهواء الذي نستنشقه، إنه هواء بكر، يطهر الرئتين. ولكننا لا نحب أن نترك لورا بمفردها وقتًا طويلًا؛ لأنها لا تستطيع المجيء معنا. المجتمع في هذا الفندق مسل جدًّا، وبه نزلاء من جميع الجنسيات، ونصادق بصفة خاصة طبيبة بولونية تقضي إجازتها هنا برفقة ابنتها وصبي صغير عهدوا به إليها. وقد جئنا إلى هذا الفندق بالذات ليقابل هذا الصغير، وهو مصاب بنوع من

الأمراض العصبية تعالجه الطبيبة بطريقة حديثة جدًّا. ولكن الشيء الذي يستفيد منه هذا الصغير بوجه خاص -وهو صبي ظريف جدًّا- هو أنه أحب ابنة الطبيبة حبًّا جنونيًّا، وهي تكبره ببضع سنوات. إنها أجمل مخلوقة رأيتها في حياتي، وهما لا يفترقان لحظةً من الصباح إلى المساء، وكلاهما على درجة كبيرة من الرقة، حتى أن أحدًا لم يفكر في السخرية منهما.

لم أعمل كثيرًا، ولم أفتح كتابًا منذ رحيلي، ولكني فكرت كثيرًا. إن حديث «إدوارد» يستهوي النفس بشكل مذهل، وهو لا يكلمني في العادة مباشرةً، رغم أنه يتظاهر بأني سكرتيرة. ولكني أصغي إليه وهو يتحدث مع الآخرين، ولا سيما مع «لورا». إنه يحب أن يكلمها في مشروعاته، ولا يمكنك أن تتصور مدى استفادتي من هذه الأحاديث، بل إنني أقول لنفسي أحيانًا إنه يجب عليَّ أن أدونها، ولكن أعتقد أني أحفظها كلها عن ظهر قلب. وفي بعض الأيام أشتاق إليك شوقًا لا حد له وأقول إنك أنت الخليق أن تكون هنا! ولكنني لا أستطيع أن آسف على ما يحدث لي، ولا أن أتمنى أي تغير في ذلك، وتأكد أنني لن أنسى أن لك الفضل في أنني عرفت «إدوارد» وأنني مدين لك بسعادتي. أعتقد أنك سوف تجدني قد تغيرت كثيرًا عندما نلتقي، ولكن تأكد أن صداقتي لك لم تفتر، وأنها أعمق مما كانت في أي وقت مضى!

يوم الأربعاء:

ملحوظة- عدنا لتونا من رحلة طويلة، لقد صعدنا جبال الآلالان، وكان بصحبتنا مرشدون تربطنا بهم حبال. صعدنا على الجليد ورأينا الهاوية، كما رأينا كتلًا ضخمةً من الجليد تتساقط.. إلخ، ورقدنا بين الثلوج في مخبأ، وكنا مكدسين في هذا المكان مع سياح آخرين. ولست في حاجة إلى أن أقول لك إننا لم نغمض عينًا طوال الليل، وفي اليوم التالي رحلنا قبل الفجر، والآن يا صديقي وبعد هذه الرحلة لن أذم سويسرا مرةً أخرى؛ عندما يجد المرء نفسه على هذا الارتفاع ويجد أن كل زراعة، وكل نبات قد اختفى عن ناظريه، وأنه نسي كل ما يذكره بشحّ البشر وبحماقتهم، يشعر عندئذ بالرغبة في الغناء، في الضحك، في البكاء، في أن يطير، في أن يحلق في الجو حتى تمس رأسه السماء. أو أن يرتمي راكعًا على ركبتيه.

صديقك: برنارد.

* * *

كان «برنارد» في رسالته هذه صريحًا أكثر من اللازم في تصوير مشاعره أو طبيعيًّا جدًّا، أو بريئًا جدًّا. ولكنه لم يكن يعرف أوليفييه على حقيقته، ولم يكن من الممكن أن يتصور مدى ما ستثيره هذه الرسالة في نفسه من مشاعر فظيعة، لقد تسببت في أن غمر قلب أوليفييه طوفان من الاحتقار واليأس والغضب. وشعر بأنه فقد مكانه في قلب كل من برنارد وإدوارد. لقد هددت الروابط التي جمعت بين صديقيه صداقته لهما! وتضمنت هذه الرسالة عبارات بالذات عذبته كثيرًا - عبارة لم يكن برنارد ليكتبها لو تصور مدى تأويل أوليفييه لها: «في غرفة واحدة». كان أوليفييه يردد هذه العبارة وثعبان الغيرة يتلوى في قلبه. إنهما يرقدان في غرفة واحدة! وكم تخيل من أمور عندما قرأ هذه الجملة! امتلأت مخيلته برؤى مدنسة لم يحاول إبعادها، ولم يشعر بالغيرة لا من إدوارد وحده، ولا من برنارد وحده، ولكن من الاثنين معًا. كان يتخيل كلًّا بدوره ثم كان يحسدهما معًا. لقد تسلم الرسالة في الظهر،

وأخذ يردد هذه العبارة: آه! هذا ما كان! واستمر كذلك طوال اليوم، وفي هذه الليلة استوطنت نفسه شياطين الجحيم، وفي صباح اليوم التالي أسرع إلى منزل روبير، وكانت الكونت دي باسافان في انتظاره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

يوميات «إدوارد»

لم أجد صعوبة في الاهتداء إلى «بوريس» الصغير. في اليوم التالي لوصولنا جاء إلى الشرفة وبدأ يرنو إلى الجبال خلال منظار طويل للرؤية البعيدة مثبت على مدار، وقد وضع في هذا المكان ليكون تحت تصرف السائحين. وقد تعرفت عليه في الحال، ولحقت به بعد قليل صبية تكبره قليلًا. وكنت جالسًا بالقرب منهما في قاعة الاستقبال، وكان بابها مفتوحًا ولم تفتني كلمة واحدة من حديثهما. كنت أشعر برغبة كبيرة في أن أكلمه، ولكنني رأيت من الحكمة أن أتعرف أولًا بأم الصبية الصغيرة، وهي طبيبة بولونية عهد إليها ببوريس وهي تلاحظه عن كثب. إن «برونجا» لطيفة جدًّا، فهي تبلغ حوالي الخامسة عشرة من عمرها، وشعرها الأشقر ينسدل حتى وسطها في ضفائر سميكة. وهي، في نظرتها ونبرة صوتها، تشبه الملائكة أكثر مما تشبه بني الإنسان. وأنا أدوِّن هنا كلمات الطفلين:

- بوريس، والدتي تفضل ألا تلمس المنظار. ألا تريد أن تتنزه قليلًا!

- نعم أريد ذلك. لا، لا أريد.

وقال الجملتين المتناقضتين في وقت واحد. ولم تلتفت «برونجا» إلا إلى الجملة الأخيرة وسألته: لماذا؟

- الجو حار جدًّا، الجو بارد جدًّا «وكان قد ترك المنظار».

- هيا يا بوريس، «كن لطيفًا» أنت تعرف أن والدتي يسرها أن نخرج للنزهة معًا. أين وضعت قبعتك؟

- فيبروسكو مينو باتوف. بلاف بلاف.

- وما معنى هذه الكلمات؟

- ليس لها معنى.

- إذَنْ لماذا تقولها؟

- لكي لا تفهميني.

- إن لم يكن لها معنى فلا يهم ألا أفهمها.

- ولكن إن كان لها معنى، فلن تستطيعي فهمها على كل حال.

- الناس يتكلمون ليتفاهموا.

- هل تريدين أن نلهو باختراع كلمات لا يستطيع غيرنا فهم معناها؟

- حاول أولًا أن نحسن الكلام باللغة الفرنسية.

- والدتي تتكلم الفرنسية والإنجليزية والرومانية والروسية والتركية والبولونية والإيطالية والإسبانية والبيروكية والجزيجزيتو ([13]).

ونطق بهذه الكلمات بسرعة فائقة، فيما يشبه حماسة الشعراء، فانفجرت برونجا ضاحكةً وسألته:

- لماذا يا «بوريس» تقول دائمًا أشياء لا معنى لها؟

وسألها بدوره: ولماذا لا تصدقين أبدًا ما أقوله لك؟

- إنني أصدق ما تقوله عدما يكون لذلك أساس من الحقيقة!

- وكيف يمكنك أن تعرفي إن كان ذلك صدقًا أو كذبًا؟ لقد صدقتك عندما كنت تكلمينني ذلك اليوم عن الملائكة. أخبريني يا «برونجا»؛ أتعتقدين أنني إذا صليت بحرارة استطعت أن أرى هذه الملائكة بدوري؟

- ربما استطعت رؤيتها إذا ما تخلصت من عادة الكذب هذه. وإذا أراد الله أن يريك إياها، ولكن الله لن يريها لك إن أنت صليت فقط بغية رؤيتها. هناك أشياء كثيرة جميلة جدًّا يمكن أن نراها لو كنا أقل شرًّا.

- أنت يا برونجا لستِ شريرةً، ولذا تستطيعين رؤية الملائكة. أما أنا فسأبقى دائمًا شريرًا.

- لماذا لا تحاول أن تكون طيبًا؟ هل لك في الذهاب معي إلى (وهنا ذكرت اسم مكان لم أكن أعرفه). وهناك سوف نتوجه بصلواتنا لله وللعذراء لكي يساعداك على التخلص من الشر؟!

- نعم. لا أصغي إلي، سوف نأخذ عصا، وسوف تمسكين بطرف منها، وأمسك أنا بالطرف الآخر، وسوف أغمض عيني، وأعدك بألا أفتحهما إلا عندما نصل إلى هناك.

وابتعد قليلًا، وبينما كانا ينزلان درجات سلم الشرفة سمعت «بوريس» يقول: نعم، لا، لا تمسكي بهذا الطرف، انتظري حتى أنظفه.

- لماذا؟

- لأنني قد لمسته.

اقتربت مدام «سوفرونيسكا» منّي، وكنت على وشك أن أفرغ من تناول إفطاري، وكنت أبحث عن وسيلة لأكلمها، وفوجئت بأنها كانت تمسك بنسخة من كتابي الأخير بيدها. وسألتني وهي تبتسم بلطف إن كان من تكلمه هو مؤلف الكتاب. ثم اندفعت في الحال في حديث طويل عن الكتاب وحكمها عليه. ولمست في حكمها – بما فيه من مديح ونقد- ذكاءً لم أجده عند الكثيرين ممن حكموا عليَّ، وإن كانت وجهة نظرها لا تمت إلى الأدب بشيء، وقالت لي إنها تهتم فقط بمسائل علم النفس، وبما يمكن أن يُلقي ضوءًا جديدًا على النفس البشرية. ولكنها أضافت: إن عددًا قليلًا جدًّا من الشعراء وكتاب المسرح أو القصة يستطيعون ألا يكتفوا بما سبق أن عالجه علم النفس من مشاكل. وأجبتها أن هذه المشاكل المطروقة هي وحدها التي يمكن أن تُرضي القراء.

عهدت أم «بوريس» بطفلها إلى هذه السيدة ليقضي معها الإجازات. وأخفيت عليها الأسباب التي تجعلني أهتم بأمره، قالت: بوريس رقيق جدًّا، ولكن صحبته لأمه لا تفيده في شيء. لقد كانٍ في نيتها أن تصحبنا إلى «ساس فيه»، ولكني لم أقبل الإشراف على الطفل إلا بشرط أن تتركه كليةً لعنايتي، وإلا فليس في استطاعتي أن أضمن نجاحًا لعلاجي. وأضافت:

- تصور يا سيدي أن وجوده مع أمه يجعله في حالة انفعال دائم، وهذه الحالة تساعد على نمو أسوأ الاضطرابات النفسية فيه. اضطرت هذه المرأة إلى أن تكسب عيشها بعد وفاة زوجها، ولم تكن عند ذاك إلا عازفة على البيانو، ويجب أن أعترف بأنها عازفة لا يضارعها أحد. إلا أن عزفها كان أرقى مما يستطيع عامة الناس تذوقه، ولذا قررت الغناء مع الفرق الموسيقية في الملاهي، والصعود على خشبة المسرح، وكانت تصطحب «بوريس» معها إلى مقصورتها. وأعتقد أن جو المسارح – وهو غير طبيعي- قد ساهم في التأثير على أعصاب الطفل، إن أمه تحبه حبًّا جمًّا، ولكن الحقيقة أن مصلحته أن لا يعيش معها.

وسألتها: وماذا به على وجه التحديد؟

وهنا انفجرت ضاحكةً وسألتني:

- أهو اسم المرض الذي يهمك أن تعرفه؟ لن تستفيد كثيرًا إذا ما ذكرت لك اسمًا علميًّا.

وقلت لها: اذكري فقط ما يشكو منه.

وأجابت: إنه يشكو من عدد من الاضطرابات، من عادات ونزوات تجعلنا نقول إنه طفل عصبي. والمألوف أن يعالج بالراحة والبقاء في الهواء الطلق وفي جو صحي. ولا شك أن البنية القوية لا يمكن أن تسمح لمثل هذه الاضطرابات بالظهور، ولكن إذا كان الضعف يساعد على ظهورها، فلا يمكن القول بأنه يتسبب فيها. وفي اعتقادي أننا نستطيع الاهتداء إلى أصلها في هزة أصابت الإنسان بسبب حادث معين يجب اكتشافه، وبمجرد أن يدرك المريض هذا السبب فإنه يكون قد حصل على نصف الشفاء. ولكن هذا السبب كثيرًا ما ينفلت من ذاكرة المريض، ويبدو وكأنه مختبئ في ظلام المرض. وإنني لأبحث عن السبب في ذلك المخبأ لكي أخرجه إلى وضح النهار، أي إلى مجال الرؤية في اعتقادي أن النظرة الصافية تستطيع أن تظهر الضمير كما يُنقي شعاع الضوء ماءً ملوثًا.

وسردت على «سوفرونيسكا» المحادثة التي سمعتها في اليوم السابق، والتي شعرت منها بأن «بوريس» بعيد كل البعد عن الشفاء.

- إنني في الحقيقة بعيدة كل البعد عن معرفة كل ما أحتاج إلى معرفته عن ماضي «بوريس»، ولم أبدأ هذا العلاج إلا أخيرًا.

- علامَ ينصب علاجك؟

- أوه! إنه لا يعدو أن أتركه يتكلم. أقضي بجانبه كل يوم ساعة أو ساعتين، وأوجه إليه بعض الأسئلة، ولكنها أسئلة قليلة جدًّا. وقد عرفت فعلًا أشياءَ كثيرةً، وأتصور أشياء أخرى كثيرةً. ولكن الصغير لا

يزال يقاوم لأنه يشعر بالخجل، ولو ألححت عليه بسرعة وبقوة، ولو حاولت انتزاع اعتراف؛ لوقعت في عكس ما أرغب الحصول عليه، أي الاستسلام التام.

وما دمت لم أتمكن من التغلب على تحفظه وحيائه، فسيقاوم.

ورأيت في هذا التنقيب والتفتيش في نفس الطفل نوعًا من الاعتداء، ولذا وجدت وأنا أستمع إلى حديثها صعوبةً في إخفاء حركة تدل على الاحتجاج. ولكن فضولي انتصر في النهاية، وسألتها:

- هل أفهم من هذا أنك تحاولين أن يعترف لك الصغير ببعض أمور فاجرة؟

وهنا احتجت بدورها على ما أقول، فردت:

- أمور فاجرة؟ أليس في هذا ما يخجل أكثر من سماحك للطبيب بفحصك! إنني أحتاج إلى معرفة كل شيء، ولا سيما كل ما يصرُّ المريض على إخفائه. يجب أن أصل ببوريس إلى الاعتراف الكامل، وقبل أن أتوصل إلى ذلك لن أؤمل له شفاء.

- أتعتقدين أن ثمت ما يمكن أن يعترف به لك؟ أأنت متأكدة -ولا تؤاخذيني في ذلك- من أنك توحين إليه ما تريدين أن يبوح به لك؟

- إنني أخشى ذلك، ولا أنساه طوال الوقت. وهذا الخوف هو الذي يجعلني لا أتسرع. لقد رأيت قضاةً غير مهرة يوحون -عن غير قصد- لطفل أن يشهد بما لا أساس له من الصحة. ورأيت الطفل حينئذ -تحت وطأة استجوابهم- يكذب بحسن نية ويشهد بأمور خيالية. إن دوري أن أنتظر ما يجيء عفوًا دون أن أوحي إليه شيئًا. ونحن نحتاج إلى صبر غير عادي.

- في رأيي أن الوسيلة تتوقف على مقدرة المعالج.

- لم أجرؤ أن أقول ذلك، وأؤكد لك أننا نصل بعد مدة كافية من التمرين إلى درجة غير عادية من المهارة، إلى ما يشبه العلم بالغيب، أو إذا أردت إلى نوع من قوة البداهة. ومع ذلك يحدث أن نتبع أثرًا كاذبًا. المهم هو ألا نتعصب لفكرة. هاك مثلًا: أتعرف كيف تجري محادثاتنا؟ يبدأ «بوريس» حديثه بسرد ما حلم به أثناء الليل.

- وما أدراك أنه لا يخترع أحلامًا؟

- حتى ولو حدث هذا! كل اختراع يوحيه خيال مريض يظهر حقائق. وسكتت لحظةً، ثم أردفت:

- «اختراع، خيال مريض»... لا! ليس هذا. الكلمات تخدعنا. إن «بوريس» يحلم أمامي بصوت عال. وهو يقبل كل صباح أن يبقى ساعة في حالة نصف نوم، وهي تلك الحالة التي لا تخضع خلالها الصور التي نتمثلها لسيطرة عقلنا، وإنما تتجمع هذه الصور وتترابط، لا تبعًا للمنطق العادي، ولكن وفقًا لروابط غير متوقعة، وتستجيب هذه الصور لإلحاح باطني غامض، وهذا الإلحاح هو الذي يهمني اكتشافه. وهذيان الطفل هذا يعلمني أكثر من أذكى تحليل يقوم به شخص من أكثر الناس وعيًا. ثمت أشياء كثيرة لا يهتدي العقل إليها، ومن يعتمد على عقله فقط لتفهم أمور الحياة، مثله كمثل من

يدعي القدرة على أن يمسك شعلة بملقاط. فهو لن يجد أمامه حينئذ إلا قطعة من الخشب المحروق لا تلبث أن تنطفئ.

وتوقفت قليلًا، ثم بدأت تتصفح كتابي، وصاحت:

- أرى أنكم لا تتعمقون كثيرًا في معرفة النفس البشرية. ثم أضافت فجأةً وهي تضحك: عندما أقول أنتم أعني كُتَّاب القصة لا أنت بالذات. إن غالبية شخصيات قصصكم تبدو وكأنها بنيت على قوائم، فليس لها لا أساس ولا أدوار سفلى. وفي رأيي أن الشعراء أقرب إلى الحقيقة من القصصيين. كل إنتاج تخيله العقل وحده مزيف، ولكني أتكلم هنا عن أشياء لا شأن لي بها... أتعرف ماذا يحيرني في «بوريس»؟ إنه اعتقادي أنه على درجة عالية من النقاء.

وسألتها: ولماذا تقولين إن ذلك يحيرك؟

فأجابت: إنني في هذه الحال لا أعرف أين أبحث عن مصدر العلة. في تسع حالات من عشر نجد أن مصدر اضطراب كهذا سر كبير مخجل.

وقلت: ربما وجدنا هذا السر المخجل عند كل منا، إلا أنه لحسن الحظ لا يجعل منا جميعًا مرضى.

وفي هذه اللحظة نهضت مدام «سوفرونيسكا»، إذ رأت «برونجا» تمر أمام النافذة.

قالت وهي تشير:

- انظر إليها، إنها الطبيب، الطبيب الحقيقي الذي يعالج «بوريس». إنها تبحث عني، إنني مضطرة أن أتركك. ولكنني سوف أراك ثانيةً، أليس كذلك؟

إنني أفهم ما تأخذه «سوفرونيسكا» على القصص من نقد، ولكن ثمت أسبابًا فنيةً -أسبابًا عليا لا تفهمها- تدفعني إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن أن نجعل من عالم في العلوم الطبيعية كاتبًا قصصيًّا ممتازًا.

لقد قدمت «لورا» لمدام «سوفرونيسكا»، ويبدو أنهما متفاهمتان، وهذا أمر يسعدني. لم أعد أخشى التماس العزلة عندما أراهما تثرثران معا. إنني آسف أن لا يجد «برنارد» في هذا المكان رفيقًا له في مثل سنه، ولكن الامتحان الذي يستعد له يشغله بضع ساعات في اليوم. وهكذا تمكنت أنا من العودة إلى العمل في قصتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث

رغم ما يبدو لأول وهلة، لم تكن الأمور على غاية ما يرام بين «إدوارد» و«برنارد»، مع أن كلًّا منهما اجتهد من ناحيته أن تسير سيرًا حسنًا. و«لورا» بدورها لم تكن تشعر بالرضا، وكيف يتسنى لها ذلك؟ لقد اضطرتها الظروف إلى القيام بدور لم تخلق له. كانت طبيعتها الأمينة تثور لهذا الوضع، كانت – كواحدة من هؤلاء النساء المحبات الطيعات الخليقات بأن يكنَّ زوجات متفانيات- تشعر أنها، حتى لكي تقيم أودها، في حاجة إلى رعاية إلى التقاليد، ولهذا أحست بالوهن منذ أوجدتها الظروف في إطار غير إطارها. وبدا لها موقفها إزاء إدوارد موقفًا زائفًا يزداد زيفه يومًا بعد يوم. أما ما كان يعذبها بنوع خاص؛ فهو أنها تعيش في كنف هذا الرجل الذي يحميها دون أن تعطيه هي مقابل ذلك شيئا، أو بمعنى أدق: أن «إدوارد» لم يسألها شيئًا مقابل ذلك، بينما كانت تشعر هي بأنها على استعداد لأن تمنحه كل شيء. إن الحسنة -كما قال تاسيت على لسان مرتيني- لا تستعذبها النفس إلا إذا كان في مقدور المرء ردها. وهذا الإحساس ولا شك لا يمكن أن تشعر به إلا النفوس النبيلة. وكانت لورا من هذا النوع بالتأكيد، فبينما كانت على استعداد لأن تعطي، وجدت نفسها تأخذ باستمرار، وكان هذا الأمر يجعلها تثور ضد إدوارد. أضف إلى ذلك أنها كلما استعادت ذكرى الماضي، ازدادت إحساسًا بأن إدوارد خدعها حين أيقظ في نفسها حبًّا تحس أنه كان ولا يزال حيًّا شديد الحيوية، ثم خدعها بعد ذلك بتهربه من هذا الحب وتركه عاطلًا. ألم يكن ذلك هو السبب الخفي لأخطائها، لزواجها من «دوفيبه» الذي استسلمت له بعد أن قادها إدوارد إليه، ولتقبلها بعد ذلك مباشرةً لإغراءات الربيع ودعواته؟ نعم، لقد كان عليها أن تعترف لنفسها وهي في أحضان فنسان بأن إدوارد هو الشخص الذي ما برحت تنشده وترغبه. وإذ عجزت عن تفسير برود من عشقته، راحت تلقي المسئولية على نفسها، قائلةً: إنها كانت خليقةً أن تستحوذ عليه لو كانت أكثر جمالًا أو أكثر إقدامًا. وحين عجزت عن كراهيته، راحت تتهم نفسها وتمتهنها وتحط من قدرها، ولا ترى سببًا لحياتها، ولا فضيلة لذاتها.

وفضلًا عن ذلك، فإن هذه الحياة التي تشبه حياة المعسكرات، والتي فرضها وضع الغرف -هذه الحياة التي بدت وكأنها تطيب لرفيقها- كانت تخدش في نفسها جوانب كثيرةً من الحياة، ولم تكن ترى مخرجًا من هذا الوضع وإن كان الاستمرار فيه عسيرًا.

ولم تجد لورا شيئًا من العزاء، وشيئًا من البهجة، إلا في أن تفرض على نفسها ألوانًا من الواجبات تجاه برنارد، واجباتٍ كواجبات «الشبين» أو الأخت الكبرى. وكانت فخورةً بما يكنه لها هذا الفتى المراهق الفائض رقةً، من تقديس. كما أن عبادته لها كانت تمنعها من الاسترسال فيما تشعر به من الازدراء لنفسها، ذلك الاشمئزاز الذي يمكن أن يدفع من يشعرون به، وإن كانوا أكثر الناس ترددًا، إلى اتخاذ قرارات متطرفة.

وإذا لم تكن هناك رحلة تجتذب برنارد قبل الفجر «وكان يؤثر النهوض مبكرًا»، فإنه يقضي معها كل صباح ساعتين كاملتين يقرأ فيهما الإنجليزية. وكان الامتحان الذي سيدخله في أكتوبر ذريعةً وجيهةً لذلك.

لا يمكن أن نقول إن أعماله بصفته سكرتيرًا كانت تستغرق منه وقتًا كبيرًا، ولم تكن هذه الأعمال محددة المعالم. وعندما تعهد برنارد بالقيام بها في بادئ الأمر تخيل نفسه جالسًا أمام مكتب يسجل ما

يمليه إدوارد، كما تخيل نفسه يعد بعض الأوراق. ولكن إدوارد لم يمله أي شيء. أما عن الأوراق - إن كانت ثمت أوراق بالمعنى المفهوم- فقد بقيت في حقيبة مغلقة. وكان برنارد يتمتع بحريته كل ساعة من ساعات النهار. كان على إدوارد نفسه أن يحاول استغلال رغبة برنارد في العمل، ولهذا لم يؤسف برنارد أن يكون دون عمل، وأن يتمتع بهذه الحياة الرغدة التي وفرها له كرم إدوارد. لقد عاهد برنارد نفسه على أن لا يترك لوساوس الضمير سبيلًا لتقض مضجعه. لم يكن يؤمن إيمانًا راسخًا بالعناية الإلهية، ولكنه كان يعتقد أن نجمه سعيد، وأن من حقه أن يحصل على بعض الهناء، كما تحصل رئتاه على الهواء. وكان إدوارد في نظره هو الشخص الذي عهد القدر إليه بمنحه هذه السعادة. ثم إنه كان يعتقد أن الوضع الراهن وضع مؤقت ويؤمن أنه سيوفي يومًا ما عليه من دين، حالما تسمح له الظروف بتحويل ما يزخر به قلبه من كنوز إلى مال. وكان يعتقد أن قلبه مليء بالكنوز. أما ما ضايقه فهو عدم التجاء «إدوارد» إلى بعض المواهب التي كان يؤمن أنه يتمتع هو بها، على حين يفتقر إدوارد إليها. وكان يقول لنفسه إنه لا يعرف كيف يستفيد مني. وكان هذا يرضي كبرياءه، فيحدث نفسه قائلًا: «إن إدوارد هو الخاسر».

ولكننا نتساءل: من أين جاء إذَنْ ما كان بين إدوارد وبرنارد من ضيق وحرج؟ يلوح لي أن برنارد كان من هؤلاء الأشخاص الذين لا يشعرون بالثقة بأنفسهم إلا عندما يعارضون غيرهم. لم يكن يحتمل أن يرى «إدوارد» متسلطًا عليه، ولذا أخذ على نفسه ألا يخضع وفرض عليها المقاومة. ولم يفكر إدوارد قط في السيطرة عليه، ولذا غضب وحزن إذ رآه حرونًا دائم التأهب لصد خطر، أو على الأقل لحماية نفسه. ولذا راح يسائل نفسه: هل أخطأت باصطحاب هذين الشخصين اللذين جمعت بينهما فاتحدا ضدي على ما يبدو؟ وإذ عجز عن فهم ما يعتمل في نفس «لورا»، تصور في انطوائها وفي تحفظها عدم مبالاة بأمره. ولو قد استشف ما في قلبها لحنق وضاق. وأدركت «لورا» ذلك جيدًا، فراح حبها المهمل يستخدم كل ما فيه من قوة ليخفي نفسه وينسج الصمت حوله.

وكانت ساعة تناول الشاي تجمعهم عادةً في الغرفة الكبيرة. وكثيرًا ما أتت مدام «سوفرونيسكا» بناءً على دعوة منهم، وكان ذلك يحدث عادةً في الأيام التي يخرج فيها «بوريس» و«برونجا» معًا للنزهة. وكانت تتركهما معًا يتمتعان بكامل حريتهما بالرغم من حداثة سنهما. فهي تثق في «برونجا» ثقةً مطلقةً، وتعرف مدى حرصها ولا سيما عندما تكون مع «بوريس». وكان هذا الأخير يبدو مطيعًا معها. كما أن المنطقة آمنة، وبالطبع لم تكن تسمح لهما بأن يتعمقا داخل الجبل، ولا أن يتسلقا الصخور القريبة من الفندق. وذات يوم حصل الصبيان على إذَنْ بالذهاب إلى أسفل الجبل المغطى بالجليد، بعد أن اشترطت عليهما أن لا يبتعدا عن الطريق، وجاءت مدام «سوفرونيسكا» لتناول الشاي معهم. وتجرأت في ذلك اليوم بتشجيع برنارد ولورا فطلبت من إدوارد أن يحدثهم عن قصته المقبلة إن لم يكن في ذلك ما يضايقه.

وأجاب «إدوارد»: إطلاقًا، وإن كنت لا أستطيع أن أسرد لكم ما فيها. ومع ذلك يبدو أنه غضب عندما سألته «لورا» (ولا شك أن سؤالها لم يكن لبقًا): أي شيء يشبه هذا الكتاب، فصاح:

- إنه لا يشبه شيئًا على الإطلاق، ثم أضاف وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا التحدي.

- لماذا أعيد ما سبق أن عمله غيري، أو ما سبق أن عملته أنا نفسي، أو ما يمكن أن يعمله سواي؟

وبمجرد أن نطق «إدوارد» بهذه الكلمات، شعر بما فيها من عدم لياقة ومبالغة وخطل. أو بمعنى أصح بدا له أن كلماته هذه غير مناسبة وسخيفة، أو لعله خشى أن تبدو كذلك في عيني برنارد.

كان «إدوارد» مرهف الحساسية يغضبه أبسط شيء. وكان يبدو وكأنه قد فقد صوابه بمجرد أن يتحدث إليه أحد عن عمله أو يجعله هو يتحدث عنه.

كان يشعر باحتقار شديد لغرور المؤلفين المعهود، وكان يحاول أن يهذب من غروره هو. ولكنه كان يجد في تقدير الغير له سندًا لتواضعه، فإذا لم يجد هذا التقدير، زايله تواضعه في الحال. وكان رضاء «برنارد» شيئًا مهمًّا جدًّا بالقياس إليه. فهل كان يطلق العنان لنفسه في حضرة «برنارد» ليحصل على رضائه؟ لقد كانت تلك خير وسيلة ليفقد رضاءه. وأدرك إدوارد ذلك تمامًا، وكان يكرر هذا القول لنفسه، إلا أنه بالرغم مما عاهد نفسه عليه لا يكاد يوجد مع برنارد حتى يتصرف بطريقة مخالفة تمامًا لما كان قد اعتزمه، ويتكلم كلامًا يشعر بسخفه. هل يمكن أن يدل ذلك على أنه يحبه؟.. لا، لا أظن، فلو كان يحبه حقًّا لما احتاج إلى كل هذا التصنع، ولكفاه قليل من الغرور.

وقال إدوارد، وهو يحاور: إن القصة ما زالت أكثر فروع الأدب تحررًا وخروجًا على قوانينه، لكن هل لهذا السبب، وخوفًا من هذه الحرية ذاتها (ذلك لأن الفنانين الذين يهفون إلى الحرية أكثر من غيرهم هم أشد الفنانين جنونًا بمجرد حصولهم عليها) تمسكت القصة بأهداب الواقع؟ ولست أتكلم عن القصة الفرنسية فحسب، فالقصة الروسية -وشأنها في ذلك شأن القصة الإنجليزية- مهما تحررت من القيود، فإنها تخضع لتلك الرغبة في تصوير الواقع. والتقدم الوحيد الذي تسعى القصة إليه هو أن تقترب من الواقع أكثر، وأكثر!

ولم تعرف القصة أبدًا ما ذكره «نيتشه» عن طمس الحدود. ولم تعرف هذا التباعد الإرادي عن الحياة الذي أتاح الفرصة لظهور الأسلوب العظيم الذي امتازت به مؤلفات المسرحيين اليونانيين والمأساة الفرنسية في القرن السابع عشر. وهل هناك شيء أقرب إلى الكمال وأكثر عمقًا في إنسانيته من هذه المؤلفات؟! إن هذه المؤلفات ليست إنسانيةً في الحقيقة إلا لما فيها من عمق، وإلا لأنها لم تهتم بإظهار ما فيها من عمق إنساني أو هي لم تهتم بأن تبدو واقعية. ومع ذلك فهي آية في الفن.

وكان إدوارد قد نهض من مقعده وأخذ يصب الشاي وهو يتكلم، لأنه خشي أن يبدو عليه أنه يحاضر. وكان يغدو ويروح ثم يعصر ليمونة في فنجانه ومع هذا استمر في حديثه.

لأن بلزاك كان عبقريًّا، ولأن كل عبقري يبدو وكأنه قد أتى لفنه بشكل نهائي -حكم الناس بأن ما يميز القصة هو أن تنافس حقائق الحياة الاجتماعية- لقد أقام بلزاك صرح مؤلفاته، ولكنه لم يدَّعِ أبدًا أنه وضع للقصة دستورًا، ومقالته عن «ستندال» تُثبتُ ذلك.

(منافسة حقائق الحياة الاجتماعية!) لكأننا لا يكفينا ما نجده في عالمنا من قرود ومن إمعات! ما شأني أنا والحقائق الاجتماعية! الحقيقة هي أنا، أنا الفنان! ومؤلفاتي لا تدعي أنها تنافس شيئًا، كان إدوارد قد تحمس، أو لعله تظاهر بالحماس، ثم جلس وتصنع عدم النظر إلى برنارد، مع أنه كان في الواقع يوجه حديثه إليه. ولو كان معه بمفرده لما استطاع أن يقول شيئًا. وأنه ليحمد لهاتين المرأتين أنهما دفعتاه إلى الحديث.

وأردف: يبدو لي أحيانًا أن لا شيء أعجب به في الأدب كما أعجب بالمناقشة التي دارت بين «ميتريدات» وأبنائه في مأساة «راسين»؛ فالكل يعرف أنه لم يحدث قط أن كلم أب أولاده بهذه الطريقة. ومع ذلك يمكنني أن أقول إن كل الآباء وكل الأبناء يستطيعون أن يجدوا أنفسهم في هذا الحديث. إننا بالتحديد وبالتخصيص نضيق النطاق، نعم، ليست هذه حقيقة سيكولوجية، إلا وهي تكون شيئًا خاصًّا، ولكن ليس هناك فن إن لم يكن عامًّا. وكل المشكلة في هذه النقطة بالذات هي التعبير عن العام بالخاص، أو أن تجعل الخاص يعبر عن العام.

أتسمحون لي أن أشعل غليوني؟

وأجابته سوفرونيسكا: تفضل، تفضل.

واسترسل إدوارد قائلًا: إنني أريد قصةً تعبر عن الحقيقة، مع بعدها كل البعد عن الحقيقة. قصة خاصة وعامة في وقت واحد، تعبر عن الحقيقة الإنسانية مع بعدها كل البعد عن الواقع كما هو الحال في آتالي وطرطوف وسينا و...([14])

- وماذا يكون موضوع القصة؟

وأجاب إدوارد دون تردد: لا موضوع لها. ولعل ذلك هو المدهش فيها. ليس لقصتي موضوع. نعم إنني أدرك أن ما أقوله هنا قد يبدو سخيفًا لا معنى له، ولنقل -إذا فضلتم هذا التعبير- إن قصتي لن يكون لها موضوع معين... ستكون قطعةً مشطورةً من الحياة كما كانت تقول المدرسة الطبيعية. ولكن الخطأ الذي وقعت فيه هذه المدرسة هو أنها أرادت أن تقطع هذه الشطرة دائمًا في اتجاه واحد، هو الاتجاه السطحي للزمن، فلماذا لا يكون القطع في اتجاه أعمق؟ أما عني فإنني لا أريد أن أقطع إطلاقًا. أرجو أن تفهموا ما أعنيه: إنني أريد أن أدخل كل شيء في هذه القصة. لا أريد أن أحدد مادتها في مكان أو آخر منها بضربات من مقصي، ومنذ سنة وأنا أعد لهذه القصة، فلا يصادفني شيء إلا أفرغته فيها، إنني أريد أن أفرغ فيها كل شيء، كل ما أراه، كل ما تعلمني إياه حياة الآخرين وحياتي أنا...

وسألت سوفرونيسكا وهي تتظاهر بالاهتمام البالغ، وإن كان في لهجتها ولا شك نبرة سخرية: وكل ذلك سوف تضعه في أسلوب رائع؟ ولم تستطع لورا إخفاء ابتسامة، ورفع إدوارد كتفيه وأردف:

- ولا حتى هذا. إن ما أريده هو أن أعرض الحقيقة من ناحية، وأن أعرض من ناحية أخرى الجهد لإعطائها أسلوبًا؛ وهذا ما كنت أحدثكم عنه منذ قليل.

وقالت لورا: يا صديقي المسكين، سوف تقتل قرَّاءك مللًا.

وحين عجزت عن إخفاء بسمتها، قررت أن تضحك بحق.

وأجابها: لن يحدث ذلك على الإطلاق، ولكي أحقق هذا الهدف أرجو أن تتابعوني. سأبتكر شخصية قصصي، وسوف أقدمه على أنه وجه تدور حوله القصة، وسوف يكون موضوع الكتاب -إذا أردتم- هو الصراع بين ما يقدمه له الواقع، وما ينوي أن يصنعه هو من هذا الواقع.

وقالت «سوفرونيسكا» بلهجة مؤدبة: نعم، نعم (وكانت قد أوشكت أن تنفجر من الضحك مثل لورا) سيكون هذا أمرًا غريبًا بعض الغرابة، ولكن من الخطر عرض شخصيات المفكرين في القصص؛ لأنهم يقتلون القراء سأمًا، ولا يستطيع المؤلف أن ينطقهم إلا بحماقات، وهم يضفون على كل ما يتعلق بهم لونًا من التجرد.

وصاحت لورا، ثم إنني أتخيل ما سيحدث، لن تستطيع عند تقديم هذا القصصي أن تعمل شيئًا آخر سوى أن تصور نفسك.

وكانت قد اتخذت منذ وقت ما مع إدوارد لهجةً ساخرةً، وقد عجبت لذلك، ولكن هذه اللهجة أثارت إدوارد، لا سيما وأنه لمح في عيني برنارد الخبيثين انعكاسًا لسخريتها هذه، ولذا قال محتجًّا.

- لا، سوف أضطر إلى أن أجعل من بطل القصة شخصًا منفرًا جدًّا. وكانت لورا قد انطلقت على سجيتها فقالت:

- الناس جميعًا سوف يتعرفون عليك حينئذ في هذه الشخصية. قالتها وهي تضحك بملء فيها، حتى أن ضحكتها دفعت الثلاثة الباقين إلى الضحك.

وسألت سوفرونيسكا، وهي تحاول أن تبدو جادةً: وهل قمت بوضع خطة لما سيكون عليه هذا المؤلف؟

- لا، بالطبع.

- كيف ذلك؟

- يجب أن تفهمي أن مؤلفًا كهذا لا يمكن أن يكون له تصميم. فإذا أنا حددت له معالم مقدمًا، فسيبدو كل ما أقوله مزيفًا. إنني أنتظر أن يمليه عليَّ الواقع ذاته.

- ولكنني كنت أعتقد أنك تريد أن تبتعد عن الواقع.

- شخصية القصصي في هذا الكتاب ستحاول ذلك. ولكنني سوف أرجعه دائمًا إلى الواقع، سيكون ذلك هو الموضوع: الصراع بين الحقائق التي يقدمها الواقع وبين الحقيقة المثالية.

وكان افتقار ما يقوله إلى المنطق واضحًا جدًّا وبشكل مؤلم. وظهر جليًّا أن في رأس «إدوارد» رغبتين لا يمكن التوفيق بينهما، وأنه كان يبذل جهدًا كبيرًا للتوفيق بينهما.

وسألته «سوفرونيسكا» بلهجة مؤدبة: وهل قطعت مرحلةً كبيرةً؟

وأجابها: هذا يتوقف على ما تعنينه بقولك هذا. أما عن الكتاب نفسه فلم أكتب بعد فيه سطرًا واحدًا. ولكني عملت كثيرًا لإعداده. إنني أفكر فيه دائمًا ودون انقطاع. إنني أعمل بطريقة غريبة سوف أشرحها لكم: أدون في كراسة كل يوم ما وصلت إليه حال هذه القصة في ذهني. إنه شيء يشبه اليوميات، يوميات تقص تطور طفل... أعني بهذا إنني بدلًا من الاكتفاء بإيجاد حل لكل مشكلة تصادفني (وليس العمل الفني إلا مجموعة حلول لصعاب كثيرة معقدة متتالية)، أعرض كلًّا من هذه المشكلات وأدرسها. فهذه الكراسة عبارة عن نقد مستمر لقصتي أو بمعنى أصح نقد للقصة عامَّةً.

تصوروا مدى ما كنا نفيده من كراسة كهذه لو كتبها ديكنز أو بلزاك. لو كانت لنا يوميات كهذه للتربية العاطفية([15]) أو للأخوة كارامازوف([16])! أي قصة العمل الفني، قصة «مخاضه»، لو وجدت مثل هذه اليوميات لكانت مثيرةً... ولأثارت الاهتمام أكثر من القصة ذاتها...!

كان إدوارد يأمل أن يطلبوا منه قراءة هذه اليوميات. ولكن أحدًا من الثلاثة لم يُبدِ أي اهتمام بذلك. وبدلًا من هذا قالت له لورا بنبرة حزينة:

- يا صديقي المسكين. أعتقد أنك لن تكتب هذه القصة أبدًا.

وهنا صاح إدوارد بحماس: حسنًا سوف أقول لكم شيئًا. الأمر سواء لديَّ. إن لم أستطع كتابة هذا المؤلف فسيكون تاريخ الكتاب قد شغفني أكثر من الكتاب ذاته. وفي هذه الحالة يحل هذا التاريخ محل الكتاب نفسه. وسيكون هذا أفضل.

وسألته سوفرونيسكا في تردد: ألا تخشى بابتعادك عن الواقع أن تضل في آفاق مجردة، وأن تؤلف قصةً لا تمثل أحياء ولكن أفكارًا؟

وصاح إدوارد في قوة: وماذا في ذلك؟ ألأنَّ بعض الحمقى فشلوا في هذا، يجب أن نقضي على القصة التي تصور الأفكار؟ لقد قدموا لنا بدلًا من قصص الآراء قصصًا ذا رسالة، قصصًا كريهًا، ولكن ليس هذا هو المطلوب. إن الأفكار، الأفكار -وأنا أعترف لكم بذلك- تهمني أكثر مما يهمني الناس. إنها أكثر شيء يهمني. الأفكار تعيش، وهي تجاهد وتحتضر كالناس تمامًا، ويمكن طبعًا أن تقول إننا لا نعرفها إلا عن طريق الناس، كما لا تعرف الرياح إلا عن طريق الأغصان التي تثنيها. ولكن الرياح -على كل حال- تهمنا أكثر من الأغصان.

وجازف برنارد بكلمة فقال: الرياح موجودة ومستقلة عن الأغصان.

ودفع تدخله هذا إدوارد إلى التحمس من جديد، وكان ينتظر تعليق برنارد منذ وقت طويل فقال:

- نعم، أعرف ذلك. الأفكار لا وجود لها إلا عن طريق الناس. ولكنها -وهذا هو الأمر الذي يثير الشفقة- تعيش على حسابهم.

كان برنارد قد أصغى إلى كل ذلك باهتمام، وبدأ الشك يملأ نفسه. وكان على وشك أن يحكم على إدوارد بأنه رجل تملأ ذهنه الأوهام. ومع ذلك فإن فصاحة إدوارد في اللحظات الأخيرة أثرت فيه، وتحت تأثير هذه الفصاحة شعر بأن أفكاره تنثني. ولكنه كان يحدث نفسه قائلًا: إن أفكاري كالغصن الذي يميل، ولكنها تنتصب بعد أن تذهب العاصفة. وتذكر ما سبق أن لقنوه إياه في المدرسة من أن العواطف هي التي تقود الإنسان وليست الأفكار. ومع ذلك استمر إدوارد في حديثه قائلًا:

ما أريد أن أعمله -حاولوا أن تفهموا ما أعنيه- شيء يشبه القطعة الموسيقية التي تتكرر فيها نفس المقاطع مع تتابعها. ولست أرى سببًا لاستحالة شيء في الأدب أمكن تحقيقه في فن الموسيقى...

وردت سوفرونيسكا على دعواه هذه بقولها: إن الموسيقى فن قائم على الرياضيات.

- وإنه زيادة على ذلك- لو لم نهتم فيه إلا بالأرقام. ولو جردناه من التأثير ومن الإنسانية لأمكننا أن نقول إن «باخ» نجح في وضع آية من آيات الملل، شيء يشبه معبدًا لا يستطيع بلوغه إلا قلة من أهل العلم.

واحتج إدوارد على ذلك قائلًا: إن هذا المعبد في رأيه يثير الإعجاب وأنه يرى فيه الخلاصة، وقمة ما وصل إليه فن «باخ».

وأضافت لورا: وبعد هذه الآية ابتعد الناس عن هذا النوع من الموسيقى لمدة طويلة. لقد تطلعت الانفعالات الإنسانية إلى ملاذ آخر بعد أن وجدت أنها عاجزةً عن أن تلوذ بهذا اللون من الموسيقى.

راحت المناقشة تضيع في بلاغة كلامية. ولم يطق «برنارد» صبرًا، وكان قد سكت حتى الآن، ولكنه بدأ يتململ على مقعده وتكلم بلهجة فيها احترام كبير مبالغ فيه -كما كان يفعل دائمًا إذا ما توجه بالحديث إلى «إدوارد»- وكان في لهجته هذه ما يوحي بأن هذا الاحترام ليس إلا تمثيلًا، فقال: عفوًا، سيدي، إذا كنت قد عرفت عنوان كتابك -وقد عرفته بتطفلي- ولكنك تفضلت فنسيت هذا التطفل.

ومع كل يبدو أن هذا العنوان يبشر بقصة.

وقالت «لورا»: أوه! اذكر لنا هذا العنوان.

وأجابها: إذا أردت يا صديقتي العزيزة. ولكني أحذركم، إذ قد أغيره بآخر وأخشى أن يكون عنوانًا خداعًا... اذكره لهم يا «برنارد».

- أتسمح لي بذلك؟.. (المزيِّفون). ولكن الآن قل لنا بدورك من هم هؤلاء (المزيِّفون)؟

- حسنًا إنني لا أعرف شيئًا عنهم.

ونظر كل من «برنارد» و «لورا» إلى الآخر، ثم نظرا إلى «سوفرونيسكا»، وسمع إدوارد صوت تنهيدة طويلة، واعتقد أن «لورا» هي التي أطلقتها.

الحقيقة أن «إدوارد» عندما اختار هذا الاسم كان يفكر في بعض زملائه في بادئ الأمر، ولا سيما في الكونت «دي باسافان». ولكن هذه التسمية أخذت تتسع بعد قليل وتشمل أناسًا كثيرين، يكونون طورًا قسسًا، وطورًا (ماسونيين) تبعًا للمكان الذي تهب الريح منه سواء من روما أو من غيرها. وكان ذهن «إدوارد» -إذا ما ترك له العنان- يجنح دائمًا نحو عالم غامض يحلو له أن يتمرغ فيه. وكان يريد أن يشبه الأفكار بالعملات المتداولة بين الناس، ترتفع قيمتها أو تنخفض في سوق المبادلات. وكانت هذه النظرية تغزو كتابه بالتدريج كما غزت نظريات الملابس كتاب (سارتوس ريزارتوس) لكارليل، حيث احتلت مكان الشخصيات. وإذ لم يستطع أن يكلمهم في هذا الشان فقد سكت. ولم يكن موفقًا في ذلك لأن سكوته بدا وكأنه اعتراف بالعجز. وبدأ الثلاثة الآخرون يشعرون بحرج شديد.

وسأل أخيرًا: هل تصادف أن أمسكتم بين أيديكم قطعة نقود مزيفة؟ وأجاب «برنارد» نعم. ولكن كلمة (لا) التي نطقت بها المرأتان غطت على صوته.

- حسنًا، تخيلوا قطعة مزيفة من فئة العشرة الفرنكات. إن قيمتها الحقيقية لا تتعدى عشر فرنك، ولكنها تساوي عشرة فرنكات ما دام الناس يجهلون أنها مزيفة وإذا ما تدرجت بهذه الفكرة إلى...

فقاطعه «برنارد» نافد الصبر: ولكن لماذا تتدرج بفكرة؟ إذا ما اعتمدت على حقيقة وأحسنت عرضها فإن الفكرة سوف تأتي من تلقاء نفسها. لو كان عليَّ أن أكتب قصة (المزيِّفون) لبدأت باستعراض القطعة المزيفة، هذه القطعة التي كنت تتكلم عنها... وها هي هذه القطعة.

وأخرج من جيب صديريته، وهو ينطق بهذه الكلمات، قطعةً صغيرةً من ذات الفرنكات العشرة وألقى بها على المنضدة، ثم أردف:

- أصغوا إلى رنينها كم هو حسن! إن لها رنينًا كرنين القطع الحقيقية. ويمكن أن يقسم المرء أنها حقيقية. ولقد خدعتني في هذا الصاح، كما وقع في نفس الخطأ البدَّال الذي أعطاها لي -على حد قوله. وليس وزنها مطابقًا تمامًا لوزن القطع الحقيقية، إلا أن لها نفس البريق ونفس الرنين تقريبًا. وهي مكسوة بقشرة من الذهب، وهي لذلك تساوي أكثر من عشر فرنك، ولكنها من البللور وسوف تصبح شفافةً من كثرة الاستعمال. لا، لا تفركوها فإنكم بذلك تفسدونها، وقد بدأت تشف فعلًا. وكان إدوارد قد أمسك بها وأخذ يشاهدها بتطلع بالغ، وسأل:

- ولكن ممن أخذها البدَّال؟

- لقد نسي. إنه يعتقد أنها في درجه منذ أيام، وكان يلهو بأن يعطيها لي ليرى هل سأقع في الخطأ مثله. أقسم أنني كنت على وشك أن أقبلها! ولكنه نبهني إلى حقيقة هذه القطعة لأنه رجل أمين. ثم باعها لي نظير فرنكات خمسة، وكان في نيته أن يحتفظ بها ليريها لمن أسماهم (الهواة). ودار بخلدي أن أحسن من يمكن أن أريه هذه القطعة هو مؤلف قصة (المزيِّفون)، وقد اشتريتها لأريها لك. والآن وقد فحصتها ردها لي! إنني أرى للأسف أن الواقع لا يهمك.

وقال إدوارد: كلا، إنه يهمني، ولكنه يضايقني.

وأجاب برنارد: هذا شيء مؤسف.

3- يوميات إدوارد

(نفس هذا المساء) -سألتني «سوفرونيسكا» و«برنارد» و«لورا» عن قصتي. لماذا أسفت للحديث عن ذلك؟ لم أقل إلا سخافات، ومن حسن الحظ أن عودة الطفلين قطعت حديثي هذا. كان وجهاهما أحمرين، وأنفاسهما متلاحقةً كأنهما جريا كثيرًا، وبمجرد أن عادت «برونجا» اندفعت نحو أمها، واعتقدت أنها موشكة على البكاء، وصاحت:

- يا والدتي، أنبي «بوريس». لقد أراد أن يستلقي على الثلج وهو عار تمامًا، ونظرت سوفرونيسكا إلى بوريس وكان واقفًا على عتبة الباب مطأطئ الرأس، وكانت نظرته ثابتةً تبدو وكأن فيها ما يشبه الشعور بالكراهية، وتظاهرت بأنها لم تتبين ما في هذا التعبير من شيء غير عادي، وقالت بهدوء يستحق الإعجاب:

- أصغ إليَّ يا بوريس. يجب أن لا تفعل ذلك في المساء، إن شئت فسوف نذهب إلى هناك غدًا صباحًا، وسوف تحاول أولًا أن تذهب عاري القدمين... وربتت بيدها على جبين ابنتها برفق، ولكن وقعت الصبية فجأةً على الأرض وأخذت تتدحرج في تشنج، فقلقنا لذلك، ولكن سوفرونيسكا حملتها وأرقدتها على أريكة. أما بوريس فلم يتحرك، وكان ينظر إلى هذا المشهد نظرةً بلهاءَ.

- كل مرة أخطأت فيها كان سببها أن ثقتي لم تكن كافيةً. اليوم عندما سمحت لهذين الطفلين بالخروج، لم أستطع إخفاء القلق الطفيف الذي ساورني، وقد شعرا بهذا القلق، وما حدث كان نتيجةً لذلك.

وأمسكت بيدي وقالت:

- لا يبدو أنك تصدق بدور الإيمان... أو بقوة تأثيره.

وأجبتها ضاحكًا، هذا صحيح إذ لست من أنصار الصوفية.

وهنا صاحت في حماسة تستحق الإعجاب: أما أنا فأعتقد من أعماق قلبي أننا من دون هذه الصوفية لا يمكن أن نصل في عالمنا هذا إلى أي شيء عظيم، إلى أي شيء جميل.

اكتشفت في سجل أسماء المسافرين اسم «فكتور ستروفيلهو»، وعرفت من البيانات التي أعطاها لي صاحب الفندق أنه ترك (ساس فيه) عشية وصولنا بعد أن مكث هنا أكثر من شهر. كم كنت أود أن أراه! لا شك أن سوفرونيسكا قد خالطته، يجب أن أسألها في هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

قال «برنارد» للورا: كنت أريد أن أسألك: هل تعتقدين أن ثم -شيئًا على هذه الأرض لا يمكن التشكك فيه؟.. لقد وصل بي الأمر أن أسأل: أمن الممكن أن نتخذ الشك نقطة ارتكاز. لأنه على الأقل لن يعوزنا أبدًا؟ فمن الممكن أن أشك في حقيقة أي شيء ولكني لا أستطيع أن أشك في أنني أشك! كنت أريد...- واغفري لي هذه الطريقة الادعائية في الحديث، لست مدعيًا بطبعي، ولكني تخرجت في قسم الفلسفة ولا يمكن أن تتخيلي ما يطبعه النقاش الفلسفي من أثر في النفس، وأقسم لك أنني سوف أمحو هذا الأثر من نفسي...

قاطعته: ولماذا هذه الجملة الاعتراضية الطويلة، كنت تريد...؟

- أريد أن أكتب قصة رجل اعتاد أن يصغى بادئ الأمر إلى كل شخص. ويستشير الكل قبل أن يتخذ أي قرار، كما كان يفعل «پانورج»(17)، ثم اتضح له أن آراء الناس تتعارض في كل موضوع تعارضنا تامًّا، فآلى على نفسه ألا يُصغي إلا لما تمليه عليه نفسه، وأصبح بهذا قويًّا جدًّا.

وقالت له لورا: هذا مشروع خليق بعجوز!

وأجابها: إنني أكثر نضجًا مما تتصورين. منذ بضعة أيام وأنا أدون يومياتي. مثلما يفعل «إدوارد»، وعلى الصفحات اليمنى أسجل رأيًا بمجرد أن أستطيع أن أسجل في مواجهته على الصفحة اليسري رأيًا مناقضًا: ومثالًا لذلك: قالت لنا «سوفرونيسكا» منذ أيام أنها تنيم كلًّا من بوريس وبرونجا والنافذة مفتوحة على مصراعيها. وبدا لنا كل ما قالته لتبرير هذا الأسلوب في التربية شيئًا معقولًا ومقنعًا. ولكن سمعت في حجرة الاستقبال بالفندق من أستاذ ألماني وصل أخيرًا، عن نظرية مخالفة تمامًا، وتبدو لي هذه النظرية معقولةً أكثر، وتقوم على أسس أقوى. وقد قال إن المهم هو أن ننام في وضع يحول بقدر الإمكان دون أن نبذل أي مجهود في نومنا، إذ إن هذا المجهود -على حد قوله- يكون بمثابة استنفاد الوقود، فإذا تحقق ذلك يمكن أن يعتبر النوم بحق شيئًا يعوضنا عما فقدناه. وذكر على سبيل المثال هذه الطيور التي تضع رأسها تحت جناحيها وكل الحيوانات التي تتكمش لتنام لدرجة أنها لا تكاد تتنفس. وهكذا فإن أقرب الناس إلى الطبيعة -كما قال- الفلاحون، الذين هو على قدر قليل من الثقافة، والذين يحبسون أنفسهم في غرفة ضيقة، والعرب الذين يضطرون إلى النوم في الهواء الطلق فيغطون وجوهم بغطاء الرأس الملتصق بردائهم. ولكنني عندما أفكر في «سوفرونيسكا» وفي الطفلين اللذين قربهما، أرى أنها ليست مخطئةً، وأن ما يمكن أن يفيد أطفالًا آخرين يمكن أن يضر هذين الصغيرين؛ لأنهما على ما فهمت يحملان ميكروب السل. وباختصار أقول لنفسي... ولكني أضايقك.

- لا تبال بذلك، كنت تقول لنفسك...

- لم أعد أذكر.

- هيا، هيا. ها أنت تغضب، لا تشعر بخجل مما تفكر فيه.

- كنت أقول لنفسي بأنه لا شيء يمكن أن يكون مفيدًا للجميع، ولكن هناك ما يفيد بعض الناس فحسب. ولا شيء يمكن أن يكون حقيقةً مطلقةً بالنسبة لجميع الناس، ولكن هناك حقيقة بالنسبة لمن يؤمن بها. وليست هناك طريقة أو نظرية يمكن أن تطبق بحذافيرها على الجميع، إذا كان علينا لكي تتصرف، أن نختار، فإن لنا على الأقل حرية الاختيار، أما إذا لم تكن لنا حرية الاختيار فإن الأمر يصبح أكثر يسرًا لأنه مجال إذَنْ للتردد، ولكن الحقيقة بالقياس إليَّ، هي ما يتيح لي خير استخدام لقواي وخير استثمار لمواهبي، ولا يمكني أن أقضي على شكي، ولكني في نفس الوقت أمقت التردد، إن وسادة الشك اللينة التي تحدث عنها الفيلسوف «مونتني» لا تصلح لرأسي، لأنني لا أشعر بالرغبة في النوم، ولست أريد الراحة، فالطريق طويلةٌ، الطريق التي توصل بين ما كنت أعتقده عن نفسي وبين وجودي ذاته، إنني أخشى أحيانًا أن أكون قد استيقظت مبكرًا قبل الأوان.

- أأنت خائف؟

- لا، لست أخشى شيئًا، ولكن أتعرفين أنني تغيرت كثيرًا –أو على الأقل لم تعد معالم نفسي الداخلية مطابقة لما كنت عليه يوم تركت المنزل؟ وقابلتك في هذه الأثناء، وفي الحال كففت عن الجري وراء حريتي، لعلك لم تفهمي جيدًا أنني رهن تصرفك.

- ماذا يجب أن أفهمه من قولك هذا؟

- أوه! إنكِ تفهمين ما أعنيه! لماذا تدفعينني إلى الكلام في ذلك؟

أتنتظرين مني اعترافًا؟.. لا، لا، أرجوكِ، لا تقنعي ابتسامتكِ وإلا شعر قلبي بالقشعريرة.

- يا صديقي الصغير لعلك لن تدعي أنك بدأت تهيم بي؟

- أواه! إنني لم أبدأ! إنكِ أنتِ التي بدأتِ تشعرين بذلك، ولكنك لا تستطيعين أن تمنعيني منه!

- كنت سعيدة لأني لا أشعر بحاجة إلى التحفظ معك، ولكن عليَّ الآن أن لا أقترب منك إلا في حذر وكأنني أقترب من مادة قابلة للاشتعال... ولكن فكر فيما سأكونه بعد قليل، سأكون مخلوقةً لا تناسق فيها، سأكون شيئًا منتفخًا، ومنظري وحده كفيل بأن يبرئك من دائك.

- نعم هذا إن كنت لا أحب فيكِ إلا الشكل! ثم إنني لست مريضًا، أو إذا اعتبرت إنني مريض بحبكِ، فإنني أفضل ألا أبرأ أبدًا.

وكان يقول كل هذا بلهجة جادة حزينة تقريبًا، وينظر إليها بحنان أكثر مما فعل كل من «إدوارد» أو «دوفييه». ولكن كانت نظرة ملؤها الاحترام، بحيث لم تترك في نفسها شكًّا. وكان فوق ركبتيها كتاب إنجليزي، وكانا قد كفا عن القراءة فيه، فراحت في هذا اللحظة تتصفحه وهي شاردة وكأنها لا تصغى. وإذا استمر برنارد في حديثه دون حرج. قال:

- كنت أتخيل الحب كالبراكين، أو على الأقل الحب الذي خلقت له. نعم كنت أعتقد أنني عاجز عن أن أحب إلا بطريقة وحشية مدمرة على نسق «بيرون». كم كنت أجهل حقيقة نفسي! الفضل لكِ «لورا» في أنني عرفت نفسي. كنت أتقمص شخصيةً بشعةً، وكنت أحاول أن أشبهها كل الشبه. وعندما أفكر في الرسالة التي كتبتها لوالدي «المزيف» قبل أن أترك المنزل، أؤكد لك أنني أشعر بالخجل. كنت

أحسب نفسي شخصًا ثائرًا، خارجًا على القانون، شخصًا يركل بقدمه كل عقبة في طريق رغباته وها أنذا بجانبك أشعر بأنه لا رغبات لي على الإطلاق. كنت أهفو إلى الحرية على أنها الخير الأعظم، ولكنني ما إن شعرت بتلك الحرية حتى خضعت لـ...! آه لو تخيلت مدى الضيق الذي يستشعره الإنسان لأن في رأسه كومة من تعبيرات لمؤلفين مشهورين، تعبيرات لا تقاوم، وتأتي على الشفتين من تلقائها حين نريد أن نعبر عن شعور صادق! إن هذه العاطفة ليست حبًّا -ما دام هذا اللفظ لا يعجبكِ- ولنقل إنها الإخلاص. يخيل إليَّ أنكِ رسمت حدودًا لهذه الحرية التي كنت أتصور أن لا نهاية لها. لكأن كل ما كنت أشعر به في نفسي من ثورة، وكل ما لا شكل له في ذاتي، قد راح يرقص من حولك رقصة كلها انسجام. وإذا صادف وابتعدت فكرة من أفكاري عنك، فإنني ألفظها. إنني لا أطلب منكِ «لورا» أن تحبيني، فلست إلا تلميذًا، ولا أستحق منكِ الالتفات. ولكن كل ما أريد القيام به الآن سأقوم به لأستحق.. (آه! ما أبشع هذه الكلمة).. لأستحق تقديركِ.

وفي هذه الأثناء ركع على ركبتيه أمامها، ورغم أنها كانت قد أبعدت مقعدها، فإن جبهته مست ثوبها، وكانت ذراعاه مطروحتين إلى الوراء كأنه يتعبد! فلما أحس بلورا تضع يدها على جبهته، أمسك بها وضغط عليها شفتيه. وقالت له:

- يا لك من طفل يا «برنارد»! إنني بدوري لست حرةً. خذ. اقرأ هذا: وأخرجت من طيات ثوبها ورقة أعطتها لبرنارد.

ورأى «برنارد» أول ما رأى الإمضاء. وكان -كما خشي- إمضاء «فيلكس دوفيبه». واحتفظ لحظة بالخطاب في يده دون أن يقرأه، وكان يرفع عينيه نحو «لورا». كانت تبكي، فشعر عندئذ بأن شيئًا في قلبه تمزق، لعله أحد هذه الروابط الخفية التي تربط كلًّا منا بنفسه وبما في ماضيه من أنانية. ثم قرأ:

- حبيبتي لورا،

باسم هذا الطفل الذي أوشك أن يولد، والذي عاهدت نفسي على أن أحبه كما لو كنتِ إياه، أتوسل إليكِ أن تعودي. لا تتصوري أن من الممكن أن أستقبلك هنا عند عودتكِ بأي عتاب. ولا تبالغي في اتهام نفسكِ؛ لأن هذا أكثر ما يؤلمني في الموضوع. لا تتأخري في العودة. أنتظركِ بكل نفسي التي تعبدكِ وتخشع راكعةً أمامكِ.

وكان برنارد جالسًا على الأرض أمام لورا، ولم يرفع نظره إليها عندما سألها:

- متى تسلمت هذه الرسالة؟

- هذا الصباح.

- كنت أعتقد أنه يجهل كل شيء. هل كتبتِ له؟

- نعم اعترفت له بكل شيء.

- وهل يعلم إدوارد بذلك؟

- لا، لا يعرف عنه شيئًا.

ومكث برنارد بعض الوقت مطأطئ الرأس، ثم التفت نحوها من جديد وسألها.

- وماذا تنوين عمله الآن؟

- أتريد حقًّا أن تعرف ما أنويه؟. أنوي العودة إليه، مكاني بجانبه. يجب أن أعيش معه. إنك تعرف ذلك.

وقال برنارد: نعم.

وأعقب ذلك سكون طويل، ثم أردف «برنارد»:

- أتعتقدين أن من الممكن أن يحب المرء ابنًا أنجبه آخر كولده هو؟

- لست أدري هل أعتقد ذلك أم لا. ولكنني آمل أن يكون ذلك ممكنًا.

- أما عني فإنني أعتقد ذلك: ولست أصدق ما يسمونه بسخف «صوت الدم». نعم، أعتقد أن هذا الصوت ليس إلا أسطورةً من الأساطير. قرأت أن بعض الشعوب في جزر المحيط الهادي تتبنى أطفال الغير، وأن هؤلاء الأطفال المتبنين كثيرًا ما يفضلون على الآخرين. وكان الاصطلاح الذي استعمله الكتاب: «إنهم أكثر تدليلًا»- أتعرفين ماذا أعتقد الآن؟ إن الرجل الذي قام برعايتي، وكأنه والدي، لم يقل أبدًا شيئًا، يمكن أن يشتم منه أنني لست ابنه حقيقةً. وعندما كتبت له ما كتبت من أنني كنت أشعر بفرق في المعاملة كنت كاذبًا في قولي. لقد كان على العكس يشعرني بنوع من الإيثار، وكنت أحس بذلك. ومعنى هذا أن جحودي له يعتبر أفظع، لأنني أسأت التصرف معه. «لورا» يا صديقتي كنت أود أن أسألك... أتظنين أنه يجدر بي أن أسأله العفو وأن أعود إليه؟

وقالت «لورا»: لا.

- لماذا؟ ما دمتِ أنتِ تعودين إلى «دوفييه»...

- كنت تقول لي منذ لحظات إن ما هو حق بالنسبة لشخص ليس كذلك بالنسبة لآخر. إنني أشعر بضعفي بينما أنت قوي. ربما كان السيد «بروفيتا نديو» يحبك، ولكنك إن كنت صادقًا فيما قلته لي عنه فإنني أرى أنكما لم تخلقا لتتفاهما! على الأقل أنتظر بعض الوقت. لا تعد إليه وأنت مغلوب على أمرك. هل تريد مني أن أقول رأيي كاملًا؟ إنك تقترح هذا من أجلي لا من أجله، لتنال ما تسميه «تقديري». لن تنال هذا التقدير يا برنارد إلا عندما أشعر بأنك لا تجري وراءه. لايمكن أن أحبك إلا وأنت على سجيتك. اترك لي التوبة، لم تخلق التوبة لك يا برنارد.

- إنني أكاد أحب حتى اسمي من شفتيكِ. أتعرفين ما كان يفزعني هناك؟ إنها الرفاهية. كل وسائل الراحة، وطيبات الحياة الرغدة. لقد شعرت بأنني أحن إلى الفوضى. أما الآن فعلى العكس أعتقد أنني في سبيل أن أصبح محافظًا! لقد فهمت ذلك فجأةً منذ أيام عندما شعرت بالاستياء حين سمعت سائحًا على الحدود يتكلم عما يشعر به متعة في التهرب من الجمارك. كان يقول «إذا سرقت الدولة، فإنك لم تسرق أحدًا». وحين عارضت هذا القول، كان السبب أني فهمت فجأةً ما هي الدولة، وأحببتها لا لسبب إلا لأن البعض يحاول أن يسيء إليها. ولم أفكر في هذا الأمر من قبل. وكان السائح يقول «ليست الدولة إلا اصطلاحًا». ما أجمل هذا الاصطلاح لو قام على حسن نية كل واحد! لو كان

الجميع أمناء! لو سألني سائل اليوم عن أجمل الفضائل في نظري لأجبته دون تردد: الأمانة. آه يا «لورا»، أتمنى أن أعبر طوال حياتي وفي أبسط الأمور -عما يعتمل في نفسي بصوت يكون رنينه نقيًّا أمينًا لا زيف فيه. كان لغالبية من عرفت من الناس رنين مزيف. يجب أن يعبر مظهرنا عن حقيقتنا، وألا نحاول أن نظهر بأكثر مما نحن حقيقةً. وكثيرًا ما نريد أن نخدع، وكثيرًا ما نهتم بالظروف فيصل بنا الحال إلى حد أن نجهل حقيقة أنفسنا... اغفري لي أن أكلمكِ هكذا. إنني أبثكِ أفكاري التي تراودني أثناء الليل.

- كنت تفكر في القطة الصغيرة التي أريتنا إياها أمس. عندما أرحل... (ولم تستطع أن تكمل جملتها، واغرورقت عيناها بالدموع. ورأى «برنارد» شفتيها ترتعشان وهي تجاهد لتحبس دموعها).

وأردف بحزن: إذَنْ فسوف ترحلين يا «لورا»...! أخشى ألا أساوي شيئًا عندما أشعر بأنكِ لست بجانبي... ولكن كنت أريد أن أسألكِ شيئًا... هل كنتِ تفكرين في الرحيل، وهل كنتِ تكتبين هذه الاعترافات، لو كان «إدوارد»... لا أعرف كيف أعبر عن ذلك... (واحمر وجه لورا) لو كان أفضل مما هو. أوه! لا تحتجي، إنني أعرف جيدًا رأيك فيه.

- تقول ذلك لأنكِ لمحت ابتسامتي أمس عندما كان يتحدث. ولقد اقتنعت في الحال بأنني أحكم عليه كما تحكم أنت عليه، ولكن لا. دع هذا الخطأ. إنني في الحقيقة لا أعرف ما هو رأيي فيه... إنه لا يستمر مدةً طويلةً على حال واحدة، وهو لا يعلق بشيء، ولكن ليس ثمة شيء يجعل الناس يعلقون به مثل هروبه هذا. إنك تعرفه منذ فترة قصيرة؛ ولذا لا يمكنك أن تحكم عليه. إن معالم كيانه دائمة التغير، يتخيل المرء أحيانًا أنه أمسك به... إنه مثل بروتيه([18]) يأخذ شكل الأشياء التي يحبها وهو أيضًا- يجب أن تحبه لتفهمه.

- إنكِ تحبينه! أواه يا لورا لست أشعر بغيرة من دوفييه أو من فنسان وإنما من إدوارد.

- لماذا تشعر بالغيرة؟ إنني أحب دوفييه، وأحب إدوارد ولكن كل منها بطريقة مختلفة. وإن، أحببتك فسوف يكون هذا الحب مختلفًا أيضًا؟

- لورا، لورا، إنك لا تحبين دوفييه! إنك تشعرين نحوه بمعزة، بشفقة، بتقدير، ولكن ذلك ليس حبًّا. وأعتقد أن سبب حزنكِ (لأنكِ حزينة يا «لورا») هو أن الحياة قد جزأتكِ. إنكِ لم تعرفي الحب إلا وأنت مشتتة، إنكِ توزعين على كثيرين ما كنتِ خليقةً بأن تمنحيه لشخص واحد. أما أنا فأشعر أنني لا أتجزأ. لا يمكن أن أمنح نفسي إلا كاملًا.

- إنك صغير السن على هذا الكلام. ولا يمكن أن تعرف منذ الآن إن كانت الحياة «ستجزؤك» على حد تعبيرك. إنني لا أستطيع أن أتقبل منك إلا هذا... الإخلاص الذي تقدمه لي، أما الباقي فله مطالبه، وهذه المطالب سوف تحققها مع إنسان آخر!

- أهذا صحيح؟ سوف تجعليني أشمئز من نفسي ومن الحياة.

- إنك لا تعرف شيئًا عن الحياة، ويمكنك أن تنتظر منها كل شيء. هل تعرف فيما كان خطئي؟ أخطأت في أنني لم أعد أنتظر شيئًا من الحياة. فعندما اعتقدت -للأسف- أنني لا يمكن أن أنتظر شيئًا

منها انتابني الاستسلام. وقد قضيت هذا الربيع في مدينة «بو» وكأنه آخر ربيع أعيشه، وكأن شيئًا لم يعد يعنيني في هذه الدنيا! ويمكنني أن أقول لك الآن يا «برنارد» إنني عوقبت على ذلك: لا تيأس أبدًا من الحياة.

ما جدوى حديث كهذا يوجه لشاب تملؤه الحرارة؟ ولهذا لم يكن ما قالته لورا موجهًا لبرنارد، فاستجابةً لنداء وده، راحت -رغمًا عنها- تفكر أمامه بصوت عال لم تكن تحسن التحكم في عواطفها، وكما استسلمت أولًا لعاطفتها بمجرد تفكيرها في إدوارد فكشفت عن حبها، كذلك استسلمت لرغبة في الوعظ ورثتها ولا شك عن والدها، ولكن برنارد كان يبغض المواعظ والنصائح حتى ولو كانت من «لورا». وقد حذرت ابتسامته لورا، ولذا أردفت بصوت أكثر هدوءًا:

- هل في نيتك أن تظل سكرتيرًا لإدوارد عند عودتك إلى باريس؟

- نعم، إذا وافق على الاحتفاظ بي. ولكنه لا يعطيني عملًا! أتعلمين ما الذي يحلو لي أن أعمله معه؟ أن أكتب هذا الكتاب معه، وأنا أعرف أنه لن يكتبه أبدًا إذا ظل وحيدًا، وقد قلت له ذلك أمس. ورأيي أن الطريقة التي عرضها علينا أمس طريقة غير معقولة؛ فالقصة الناجحة تكتب بطريقة أبسط وأكثر سذاجةً. ثم إنه يجب على كاتب القصة أن يؤمن بما يكتبه، أليس هذا هو رأيك أيضًا؟ كما يجب أن يسرد كل الأمور ببساطة. لقد تصورت في بادئ الأمر أن في إمكاني مساعدته، ولو قد احتاج إلى بوليس سري، لاستطعت أن أقوم بما تتطلبه طبيعة عملي، ولأمكنه في هذه الحال أن يكتب عن الوقائع التي اكتشفتها أثناء أبحاثي... ولكن قصته تقوم على الآراء، ولذا لا يمكن أن أفيده بشيء، وأشعر عندما أكون بجانبه أنني أصبحت كمخبري الصحف! وإذا ما أصر على عناده واسترسل في خطئه هذا، فسوف أقوم بعمل آخر؛ إذ إنني مضطر إلى أن أكتسب عيشي، وسوف أعرض خدماتي على إحدى الصحف، وحتى أجد هذا العمل سوف أنظم شعرًا.

- لأنك سوف تشعر من غير شك بأنك أصبحت شاعرًا عندما تجد نفسك بجانب مخبري الصحف.

- أوه! لا تسخري مني، إني أعلم أنني أثير الهزء فيما أقول، ولكن لا تبالغي في إشعاري بذلك.

- ابق مع «إدوارد»، فسوف تساعده في عمله. واتركه يساعدك، إنه رجل طيب.

وسمعا دقات الناقوس مؤذنةً بساعة الغداء، ونهض «برنارد» وأمسكت «لورا» بيده قائلة:

- أصغِ إلي! هذه القطعة المزيفة التي أريتها لنا بالأمس... هل تسمح أن تعطيني إياها كتذكار منك عندما يَحين موعد رحيلي؟ (واضطرت أن تبذل مجهودًا لتتم هذه الجملة).

وأجابها «برنارد»: خذيها -ها هي- خذيها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس

يوميات إدوارد

(ذلك هو ما يحدث في أغلب الأمراض العقلية؛ إذ نتباهى بأننا شفيناها، والواقع -كما يقال في لغة الطب- أننا حولنا مجراها، وأحللنا مكانها أمراضًا أخرى).

سانت بيف (أحاديث الإثنين جزء «1» صفحة «19»).

بدأت أتبين معالم ما سأسميه «الموضوع العميق» لقصتي، سيقوم الموضوع على المنافسة بين عالم الواقع وبين تصورنا لهذا العالم.

يفرض عالم المظاهر ذاته علينا بطريقة نحاول نحن أن نفرضها على العالم الخارجي، وتلك هي مأساة حياتنا. إن مقاومة الواقع لنا واستعصاءَه علينا يدعونا إلى أن ننقل أمانينا إلى عالم الأحلام، وعالم الآمال، وعالم الحياة المقبلة التي ينمو إيماننا بها من التغذي بموارة إخفاقنا.

يبني الواقعيون على الوقائع ويعدلون آراءهم وفقًا للوقائع، وبرنارد واقعي، وأخشى ألا أستطيع التفاهم معه.

كيف أمكنني أن أقر ما قالته لي «سوفرونيسكا»؟ إنه ليس لديَّ أي تصوف؟ إنني أعترف معها بأن الإنسان إذا ما تجرد من «التصوف» لم يستطع أن يحقق أي عمل عظيم. ولكن لورا تؤاخذني بالذات على نزعتي التصوفية كلما حدثتها عن كتابي. لأترك لهما النقاش في هذا الأمر.

حدثتني «سوفرونيسكا» مرةً أخرى عن «بوريس»، وهي تعتقد أنها نجحت في أن تحصل منه على اعتراف كامل. لم يعد الطفل المسكين يجد في ذاته أي ملاذ يحتمي فيه من نظرات الطبيبة.

لقد تعرى تمامًا! إن «سوفرونيسكا» لتعرض في وضح النهار كل «تروس» عقله الباطنية، بعد أن فكتها كما يفعل «الساعاتي» بأجزاء الساعة التي ينظفها.

وإذا صادف ولم تدق أجهزة الطفل في ميعادها، فإن هذا يكون غريبًا للغاية. وهذا ما قالته لي «سوفرونيسكا».

أُرسل بوريس وهو في التاسعة من عمره إلى إحدى مدارس «وارسو»، وصادق زميلًا له في الدراسة يُدعى باتستين كرافت، يكبره بعام أو بعامين، وقد علمه بعض العادات السرية، وكان الطفلان لبرائتهما مبهورين بها، وتصورا أنها ضرب من السحر. وكان هذا هو الاسم الذي أطلقاه على رذيلتهما هذه، والسبب في ذلك أنهما سمعا أو قرأا أن السحر يتيح لمن يزاوله بأن يحصل بطريقة غامضة على ما يريد، وأنه يهب من يزاوله قوة لا حد لها... إلخ... وكانا يتصوران عن حسن نية أنهما اكتشفا سرًّا يمكن أن يعوضهما عن الوجود الحقيقي «بالخيالي». وكانت النشوة تملأ خيالهما، وكانا يجهدان نفسيهما بلذة تفوق طاقتهما. ومن الطبيعي أن «سوفرونيسكا» لم تستعمل هذه العبارات. وكنت أرجو أن تسرد عليَّ ما قاله «بوريس» بالضبط، إلا أنها ادعت أنها لم تتوصل إلى

معرفة هذه الخبايا -تلك الخبايا التي أكدت لي صحتها مع ذلك- إلا خلال خليط معقد من التظاهر والتردد والغموض. وأضافت تقول:

- لقد اكتشفت فيما اكتشفته السر الذي كنت أبحث عنه منذ وقت طويل، وذلك عن طريق قطعة من الورق كان يحملها «بوريس» كحجاب ويخبئها في كيس صغير يعلقه على صدره بجانب التمائم الدينية التي ترغمه أمه على حملها -وكانت هذه الورقة تشمل خمس كلمات مكتوبة بحروف كبيرة بخط صبياني ولكنه منمق، خمس كلمات سألته دون جدوى عن معانيها.

«غاز. تليفون. مائة ألف روبل.».

وعندما كنت ألح عليه في السؤال، كان يجيبني بقوله: «ليس لها أي معنى. إنه سحر». وهذا كل ما أمكنني التوصل إليه. وأنا أعرف الآن أن هذه الكلمات كتبت بخط «باتيستان» الصغير والأستاذ الأكبر ومدرس العلوم السحرية، وأنها كانت بالنسبة لهذين الطفلين بمثابة عبارة سحرية مثل «افتح يا سمسم» يفتتحان بها الفردوس المخجل الذي كانت اللذة تلقي بهما فيه. وكان «بوريس» يُسمِّي هذا الحجاب «تعويذة». وقد صادفتني في بادئ الأمر عقبات كثيرة حتى قبل أن يريني إياها، كما صادفتني صعاب أكبر لكي يقبل أن يعطيه لي. وكنت أريد أن يتخلص من هذا الحجاب كما تخلص من قبل من تلك العادات السيئة. وكان يحدوني الأمل في أن تزول بزوال هذه «التعويذة» التصرفات الشاذة التي كان مريضًا بها، ولكنه كان متعلقًا بتعويذته، وكان المرض متعلقًا بها أيضًا وكأنها آخر ملاذ له.

- ولكنك قلت إنه كان قد تخلص من عاداته...

- لم يبدأ المرض العصبي إلا بعد تخلصه منها، ونتج المرض عن الحرمان الذي فرضه على نفسه لكي يتخلص منها. عرفت منه أن أمه فاجأته ذات يوم «بأعماله السحرية» كما يسميها. ولكن لماذا لم تذكر هي لي أبدًا أي شيء عن ذلك؟.. هل أخفت عني ذلك خجلًا؟

- لقد أخفته لعلمها بأنه كف عن مزاولة هذا.

- إن هذا التصرف لسخيف... وذلك هو السبب في أنني بحثت طويلًا على غير هدى. لقد ذكرت لك من قبل أنني كنت أتصور أن «بوريس» كان نقيًّا تمامًا.

- ولقد ذكرت لي أن ذلك هو ما كان يضايقكِ.

- وها أنت ترى أنني كنت على حق!.. كان لزامًا على الأم أن تتبهني إلى ذلك، فلو أنني تبينت تلك الأمور في حينها لكان «بوريس» قد شفي الآن.

- ذكرت أن هذه الأمراض لم تظهر إلا فيما بعد...

- ذكرت أنها نتجت عن رد الفعل. إنني أتصور أن أمه أنبته، أو أنها توسلت إليه أو أنها وعظته. ثم جاء موت الأب، وأقنع «بوريس» نفسه بانه استحق هذا العقاب بسبب عاداته السرية التي صوروها له على أنها جرائم. ولذا اعتبر نفسه مسؤولًا عن موت أبيه واعتبر نفسه كذلك مجرمًا أو شخصًا

ملعونًا. وأدركه الخوف إذ راح كيانه الضعيف -كالحيوان المطارد- يبتكر سلسلة من المخارج يكفر بها عن شعوره الداخلي بالإثم.

- يبدو لي مما تقولينه أنك تعتبرين أنه كان من الأفضل لبوريس أن يستمر في مزاولة أعماله السحرية هذه؟

- اعتقادي أنه لم يكن لزامًا أن يفزعوه ليخلصوه منها. إن تغيير نمط الحياة الذي نتج عن موت أبيه كان خليقًا دون شك أن يشغله عنها، كما أن يؤدي الخوف إلى أي نتيجة طيبة، ولما تبينت حقيقة أمره، وكلمته في هذه الشئون وفي ماضيه، حاولت أن أشعره بالخجل من أنه آثر التنعم بمتع خيالية على الحصول على متع حقيقية تعد مكافأةً للمجهود الذي نبذله من أجلها. وبدلًا من أن أصور له ما ارتكبه في صورة الرذيلة، صورته ببساطة على أنه لون من ألوان الكسل. وفي رأيي أنه كذلك فعلًا، وهذا النوع أكثر الأنواع ختلًا وخداعًا لنا...

وتذكرت عند عبارتها هذه بعض سطور كتبها «لاروشفوكوه» أردت أن أريها إياها. وبالرغم من أنه كان في مقدوري أن أذكرها لها من الذاكرة فإنني ذهبت لإحضار الكتيب الصغير وعنوانه «الحكم»([19])، وأنا أحمله معي دائمًا في أسفاري. وقرأت لها هذه السطور.

«الكسل أجهل ما نجهل من شهواتنا، وهو أفتكها وأختلها رغم أن عنفه لا يحس ومضاره خفيه جدًّا... والراحة التي تستشعرها من جرائه تهبنا متعةً خفيةً تشل فجأةً أمضى العزائم وأحسم القرارات، ولكي نعطي فكرة حقيقية عن هذه الشهوة يجدر بنا أن نقول أنها سكينة للنفس تعزيها عن كل خسائرها وتعوضها عن طيباتها»

وسألتني عندئذ «سوفرونيسكا»: هل تريد القول أن لاروشفوكوه عندما كتب هذه العبارات أراد أن يشير إلى ما كنا نتكلم فيه؟

وأجبتها: ربما، وإن كنت لا أعتقد ذلك، وكتابنا الكلاسيكيون أغنياء بكل التأويلات ودقتهم في التعبير تستحق الإعجاب، وبخاصة لأنها لا تدعي أنها جامعة مانعة.

وطلبت منها أن تريني تعويذة «بوريس» العجيبة، ولكنها قالت لي إنها ليست معها، وإنها أعطتها لشخص يهتم ببوريس كان قد سألها أن تعطيها له على سبيل التذكار -وقالت إنه يُدعى «ستروفيلهو»، وقد صادفته هنا قبل مجيئكم بقليل.

وقلت لسوفرونيسكا: إنني رأيت هذا الاسم في سجل الفندق، وإنني عرفت في وقت ما شخصًا يُدعى «ستروفيلهو»، ويهمني أن أعرف إن كان هو من عرفت. وعلى ضوء وصفها له لم يكن ثمة مجال للشك، ولكنها لم تستطع أن تذكر لي بشأنه أي شيء يُرضي فضولي. وعرفت فقط أنه شخص لطيف جدًّا، خدوم جدًّا وأنه كان يبدو ذكيًّا جدًّا، ولكنه كان كسولًا هو أيضًا إلى حد ما، وأضافت وهي تضحك: إن كنت أجرأ على استعمال هذا اللفظ!، وقد سردتُ عليها بدوري ما أعرفه عن «ستروفيلهو» ودفعني هذا الحديث إلى الكلام عن المدرسة الداخلية التي تقابلنا فيها وعن والد «لورا» (وكانت بدورها قد باحت لها بأسرارها)، وأخيرًا عن «لابيروز» العجوز وعلاقة القرابة

التي تربطه ببوريس، وعما وعدته به عندما تركته في آخر لقاء من إحضاره له. ولما كانت «سوفرونيسكا» قد أخبرتني بأنه ليس من مصلحة الصبي أن يستمر في الحياة مع أمه، سألتها:

ولماذا لا تلحقينه بمدرسة «آزائيس» الداخلية؟ وحين اقترحت عليها ذلك، كنت أفكر أولًا في سعادة الجد عندما يجد «بوريس» على مقربة منه لدى أصدقاء له؟ وفي استطاعته رؤيته كلما شاء، ولكن ما كنت أعتقد أن الصبي من ناحيته سيرتاح إلى هذا الوضع.

وأجابتني سوفرونيسكا بأنها ستفكر في هذا الحل، وكانت في أثناء حديثي هذا مهتمةً جدًّا بكل ما أخبرتها به.

وراحت سوفرونيسكا تكرر قولها بأن بوريس قد شفي، وهذا العلاج سيقوي الاعتقاد في صحة نظريتها. ولكنني أخشى أن تكون قد تسرعت في الحكم. وكنت بطبيعة الحال لا أريد أن أعارضها فيه، ولكنه رأيها. وأعترف بأن الحركات العصبية وإشارات التفكير والتعبير الناقص وكل ذلك قد اختفى تقريبًا، ولكن يبدو لي أن المرض اختبأ فقط في منطقة أعمق في نفسه، وكأنه يريد أن يهرب من نظرة الطبيب الفاحصة. لعل النفس هي ذاتها التي أصيبت الآن. وكما أن الحركات العصبية تبعث الشعور بالنقص كذلك أخذت تزول هذه الحركات أمام داء خفي. و«سوفرونيسكا» قلقة حقًّا لرؤيتها «بوريس» وهو يلاحق «برونجا» مندفعًا فيما يشبه «التصوف» الصبياني، ولكنها وهي على هذا الذكاء تدرك، ولا شك أن هذه السعادة الروحية التي ينشدها «بوريس» لا تختلف كثيرًا عن تلك التي كان يحصل عليها بالافتعال. وإذا كانت هذه اللذة الجديدة تكلفه مجهودًا أقل من المتعة الأخرى ولا ترهق كيانه مثلها، فهي لا تصرفه مع ذلك عن بذل الجهد وعن تحقيق المتعة. ولكنني عندما أكلمها في هذا الأمر تجيبني بأن نفسًا كنفس بوريس أو «برونجا» لا غنى لها عن غذاء وهمي، وأن حرمانها من هذا الغذاء سيودي بهما، فتتردى «برونجا» في اليأس، ويندفع «بوريس» إلى مادية وضيعة. وهي تعتقد فوق ذلك أنه ليس من حقها أن تقضي على ثقة هذين الصغيرين، ورغم أنها تعتبر أن إيمانها كاذب، إلا أنها ترى في ذلك لونًا من تسامي الغرائز الدنيئة والإصرار على العلو، لونًا من حفظ النفس أو حمايتها... وبالرغم من أنها لا تؤمن بمعتقدات الكنيسة إلا أنها تؤمن بفاعلية الإيمان. وهي تتكلم بحرارة عن تقوى هذين الطفلين اللذين يقرأان معًا تعاليم الإنجيل ويتحمسان ويلبسان روحهما أكفانًا بيضاء، و«سوفرونيسكا» كباقي النساء ملأى بالمتناقضات. ولكنها كانت على حق: فإنني فعلًا لست «متصوفًا»، ولست كذلك كسولًا. إنني أعتمد كثيرًا على أن الجو السائد بمدرسة «آزائيس» وجو باريس سيجعلان من «بوريس» شخصًا مجدًّا، وسيشفيانه من نشدان «اللذات الخيالية» وفي هذا خلاصه. ويبدو أن «سوفرونيسكا» بدأت توافق على فكرة أن تعهد به إلي، ولكنها ستصحبه ولا شك إلى باريس لرغبتها في الإشراف على ترتيبات دخوله مدرسة «آزائيس»، ولتطمئن أمه كذلك، لأنها مهتمة جدًّا بالحصول على موافقتها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

(هناك نقائص إذا أحسن استخدامها، لمعت أكثر من الفضيلة ذاتها).

«لاروشفوكو».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من أوليفييه إلى برنارد

يا صديقي العزيز،

يجب أن أخبرك أولًا بأنني نجحت في امتحان إتمام الدراسة الثانوية، ولكن هذا أمر لا قيمة له. لقد سنحت لي فرصة نادرة لأسافر. وكنت مترددًا، ولكنني بعد أن قرأت رسالتك، اغتنمت الفرصة وسافرت. وقد لقيت في بادئ الأمر معارضةً خفيفةً من أمي، ولكن سرعان ما تغلب «فنسان» عليها، وقد أظهر لطفًا لم أكن أنتظره منه. ويصعب عليَّ أن أصدق أنه -في المناسبة التي ذكرتها في رسالتك- تصرف بتلك الحماقة. ويبدو أننا في سننا نجنح إلى الحكم على الناس بقسوة، وأن حكمنا عليهم لا يحتمل النقض. إن كثيرًا من التصرفات تبدو لنا وكأنها مذمومة بل بغيضة، وذلك لسبب بسيط، هو أننا لا نعرف أسبابها الحقيقية. إن «فنسان» لم... ولكن ذلك سوف يبعدني كثيرًا عن موضوع رسالتي كما أن لدي أشياء كثيرة أريد أن أخبرك بها. اعلم أن مدير تحرير المجلة الجديدة المسماة «الطليعة» هو الذي يكتب لك الآن. وقد قبلت القيام بهذه الأعباء بعد مداولات، وقد رأى «الكونت روبيردي باسافان» أنني أهل للقيام بها. إنه هو الذي يصدر المجلة، ولكنه لا يعبأ كثيرًا بأن يعرف الناس ذلك، ولذا فإن اسمي وحده هو الذي سيظهر على الغلاف. وسوف تظهر المجلة في شهر أكتوبر، فحاول أن ترسل لي شيئًا ليظهر في العدد الأول. سوف يخيب أملي إن لم يلمع اسمك بجانب اسمي في هذا العدد. و«باسافان» يريد أن تظهر في العدد الأول بعض الآراء المتحررة (اللاذعة)؛ لأن رأيه أن أقسى نقد يمكن أن يقضي على مجلة ناشئة هو أن تتهم (بالحياء)، أنا أشاركه إلى حد ما هذا الرأي. وقد تكلمنا في هذا الأمر كثيرًا. وطلب مني أن أكتب ذلك وقدم لي موضوعًا جريئًا لخبر قصير، ويزعجني ذلك قليلًا إذ إنه أغضب أمي، ولكن ليكن ما يكون، وعلى حد قول «باسافان»: كلما كنت حديث السن، كانت الفضيحة أقل إساءةً لسمعتك.

أكتب لك من مدينة «فيزافون». وفيزافون قرية صغيرة على سفح جبل من أعلى جبال بكورسيكا، والقرية في قلب غابة كثيفة، والفندق الذي نحن فيه يبعد قليلًا عنها. وهو يستعمل كنقطة بداية تتفرع منها رحلات السياحة. ونحن هنا منذ أيام فقط، وقد بدأنا جولتنا بأن سكنا نزلًا يبعد كثيرًا عن خليج «بورتو» الجميل، وهو مكان خاوٍ من الناس، وكنا ننزل للسباحة في كل صباح. ويمكنك أن تحيا في هذا المكان طوال اليوم وأنت عارٍ، هذا شيء رائع. لكن الجو كان حارًّا جدًّا هناك، واضطررنا أن نصعد إلى الجبل.

«باسافان» رفيق جذاب، وهو لا يتباهى أبدًا بلقبه، ويطلب مني أن أناديه بـ «روبير».

وقد ابتكر لي اسم «أوليف»([20])، أليس هذا لطيفًا؟ وهو يحاول بكل الوسائل أن ينسيني سنه، وأؤكد لك أنه نجح في ذلك. لقد كانت أمي منزعجةً إذ رأتني أرحل معه وهي لا تعرف عنه إلا القليل، وكنت مترددًا خشية أن أغضبها. وقبل وصول رسالتك كنت على وشك أن أرفض. ولكن «فنسان» أقنعها، كما أن رسالتك وهبتني الشجاعة والعزم، وقد قضينا الأيام الأخيرة قبيل سفرنا في ارتياد المحلات التجارية. وكان «باسافان» سخيًّا جدًّا، وكان يريد أن يقدم لي كل شيء، وكان عليَّ أن أمنعه من ذلك باستمرار. ولكنه كان يرى أن ملابسي لا تليق، من القمصان إلى أربطة العنق إلى الجوارب. كل ما كنت أرتديه لم يعجبه، وكان يكرر قوله بأنني إن كنت سأعيش معه بعض الوقت فسيتألم إن رآني لا أظهر بالمظهر اللائق -أي المظهر الذي يعجبه-، وبطبيعة الحال أرسلت كل المشتريات إلى منزله خشية أن تنزعج والدتي. وهو نفسه على قدر فائق من الأناقة، وله ذوق ممتاز، وكثير من الأشياء التي كانت تبدو لي مقبولة أصبحت لا أطيقها الآن. ولا يمكن أن تتصور كم كان «باسافان» مسليًّا، ونحن نزور المحلات. وهو ظريف حاضر البديهة. وأحب أن أعطيك فكرةً عن ذلك: كنا عند «برنتانو» وكان قد أعطاه قلمه الحبر ليصلحه. وكان وراءه إنجليزي ضخم أراد أن يمر قبل دوره، وإذ أبعده «روبير» عن الطريق بشيء من الغلظة، بدأ الرجل يتمتم بألفاظ موجهة إلى «روبير».

وهنا التفت «روبير» وقال بلهجة هادئة جدًّا:

- لا داعي لذلك؛ لأنني لا أفهم الإنجليزية.

وأجاب الآخر ثائرًا بلغة فرنسية سليمة: وكان يجب عليك أن تفهمها يا سيدي.

وهنا رد «روبير» مبتسمًا وبأسلوبه مهذب:

- ولكنك ترى ما قلته بها لم يكن له أي قيمة...!!

وكانت دماء الرجل الإنجليزي تغلي، ولكنه لم يجد ما يمكن أن يقوله. وكان المنظر مضحكًا للغاية.

وكنا في يوم آخر في مسرح «الأوليمبيا»، وأثناء الاستراحة تجولنا في القاعة، وكان عدد كبير من «الغانيات» يرحن ويجئن فيها. واقتربت اثنتان منهن من «روبير» وقالت إحداهما:

- أتدفع لنا كوب من الجعة يا حبيبي؟

وجلسنا معهما حول مائدة، وقال «روبير» للساقي:

- كوبًا من الجعة لكل من هاتين السيدتين.

وسأله الخادم. ولهذين السيدين؟

- آه. نحن إننا سوف نطلب شمبانيا... (قالها بإهمال) ثم طلب زجاجة من «الموات» الفاخر شربناها أنا وهو. لا يمكن أن تتصور ما ارتسم حينئذ على وجهي الغانيتين!.. وأنا أعتقد أنه يشمئز من الغانيات. وقد اعترف لي بأنه لم يدخل قط بيتًا من بيوت الغانيات. وقد لمح لي بأنه سيغضب إذا ما عرف أنني توجهت إلى تلك الأماكن. وها أنت ترى أنه شخص نظيف جدًّا بالرغم مما يبدو عليه، وبالرغم من أحاديثه الساخرة -كان يقول مثلًا: إنه عندما يسافر يعتبر اليوم «يومًا كئيبًا» إذا لم يقابل

قبل الغذاء خمس نساء يشعر بالرغبة فيهن. وأرى لزامًا عليَّ أن أخبرك أنني لم أعاود الكرة... أفهمت ما أعنيه؟

وله أسلوب وعظ ظريف ينفرد به. قال لي منذ أيام:

- المهم يا صغيري في هذه الحياة ألا نترك لنفسنا العنان لننساق؛ فهذا الشيء يجلب شيئًا آخر، ثم لا يدري المرء أين يسير. لقد عرفت شابًّا مهذبًا أراد أن يتزوج ابنة طاهيتي. ودخل ذات ليلة عند بائع للجواهر فبدأ بالقتل ثم تدرج إلى السرقة- وبعد ذلك أخذ يخفي نزعته الشريرة. ها أنت ترى إلى أين يؤدي بنا الاستسلام لنفسنا. وفي آخر مرة قابلته فيها، كان قد وصل به الحال إلى أن أصبح رجلًا كذوبًا «حذار».

وهو دائمًا هكذا. ومعنى هذا أنني لا أشعر بالملل. كنا قد رحلنا وفي نيتنا أن نعمل كثيرًا، ولكننا حتى الآن لم نقم بشيء إلا السباحة والاستلقاء في الشمس والثرثرة. وله آراء وأفكار فريدة في كل شيء. وأنا أدفعه بقدر استطاعتي إلى أن يكتب بعض نظرياته الخاصة بالحيوانات التي تعيش في أعماق البحار، وما يسميه «الأضواء الشخصية» وهي أضواء تسمح لهذه الحيوانات بالاستغناء عن أشعة الشمس، وهو يقارن بين هذه الأضواء وما يغمرنا به الإيمان والوحي من نور.

ولا معنى لما أقوله بالطريقة التي أعرض بها هذه الأفكار، ولكني أؤكد لك أنه عندما يتحدث في هذه الأمور، فإنها تبدو مسليةً كقصة بديعة. وليس من المعروف عنه أنه ضليع في التاريخ الطبيعي. ولكن يحلو له أن يخفي معلوماته التي يسميها «بجواهره الخفية». وهو يقول إن المدعين فقط يتباهون بعرض جواهرهم على الملأ، ولا سيما عندما تكون هذه الجواهر مزيفةً.

وهو قدير على استغلال الآراء، واستعمال الصور والمجازات، والانتفاع بالناس وبالأشياء، فهو يعرف كيف يستفيد من كل شيء. ويقول إن الفن الأكبر في هذه الحياة ليس في التمتع بها، ولكن في معرفة استغلال الفرص.

لقد نظمت بعض أبيات من الشعر، ولكنني لست راضيًا عنها، ولذا لن أرسلها لك «إلى اللقاء يا عزيزي». سوف نلتقي في شهر أكتوبر، وستجدني تغيرت بدوري، وفي كل يوم أزداد ثقةً في نفسي. إنني سعيد بأن أعرف أنك في سويسرا، ولكن كما ترى لا أحسدك على شيء.

«أوليفييه»

سلم «برنارد» هذه الرسالة لإدوارد الذي قرأها دون أن يظهر شيئًا مما اعتمل في نفسه من اضطراب. كل ما كان يحكيه «أوليفييه» عن «روبير». واستلطافه له، يشعره بالاشمئزاز، ويدفع إلى نفسه الشعور نحوه بالكراهية. وكان الشيء الذي يؤلمه على وجه خاص هو عدم ذكر اسمه في هذه الرسالة وما بدا خلالها من أن «أوليفييه» قد نسيه تمامًا. وحاول -دون أن يوافق- تفسير ثلاثة أسطر مكتوبة كملحوظة في أسفل الخطاب، ولكن طمسها شطب كثيف وكانت تحتوي على الكلمات الآتية:

«قال للخال «إدوارد» إنني أفكر فيه دون انقطاع، وأنه يصعب عليَّ أن أغفر له إغفاله لي، وأنني أشعر في قلبي من جراء ذلك بجرح قاتل».

وكانت هذه الأسطر هي الكلمات الصادقة الوحيدة في هذه الرسالة التي كتبت للتظاهر، والتي أملى الحنق كلماتها، ولكن «أوليفييه» شطبها.

وأعاد إدوارد الرسالة لبرنارد دون أن ينبس بكلمة واحدة، فأخذها «برنارد» دون أن يقول شيئًا. وسبق أن ذكرت أن «برنارد» و«إدوارد» لم يكن من عادتهما أن يتكلما كثيرًا، وكان يخيم عليهما نوع غريب من الضغط، لا يمكن تفسيره بمجرد أن يكونا بمفردهما. (وأنا لا أحب هذا التعبير «لا يمكن تفسيره» ولا أستعمله هنا إلا مؤقتًا إذا لم أجد غيره). ولكن «برنارد» سأل «إدوارد» في المساء بعد أن عادا إلى غرفتهما، وبينما كانا يتأهبان للنوم، سأله وهو يبذل مجهودًا كبيرًا وكأن غصةً في حلقه:

- هل أرتك «لورا» الرسالة التي استلمتها من «دوفييه»؟

وأجابه «إدوارد» وهو يستلقي في فراشه: لم أكن لأشك في أن يتصرف «دوفييه» على هذا النحو في هذا الموقف. إنه شخص ممتاز. ربما كان ضعيفًا، ولكنه مع ذلك رجل ممتاز. سوف يحب هذا الطفل إلى درجة العبادة. إنني متأكد من ذلك. ولا شك أن الطفل سيكون أقوى بنية مما لو كان قد أنجبه هو. لأنه لا يبدو لي أن بنيته قوية.

وكان «برنارد» يحب «لورا» حبًّا جمًّا، ولذا أحنقته لهجة «إدوارد» وعدم مبالاته وهو يتحدث عنها، إلا أنه لم يظهر ما بنفسه.

وأردف «إدوارد» وهو يطفئ شمعته: إنني سعيد بأن أرى هذه القصة تنتهي على هذا الوجه، إذ كان يبدو أنها لن تؤدي إلا إلى اليأس. قد يحدث لأي شخص أن يخطئ في بداية الطريق، ولكن المهم أن لا يستمر في الخطأ...

وأجاب «برنارد» ليضع حدًّا للحديث: «لا شك في ذلك».

وقال «إدوارد»: يجب أن أعترف لك يا «برنارد» أنني أخشى أن أكون قد أخطأت أنا أيضًا معك...

- في بداية الطريق؟

- يبدو لي ذلك. وبالرغم من المودة التي أشعر بها نحوك، فإنني ألاحظ منذ أيام أن من العسير أن يتفاهم شخصان مثلنا... (وهنا تردد قليلًا ليبحث عن الكلمات المناسبة)... ويلوح لي أن مصاحبتك لي لمدة أطول من هذه ربما أضلتك عن سواء السبيل.

وكان هذا هو رأي «برنارد» أيضًا، طالما لم يتكلم إدوارد. ولكن ما قاله «إدوارد» كان من شانه أن يجعل «برنارد» يلمس الحقيقة بشكل أوضح. ثم دفعته غريزة المعارضة إلى أن يقول:

- إنك لا تفهمني جيدًا، كما أنني لا أفهم نفسي جيدًا، إنك لم تخبرني. وإذا لم يكن لديك ما تأخذه عليَّ، فهل أستطيع أن أطلب منك أن تنتظر قليلًا؟ أنا أوافقك على أننا مختلفان شيئًا ما، ولكنني كنت أعتقد أن من الأفضل لنا ألا نتشابه كثيرًا. وفي اعتقادي أنني إن استطعت أن أؤدي لك خدمةً، فسيكون ذلك لما بيننا من اختلاف، وسوف يمكنني لهذا السبب أن آتيك بشيء جديد. وإذا أخطأت فستكون أمامك فرصة لتنبهني إلى ذلك، فإنني لست مِن الأشخاص الذين يشكون أو يلومون ولكن ها أنا أقترح عليك

شيئًا -وربما كان هذا الاعتراض سخيفًا...: سيلتحق، بوريس، الصغير على ما فهمت بالقسم الداخلي بمدرسة «فيدل أزائيس». أو لم تقل لك سوفرونيسكا، إنها تخشى أن يشعر الصبي هناك بالوحشة؟ إذا فرض وتقدمت أنا نفسي بتوصية من «لورا»، فهل أستطيع أن آمل في الحصول على وظيفة مشرف أو ملاحظ أو شيء من هذا القبيل؟ إنني في حاجة إلى أن أكسب عيشي. ولن أطلب شيئًا كثيرًا نظير قيامي بالعمل هناك، إن الإقامة والطعام يمكن أن يكفياني... «وسوفرونيسكا» تشعرني بثقتها في كما أن «بوريس» يرتاح إلي. سوف أحميه وأساعده، سوف أكون رائده وصديقه. وسوف أكون مع ذلك تحت تصرفك، سوف أعمل ما تطلبه مني في هذه الأثناء، وسوف أكون رهن إشارتك، ما رأيك في ذلك؟ ولكي يُعطي لذلك أهميةً أضاف:

- إنني أفكر في هذا الأمر منذ يومين.

ولم يكن صادقًا، لأنه لو سبق أن فكر في هذا المشروع لأخبر به «لورا» من قبل. ولكن ما كان صادقًا فيه -وما لم يذكره- هو أنه منذ دفعه فضوله إلى قراءة مذكرات «إدوارد»، ومنذ لقائه مع «لورا» أخذ يفكر في مدرسة «فيدل»- كان بوده أن يتعرف على «أرمان» صديق «أوليفييه» الذي لم يحدثه «أوليفييه» عنه. وكان يتمنى كذلك أن يتعرف على «سارة» شقيقة «لورا» الصغرى. ولكنه حبس فضوله في صدره ولم يبح بهذا لنفسه، لما كان يشعر به نحو «لورا» من تقدير.

ولم يقل «إدوارد» شيئًا، وإن كان اقتراح «برنارد» قد راقه، ما دام هذا الحل يوفر له مأوى، وكان يهمه ذلك شيئًا ما.

وأضاف «برنارد» وهو يطفئ شمعته:

- لا تتصور أنني لم أفهم ما كنت تتكلم فيه عن كتابك، وعن الصراع الذي تتخيل وجوده بين الحقيقة المجردة و...

وقاطعه «إدوارد» بقوله:

- إنني لا أتخيله بل هو قائم فعلًا.

- حسنًا. ألا يكون مستحبًّا أن أعرض أمامك بعض الحقائق المجردة لكي أوجد لك الفرصة لمحاربتها؟ سوف أرقب الحقائق من أجلك.

وكان «إدوارد» يشك في أن يكون «برنارد» يسخر منه. ولكن ما لا شك فيه أنه كان يشعر أن «برنارد» يهينه. وكان هذا الأخير يعبر عن أفكاره ببراعة...

وقال «إدوارد»: سوف تفكر في هذا الأمر.

ومضى وقت طويل وكان «برنارد» يحاول النوم ولكن عبثًا. كانت رسالة «أوليفييه» تقض مضجعه. وتمتم أخيرًا إذ لم يطق وإذ سمع أيضًا «إدوارد» وهو يتململ في فراشه:

- هل يمكنني أن أسألك سؤالًا إن لم تكن نائمًا؟.. ما رأيك في الكونت «دي باسافان»؟

وأجاب «إدوارد»: لا شك أنك تعرف رأيي فيه. ثم قال بعد لحظة:

- وما رأيك أنت؟

وهنا قال «برنارد» بلهجة وحشية: أنا... أشعر بالرغبة في قتله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

عندما يبلغ الراحل أعلى الجبل، يجلس ويمعن النظر قبل أن يستأنف السير في الطريق الذي صار الآن هابطًا، ويحاول أن يتبين أين سيؤدي به هذا الطريق الملتوي الذي يسلكه والذي يبدو تائهًا في الظلام؛ لأن الليل يرخي سدوله.

وهكذا يكون أمر المؤلف غير المتبصر. إنه ينتظر لحظةً ليسترد أنفاسه، ثم يتساءل في قلق إلى: أين ستؤدي به قصته؟

أخشى أن يرتكب «إدوارد» خطأً إذا ما عهد ببوريس الصغير لعائلة آزائيس، ولكن كيف نمنعه من ذلك؟ كل شخص يتصرف وفقًا لقانونه، وقانون «إدوارد» يدفع به دائمًا إلى التجربة. إنه طيب القلب ولا شك، ولكنني كنت أؤثر أن أراه يتصرف طبقًا لما تمليه المصلحة، وذلك من أجل راحة الآخرين؛ لأن الكرم الذي يسوقه ليس في غالب الأمر إلا رفيق الفضول الذي قد يصير قاسيًا. إنه يعرف القسم الداخلي بمدرسة «آزائيس» حق المعرفة، ويعرف ما يستنشقه المرء في هذا المكان من هواء فاسد تحت الغطاء الخانق، غطاء الأخلاق والدين. وهو يعرف «بوريس» ونعومته ورقته. وجدير به أن يتنبأ بلون الجراح النفسية التي يعرضه لها. ولكنه لم يعد يفكر إلا في الحماية والمساندة التي يمكن أن يلقاها نقاء هذا الطفل في ظل تخشن «آزائيس» العجوز. ومن يدري إلى أي نوع من السفسطة تصغي أذناه؟ لا شك أن الشيطان يلقنها له؛ لأنه لم يكن ليصغي إليها إن جاءته من مصدر آخر.

ولقد ضايقني «إدوارد» أكثر من مرة (عندما كان يتكلم عن «دوفيبه» مثلًا)، بل جعلني أشعر بالسخط، وآمل ألا يكون شعوري قد ظهر بالرغم مني، ولكنني أستطيع أن أفصح عنه الآن. والطريقة التي يتصرف بها مع «لورا» -رغم ما نقسم به من معاني الكرم- تبدو لي مثيرةً أحيانًا.

والشيء الذي لا يعجبني في «إدوارد» هو ما يجده من أسباب ليبرر بها أعماله. لماذا يحاول أن يقنع نفسه الآن بأنه يعمل لصالح «بوريس»؟ يمكننا أن نتغاضى إذا ما كذب المرء على الغير؛ أما أن يكذب الإنسان على نفسه فهذا عجيب. هل يتصور أن السيل الذي سيغرق هذا الطفل يمكن أن يروي ظمأه؟.. إنني لا أنكر وجود بعض الأعمال النبيلة في عالمنا هذا، أعمال يمليها علينا الكرم، أعمال منزهة عن الغرض. إلا أنني أعتقد أن وراء أي عمل نبيل، كثيرًا ما يختبئ شيطان ماهر بارع في الاستفادة من أشياء كنا نتصور أننا سلبناه إياها.

ولنحاول الاستفادة من تباشير الصيف التي هلت علينا والتي تفرق شخصيات هذه القصة؛ لكي ندرس كلًّا منها على حدة. ها نحن الآن في فترة من القصة تباطأ فيها سير الحوادث، وبدا أن مجراها راح يتحفز لاندفاعة أخرى. «برنارد» حديث السن، وهو في حداثته هذه أصغر من أن يمسك بعنان مؤامرة. إنه يتعهد بحماية «بوريس»، والحق أنه لن يستطيع سوى ملاحظته على الأكثر. وقد سبق أن رأينا شخصية «برنارد» تتغير، وهناك عواطف يمكن أن تغير من شخصيته مرةً أخرى. ها أنا أجد على صفحات كراسة بعض جمل سجلت فيها ما كنت أعتقده فيه من قبل.

«كان خليقًا بي أن أحترس من عمل جريء كالذي قام به «برنارد» في بداية قصته -وحكمي هذا مبني على تصرفاته اللاحقة. لقد استنفد كل نزعات الفوضى الكامنة في نفسه، ولا شك أن هذه

النزعات كانت ستقوى لو استمر يعيش تحت ضغط عائلته. ومنذ قام بفعلته تلك عاش وكأنه يحتج على ما أقدم عليه. والعادة التي اكتسبها في أن يثور ويعارض تدفعه إلى الثورة إلى ثورته ذاتها، ولا أجد بين شخصيات قصصي شخصية خيبت ظني مثلما فعل «برنارد» لأنني لا أجد بين هذه الشخصيات من كنت أعقد الأمل عليه كما عقدته على «برنارد». لعله انساق مع نفسه قبل الأوان.

ولكني أرى أن حكمي عليه لم يعد الآن دقيقًا. وأعتقد أنه يجب أن نستمر في الثقة به. فثمة كرم وافر في نفسه. وأحس برجولة وقوة فيه، وهو قادر على السخط. ولعله يبالغ في الإعجاب بحديثه، ولكن يجب أن نعترف أيضًا بأنه يحسن الحديث.

وأنا لا أثق كثيرًا في المشاعر التي تجد السبيل إلى التغير السريع. إنه تلميذ مجد، غير أن المشاعر الجديدة لا تنصب بسهولة في القوالب المحفوظة. والقليل من الابتكار يجعله يتلعثم. لقد قرأ كثيرًا وحفظ كثيرًا وتعلم من الكتب أكثر مما تعلم من الحياة.

لا أجد عزاءً كافيًا في أن الظروف وضعته بجانب «إدوارد» في مكان «أوليفييه». لم تسر الظروف في مجراها الطبيعي. «أوليفييه» هو الشخص الذي كان يحبه «إدوارد»، ولو أوجدته الظروف بجانبه لتفانى في مساعدته على النضوج، ولوجهه في الحياة، وذلك لما يُكنِّهُ له من حب واحترام، ولسانده ورفعه إلى مستواه. أما باسافان فلا شك أنه سيقضي عليه. لا شيء يمكن أن يفسده أكثر من إحاطته بهذا الجو الذي لا وازع فيه. كان «أوليفييه» خليقًا أن يصون نفسه في هذا الجو، ولكن طبيعته لينة تغتر بالمديح، وقد فهمت من لهجته في بعض فترات رسالته لبرنارد أن عنده بعض الغرور. لا أدري أي شيء يسيطر عليه: حب اللذة، أو الحنق، أو الغرور؟ وأخشى أن يكون الأوان قد فات عندما يلتقي به «إدوارد» مرةً أخرى. ولكنه ما زال صغيرًا، ويحق لنا أن نؤمل فيه خيرًا.

أما عن «باسافان»... فأجدر بنا أن نتكلم عنه. أليس كذلك؟ لا يوجد رجال أكثر إفسادًا ولا أكثر نجاحًا في نظر الناس ممن هم على شاكلته، اللهم إلا نساء على شاكلة «الليدي جريفيت». وأنا أعترف بأن هذه المرأة كانت في بداية الأمر تعجبني إلى حد ما، ولكن سرعان ما تبينت خطئي. مثل هذه الشخصيات قد صنعت من نسيج ضعيف لا يحتمل. وأمريكا تصدر الكثير منهن، وإن لم تكن تنفرد بإنتاج هذا الصنف. يبدو أن هذه الشخصيات تتمتع بكل شيء: المال والذكاء والجمال، ولكن ليست لديهن الروح. ولا شك أن «فنسان» سوف يقتنع بذلك بعد قليل. ويبدو كذلك أن هذه الشخصيات لا يثقلها، لا ماضيها ولا أي وازع لديها. إنها لا تخضع لقوانين ولا لمثل عليا، ولا لهواتف الضمير. إنها متحررة وتلقائية، لهذا تصيب الروائي باليأس فهو لا يستخلص منها إلا أفعالًا لا قيمة لها. أرجو ألا أرى «ليدي جريفيث» إلا بعد فترةً طويلةً. وآسف لأنها سلبتنا «فنسان» الذي كان يهمني شأنه أكثر مما كان يهمني شأنها، ولكنه يصير تافهًا بمعاشرته إياها، وتفقد شخصيته معالمها من جراء احتكاكه بها. وهذا أمر يؤسف له؛ إذ إن شخصيته كانت ذات معالم جميلة.

وإذا ما حدث واخترعت قصة أخرى فلن أضع فيها إلا شخصيات قويةً، شخصيات تشحذها الحياة بدلًا أن تثلمها... أما «لورا» و«دوفييه» و«لابيروز» و«آزائيس»... ماذا يمكن أن أعمل بهؤلاء الناس؟ لم أكن أفتش عنهم، ولكنني التقيت بهم في طريقي وأنا أتبع «برنارد» و«أوليفييه». تبًّا لي، لقد أصبحت مدينًا لهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثالث

باريــس

«عندما تتوافر لدينا بعض الدراسات الوافية الحديثة عن تاريخ وجغرافيا المناطق المختلفة، سوف نستطيع عند ذاك (وعند ذاك فقط) بعد جمع هذه المعلومات ومقارنتها ومجابهتها بعضها ببعض - أن ننظر نظرةً شاملةً، وأن نخطو خطوةً جديدةً حاسمةً. أما إذا سرنا بطريقة أخرى فكأننا نقوم برحلة سريعة، ولا زاد لنا غير فكرتين أو ثلاث من الأفكار الساذجة البدائية. وسنمر حينئذٍ مر الكرام بما هو فردي، وخاص، وخارج عن المألوف. ومعنى هذا أننا سنمر مر الكرام بأكثر المسائل إمتاعًا وإثارة للاهتمام».

لوسيان فيفر: (الأرض والتطور البشري).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الأول

يوميات «إدوارد»

(لم تسبب له عودته إلى باريس أي متعة).

فلوبير – «التربية العاطفية».

22 سبتمبر – حرارة شديدة، ملل. عدت إلى باريس قبل الميعاد الذي حددته بثمانية أيام – ستجعلني هذه العجلة أسبق النداء. إنه حب استطلاع أكثر مما هو نشاط. رغبة في سبق الأحداث. لم أستطع قط أن أتهاون مع ظمئي.

اصطحبت «بوريس» لزيارة جده. ذهبت «سوفرونيسكا» إلى الجد في اليوم السابق لتخطره بهذه الزيارة، فعلمت أن مدام «لابيروز» دخلت الملجأ، وأخبرتني بذلك.

تركت الصغير على عتبة الباب بمفرده بعد أن دققت الجرس، ورأيت من الأفضل ألا أحضر لقاءهما الأول، وكنت أخشى عبارات الشكر من الشيخ، واستفهمت من الصغير فيما بعد عن هذه الزيارة، ولكنه لم يُرْضِ فضولي. ورأيت «سوفرونيسكا» بعد ذلك، فقالت لي إن الصغير لم يقل شيئًا. ولما ذهبت لأخذه – كما هو الاتفاق– فتحت لها خادم الباب، فرأت «سوفرونيسكا» الشيخ جالسًا أمام لعبة الشطرنج، والصبي في الجانب الآخر من الغرفة، وكان ساخطًا.

وقال لها «لابيروز» وهو يتعجب مما حدث:.. «هذا أمر عجيب! لقد بدا في أول الأمر مسرورًا، ولكنه تغير فجأةً وأخشى أن لا يكون صبورًا».

وكان من الخطأ أن يُتركا وحيدين مدةً طويلةً.

27 سبتمبر – قابلت «مولينيه»– هذا الصباح بالقرب من مسرح (الأوديون).

لن تعود بولين وجورج إلى المنزل إلا بعد غد. إن مولينيه وحيد بباريس وقد اعتراه الملل مثلي، فليس ثمت مايدهش إذا كان قد سر كثيرًا لرؤيتي. وذهبنا لنجلس بحديقة (اللوكسمبورج) – في انتظار أن يحين موعد الغداء، وكنا قد اتفقنا على أن نتناوله معًا.

يتكلف «مولينيه» معي لهجةً مرحةً فيها بعض التفكه، وهو يتصور ولا شك أنها طريقة تحلو للفنانين، وتحدوه إلى ذلك أيضًا رغبةٌ في المرح والشباب.

وقال لي: أنا في حقيقة الأمر رجل متقد العاطفة، وفهمت أنه يعني بذلك أنه يميل إلى المتع الحسية، فابتسمت كما يبتسم المرء عندما تقول له امرأة بأن لها ساقين جميلتين.

وكان معنى ابتسامتي: ثق أنني لم أشك أبدًا في هذا الأمر. لم أكن حتى هذا اليوم قد تبينت فيه إلا رجل القانون، ولكن ها هو قد أزاح عنه أخيرًا رداء القضاء.

وانتظرت حتى نجلس إلى المائدة بمطعم (فويوه)؛ لأحدثه عن أوليفيه.

وقلته له إن أخباره بلغتني حديثا عن طريق صديق له، وأنني علمت أنه في رحلة بجزيرة قورسيقة في صحبة الكونت دي باسافان.

وأجابني: نعم إنه صديق لفنسان، وقد اقترح عليه أن يصطحب أوليفيه، ولما كان هذا الأخير قد فاز في امتحانه، فإن أمه رأت ألا تحرمه هذه المتعة...

وأردف:

- الكونت دي باسافان من المهتمين بالأدب، ولا بد أنك تعرفه. ولم أخف عنه أنني لا أحب لا مؤلفاته ولا شخصيته.

ورد قائلًا: الزملاء في المهنة الواحدة يقسون أحيانًا في الحكم بعضهم على بعض، وقد حاولت أن أقرأ قصته الأخيرة التي اهتم بها بعض النقاد، ولكنني لم أجد فيها ما يستحق هذا الاهتمام. ولكنك تعرف أنه ليس لي باع طويل في هذا المجال ...

ثم أجابني وهو يتلعثم – عندما أبديت له مخاوفي من التأثير الذي يمكن أن يحدثه باسافان في أوليفييه: الواقع أنني لم أكن موافقًا على سفره، ولكن يجب أن نتبين هذه الحقيقة، وهي أن الأبناء بعد سنٍ معينة يخرجون علينا. هذا أمر معروف ولا نملك له تغييرًا، وتود «بولين» أن تظل مرفرفةً عليهم بأجنحتها، ومثلها في هذا كمثل جميع الأمهات. وأنا أقول لها أحيانًا: إنك تضايقين أبناءكِ، اتركيهم وشأنهم. إنكِ توحين إليهم بآراء معينة لفرط ما توجهين إليهم من أسئلة... وفي رأيي أن لا جدوى من مراقبتهم لمدة أطول من اللازم. المهم هو أن يلقنوا في بداية تربيتهم بعض المبادئ السليمة، أو أن يجدوا من يأخذون عنه فضائلهم. والوراثة يا عزيزي تنتصر على كل شيء. وثمت أفراد لا يمكن إصلاحهم وهؤلاء نطلق عليهم اسم (المنحرفين)، هؤلاء يجب أن نراقبهم دقة. ولكن عندما تكون طبيعة الأطفال طيبة فإننا نستطيع أن نرخي لهم الزمام قليلًا.

وقلت له: غير أنك أخبرتني مع ذلك بأن خطف «أوليفييه» بهذه الطريقة لم يحظ بموافقتك.

فأجابني – وهو يضع أنفه في الطبق الذي أمامه: أوه! موافقتي ... موافقتي، إنهم لا يبالون بموافقتي هذه أحيانًا. يجب أن تعرف أنه في الحياة الزوجية – وأعني تلك التي يرتبط فيها الزوجان كل الارتباط – ليس الزوج دائمًا هو الذي يقرر! ولكنك لست متزوجًا، وهذا الأمر لا يعنيك ...

وأجبته ضاحكًا: اعذرني، لست إلا قصصيًّا.

- لعلك لاحظت إذَنْ أن الزوج إذا ما سمح لزوجته أن تسيطر عليه، فلا يكون ذلك دائمًا لضعف شخصيته.

ولكي أرضيه أجبته: هناك فِي الواقع رجال حازمون، بل ولهم شخصية متسلطة، ومع ذلك فإنهم في داخل بيوتهم كالحملان وداعة.

وأضاف: أتعرف السبب في ذلك؟.. في تسع حالات من عشر يكون الزوج الذي يتنازل عن سيطرته لزوجته، قد ارتكب شيئًا يشعر معه بأنه في حاجة إلى صفحها عنه. المرأة العفيفة يا عزيزي تستفيد من كل الأوضاع، وإذا ما أحنى الرجل ظهره لحظةً، فهي تغتنم الفرصة وتقفز فوق كتفيه. آه يا

صديقي إن الأزواج يستحقون أحيانًا العطف كل العطف! عندما نكون في ريعان الشباب نتمنى لأنفسنا زوجات عفيفات دون أن ندري كل ما ستكلفه إيانا فضيلتهن.

وكنت أرقب «مولينييه» مستندًا بمرفقي إلى المنضدة، ممسكًا ذقني بين يدي.

لم يكن المسكين يتصور أن الوضع المنحنى الذي كان يشكو منه يتلاءم مع طبيعة ظهره! وكان يتكلم ويجفف عرق جبينه باستمرار. كما كان يأكل كثيرًا، لا يتذوق ولكن يأكل بنهم، كما كان يبدو أنه يقدر بنوع خاص نبيذ «البورجوني»، وحيث كان سعيدًا لشعوره بأنني أصغي إليه، وأنني أفهمه – ولا شك أنه كان يعتقد كذلك أنني أوافقه على ما يقول- راح يفيض في الاعتراف بمكنونات نفسه، وأضاف: بصفتي قاضيًا عرفت منهن من لا يستسلمن لأزواجهن إلا على مضض، ثم يثرن إذا ما ذهب المسكين –وقد عافت نفسه هذا الغداء- لينشد غداء آخر.

وكان القاضي قد بدأ جملته مستخدمًا صيغة الماضي، إلا أن الزوج أكمل الجملة بصيغة الحاضر في شكل يوحي بأن المقصود هو شخصه بالذات. وأضاف بلهجة جادة – وهو مستمرٍ في تناول طعامه: إننا نحكم بأن شهوات الآخرين مفرطة إن كنا لا نشاطرها. ثم احتسى جرعةً كبيرةً من النبيذ، وأضاف: وهذا يوضح لك يا صديقي العزيز كيف يفقد الزوج السيطرة على بيته.

وأدركت تمامًا من أحاديثه غير المتماسكة رغبته في أن يلقي على فضيلة زوجته مسئولية أخطائه. وقلت لنفسي إن أفرادًا مهلهلي الشخصية مثل هذه «الدمية» لا يوفقون -لفرط أنانيتهم- إلى ربط العناصر المتفككة لشخصيتهم، فإذا ما نسوا أنفسهم قليلًا فسوف ينهارون قطعًا. وواصل صمته وهنا - شعرت بالحاجة إلى أن أبدي بعض الملاحظات، وكان مثلي كمن يسكب زيتًا على آلة قطعت مرحلةً طويلةً. ولكي أدعوه لاستئناف الكلام قلت:

- من حسن الحظ أن «بولين» ذكية.

ونطق «نعم».. طويلةً تؤدي معنى الشك، ثم قال:

- ومع ذلك فهناك أشياء لا تفهمها. ومهما تكن المرأة ذكيةً فأنت تعرف ...

على أني أعترف بأنني في هذا الصدد لم أتصرف بلباقة، بدأت أول الأمر أحدثها عن مغامرة صغيرة، وكنت مقتنعًا حينذاك بأن المسألة لن تتطور. ولكن الموضوع تطور، وزادت شكوك «بولين» بدورها. لقد أخطأت فأثرت شكوكها. ولذا عمدت إلى الإخفاء، بل إلى الكذب. وهذه نتيجة الإسراف في الكلام. وما باليد حيلة! إذ إنني بطبعي رجل أثق في الغير... ولكن «بولين» غيورة جدًّا، ولا يمكن أن تتصور إلى أي حد اضطررت إلى أن أمكر عليها.

وسألته: هل مضى وقت طويل على ذلك؟

وأجاب: ذلك أمر مر عليه حوالي خمس سنوات، وكنت أتصور أنني قد طمأنتها تمامًا. ولكني سوف أضطر إلى أن أعاود الكرة من جديد. هل تتصور أني أول أمس عند عودتي إلى المنزل ... هيه! ما رأيك في أن تطلب زجاجة ثانية؟

- لا تطلب لي أرجوك.

- ربما كان عندهم هنا زجاجات صغيرة. وسوف أعود إلى منزلي بعد ذلك لأنام قليلًا ... الحرارة تضايقني...

كنت أحكي لك أنني أول أمس، عند عودتي إلى المنزل، فتحت درج مكتبي لأرتب بعض الأوراق. وفتحت الدرج الذي أخفيت فيه رسائل... رسائل الشخص الذي أحدثك عنه. تصور مدى دهشتي يا عزيزي. كان الدرج خاويًا! وأنا أتصور حينئذ ما حدث: لقد ذهبت «بولين» إلى باريس بصحبة «جورج» منذ خمسة عشر يومًا لحضور حفل زفاف ابنة أحد زملائي. ولم يكن في استطاعتي حضور الحفل، وأنت تعرف أنني كنت في هذا الوقت بهولندا ... ثم إن حضور مثل هذه الاحتفالات من اختصاص النساء. ولما شعرت «بولين» بالفراغ في هذه الشقة الخاوية، فلا بد أنها رغبت في تنسيق ما في البيت. أنت تعرف إلى أي حد يمكن أن يصل فضول النساء ولا شك أنها بدأت تنقب هنا وهناك... أوه! لاشك أن نيتها لم تكن سيئةً. إنني لا أهمها أبدًا!

ولكن «بولين» أحبت التنسيق دائمًا. والآن ماذا أقول لها وهي قد حصلت على الدليل القاطع: لقد كان الأمر يهون لو كانت صديقتي لا تدعوني باسمي؟

فإن ذلك يحدث بين شخصين مرتبطين كل الارتباط. إنني عندما أفكر فيما سوف يحدث لي ...

كان الرجل المسكين يتخبط في اعترافاته، وهو يجفف العرق على جبينه. ثم أخذ يروح وجهه بمنديله. كنت قد شربت أقل منه بكثير. إن القلب لا يمكن أن يسعفنا بالشفقة متى شئنا. لم أشعر نحوه عند ذلك إلا بالاشمئزاز. كان يمكن أن أتصوره رب أسرة (وإن كان يضيرني أن أتصور فيه أبًا لأوليفييه)، وكنت أقبل أن أتخيله رجلًا من وسط طيب مستقرًّا أمينًا، مطمئنًا إلى مستقبله. أما أن أتخيله عاشقًا، فإني لا يمكن أن أراه في هذه الحالة إلا مضحكًا.

وتضايقت بخاصة من عدم لباقته، وسخف حديثه وحركاته، والمشاعر التي كان يريد التعبير عنها، ولم يكن وجهه ولا صوته صالحين للتعبير عنها، كان يشبه طبلةً غليظةً تريد أن تخرج أنغامًا رقيقةً، ولذا لم تكن آلته الموسيقية تخرج إلا أصوات نشاز.

وسألته: كنت تقول لي إن جورج كان بصحبتها؟

- نعم، لم ترد أن تتركه وحيدًا. ولكنه بالطبع لم يكن معها طوال الوقت في باريس... إذا ما قلت لك يا عزيزي إنني خلال ست وعشرين سنة قضيتها معها لم يحدث بيننا أي خلاف ولا أبسط مشادة.. ثم عندما أفكر فيها سيحدث لأن «بولين» سوف تعود بعد يومين... هيه! دعنا من هذا فلنتكلم في شيء آخر. حسنًا ما رأيك في «فنسان» وأمير موناكو، والرحلة البحرية..! كيف...؟ لم تكن تعرف ذلك؟.. نعم إنه قد رحل ليشرف على تنقيات ومناطق صيد بالقرب من جزر «الأسور» آه أؤكد لك أن ليس هناك ما يشعرني بالقلق من ناحية فنسان. سوف يشق طريقه بمفرده.

- وماذا عن صحته؟

- لقد شُفي تمامًا. ولما كان على هذا القسط من الذكاء، فإني أعتقد أنه سيسير في طريقه إلى المجد. ولم يخف عني الكونت دي باسافان رأيه فيه؛ إذ إنه يعتبره من ألمع الرجال الذين صادفهم. وكان يقول

عنه: ألمع الرجال... ولكن يجب أن نحسب حساب ما في هذا القول من مبالغة. وانتهينا من تناول الغداء وأشعل سيجارًا، وأردف:

- هل أستطيع أن أسألك عن هذا الصديق الذي أعطاك أخبارًا عنه؟ لن أخفى عنك أنني أهتم بالغًا بمعرفة أصدقاء أولادي. وفي رأيي أننا مهما بذلنا في هذا السبيل فلن نكون مبالغين. من حسن الحظ أن لدى أبنائي استعدادًا طبيعيًّا للارتباط بخيار الناس. ها أنت ترى فنسان مع أميره، وأوليفييه مع الكونت دي باسافان. أما عن جورج فقد التقى بزميل صغير له في الدراسة بمدينة هولجات يُدعى آدامانتي، وسوف يعود قريبًا إلى المدرسة فيدال آزائيس مع ابني. وهذا الصبي مريح جدًّا ووالده عضو الشيوخ عن جزيرة قورسيقة. ولكن يجب أن تحتاط. فإن أوليفييه كان يصادق ولدًا من عائلة طيبة جدًّا، ويُدعى برنارد بروفيتا نديو، ويجب أن أخبرك بأن الأب بروفيتا نديو زميل لي، وهو رجل ممتاز وأنا أوده كل المودة. ولكن ...(وأرجو أن يظل هذا الأمر بيننا) ... علمت أنه ليس أبًا لهذا الصبي الذي يحمل اسمه! ما رأيك في ذلك؟

وقلت: برنارد بروفيتا نديو بالذات هو الذي كلمني عن أوليفييه. وهنا جذب فولينييه أنفاسًا عميقةً من سيجارة، وقال وهو يرفع حاجبيه مما ملأ جبهته بالتجاعيد:

- كنت أؤثر ألا يعاشر أوليفييه هذا الصبي. لقد بلغتني عنه أخبار مزعجة، ولكنها على العموم لم تدهشني كثيرًا. ومن الطبيعي ألا يُنتظر خير من طفل ولد في هذه الظروف التعيسة، وليس معنى أن الابن غير الشرعي لا يمكن أن يتحلى بالصفات الكريمة بل وبالفضائل، ولكن ثمرة التمرد لا بد أن تحمل عناصر الفوضى...! نعم يا عزيزي، لقد حدث ما كان سيحدث لا محالة. وترك برنارد الصغير منزل عائلته فجأةً. وهو منزل لم يكن له أن يدخله أبدًا. وذهب ليحيا حياته – على حد تعبير إميل أوجييه(21): ليحيا بأي شكل وفي أي مكان! وكان يبدو على بروفيتا نديو – المسكين الذي أخبرني بنفسه بتصرف «برنارد» الشاذ – أنه متأثر جدًّا مما حدث. ولكني أفهمته أن عليه ألا يتأثر من هذا الموضوع؛ لأن رحيل هذا الصبي سوف يعيد كل شيء إلى النظام الطبيعي.

وأجبته محتجًّا بأنني أعرف «برنارد» إلى حد يسمح لي أن أؤكد أنه لطيف وأمين (وبالطبع تجنبت الإشارة إلى موضوع الحقيبة). ولكن مولينييه أجابني في الحال بانفعال:

- «أرى أنه لا بد لي من أن أروي لك أكثر مما رويت». ثم أردف بصوت خفيض وهو ينحني نحوي:

- لقد كلف زميلي «بروفيتا نديو» بالتحقيق في قضية معقدة ومحرجة إلى أقصى حد، لا لما تنطوي عليه فحسب، بل لما يمكن أن ينتج عنها من تشهير. إنه موضوع يبدو عجيبًا، وحبذا لو أمكننا عدم تصديقه. الأمر يتعلق يا عزيزي بعمل منظم يقوم على الدعارة، بعمل... ولكني لا أريد أن أستعمل ألفاظًا نابيةً، لنقل إن الأمر يتعلق بقاعة من القاعات المخصصة لتناول الشاي. مكان له طابع خاص ومريب، إذ إن معظم رواده من تلاميذ المدارس حديثي السن. لقد ذكرت لك أن الموضوع يصعب على المرء تصديقه. ولا شك أن هؤلاء الصبية لا يتبينون خطورة ما يرتكبونه؛ لأنهم لا يهتمون كثيرًا بإخفاء ما يقومون به. ويحدث هذا بعد خروجهم من المدرسة. وهم يأكلون في هذا المكان ويتحادثون ويلهون مع أولئك النسوة. ويمتد لهوهم هذا إلى غرف ملحقة بهذه القاعات. ومن الطبيعي أنه لا يمكن لأي شخص أن يتردد على هذا المكان، وأن يلتحق بعضويته، إلا إذا قدمه أحد من رواده. والسؤال

هو: من يمول حفلات الفساد هذه؟ من يدفع أجرة الشقة؟ ولم يكن البحث في هذا الأمر عسيرًا، ولكن كان لزامًا علينا أن نحتاط جدًّا في ذلك، إذ كنا نخشى إذا ما استرسلنا في البحث أن نعرف أشياءَ كثيرةً، ونضطر في هذه الحال إلى مراقبة بعض التلاميذ وإلى تناول سمعة بعض العائلات المحترمة؛ لأن بعض أبنائهم ممن يترددون على هذا المكان تحوم حولهم الشبهات. ولذا حاولت جاهدًا أن أحد من نشاط «بروفيتا نديو» إذ كان مندفعًا كالثور في تحقيق هذه القضية، دون أن يتبين أنه عندما سينطح أول نطحة بقرنه...(آه! إنني آسف على ما قلت إذ لم أتعمده. آه! آه! آه!، هذا عجيب استعملت هذا التشبيه... دون إدراك...) كان يجازف بإدخال ابنه نفسه في الموضوع! ولكن من حسن الحظ أن الإجازات فرقت الجميع وآمل أن تنتهي المسألة، وتضيع معالمها، وأن يوضع لها حد بعد أن نحذر الأولاد، ونعاقب البعض دون إثارة فضيحة.

وسألته: أمتأكد أنت تمامًا أن «برنارد بروفيت نديو» اشترك في هذه العملية؟

- لا لست متأكدًا تمامًا، ولكن...

- وما الذي حدا بك إلى هذا الاعتقاد؟

- أولًا كونه ابنًا غير شرعي. لعلك تدرك أن صبيًّا في مثل سنه لا يمكن أن يرحل هكذا من بيته إلا إن كان قد أتى منكرًا. ثم إنني أعتقد أن «بروفيتا نديو» بدأ يشك في الأمر لأن اندفاعه وهن فجأةً؟ وكان يبدو عليه الإحراج، وأجابني بقوله:

- أعتقد أن الموضوع لن يسفر عن شيء. قال ذلك ووجه الحديث وجهةً أخرى. يا لبروفيتا نديو المسكين! لم يكن يستحق أن يحدث له ما حدث. إنه رجل أمين وهو فوق ذلك –وهذا شيء نادر– رجل طيب. وقد زوج ابنته أخيرًا، ووفق في هذا كل التوفيق. ولكني لم أستطع حضور هذا الحفل إذ كنت في هولندا. غير أن بولين وجورج عادا إلى باريس لهذا السبب. هل سبق أن أخبرتك بذلك؟ لقد حان الوقت لأعود إلى باريس لهذا السبب. هل سبق أن أخبرتك بذلك؟ لقد حان الوقت لأعود إلى بيتي لأنام... ماذا، أحقًّا تريد أن تدفع الحساب كله؟ لا تفعل ذلك! بين الشبان، بين الرفاق، يقسم الحساب... لا فائدة من محاولتي الدفع؟ حسنًا، وداعًا. لا تنس أن بولين ستعود بعد يومين. احضر لزيارتنا. ثم أرجوك ألا تناديني بعد الآن باسم موليفييه. قل لي أوسكار فقط!.. كنت أود أن أطلب منك ذلك منذ زمن طويل.

وفي هذا المساء تسلمت ورقةً من «راشيل» شقيقة «لورا»، وعليها هذه الكلمات:

عندي أخبار خطيرة أريد أن أرويها لك. لعلك تستطيع- إن لم يكن يزعجك هذا – أن تمر علينا بالمدرسة غدًا بعد الظهر، سوف تؤدي خدمةً كبيرةً إن فعلت.

لو كانت تطلبني لتكلمني في شأن لورا، لما انتظرت كل هذا الوقت. هذه أول مرة تكتب لي فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

يوميات إدوارد (تابع)

28 سبتمبر: وجدت راشيل على عتبة حجرة الاستذكار في الطابق الأرضي من المدرسة. وكان هناك خادمان ينظفان خشب الأرض، وكانت هي نفسها ترتدي ميدعة خادمة، وتمسك خرقةً من القماش. قالت لي وهي تمد يدها إليَّ، وعلى وجهها أمارات حزن واستسلام وحنان: كنت أعرف أن في إمكاني أن أعتمد عليك. ولكنها كانت في عين الوقت باسمة تؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الجمال.

وأردفت: إن لم تكن على عجلة من أمرك، فمن الأفضل أن تصعد إلى غرفة جدي لزيارته، ثم لزيارة والدتي فسيغضبان إن عرفا أنك حضرت إليَّ دون أن تراهما، ولكن عليك أن تحتفظ لي ببعض اللحظات؛ لأنني في حاجة ملحة إلى أن أتكلم معك. سوف تلحق بي هنا، وها أنت تراني أباشر العمل. وهي لا تقول أبدًا إنني أعمل -وهذا عن حياء. لقد توارت راشيل طول حياتها، وإنها لتخفي فضائلها وتواضعها. ونكرانها لذاتها أمر طبيعي لديها، حتى إن أهلها لا يقدِّرون مدى تضحيتها المستمرة. إنها أجمل روح عرفتها في امرأة!

وصعدت إلى الطابق الثاني حيث «آزائيس». لم يعد الشيخ يترك مقعده وأجلسني بجانبه، ثم كلمني مباشرةً عن «لابيروز» قال:

يقلقني أنه يعيش بمفرده، وكان بودي أن أقنعه بأن يأتي ليعيش هنا في المدرسة.

أنت تعرف أننا صديقان منذ أمد طويل، وقد ذهبت أخيرًا لزيارته، وأخشى أن يكون رحيل زوجته العزيزة إلى ملجأ (سانت بيرين) قد أثر فيه كثيرًا. وقد أخبرتني خادمته أنه لم يعد يتناول شيئًا من الطعام، وفي رأيي أننا نأكل كثيرًا عادةً، ولكن يجب أن نراعي الاعتدال في كل شيء، كما أنه يمكن أن نبالغ في الاتجاهين وهو لا يجد جدوى في أن تطهي له طعامًا بمفرده. ولكنه لو جاء إلى هنا وتناول وجباته معنا، فربما شجعته رؤية الآخرين على أن يأكل، وسوف يكون هنا بجانب صغيره اللطيف، ولن تسنح له فرص كثيرة لرؤيته إلا بهذه الوسيلة؛ لأن الشقة بعيدة بين شارع (فافين) وحي (فوربورج سانت هونوريه).

ثم إنه لا يعجبني أن أسمح للطفل بالخروج بمفرده في باريس. ومعرفتي بـ «أتول دي لابيروز» معرفة قديمة- لقد كان دائمًا رجلًا فريدًا، ولست آخذ عليه ذلك، ولكنه بطبعه معتز بنفسه، ولن يقبل الضيافة التي أعرضها عليه دون مقابل. وقد فكرت في أن أقترح عليه أن يشرف على الحصص المخصصة لاستذكار التلاميذ، ولن يرهقه ذلك، وربما ساعده على إيجاد نوع من التسلية، وعلى أن يخرجه مما هو عليه من انطواء، إنه بارع في العلوم الرياضية، وربما استطاع أحيانًا أن يعطي دروسًا في الهندسة والجبر. ولما كان لا يتردد عليه أحد من تلاميذه، فإن أثاث بيته ومعزفه (بيانه) لم يعد لهما أي نفع بالنسبة له، ولذا أرى أن يتخلى عن كل ذلك. ولما كان مجيئه هنا يوفر له قيمة إيجار المسكن، ففي استطاعتنا أن نتفق على قيمة بسيطة نظير إقامته لكي لا يشعر بأنه مدين لي بشيء، ولكي يكون على راحته.

عليك أن تحاول إقناعه دون إبطاء لأنني أخشى أن يضعف بسرعة بسبب نظامه الغذائي السيئ.

ثم إن دخول المدارس سوف يكون بعد يومين، ومن الأفضل أن نتبين الأمر.

أنعتمد عليه... وهل يعتمد هو علينا؟ ووعدته بالذهاب إلى «لابيروز» في اليوم التالي، وأضاف، وكأن كلامي طمأنه: هو لطيف ربيبك «برنارد»، لقد تقدم ليؤدي بعض الخدمات هنا، وكان يقترح أن يشرف على دراسة التلاميذ الصغار، ولكنني أخشى أن تكون سنه سببًا في أن لا يحترمه التلاميذ. لقد تحادثت معه طويلًا، ووجدته شخصًا لطيفًا جدًّا، وبمثل هذه الخصال نستطيع أن نخلق خير المسيحيين. مما يؤسف له حقًّا أن يكون توجيهه قد فسد بفعل التربية التي صادفها في بادئ حياته. فلقد اعترف لي بأنه غير مؤمن، ولكنه قال ذلك في لهجة جعلتني أؤمل في إصلاحه، وأجبته بأنني أرجو أن أجد فيه الصفات اللازمة لأجعل منه جنديًّا من جنود المسيح، وأن عليه بدوره أن يستثمر المواهب التي منحه إياها الله.

وقد قرأنا معًا صفحات «العهد الجديد». وفي رأيي أن البذور الطيبة لم تصب تربةً عقيمةً. لقد بدا عليه أن كلماتي أثرت فيه. ووعدني بالتفكير في هذا الأمر.

وكان «برنارد» قد أخبرني بالحديث الذي جرى بينه وبين الشيخ. وكنت أعرف رأيه في هذا الحديث، ولذا أصبح حديث «آزائيس» مؤلمًا لي ونهضت للرحيل، ولكنه قال، وهو يحتفظ بيدي بين يديه:

- لقد قالت «لورا»! وعلمت أن هذه الابنة العزيز قد أمضت شهرًا كاملًا معك على سفح الجبل الجميل، ويبدو أنها استفادت كثيرًا من هذه الرحلة. أنا سعيد أن أعلم أنها عادت إلى زوجها الذي كان قد بدأ يتألم لغيابها الطويل، ومما يؤسف له أن يكون عمله قد منعه من أن يلحق بكما هناك.

وحاولت أن أتخلص منه، وأن أرحل، إذ كنت أشعر بحرج متزايد؛ لأنني أجهل ما يمكن أن تكون «لورا» قد قالته له. ولكنه جذبني نحوه بقوة وبحركة مفاجئة وآمرة وقال لي وهو ينحني فوق أذني: قالت لي، لورا، إنها تنتظر حادثًا سعيدًا، ولكن صه...! إنها تفضل أن لا يعلم بهذا الآن. إنني أقول لك ذلك؛ لأنني أعرف أنك تعلمه، ولأن كلًّا منا يستطيع أن يكتم السر. لقد كانت الصبية مرتبكةً للغاية، وهي تخبرني بهذا كما أنها كانت خجولة فهي شديدة الوقار. وركعت أمامي وشكرنا الله معًا على أنه بارك هذا الزواج.

وفي رأيي أن «لورا» تسرعت في الإفضاء بهذا السر؛ لاسيما وحالتها لم تكن تضطرها إلى هذا التصريح. ولو سألتني رأيي لنصحتها أن ترجئ الكلام في هذا الموضوع حتى تقابل «دوفييه». إن «آزائيس» لم يلحظ شيئًا في هذا الموضوع، ولكن ذويه لن يكونوا بهذه البساطة.

واستمر الشيخ بعد ذلك يكرر بأشكال مختلفة ما اعتاد أن يقوله من عبارات دينية، ثم أخبرني أن ابنته سوف تكون سعيدة بأن تلقاني. ونزلت إلى الطابق الذي تسكنه عائلة «فيدل».

هأنذا أعيد قراءة ما كتبته عن «آزائيس». إنني عندما أتكلم عنه بهذه اللهجة أشعر بأنني أجعل من نفسي شخصًا بغيضًا. وهذا رأيي فيما كتبته. وإن كنت أضيف هذه السطور، فإنني أخطها ليقرأها «برنارد» إذا ما دفعه فضوله من جديد إلى أن يدس أنفه في هذه الكراسة. وهو إذا ما استمر في معاشرة هذا الشيخ سوف يفهم ما أعنيه بقولي هذا. إنني أحب هذا الشيخ حبًّا جمًّا، واحترمته، ولكنني بمجرد أن أجدني بالقرب منه، لا أستطيع أن أطيق نفسي! وهذا يجعل بقائي معه مؤلمًا لي.

وأنا أحب كثيرًا ابنته زوجة القس. والسيدة «فيدل» تشبه كثيرًا شخصية «ألفير» في ديوان «لامارتين»، ولكنها «ألفير» عندما تتقدم بها السن حديثها لا يخلو من الطلاوة. وكثيرًا ما يحدث أن تبدأ جملها ولا تكملها، ولذا نرى فكرتها وقد غمرها نوع من الإبهام الشاعري. وتحمل كل عبارة غير محددة أو غير مكتملة معنى لا نهائيًّا، وهي تنتظر من الحياة الأخرى أن تعوضها عما ينقصها في عالمنا هذا، وهذا يسمح لآمالها بأن تتسع إلى ما لا نهاية، ويُحلق خيالها فوق آفاق حياتها المحدودة. ولأنها لا ترى زوجها إلا فيما ندر، تتصور أنها تحبه - والرجل الموقر على سفر دائم إذ عليه واجبات الرعاية للغير، ومشاغله ومواعظه واجتماعاته وزياراته للفقراء وللمرضى، وهو لا يضغط على يدك إلا بطريقة عابرة ولكنه يفعل هذا بود، وقد قال لي: «إنني على عجلة من أمري اليوم، وليس أمامنا وقت للحديث».

وأجبته: لا بأس، سوف نلتقي في المساء. ولكن لم يكن عنده الوقت ليسمع إجابتي. وتقول مدام «فيدل» متنهدةً: إنه لم يعد أمامه وقت ليفكر في نفسه. إذا ما عرفت كل ما يقع على كاهله منذ ... ولما كان الناس يعرفون أنه لا يرفض أبدًا، فإن الجميع... وعندما يعود في المساء يكون أحيانًا مرهقًا لدرجة أنني لا أجرؤ على التحدث معه خشية أن... وهو يمنح للآخرين ولم يتبق له شيء ليعطيه لذويه. وبينما كانت تكلمني عدت بذاكرتي إلى ما كان يفعله «فيدل» عند عودته أيام كنت أعيش في القسم الداخلي. كنت أراه يسند رأسه بين راحتيه، ثم يطلق صوتًا مكتومًا بعد أن يستريح قليلًا. ولكني أعتقد أنه كان يخشى هذه الراحة أكثر مما كان يتمناها، وكان يبدو لي أن لا شيء يمكن أن يزعجه أكثر من الوقت الذي يتيح له بعض التفكير.

وسألتني السيدة «فيدل»: هل لك في فنجان من الشاي؟ وكانت خادمة صغيرة قد أحضرت صينيةً محملةً بأدوات الشاي.

وقالت لها الخادمة: يا سيدتي لم يعد عندنا ما يكفي من السكر.

وأجابتها: سبق أن قلت لك إن عليك أن تطلبي هذه الأشياء من الآنسة «راشيل». هيا أسرعي... هل نبهت على السادة بالحضور لتناول الشاي؟

- خرج السيد «برنارد» وكذلك السيد «بوريس».

- حسنًا! والسيد «أرمان»؟ هيا أسرعي.

ثم أردفت دون أن تنتظر خروج الخادمة:

- هذه الصغيرة المسكينة قد جاءت من «ستراسبورج». وليس عندها أي... ونحن مضطرون إلى أن نفهمها كل شيء... حسنًا! ماذا تنتظرين؟

واستدارت الخادمة، كما تفعل الأفعى عندما يطأ أحد الناس ذيلها، وقالت:

- المدرس المراجع موجود في الطابق الأرضي، وكان يريد أن يصعد إلى هنا، وهو يقول إنه لن يرحل قبل أن يقبض حسابه.

ونمَّت ملامح السيدة «فيدل» عن ضيق أليم وقالت:

- كم من مرة يجب أن أكرر أنني لا شأن لي بهذه المسائل – اطلبي منه أن يتوجه إلى الآنسة هيا.. لا يمكن أن نستريح ساعةً! لست أدري فيمَ تفكر «راشيل»!

وسألتها: ألن ننتظرها لتناول الشاي؟

وأجابتني: إنها لا تتناوله أبدًا... آه! إن دخول المدرسة يسبب لنا متاعب جمة. المدرسون المراجعون الذين يتقدمون يطلبون أجورًا باهظةً، وعندما تكون أجورهم معقولةً لا يكونون هم كذلك – ولقد شكا والدي من المدرس الذي عيناه أخيرًا – وقد كان ضعيفًا معه – وهو الذي يهددنا الآن. هل سمعت ما قالته الخادمة الصغيرة وكل هؤلاء القوم لا يفكرون إلا في النقود... وكأن ليس هناك ما هو أهم من ذلك على هذه الأرض... وفي الوقت الحاضر لا نجد وسيلةً لنحل محله آخر، وفي رأي «بروسبير» أن لا سبيل إلا أن نسأل الله أن يدبر كل شيء...

وعادت الخادمة تحمل السكر.

وسألتها السيدة «فيدل»: هل أخطرت السيد «أرمان»؟

- نعم يا سيدتي. سوف يحضر في الحال.

وسألت أنا: و «سارة»؟

- لن تعود إلا بعد يومين. إنها عند بعض الأصدقاء بإنجلترا – عند أهل هذه الشابة التي رأيتها عندنا، وهم ظرفاء جدًّا، وأنا سعيدة بأن تستطيع «سارة» أن... كما حدث «للورا». لقد وجدتها أحسن حالًا. هذه الرحلة إلى سويسرا بعد رحلتها إلى الجنوب، أفادتها كثيرًا. وأنت لطيف جدًّا. إذا أمكنك أن تقنعها بالقيام بهذه الرحلة. وليس هنا إلا «أرمان» المسكين الذي لم يترك باريس طوال فترة الأجازات.

وسألتها: وراشيل؟

- نعم حقًّا. وهي الأخرى لقد طلب منها الكثيرون أن ترحل، ولكنها آثرت البقاء بباريس. ثم إن جدها كان في حاجة إلى وجودها. ومع كل ففي هذه الحياة لا يمكن للمرء أن يعمل دائمًا كل ما يشتهيه. وهذا ما أجد نفسي مضطرةً إلى أن أعيده على مسامع أولادي من حين إلى حين – يجب أن نفكر أيضًا في الآخرين– هل تظن أنني بدوري لم يكن يحلو لي أن أذهب للنزهة في مدينة ساس فيه؟ و...؟!

عندما يسافر بروسبير، أتظن أنه يقوم بذلك للتسلية؟ ثم أردفت وهي ترى ابنها يدخل الحجرة:

- أرمان، أنت تعرف أنني لا أحب أن تحضر إلى هنا من دون ياقة قميصك.

- وأجابها: يا أمي العزيزة لقد علمتني فيما لقنتيني من مبادئ دينية أن لا أهتم كثيرًا بمظهري.

قال ذلك وهو يمد لي يده، ثم أضاف: الغسالة لا تحضر إلا يوم الثلاثاء وياقات قمصاني التي عندي ممزقة كلها.

وتذكرت ما سبق أن قاله (أوليفييه) عن زميله، وبدا لي في الواقع أن شعورًا عميقًا بالألم يختبئ وراء هذه الابتسامة الساخرة. وكان وجه «أرمان» قد رق، واحدودب أنفه فوق شفتيه الرقيقتين، اللتين

شحب لونهما، وأضاف:

- هل أخبرت زائرك الموقر أننا ألحقنا بمجموعتنا بمناسبة افتتاح موسمنا الشتوي، بعض النجوم المعروفة: ابن عضو شيوخ محترم، و(فيكونت دي باسافان) الشاب وهو شقيق مؤلف مشهور. ولا يفوتني أن أذكر أيضًا شخصيتين يعرفهما السيد، وهما الأمير (بوريس)، والماركيز (دي بروفيتا نديو)، وآخرين لم تتضح بعد ألقابهم ولا فضائلهم.

وقالت الأم المسكينة، وكانت تبتسم لهذه الدعايات: ها أنت ترى أنه لم يتغير. وكان أخشى ما أخشاه أن يبدأ في الكلام عن لورا، ولذا لم أطل زيارتي، وأسرعت بالنزول لأقابل راشيل.

وكانت راشيل قد رفعت أكمام ردائها لتساعد في ترتيب حجرة الاستذكار، ولكنها أنزلتها في الحال عندما رأتني أقترب منها. وقالت لي، وهي تجذبني إلى حجرة صغيرة مجاورة تستعمل في الدروس الخاصة: يصعب عليَّ جدًّا أن ألجأ إليك. كنت أحب أن ألجأ إلى (دوفييه)، وكان قد طلب مني ذلك، ولكنني بعد أن رأيت لورا أدركت أنني لن أستطيع بعد ذلك الالتجاء إليه ... كانت شاحبةً للغاية، ذقنها وشفتاها تهتزان، وهي تنطق بهذه الكلمات في اضطراب عصبي، عاقها لحظات عن الكلام. وخوفًا من أن أحرجها أشحت عنها، واستندت هي على الباب الذي كانت قد أغلقته -وأردت أن أمسك بيدها، ولكنها انتزعتها من بين يدي- وأردفت أخيرًا، وكان صوتها يخرج بعد جهد جهيد:

- هل يمكنك أن تقرضني مبلغ عشرة آلاف فرنك؟ دخول المدارس يبشر بدخل لا بأس به، وآمل أن أعيده إليك قريبًا.

- متى ستحتاجين إليه؟

ولم تجب.

وأضفت: معي الآن قليلٌ عن الألف فرنك، وغدًا صباحًا سوف أكمل المبلغ، أو هذا المساء إذا لزم الأمر.

- لا. غدًا. ولكنك إن استطعت -دون أن تحرم نفسك- أن تترك لي ألف فرنك الآن... وأخرجت المبلغ من حافظتي وأعطيتها إياه، ثم سألتها:

- هل تريدين ألفًا وأربعمائة؟

وأحنت رأسها: (نعم). وكان صوتها ضعيفًا لم أسمعه إلا بعناء، ثم توجهت نحو مقعد من مقاعد التلاميذ وهي تترنح، وسقطت فوقه ومكثت لحظات ممسكةً بوجهها بين راحتيها، بينما أسندت مرفقيها على القمطر أمامها. وكنت أتصور أنها تبكي، ولكنني عندما وضعت يدي على كتفها رفعت جبهتها ورأيت عينيها جافتين.

وقلت لها: راشيل، لا تشعري بحرج لأنك طلبت مني ذلك، ويسعدني أن أستطيع أن أقوم بأي خدمة.

ونظرت إلى بطريقة جادة وقالت:

- ما يزعجني هو أن أراني مضطرة إلى أن أطلب منك أن لا تخبر جدي ولا والدتي بهذا الأمر. فمنذ عهدا إليَّ بحسابات المدرسة أتركهما يتوهمان أن... المهم أنهما لا يعرفان. لا تقل لهما شيئًا، إنني أتوسل إليك، جدي قد تقدمت به السن ووالدتي متعبة جدًّا. وأجبتها: لست هي التي تتعب... إنكِ أنتِ يا «راشيل».

- لقد سبق أن أرهقت نفسها، وهي الآن متعبة. وجاء دوري، وليس أمامي شيء آخر أعمله. وكانت تنطق بهذه الكلمات ببساطة، ولم أتبين في استسلامها هذا أي مرارة، على العكس لمحت فيه نوعًا من الرضا.

وأردفت: ولكن لا تتصور أن الأمور قد ساءت كثيرًا. إنها فقط فترة صعبة؛ لأن بعض الدائنين لا يصبرون.

- سمعت الخادمة منذ قليل تتكلم عن مدرس كان يطالب بأجره.

- نعم لقد حضر ليقابل جدي ووقف موقفًا مؤلمًا، ولسوء الحظ لم أستطع أن أمنع وقوع ذلك. إنه رجل فظ وغير مهذب. يجب أن أذهب إليه لأدفع له ما يطلب.

- هل ترغبين في أن أذهب إليه بدلًا منكِ؟

وترددت لحظة وهي تحاول الابتسام دون جدوى، ثم قالت:

- لا. شكرًا، من الأفضل أن أذهب إليه بنفسي. ولكن هل تريد أن تخرج معي؟ إنني أخشاه قليلًا. إذا ما رآك فلن يجرؤ دون شك على أن يقول شيئًا.

كان فناء المدرسة يعلو درجات عن الحديقة التي تمتد بعده والتي يفصل بينها وبينه سور منخفض. وكان المدرس يستند عليه وهو يرتكز بمرفقيه من الخلف. وكان يضع على رأسه قبعةً ضخمةً من الجوخ اللين، وهو يدخن الغليون. وبينما كانت «راشيل» تتناقش معه، لحق «أرمان» بي، وقال بلهجة ساخرة:

- هل أمسكت بك «راشيل»؟ لقد حضرت في الوقت المناسب لتنقذها من يأس قاتل، إن «إسكندر» أخي القذر استدان في المستعمرات – وقد أرادت أن تخفي ذلك الأمر عن والدي. وكانت قد تنازلت عن نصف بائنتها لتضيفه إلى بائنة «لورا»، ولكنها في هذه المرة تنازلت عن البقية – أنا واثق أنها لم تقل شيئًا من هذا إن تواضعها يثير شعوري! من أكثر السخريات كآبةً في عالمنا هذا أنه كلما ضحى شخص بنفسه من أجل الآخرين، فلا شك أنه أفضل منهم...! ويشهد بذلك ما فعلته «راشيل» من أجل «لورا»! ولقد كافأتها هذا العاهر على صنيعها...!

وصحت فيه قائلًا: إنك يا «أرمان» لا تملك الحق في أن تحكم على شقيقتك. (ولكنه أردف في صوت متهدج):

- على العكس من ذلك إنني أحكم عليها لأنني لست أفضل منها، إنني أعرف نفسي!

أما «راشيل» فهي لا تحكم أبدًا على أحد...؟ آه العاهر، العاهر... إنني لم أبعث إليها برأيي فيها... وأنت الذي أخفيت كل ذلك وحميت كل ذلك! أنت الذي كنت تعلم... أما عن جدي فهو لم يلحظ شيئًا، ووالدتي تحاول جاهدةً أن لا تفهم شيئًا، أما والدي فهو يضع أمره بين يدي الله. وهذا حل يريحه. وأمام كل صعاب تعترضنا يركع للصلاة، ويترك «راشيل» وشأنها لتدبر الأمر. كل ما يطلبه هو أن لا يرى الأشياء في وضوح. وهو يجري ويرهق نفسه ولا يكون أبدًا بالمنزل، وأنا أفهم أنه يختنق هنا. أما أنا؛ فإني أموت – وهو يحاول أن يدوخ نفسه، وأثناء ذلك تنظم أمي أبياتًا من الشعر. أوه! إني لا أسخر منها، وأنا نفسي أنظم أشعارًا – إلا أنني على الأقل أعرف أنني لست إلا شخصًا حقيرًا، ولم أحاول أبدًا أن أتظاهر بغير حقيقتي قل لي: أليس مما يثير الاشمئزاز أن نرى (جدي) يتظاهر بالإحسان على (لابيروز) لأنه في حاجة إلى مدرس؟.. وقال (أرمان) فجأةً:

- هذا الخنزير الواقف هناك، ماذا يجرؤ أن يحدث به أختي؟ إذا لم يحيها عند رحيله فسوف أضربه...

واندفع نحو الرجل، واعتقدت أنه سيضربه ولكن الآخر عندما رآه يقترب منه رفع قبعته وهو ينحني انحناءةً ساخرةً، ثم مر من البوابة، وفي هذه اللحظة فتح باب الفناء ليدخل منه القس. وكان يرتدي الردنجوت وقفازات سوداء، وكان عائدًا من حفل تنصير، أو من جنازة، وتبادل مع المدرس السابق تحيةً رسميةً متكلفةً، وكان أرمان وراشيل يقتربان. وقالت راشيل لأبيها عندما لحق بهما بجانبي:

- قد دبرت كل شيء

وقبّلها القس في جبينها، وقال لها:

- ها أنت ترين ما قلته لكِ يا ابنتي! إن الله لا يترك أبدًا من يلجأ إليه. ثم قال لي وهو يمد يده:

- أترحل الآن؟ إلى لقاء قريب... أليس كذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث

يوميات «إدوارد» (تابع)

29 سبتمبر: - قمت بزيارة «لابيروز»، وكانت الخادمة تتردد في السماح لي بالدخول، وقالت: «سيدي لا يريد أن يقابل أحدًا». وقد أصررت في إلحاح حتى أدخلتني غرفة الاستقبال، وكان خشب النافذة مغلقًا. ورأيت في الظلام أستاذي الشيخ جالسًا بين طيات مقعده الكبير المستقيم. ولم ينهض، ومد يده الطرية دون أن يلتفت، وتركها تقع بعد أن ضغطت عليها... وجلست بجانبه ولم أكن أرى إلا جانب وجهه. كانت ملامحه جامدةً ساكنةً، ومن حين لآخر كانت شفتاه ترتعشان، ولكنه لا ينطق بشيء. وبدأت أشك في أن يكون قد تعرف عليَّ، ودقت الساعة مؤذنةً الرابعة، وعندئذ أدار رأسه ببطء وكأنه آلي، وقال بصوت قوي ولكن لا نبرة فيه، صوت كأنه يأتي من عالم آخر:

- لماذا سمحوا لك بالدخول؟ كنت قد طلبت من الخادمة أن تخبر كل من يحضر للسؤال عني أن السيد «لابيروز» قد توفي.

تأثرت تأثرًا مؤلمًا، لا من هذه الكلمات فحسب، ولكن من اللهجة التي نطق بها، لهجة خطابية متكلفة تكلفًا لا يمكن وصفه، لهجة لم أعتدها من أستاذي الشيخ الذي ألفته طبيعيًّا معي واثقًا بي.

وأجبته أخيرًا: لم تشأ هذه الفتاة أن تكذب. لا تؤنبها لأنها فتحت الباب لي. إنني سعيد بلقائك.

وكرر في بلاهة: مات السيد لابيروز... مات – ثم اعتصم بالصمت. وبدرت مني حركة غاضبة لأرحل وقد أجلت إليَّ يوم آخر البحث في أسباب هذه الملهاة المؤسية، ولكن دخلت الخادمة في هذه اللحظة حاملةً فنجانًا من «الشيكولاتة» ينبعث منه الدخان، وقالت:

- هل لسيدي أن يقوم بمجهود بسيط، إنك لم تتناول شيئًا ألبتة اليوم.

وبدرت من «لابيروز» حركة تدل على نفاد الصبر، وكأنه ممثل قطع الكومبارس عليه إحدى روائعه:

- فيما بعد، بعد أن يرحل هذا السيد، ولكنه أردف مباشرةً بعد أن أغلقت الخادمة الباب:

- يا صديقي، أرجو أن تحضر لي كوبًا من الماء. أرجوك كوبًا بسيطًا من الماء فأنا أموت عطشًا.

ووجدت في حجرة الطعام إبريقًا وكوبًا فأحضرتهما، وملأ الكوب وأفرغ ما فيه في جرعة واحدة، ثم مسح شفتيه بكم سترته القديمة. وسألته:

- هل بك حمى؟

وأعادته جملتي إلى الشعور بشخصيته فقال:

- ليس بالسيد «لابيروز» حمى. لم يعد به أي شيء. منذ مساء الأربعاء كف السيد «لابيروز» عن الحياة.

وترددت، ولم أكن أدري أمن الأفضل أن أشاركه في مهزلته وسألته:

- ألم يكن يوم الأربعاء بالذات هو اليوم الذي جاء فيه (بوريس) الصغير ليراك؟

وأدار رأسه نحوي، وأضاءت ابتسامة -كأنها شبح من ابتساماته الخوالي- ملامح وجهه إذ سمع اسم (بوريس) وقال بعد أن ارتضى أخيرًا أن يخلع (دوره):

- أي صديقي، أستطيع أن أقول لك أنت الحقيقة! كان يوم الأربعاء آخر يوم بقي لي في هذه الحياة. ثم أردف بصوت خفيض: «آخر يوم منحته لنفسي قبل أن أضع حدًا لآلامي».

وآلمني كل الألم أن أرى «لابيروز» يسترجع هذا الحديث الكئيب. وأدركت أنني لم يخطر ببالي أبدًا من قبل أنه كان يعني ما قال في هذا الموضوع. وكانت ذاكرتي قد طرحت هذا الأمر. والآن رحت أؤنب نفسي على هذا. الآن تذكرت كل شيء، ولكني دهشت لأنه كان قد حدد لي في بادئ الأمر تاريخيًّا أبعد من هذا التاريخ. ولما نبهته إلى ذلك اعترف لي بلهجة عاودتها طبيعتها، بل واعتراها شيء من السخرية. أعترف بأنه قد خدعني عندما ذكر هذا التاريخ، وأنه كان قد أخره خشية أن أحاول منعه، أو أن أشرع في العودة من أجل ذلك. وأخبرني بأنه ركع مراتٍ عديدةً في المساء أيامًا متتاليةً سائلًا الله أن يهبه رؤية «بوريس» قبل أن يموت.

وأضاف: بل وكنت قد عاهدت الله على أن أؤجل رحيلي أيامًا إذا اقتضى الأمر... بسبب تأكيدك أنك ستحضره لي. أتذكر؟

وأمسكت بيده وكانت باردةً، ورحت أعيد إليها حرارتها بين يدي. فأضاف بصوت رتيب:

- وعندما وجدت أنك لا تنتظر نهاية الإجازة لتعود، وأن في استطاعتي أن أرى الصغير دون أن أؤجل رحيلي، اعتقدت أن... تصورت أن الله استجاب إلى صلاتي، وأنه يوافق على ما نويت. نعم تصورت ذلك ولم أفهم حينئذ أنه يسخر مني كما فعل معي دائمًا.

وجذب يده من بين يدي، وقال في صوت أكثر انفعالًا:

- وكان يوم الأربعاء هو الميعاد الذي عاهدت نفسي على الخلاص فيه، وفي ذلك اليوم أحضرت لي «بوريس» أثناء النهار. ولم أشعر - ويجب أن أعترف بذلك - بكل السعادة التي كنت أنتظرها. وفكرت في ذلك الأمر فيما بعد. وبالطبع لم يكن من حقي أن آمل في أن يسعد الصغير بلقائي، فوالدته لم تكن تكلمه أبدًا عني.

وكف عن الكلام، وارتعشت شفتاه، واعتقدت أنه سينخرط في البكاء.

وقلت له: كل ما يتمناه «بوريس» هو أن يحبك، ولكن اترك له الوقت الكافي حتى يعرفك.

وأضاف «لابيروز» دون أن يسمعني: بعد أن تركني الصغير، وبعد أن وجدت نفسي وحيدًا في المساء (فأنت تعرف أن السيدة لابيروز لم تعد هنا) قلت لنفسي:

هيا! حان الوقت! ويجب أن أخبرك أن شقيقي الذي فقدته ترك لي زوجًا من المسدسات أحتفظ بهما في جراب بالقرب من سريري. وأحضرت هذا الجراب، وجلست في مقعد هناك كما أجلس الآن

وحشوت أحد المسدسين بالرصاص.

واستدار نحوي وكرر فجأةً وفي لهجة حادة، وكأنه ظن أنني أشك فيما يقول: نعم حشوته. ويمكن أن تتحقق من ذلك. فما زال محشوًّا. ماذا حدث؟ لا أستطيع أن أفهم ما حدث. رفعت المسدس إلى جبهتي وأبقيته طويلًا على صدغي... ولكني لم أضغط على الزناد. لم أستطع... في آخر لحظة، هذا شيء مخجل... لم تسعفني شجاعتي لأطلق المسدس.

وكان قد انفعل أثناء حديثه، وازدادت نظرته حياةً، وأخذ الدم يسري ضعيفًا في خديه، وكان ينظر إليَّ وهو يومئ برأسه.

- كيف تعلل ذلك، شيء كنت قد قررته. شيء لم أكفُّ منذ شهور عن التفكير فيه... ربما كان هذا هو السبب فيما حدث. لعلني استنفدت مقدمًا بتفكيري كل شجاعتي...

وقلت له: كما استنفدت قبل عودة بوريس كل السعادة بلقائه. ولكنه استمر في حديثه قائلًا:

- لقد بقيت طويلًا والمسدس على صدغي. وكان إصبعي على الزناد، وكنت أضغط قليلًا، ولكني لم أضغط ضغطًا كافيًا. وكنت أحدث نفسي: بعد لحظة سأضغط بقوة، وسوف تنطلق الرصاصة، وشعرت ببرودة المعدن، وقلت لنفسي: بعد لحظة لن أشعر بشيء، ولكنني سوف أسمع قبل ذلك صوتًا فظيعًا... تصور الأمر إذَنْ! صوتًا قويًّا بالقرب من الأذن! هذا هو الذي منعني أكثر من أي شيء آخر: الخوف من الصوت...! هذا سخف لأنه ما دام المرء سيموت... نعم! ولكني كنت آمل أن يكون الموت كالنوم، غير أن الانفجار شيء لا يسمح بالنوم إنه شيء يوقظ... نعم، لا شك أن هذا هو ما كان يخيفني. خشيت أن أستيقظ فجأة بدلًا من أن أنام.

وبدا أنه سيطر على نفسه، أو بالأحرى أنه جمع أشتات نفسه، وأخذت شفتاه ترتعشان من جديد لبضع لحظات دون أن ينطق، ثم أردف:

- لم أقل لنفسي كل هذه الأشياء إلا فيما بعد، والحق أنني إذا لم أكن قد قتلت نفسي فذلك لأنني لم أكن حرًّا. إنني أقول الآن: كنت خائفًا. ولكن لا. لم يكن الأمر كذلك. إن شيئًا خارجًا عن إرادتي، بل أقوى من إرادتي قد أمسك بي ... وكأن الله لم يرد أن أرحل! تخيل دميةً تريد أن تغادر خشبة المسرح قبل أن تنتهي من دورها الذي تلعبه في المسرحية... قفي هنا! ما زالوا في حاجة إليك لتقومي بدورك في الجزء الأخير. آه. أكنت تتصورين أيتها الدمية أن في استطاعتك أن ترحلي عندما يتراءى لكِ ذلك! لقد أدركت أن ما نسميه «إرادتنا» ليس إلا الخيوط التي تحرك الدمية، وأن الله هو الذي يشدها. ألا تفهمني؟ سوف أشرح لك الأمر. أصغ إليَّ: إنني أقول لنفسي الآن: «سوف أرفع ذراعي الأيمن» ، ثم أرفعه (وهنا رفعه فعلًا) ولكن الحقيقة أن الخيط كان مشدودًا فعلًا لكي يجعلني أفكر وأقول لنفسي: «أريد أن أرفع ذراعي الأيمن». والدليل على أنني لست حرًّا هو أنه لو كان عليَّ أن أرفع ذراعي الأيسر لقلت لك: «سوف أرفع ذراعي الأيسر».

لا. أرى أنك لا تفهم ما أعنيه، لست حرًّا لتفهمني... أوه! إنني أتبين بوضوح الآن أن الله يسخر مني... أتعتقد أنني جننت؟ بهذه المناسبة: تصور أن مدام دي لابيروز، إنك تعرف أنها دخلت ملجأ. حسنًا، تصور انها مقتنعة بأن هذا المكان مستشفى للمجانين. وأنني أدخلتها فيه لكي أتخلص منها، وأنني

فعلت ذلك وفي نيتي أن أجعلهم يعتبرونها مجنونة حقًا. اعترف معي بأن هذا الأمر عجيب، أي شخص تصادفه في الطريق يمكن أن يفهمك أكثر ممن منحتها حياتك. وكنت في بداية الأمر أذهب لزيارتها كل يوم، ولكنها كانت تقول بمجرد أن تراني: آه! ها أنت قد جئت لتتجسس عليَّ. ثم اضطررت إلى أن أكف عن هذه الزيارات لأنه لا نتيجة لها إلا إثارتها. وكيف تريد مني أن أتشبث بعد ذلك بالحياة ما دام وجودي لا يفيد أحدًا؟

وخنقت العبرات صوته، وطأطأ رأسه، وتصورت أنه سوف يعود إلى حالة الذهول الأولى، ولكنه أردف في حماسة مفاجئة:

- أتدري ماذا فعلت قبل أن ترحل؟ لقد فتحت درجي عنوةً، وأحرقت كل رسائل شقيقي المتوفي. لقد كانت دائمًا تشعر بالغيرة من شقيقي ولاسيما بعد وفاته، وكانت تغضب وتثور عندما كانت تفاجئني أثناء الليل وأنا أعيد تلاوة رسائله، وكانت تصيح قائلةً: آه! كنت تنتظر حتى أنام! إنك تتوارى عني. وكانت تقول: خير لك لو ذهبت لتنام، إنك ترهق ناظريك. كان يمكن أن يؤول هذا على أنه شفقة بي، ولكني أعرفها حق المعرفة. لم يكن ذلك إلا الغيرة بعينها؛ لم تكن تريد أن تتركني وحيدًا.

وأجبته: السبب في ذلك أنها كانت تحبك، لا غيرة بلا حب.

وقال: حسنًا! اعترف معي إذَنْ بأن الحب حين يكون سببًا في إتعاسك، بدلًا من أن يكون سببًا في إسعاد حياتك، فإنه يكون حقًّا شيئًا مؤلمًا.

وزاد حماسه، وهو يتكلم، ثم قال فجأةً:

- أشعر بالجوع، عندما أريد أن آكل شيئًا، تحضر لي هذه الخادمة دائمًا شيكولاتة. لا شك أن مدام (لابيروز) قد أفهمتها أنني لا أتناول أي شيء آخر! أكون شاكرًا لك لو تكرمت بالذهاب إلى المطبخ - الباب الثاني على اليمين في الممر - وانظر إذا كان هناك بيض... أعتقد أنها قالت لي إن هناك بعضًا منه.

- أتريدها أن تعد لك بيضة؟

- أعتقد أنه يمكنني أن آكل اثنتين. هل تتكرم فتفعل ذلك؟ إنني لا أستطيع أن أجعلها تسمعني.

وقلت له عند عودتي من المطبخ: ستكون البيضتان اللتان طلبتهما معدتين بعد لحظة، وإذا سمحت لي سأبقى حتى أطمئن على أنك أكلتهما. نعم سوف يسعدني ذلك. لقد آلمني كثيرًا منذ لحظة أن أسمعك تقول إنه لم يعد في إمكانك أن تفيد أي إنسان، ويبدو أنك نسيت حفيدك! يقترح صديقك السيد (آزائيس) عليك أن تذهب لتعيش مع حفيدك في القسم الداخلي بالمدرسة، وقد كلفني أن أبلغك ذلك، وفي اعتقادي أنه لم يعد الآن -وقد رحلت مدام دي لابيروز- لم يعد ثمت شيء يربطك بهذا المكان.

وكنت أتوقع منه بعض التمنع، ولكنه لم يسألني إلا قليلًا عن الشروط التي تتطلبها الحياة الجديدة التي يقترحونها عليه، وقال:

- إن كنت لم أقتل نفسي، فلست حيًّا. هنا أو هناك، الأمر سيان، يمكنك أن تصطحبني.

واتفقت معه على أن أحضر لاصطحابه في اليوم التالي، وأن أضع تحت تصرفه حقيبتين لكي يرتب فيهما الملابس التي قد يحتاج إليها، وكل ما يهمه أن يحمله معه.

وأضفت: وعلى أي حال ما دمت ستحتفظ بهذه الشقة حتى نهاية المدة المنصوص عليها في عقد الإيجار، فأمامك الوقت لترجع إلى هنا لإحضار ما ينقصك.

وكرر قوله: إنني أزعجك كثيرًا، يا لك من رجل طيب.

وكنت أود أن يعهد إليَّ بمسدسيه، وقلت له إنه لم يعد في حاجة إليهما، ولكنه لم يوافق على أن يسلمهما لي.

وقال: لم يعد هناك ما تخشاه. إني أعرف أن ما لم أقم به في هذا اليوم لن أستطيع القيام به أبدًا، ولكن هذين المسدسين هما التذكار الوحيد الذي تبقى لي من شقيقي، وأنا في حاجة أيضًا إلى أن يذكراني بأنني لست إلا لعبة بين يدي الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

اشتدت الحرارة في ذلك اليوم، وخلال النوافذ المفتوحة في مدرسة (فيدل)، بدت هامات الأشجار في الحديقة، وما زال الصيف يحلق فوقها.

وكان يوم استئناف الدراسة مناسبةً يُلقي فيها (آزائيس) الشيخ خطابًا. ووقف على المنبر في مواجهة التلاميذ كما هو المتبع، وجلس (لابيروز) السيخ على مقعد فوق المنبر، ونهض الأخير عند دخول التلاميذ، ولكن أومأ آزائيس بحركة ودية داعيًا إياه للجلوس. واستقرت نظرة لابيروز القلقة على بوريس فضايقته، لا سيما أن (آزائيس) أشار في خطابه -وهو يقدم للتلاميذ مدرسهم الجديد- إلى القرابة التي بين هذا المدرس وبين أحدهم. وآلم (لابيروز) أن نظرته لم تلتق قط مع نظرة (بوريس) وتصور في هذا عدم مبالاة أو برودًا من جانبه.

وكان بوريس يقول لنفسه: فليتركني وشأني. لا أحب أن يلفت إليَّ الأنظار. وإن زملاءه ليملؤنه رعبًا، وكان قد انضم إليهم مكرهًا عند خروجه من المدرسة، وسمع أحاديثهم عن المدرسة بالقسم الداخلي، وتمنى أن يكون مثلهم لما يشعر به من حاجة شديدة إلى الانسجام معهم. إلا أن طبيعته الحساسة قد نفرت من ذلك، وكانت الألفاظ تقف على شفتيه. وغاظه من نفسه هذا الضيق، وحاول ألا يدعه يبدو عليه، بل حاول أن يضحك ليتحاشى سخريتهم، ولكن عبثًا. كان يبدو بين الآخرين كأنه فتاة صغيرة، ويشقى بذلك ويتألم منه.

وفي الحال تجمع التلاميذ مجموعات، ووقف أحدهم ويُدعى (ليون جيريدا إينزول) في وسطهم وفرض نفسه عليهم. وكان أكبر منهم سنًّا، ومتقدمًا عنهم في الدراسة، وكانت بشرته سمراء، كما كان أسود الشعر والعينين، ولم يكن طويل القامة ولا يمتاز بمتانة البنية، ولكنه يتميز بجرأته، وهو على قسط وافر من الصفاقة، واعترف جورج مولينيه الصغير بأنه مذهول أمام صفاقة جيريدا إينزول. وقال لأحد زملائه: ليس من السهل أن أذهل بهذه السهولة، ألم يره بعيني رأسه هذا الصباح وهو يقترب من سيدة شابة تحمل طفلًا بين ذراعيها وسمعه يقول لها:

أهو ابنك يا سيدتي؟ (قال ذلك وهو يحييها تحيةً متكلفةً)، إنه على قدر كبير من الدمامة، ولكن اطمئني؛ لن يعيش.

وأجابه صديقه فيليب آدمانتي الذي حكى له جورج هذه الحادثة: لا! هل قال هذا؟ - وكانت هذه العبارة الوقحة تملأ قلبهما بالغبطة، فلم يكن من الممكن في نظرهما تخيل شيء أظرف من هذا القول. وكانت هذه الدعابة دعابة قديمة أخذها (ليون) عن ابن عمه (ستروفيلهو)، ولكن جورج لم يكن يعرف ذلك.

وفي المدرسة طلب كل من (مولينييه) و(آدمانتي) بأن يجلسا على نفس المقعد الذي يجلس عليه جيريدا إنيزول، وأجيبا إلى طلبهما. يقع هذا المقعد في الصف الخامس، وقد أرادا ذلك حتى لا يتمكن ألفة الفصل من رؤيتهم بسهولة. وكان آدمانتي يجلس على يسار (مولينيه) أما عن يمينه فكان يجلس (جيريدا إنيزول) ويُسمى بـ (جيري). وفي نهاية المقعد يجلس (بوريس) وخلف هذا الأخير (باسافان).

قضى (جونتران دي باسافان) حياةً تعسةً منذ تُوفي والده. ولم تكن حياته قبل ذلك بهيجةً، وفهم منذ أمد طويل أنه لا يمكن أن ينتظر من أخيه أي عطف أو أي مساعدة. وكان قد ذهب إلى مقاطعة (بريتاني)

ليقضي بها إجازته بصحبة مربيته العجوز المخلصة (سيرافين) بين ذويها. لقد انطوت صفاته جميعًا. فهو غارق في العمل، وأخذت رغبة كامنة في نفسه تحفزه إلى أن يثبت لأخيه أنه أفضل منه. لقد اختار بنفسه وبمحض إرادته القسم الداخلي بهذه المدرسة، رغبةً منه في أن لا يعيش مع أخيه في ذلك البيت بشارعٍ (بابيلون)؛ لأنه لا يعيد إلى نفسه إلا ذكريات تعسة، وأقامت (سيرافين) في مسكن بباريس رغبةً منها في أن لا تتركه وحيدًا. وكان المبلغ الذي يدفعه لها أبناء الكونت المتوفي وهو المنصوص عليه في الوصية يسمح لها بهذا، وكان لجونتران غرفته في هذا المسكن وهو يشغلها في الأيام التي يسمح له فيها بالخروج من المدرسة. وقد زينها بشكل يتلاءم وذوقه الخاص، واعتاد أن يتناول وجبتين في الأسبوع مع سيرافين التي تُعنى به وتحرص على أن لا ينقصه شيء. وإذا كان (جونتران) معها راح يثرثر دون كلفة، وإن كان يخفي عنها كل ما يثقل فؤاده. أما في المدرسة فلم يكن يتجاوب مع الآخرين، وكان يستمع إلى دعايات زملائه بأذنٍ شاردةٍ، كما لم يكن يشاركهم لعبهم. ذلك أيضًا أنه يؤثر القراءة على كل لعب لا يكون في الهواء الطلق. وهو يحب الرياضة وكل الألعاب، ولا سيما التي يمارسها الشخص بمفرده. وهو كذلك معتز بنفسه كل الاعتزاز، ولا يختلط بالجميع. وفي أيام الآحاد -تبعًا للمواسم- يمارس رياضة الانزلاق أو يسبح أو يجدف أو يقوم برحلات طويلة في الريف. وهو ينفر من بعض الأشياء، ولا يسعى إلى أن يتغلب على ذلك، ولا يكتفي أبدًا بتوسيع إدراكه أو بالأحرى لا يكف عن تقويته. وهو ليس بالبساطة التي يعتقدها في نفسه أو التي يحاول أن يبدو بها. لقد سبق أن رأيناه ساهرًا على فراش الموت بجانب أبيه. وهو لا يحب الغوامض، وحينما يشعر بأنه ليس على سجيته ينتابه الضيق، وإذا كان أول فصله فإنه يصل إلى هذه المرتبة عن طريق الاجتهاد، ولا يصل إليها بالطريق السهل. وإن بوريس لخليق أن يجد الحماية لدى (باسافان) إذا ما عرف كيف ينشدها. ولكن جاره (جورج) هو الذي يجذبه. أما (جورج) نفسه فهم لا يلتفت إلا إلى (جيري) الذي لا يلتفت إلى أحد.

وكانت لدى (جورج) أخبار هامة يريد أن يوصلها إلى (فيليب آدمانتي)، ولكنه رأى من الأحوط ألا يكتبها له.

كان جورج قد وصل هذا الصباح، يوم العودة إلى الدراسة، إلى باب المدرسة قبل موعد الدخول بربع ساعة. انتظر (فيليب) دون طائل، وهو يغدو ويروح أمام الباب. وسمع دعابة (ليون جيريد إنيزول) التي ألقاها على مسامع السيدة الشابة. وقد دار بعد ذلك حديث بين (جورج) و(ليون) واكتشفا -وقد سر جورج لهذا كل السرور- أنهما سيصبحان زميلين في نفس القسم الداخلي، واستطاع جورج وفيفي (اسم التدليل لفيليب) أن يلتقيا بعد خروج المدرسة، وسارا معًا متجهين إلى القسم الداخلي مع بقية التلاميذ. ولكن على مسافة تبعدهما عنهم، وتسمح لهما بالحديث بكل حرية، وقال (جورج):

- لعلك تحسن عملًا لو أخفيت هذا أيضًا – قالها وهو يشير بإصبعه إلى الزهرة الصفراء الصغيرة التي كان لا يزال (فيفي) يثبتها في عروة سترته.

وسأله (فيفي) بعد أن لاحظ أن (جورج) لم يعد يحمل زهرته: ولماذا؟

- إنك تعرض نفسك لأن يمسكوا بك. كنت أريد أن أنبهك إلى ذلك يا صغيري قبل ابتداء الدراسة، ولكنك لم تصل مبكرًا. لقد انتظرتك أمام الباب لأنبهك. وقال فيفي: ولكني لم أكن أعرف.

وأجابه (جورج) وهو يقلده: لم أكن أعرف، لم أكن أعرف! كان عليك أن تفكر أنه ربما يكون لديَّ ما أقوله لك، ما دمت لم أستطع أن ألقاك مرةً أخرى بمدينة (هولجات).

إن شغل هذين الطفلين الشاغل هو أن يسيطر أحدهما على الآخر! ولعل لفيفي بعض الميزات التي تعود إلى مركز أبيه وثروته، ولكن (جورج) يفوقه بكثير بفضل إقدامه ووقاحته. وكان على (فيفي) أن يجتهد لكي لا يتخلف في هذا المضمار. ولم يكن ولدًا شريرًا، ولكنه رخو. وقال (جورج): حسنًا، أخرجها، أخرج أشياءك هذه.

وأصغى (ليون جيريدا إنيزول) إليهما -وكان قد اقترب منهما أثناء ذلك - وكان يحلو لجورج أن يسمع هذا الأخير ما يقوله لزميله، وإذا كان (جيريدا إنيزول) قد بهره بعمله منذ وقت قليل، ففي جعبة جورج أيضًا ما يمكن أن يبهر به، ولذا قال لفيفي بلهجة بسيطة:

- قبض على (برالين الصغيرة).

وصاح (فيفي) - وكان ثبات (جورج) قد راعه: (برالين)! حين بدا الاهتمام على (ليون) قال (فيفي) لجورج: أيمكن أن تقول له؟

وأجابه (جورج) وهو يرفع كتفيه: حسنًا!

وهنا قال (فيفي) لجيري، وهو يشير إلى (جورج): إنها عشيقته. ثم قال لجورج:

- وكيف عرفت ذلك؟

فأجابه: قابلت (جرمين)، فقالت لي ذلك.

وأخذ يقص على (فيفي) كيف أنه عند مروره بباريس منذ اثني عشر يومًا أراد التوجه إلى الشقة - التي أسماها القاضي (مولينيه) كما سمعناه من قبل: (مسرح) هذه الحفلات الصاخبة- فوجد بابها مغلقًا، وكيف صادف بعد قليل عند تجوله في هذا الحي (جيرمين)، وهي صديقة فيفي فأخبرته بما حدث، وكيف قام رجال البوليس بحملة في بدء الإجازة. وما كان يجهله هاتيك النسوة وهؤلاء الأطفال هو أن (بروفيتا نديو) أراد أن يرجئ القيام بهذه الحملة حتى يتفرق هؤلاء المنحرفون، وكان هدفه من الانتظار أن لا تشملهم الحملة، وأن يجنب ذويهم الفضيحة.

وأخذ (فيفي) يكرر دون تعليق: حسنًا يا صديقي، حسنًا يا صديقي! وأيقن أنه أفلت هو وجورج بمعجزة.

وسأله جورج ساخرًا: أتشعر ببرودة في ظهرك لهذا؟

لقد ذعر هو نفسه، وآثر ألا يعترف بذلك وبخاصة (جيريدا إنيزول).

ربما تصورنا عند سماع هذا الحديث أن هؤلاء الأطفال أكثر فسادًا مما هم عليه فعلًا، وأنا متأكد أنهم يتكلمون على هذا النحو على سبيل المفاخرة ليس إلا. وفيما يقولانه شيء من التباهي. ومهما يكن أمر فالمهم أن (جيريدا إنيزول) يُصغي إليهما ويجعلهما يتكلمان، وستعجب هذه الأحاديث ابن عمه (ستروفيلهو) عندما يعيدها على مسامعه هذا المساء.

في هذا المساء عينه ذهب (برنارد) لمقابلة (إدوارد) الذي سأله:

هل كان دخول المدرسة على ما يرام؟

- لا بأس.

وأضاف (إدوارد)، إذ وجده صامتًا لا يتكلم: يا سيد (برنارد) إن كان يحلو لك اليوم أن تتكلم عن نفسك، فلا تنتظر أن أدفعك إلى ذلك. إنني أمقت الاستجوابات، ولكن اسمح لي أن أذكرك بأنك عرضت عليَّ خدماتك، وأن من حقي أن أنتظر منك بعض الأحاديث.

وسأله (برنارد) بلهجة جافة: ماذا تريد معرفته؟ أتريد أن تعرف أن الأب (آزائيس) ألقى خطابًا اقترح فيه على الأطفال أن يندفعوا في حماس معًا وبهمة فتية...؟ لقد حفظت هذه الكلمات لأنه كررها ثلاث مرات. ويدعي (أرمان) أن الشيخ يستعملها في كل خطبة. وكنا جالسين هو وأنا على مقعد في القاعة لنشهد دخول التلاميذ مثلما فعل (نوح) ليشهد دخول الحيوانات في سفينته. وكان هناك من كل الفصائل، حيوانات مجترة وغير مجترة، وحيوانات رخوة، ولا فقريات أخرى، وعندما بدأوا يتكلمون فيما بينهم بعد انتهاء الموعظة لاحظنا -أنا وأرمان- أن كل أربعة من عشرة من الجمل التي يقولونها تبدأ بـ (أراهن على أنك لم...).

- والست الأخرى؟

- بـ (أنا...).

- هذا يدل على أنك دقيق الملاحظة. وماذا أيضًا؟

- يبدو لي أن بعضهم يتظاهر بشخيصة ليست له.

وسأله (إدوارد): ماذا تعني بذلك؟

- إنني أعني بخاصة أحدهم، وكان يجلس بجانب (باسافان) الصغير، وأعتقد أن هذا الأخير طفل عاقل. أما جاره الذي راقبته طويلًا فيبدو أنه قد اتخذ لنفسه شعار القدماء، وهو العبارة اللاتينية (لا تبالغ في شيء). ألا ترى أن هذا الشعار وهو في مثل سنه لا معنى له؟ ملابسه ضيقه وربطة عنقه مستقيمة وحتى رباط حذائه ينتهي بالضبط مع العقدة، وبالرغم من أنني أتحدث معه إلا قليلًا فإنه وجد الوقت الكافي ليقول لي إنه يرى في كل شيء تبذيرًا في القوة، وكان يكرر هذه الجملة، وكأنها لازمة له: (لا تبذل جهدًا لا جدوى منه).

وقال (إدوارد): لعن الله الشح! الإسراف في الفن يؤدي إلى الإطناب.

- وكيف هذا؟

وأجابه (إدوارد): لأن أولئك الفنانين يخشون أن يفقدوا أي شيء. وماذا رأيت أيضًا؟ لم تقل لي شيئًا عن (أرمان).

- أما عن هذا فهو شاذ. وهو في الحقيقة لا يعجبني، إنني لا أحب المتكلفين، ولا شك أنه ذكي. إلا أنه لا يستغل ذكاءه إلا في الهدم. ومع كل، فإن هجومه يزداد عنفًا عندما ينصب على شخصه. إنه يشعر بالخجل من كل شيء طيب فيه أو كريم أو نبيل أو رفيق. وكل ما عليه هو عليه أن يمارس بعض الألعاب الرياضية، وأن يعيش في الهواء الطلق. إنه يزداد مرارة ببقائه طوال اليوم رهين هذه الجدران، ويبدو أنه يسعى إليَّ وأنا لا أتهرب منه، وإن كان يصعب عليَّ أن أتعود على تفكيره.

وسأل (إدوارد) ألا تعتقد أن كلامه اللاذع وسخريته إنما يخفيان حساسيةً بالغةً، وربما ألمًا كبيرًا؟ هذا هو رأي (أوليفييه).

- ربما كان هذا صحيحًا، وقد قلته لنفسي، ولكني لم أعرفه بعد كل المعرفة، وحكمي عليه ليس مبنيًّا على أساس. أنا في حاجة إلى التفكير في هذا الأمر، وسوف أبلغك ما يصل إليه حكمي ولكن فيما بعد. أما هذا المساء فإنني أعتذر إذ إنني مضطر إلى أن أتركك. سوف أؤدي امتحاني بعد يومين، ثم لا بأس من أن أعترف لك... أشعر أنني حزين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس

(علينا أن نأخذ من كلِّ شيءٍ إلا زبدته).

«فنيلون».

نهض (أوليفييه) من فراشه –وكان قد عاد إلى باريس في اليوم السابق- وأحس أنه مرتاح، وكان الهواء ساخنًا والسماء صافيةً. وخرج حليق الذقن بعد أن استحم، وكان في ملابس أنيقة يشعر بقوته وشبابه وجماله. أما (باسافان) فما زال نائمًا.

وأسرع (أوليفييه) نحو جامعة السوربون. في ذاك الصباح كان على (برنارد) أن يؤدي امتحانه التحريري. ولكن كيف عرف (أوليفييه) هذا الأمر؟ ربما لم يعرف أنه ذاهب إلى هناك ليستعلم. وأسرع الخطى ولم يكن قد رأى صديقه برنارد منذ الليلة التي جاءه فيها ينشد مأوى لديه. كم حدث من تغييرات منذ تلك الليلة! ومن يدري ربما كانت لهفته على أن يريه نفسه أكثر من لهفته على رؤيته. ومما يؤسف له أن (برنارد) لم يكن ممن يهتمون بالأناقة! ولكن هذا الاهتمام كثيرًا ما يأتي مع اليسر. ولقد عرف أوليفييه ذلك بفضل الكونت دي باسافان.

سيؤدي برنارد امتحانه التحريري هذا الصباح. ولن يخرج إلا في الظهر، وقد وقف (أوليفييه) ينتظره في الفناء. ورأى بعض الزملاء وشد على أيديهم ثم ابتعد. إنه ليشعر بالحرج بسبب أناقته. وازداد حرجًا عندما اقترب منه (برنارد) بعد أن تحرر من الامتحان، وصاح الأخير وهو يمد يده قائلًا: ما أجمله!

واحمر وجه (أوليفييه) وكان يخال أنه لم يعد نهبًا للخجل. وكيف لا يرى في هذه الكلمات تهكمًا رغم لهجتها الودية؟ أما برنارد فكان يرتدي عين الحلة التي كان يرتديها من قبل، والتي كان بها ليلة هروبه من البيت. ولم يكن يتوقع أن يرى (أوليفييه)، فراح يوجه إليه الأسئلة ويدفعه إلى السير. كانت البهجة التي غمرته برؤيته بهجةً مفاجئةً. وإذا كان قد ابتسم قليلًا عندما رأى أناقة ملبسه، فقد فعل هذا دون أدنى خبث. فقلبه طيب لا ينطوي على حقد. وسأل صديقه:

- أتتناول الغداء معي؟ عليَّ أن أستأنف امتحاني بعد ساعة ونصف في اللغة اللاتينية. أما هذا الصباح فكانت اللغة الفرنسية.

- أراضٍ أنت عن إجابتك؟

- نعم، نعم. ولكن لا أدري هل يعجب ما كتبته الممتحنين! كان المطلوب أن نبدي رأينا في أربعة أبيات للافونتين:

«إنني فراشة (البارناس)، وأنا كالنحل

الذي شبهنا به أفلاطون العظيم.

وإني كائن خفيف أحلق فوق كل شيء

أنتقل من زهرة إلى زهرة ومن موضوع إلى موضوع»

قل لي، ماذا كنت تقول في هذا المقام؟

ولم يستطع (أوليفييه) أن يقاوم الرغبة في أن يبهر صديقه، وقال: كنت أكتب: عندما وصف لافونتين نفسه فقد صور الفنان، ذلك الفنان الذي لا يأخذ من الدنيا إلا خارجها وسطحها، إلا زهرتها. وكنت أرسم في مواجهته صورة للعالم، للباحث، للباحث الذي ينقب، وكنت أثبت أخيرًا أنه في الوقت الذي يوالي فيه العالم بحثه، فإن الفنان يجد بغيته، أثبت أن من ينقب ينزل إلى الغياهب، ومن ينزل إلى الغياهب يصيبه العمى، وأن الحقيقة ليست إلا المظهر. وأن السر ليس إلا في الشكل، وأن أعمق ما في الإنسان هو أديمه. كان (أوليفييه) قد حفظ هذه الجملة الأخيرة عن (باسافان) الذي أخذها بدوره عن بول إمبرواز يوم كان يتحدث في مجموعة من الناس. كان كل ما لم يطبع على الورق سهل المأخذ لباسافان، وكان يُسميه آراء في الهواء؛ ويعني بها آراء الآخرين.

وكان في لهجة (أوليفييه) شيء ما، نبه برنارد إلى أن هذه العبارة ليست من بنات أفكاره. لقد بدا في صوت أوليفييه شيء من الضيق عندما نطق بها. وأوشك برنارد أن يسأله: من قال هذه العبارة؟ ولكنه لم يرغب في أن يحرج صديقه، ثم إنه خشي أيضًا أن يسمع اسم باسافان الذي حرص أوليفييه على أن لا ينطق به حتى هذه اللحظة، واكتفى برنارد بأن نظر إلى صديقه بإلحاح غريب، وللمرة الثانية احمر وجه (أوليفييه) وحل الاستياء العنيف محل الدهشة التي شعر بها برنارد عند سماعه أوليفييه العاطفي يعبر عن آراء جد مختلفة عن الآراء التي كان يعرفه بها. شعر بشيء مفاجئ لا يمكن مقاومته كالريح العاتية. لم تكن هذه الأفكار بالذات هي التي أوحت إليه الاستياء مع ما كانت تبدو عليه من سخف. ومع كل فإنها لم تكن على هذا القدر من السخف، وإنه ليستطيع أن يسجلها في كراسته التي يدون بها الآراء المتناقضة... يستطيع أن يضعها في مواجهة آرائه هو، ولو قد كانت هذه الآراء مطابقةً لآراء أوليفييه لما استاء من أوليفييه ولا منها، ولكنه أحس بشخص يختبئ وراءها، وكان استياؤه من باسافان. وصاح محتدًّا، ولكن في صوت مكتوم: إن آراء كهذه كفيلة بأن تسمم فرنسا بأسرها، وكان ينظر إلى الأمور من حالق رغبةً منه في أن يحلق فوق باسافان، وقد فُوجئ هو نفسه بما قاله وكأن عبارته سبقت فكرته، ومع ذلك فإن هذا الرأي نفسه هو الذي شرحه هذا الصباح في امتحانه التحريري، ولكنه كان ينفر -خجلًا- من أن يعبر عن رأي كهذا في حديثه العادي، ولا سيما مع (أوليفييه)، كان ينفر من إظهار ما يسميه العواطف النبيلة؛ فما إن نعبر هذه العواطف حتى تبدو أقل صدقًا. ولم يكن أوليفييه قد سمع صديقه قط يتكلم عن مصالح فرنسا، ودهش بدوره واتسعت عيناه، ولم يعد يفكر حتى في الابتسام، ولم يعد يجد في صاحبه شيئًا مما عهده في صديقه برنارد. وكرر بغباء: فرنسا؟.. ثم أردف ليتهرب من المسئولية – لأن برنارد لم يكن ولا شك يمزح: ولكن يا صديقي ليس هذا رأيي أنا، بل هو رأي لافونتين.

وأجاب (برنارد) بلهجة فيها شبه تحدٍّ:

- أعلم تمام العلم أن ما قلته ليس من تفكيرك، ولكن يا صديقي ليس هذا الرأي رأي (لافونتين)، ولو لم يكن لديه إلا تلك الخفة التي اعترف بها واستغفر عنها في أخريات أيامه، ما كان الفنان الذي نعجب به. وهذا هو ما كتبته بالضبط في امتحاني التحريري هذا الصباح والذي أثبته باستشهادات عدة من

كتاباته، وأنت تعرف أن ذاكرتي قوية. ولكني تركت بعد ذلك (لافونتين)، وتكلمت وهاجمت روح اللامبالاة وروح الدعابة والسخرية التي اعتاد الناس أن يُسموها (الروح الفرنسية)، وهي تسمية كثيرًا ما أكسبتنا في أعين الأجانب صيتًا يؤسف عليه.

قلت إنه يجب ألا نرى في هذه الأبيات بسمة فرنسا، بل عبستها. وأن طريقة التفكير الفرنسية حقًّا قائمة على روح البحث والمنطق، وعلى الحب، وعلى الفهم العميق، وأن (لافونتين) لو لم يكن مدفوعًا بهذه الروح لما كتب إلا قصصه، ولما كتب أبدًا أساطيره الخرافية ولا هذه الأسطورة بالذات -وأبديت أنني أعرفها- التي أخذت منها الأبيات المطلوب التعليق عليها. نعم يا صديقي لقد كان فيما قلته هجوم عنيف وربما تسبب في رسوبي في الامتحان، ولكنني لا أبالي بذلك، لقد كنت أشعر بحاجة شديدة إلى أن أقول ما قلته.

ولم يكن (أوليفييه) حريصًا على الرأي الذي أبداه منذ قليل. لقد قاله مدفوعًا برغبة في الظهور، وفي أن يتظاهر بارتجال عبارة رأى أنها ستبهر صديقه. وإذ كان (برنارد) قد استاء من هذا الرأي، وحمله ذلك المحمل، فلم يبق أمامه هو إلا التراجع. وكان سبب ضعف (أوليفييه) هو حاجته الشديدة إلى محبة (برنارد) أكثر من حاجة (برنارد) إلى مودته، وما صرح به (برنارد) قد أذله وأوجعه. وأسف على تسرعه في القول. أما الآن فقد فاتت فرصة التراجع، ولو قد ترك (برنارد) يتكلم أولًا لتراجع وتقهقر. ولكنه عهد (برنارد) نقَّادًا، ولم يتوقع منه أن ينبري للدفاع عن مشاعر وآراء كان (باسافان) يدعوه ألا ينظر إليها إلا ببسمة -بسمة... لم يعد يشعر برغبة في الابتسام. إنه ليشعر بالخجل، وإذ لم يكن في استطاعته الآن لا التراجع ولا الاعتراض على (برنارد) - وكانت لهجته الصادقة قد أفحمته -فإنه لم يعد يحاول إلا أن يدافع عن نفسه، وأن يتهرب ولذا قال:

- إن كان هذا هو ما كتبته في امتحانك، فأنت إذَنْ لم تقصدني بهذا الهجوم بطبيعة الحال...

وكان (أوليفييه) يتكلم بلهجة ملؤها الضيق، بلهجة لم يكن يحب أن يتكلم بها.

غير أن (برنارد) أردف قائلًا: (ولكنني الآن أقولها لك). فأصابت هذه الجملة من (أوليفييه) مقتلًا. لم يقلها (برنارد) دون شك بنية عدائية، ولكن كيف يتسنى (لأوليفييه) أن يحملها محملًا آخر؟ وسكت (أوليفييه) وكانت هناك الآن هوة تفصل بينه وين (برنارد). ترى أي أسئلة يمكن أن يلقيها لتعيد الاتصال على حافتي الهوة؟ وراح يبحث بلا أمل وقال لنفسه: (ألا يدرك مدى محنتي؟)، وأخذت محنته تتفاقم. ولم تكن هناك عبرات يحبسها، ولكنه كان يشعر بأن في الموقف ما يبكي. كان ذلك خطأً منه أيضًا: فلو قد وعد نفسه فرحًا أقل بهذا اللقاء لما وجد فيه كل هذا الحزن. وهذا ما حدث أيضًا منذ شهرين عندما اندفع للقاء (إدوارد)، وقال لنفسه: (سوف يكون الأمر دائمًا كذلك). ولكم ود أن يترك (برنارد) وأن يذهب إلى أي مكان وينسى (باسافان) و (إدوارد)... ولكن وقع لقاء مفاجئ قطع عليه حبل أفكاره الحزينة.

رأى (أوليفييه) على بعد خطوات أمامه في شارع (سان ميشيل) -وكانا يسيران فيه- أخاه الصغير (جورج)، فأمسك برنارد من ذراعه، واستدار فجأةً وجذبه في سرعة.

- أتعتقد أنه رآنا؟.. عائلتي تجهل عودتي.

لم يكن (جورج) الصغير بمفرده. كان في صحبة (ليون جيريدا إنيزول) (وفيليب وآمانتي). ولم يكن الحديث بين هؤلاء الأطفال الثلاثة ليمنع جورج من أن تكون (عينه يقظة)، على حد قوله. ولنترك قليلًا (أوليفييه) و(برنارد) لنستطيع أن ننصت إلى ما يقوله الثلاثة، أما الصديقان فقد دخلا مطعمًا ولا شك أنهما مشغولان الآن بتناول الطعام أكثر من انشغالهما بالحديث، وكان في هذا عزاء كبير لأوليفييه.

قال (فيليب) لجورج: حسنًا اذهب أنت إذَنْ.

ولكن الأخير قال محتجًّا: (أوه! إنه يشعر بالخوف! إنه يشعر بالخوف).

قالها بلهجة مشبعة بالسخرية والاحتقار، وهي لهجة كفيلة بأن تحفز (فيليب)، وقال (جيريدا إنيزول) بتعال:

- إن كنتما لا تريدان فمن الأفضل أن تقولا ذلك الآن، ولن أجد صعوبة في الاهتداء إلى أشخاص آخرين أكثر جرأةً منكما. هيا أعد لي هذا.

واستدار نحو (جورج) وكان ممسكًا بقطعة صغيرة في يده المغلقة، وصاح (جورج) في حماسة مفاجئة: (ها أنا ذاهب، هيا معي). (وكانوا يقفون بجانب حانوت يبيع السجائر).

ولكن (ليون) قال: (لا، سوف ننتظرك عند ناصية الشارع. تعال «يا فيفي»).

وخرج (جورج) بعد لحظة من الحانوت وهو يمسك في يده علبة من السجائر المسماة (سجائر فاخرة)، وقدم منها لصديقيه وقال (فيفي) في لهجة قلقة: حسنًا؟

وأجابه (جورج): (حسنًا ماذا)؟ قالها بلهجة تكلف فيها عدم المبالاة، وكأن ما قام به أصبح فجأةً شيئًا عاديًّا لا يستحق أن يتكلم المرء عنه، ولكن (فيليب) أصر على سؤاله، وقال:

- هل وفقت في صرفها؟

- طبعًا.

- ألم يقولوا لك أي شيء؟

وهنا هز جورج كتفيه، وسأل:

- وماذا كنت تريد منهم أن يقولوا؟

- وهل أعادوا إليك الباقي؟

وفي هذه المرة لم يشأ (جورج) أن يتنازل ويجيب على سؤاله. ولكنه وقد رأى أن زميله ما زال يشك في الأمر، وما زال الخوف يسيطر عليه ويلح في السؤال، ولذا أخرج النقود من جيبه، وأخذ (فيليب) يعدها. إنها سبعة فرنكات فعلًا، وكان يشعر بالرغبة في أن يسأله: (هل أنت متأكد على الأقل أن هذه النقود ليست مزيفة؟) ولكنه أمسك عن توجيه هذا السؤال.

كان (جورج) قد دفع فرنكًا ثمنًا للقطعة المزيفة. وكان الاتفاق هو أن يقتسموا الباقي بينهم. ولذا أعطى (جريدا إنيزول) ثلاثة فرنكات. أما (فيفي) فلن يحصل على شيء. سينال سيجارةً على أكثر تقدير، وسوف يكون في ذلك درس له ينفعه فيما بعد.

وشجع فيفي نجاح هذه العملية، فطلب من (ليون) أن يبيعه قطعةً ثانيةً. ولكن (ليون) يرى في (فيفي) شخصًا متخاذلًا، ويتظاهر بأنه يحتقره لما بدا عليه في بادئ الأمر من جبن، ويتظاهر بالغضب لكي يثير حماسة زميله، وقال: (كان عليه أن يوافق في الحال، سوف نقوم بهذه اللعبة من دونه). وفي الحقيقة كان (ليون) يرى من الحرص أن لا يقوموا بمحاولة أخرى في مكان قريب من المكان الأول. ثم إن الوقت متأخر، وابن عمه (ستروفيلهو) ينتظره لتناول الغداء.

لم يكن (جيريدا إينزول) بالشخص الذي يعجز عن تصريف هذه القطع بمفرده، ولكنه حاول -تبعًا للتعليمات التي تلقاها من ابن عمه الذي يكبره- أن يكون له شركاء، وسوف يقدم حسابًا له عن مهمته التي تمت بنجاح.

وبينما كانا يتناولان غداءهما قال له ابن عمه، وكان يقوم مؤقتًا بالإشراف عليه في غيبة والديه: (نحن في حاجة إلى أطفال ينتسبون إلى عائلات كبيرة؛ لأنه إذا فرض واكتشف الأمر، فإن ذويهم يعملون على ستره – ولكن طريقة بيع هذه القطع قطعةً بعد قطعة طريقة بطيئة. وعندي اثنان وخمسون صندوقًا يحتوي كل منها على عشرين قطعة يجب أن نصرفها. ويجب أن نبيع كل صندوق منها بعشرين فرنكًا، ولكن لا يمكن أن نبيعها لأي شخص طبعًا. والأفضل أن نكوّن جمعيةً لا ينضم إليها إلا من قدم ضمانات. يجب أن يتورط هؤلاء الأطفال، وأن يقدموا لنا ما يمكن أن نمسك به ذويهم. وقبل أن نعهد إليهم بهذه القطع عليك أن تفهمهم هذا الأمر... أوه! ولكن دون أن تفزعهم. يجب ألا نفزع الأطفال أبدًا. سبق أن قلت إن (مولينييه) الوالد من رجال القضاء، هذا حسن، والوالد (أدمانتي)؟

- هذا أحسن، قد نضجت الآن وصرت تعرف أنه ليست هناك عائلات إلا ولها بعض الأسرار، وأن من يهمهم الأمر في هذه العائلات يرتجفون خوفًا من إذاعتها. علينا أن ندفع هؤلاء الصغار إلى اصطياد الأسرار، وسوف يشغلهم هذا البحث ويساعد بينهم وبين الملل الذي يشعرون به وسط عائلاتهم! ثم إن ذلك سوف يعلمهم قوة الملاحظة والبحث، والأمر بسيط، من لا يأتي بأسرار لن يحصل على شيء، وعندما يدرك بعض الآباء أننا نعرف أسرارهم فسوف يدفعون غاليًا ثمن السكوت، والحقيقة أنه ليس في نيتنا أن نشهر بهم مقابل سكوتنا، ونريد منهم أن يَسكتوا هم وأن يُسكتوا غيرهم، وعندئذ سوف نسكت بدورنا. لنشرب في صحتهم.

وملأ (ستروفيلهو) قائلًا: من المستحسن، بل مما لا غنى عنه أن نخلق علاقاتٍ متبادلةً بين المواطنين، وهكذا تتكون المجتمعات الوطيدة. الكل يتساند! نحن نسيطر على الصغار وهم بدورهم يسيطرون على ذويهم الذين يسيطرون علينا هذا بديع، أتفهم ما أعنيه؟

وكان (ليون) يفهم تمام الفهم معنى ما يقال له، وكان يضحك في خبث، وبدأ يقول:

- إن (جورج) الصغير.

- حسنًا ماذا؟ (جورج) الصغير.

- (جورج مولينيه) أعتقد أنه ناضج، لقد سرق خطابات من أبيه أرسلتها له آنسة في مسرح (الأوليمبيا).

- هل رأيت هذه الخطابات.

- لقد أراني إياها، وكنت أصغى إليه وهو يتحدث مع (آدمانتي) في هذا الموضوع، وأعتقد أنهما كانا سعيدين بسماعي ما يقولانه. وعلى العموم لم يبد عليهما أنهما يريدان إخفاء الأمر عني. وكنت قد احتطت للأمر وتصرفت معهما بالطريقة التي تتبعها أنت؛ لكي أشعرهما بالثقة في. كان (جورج) يقول لفيفي (والغرض من ذلك أن يبهره): «إن لوالدي عشيقة» ، وأجابه (فيفي) لكي يجاريه: «أما والدي أنا فله اثنتان». وكان هذا أمرًا سخيفًا إذ لم يكن هناك داع لأن يتشاجرا على أمر كهذا، ولكنني اقتربت منهما وقلت لجورج (وما دليلك على ذلك) فأجابني: (رأيت خطابات). وتظاهرت بالشك فيما يقول وقلت له: إنك تهزل. ودفعته إلى أن يبوح بكل شيء، ولذا اعترف أخيرًا بأن هذه الرسائل في حوزته، وأخرجها من حافظة كبيرة وأراني إياها.

- هل قرأتها؟

- لم أجد الوقت الكافي لقراءتها. ولكني لاحظت أنها مكتوبة كلها بخط واحد وكانت إحداها مرسلة باسم (قطي الحبيب).

- وهل كان عليها توقيع؟

- نعم (فأرتك البيضاء). وسألت (جورج): (كيف حصلت عليها)؟

وأخرج وهو يضحك من جيب سرواله حلقةً ضخمةً من المفاتيح وقال: بها ما يفتح كل الأدراج.

- وماذا كان يقول السيد (فيفي)؟

- لا شيء. أعتقد أنه كان يشعر بالغيرة.

- هل يمكن أن يعطيك (جورج) هذه الرسائل؟

- إذا لزم الأمر، فسوف أعرف كيف أدفعه إلى ذلك، لا أريد أن آخذها منه.

إنه سوف يعطيها إذا ما قام «فيفي» بشيء مماثل. كل واحد من الاثنين يدفع الآخر.

- هذا ما يسمونه المنافسة. وهل لا ترى غيرهم بالمدرسة؟

- سوف أبحث.

- كنت أريد أن أقول لك أيضًا... يوجد بين نزلاء هذه المدرسة بالقسم الداخلي صبي صغير يدعى «بوريس» فاتركه وشأنه. وسكت قليلًا ثم أردف بصوت خفيض:

- في الوقت الحاضر.

يجلس أوليفييه و«برنارد» الآن حول مائدة في مطعم بشارع (سان ميشيل)، وبدأ شعور (أوليفييه) باليأس يذوب أمام ابتسامة صديقه كما يذوب الجليد في الشمس، ويتحاشى (برنارد) أن ينطق باسم (باسافان) و(أوليفييه) يشعر بذلك. وثمة شعور خفي يوحي إليه هذا، إلا أنه يحس بهذا الاسم على شفتيه. لا بد من أن يتكلم وليكن ما يكون. وقال: (نعم لقد عدنا مبكرين عن الميعاد الذي حددته لعائلتي، وفي هذا المساء يقيم محررو (الأرجونوت)([22]) حفل عشاء، وباسافان مصر على حضور هذا الحفل، وهو يريد أن تعيش مجلتنا الجديدة في وئام مع أختها الكبرى وأن لا تنافسها... عليك أن تَحضر الحفلة... لعلك تُحضر معك إدوارد ... لا لتناول الطعام لأنه لا بد من دعوة لذلك، ولكن بعده مباشرة. وسوف يقام الحفل في قاعة بالطابق الأول في مقهى (البانتيون)، وسوف يحضر أهم محرري مجلة (الأرجونت)، وكثيرون ممن سيساهمون في تحرير مجلة (الطليعة). لقد أوشك أن يتم إعداد عددنا الأول، ولكن قل لي... لماذا لم ترسل لي شيئًا للمجلة؟

وأجاب (برنارد) بلهجة فيها شيء من جفاء: لأنه لم يكن عندي شيء معد)، وأضاف (أوليفييه) وقد صار صوته أقرب إلى التوسل:

- كتبت اسمك بجانب اسمي في الفهرست... ويمكن أن ننتظر قليلًا إذا لزم الأمر... اكتب أي شيء، ولكن شيئًا يكون... لقد وعدنا تقريبًا...

إنه ليسيء برنارد، ولا شك أن يؤلم (أوليفييه)، ولكنه يتغلب على عواطفه، ويقول:

- اسمع يا صديقي. من الأفضل أن أعترف لك بالحقيقة مباشرة: إنني أخشى أن لا أتفاهم مع (باسافان).

ولكن ما دمت أنا الذي أدير التحرير! إنه يترك لي مطلق الحرية.

- ثم إنه لا يعجبني أن أكتب أي شيء، لا أريد أن أكتب (أي شيء).

- كنت أقول (أي شيء)؛ لأنني واثق من أن أي شيء منك سوف يكون ولا شك شيئًا جميلًا. وأنه لن يكون أبدًا أي شيء.

ولا يجد أوليفييه ما يقوله. ويرتبك... إنه إذا لم يجد صديقه معه في المجلة فإنها لن تهمه بعد الآن، كم كان جميلًا ذلك الحلم، كم كان جميلًا أن يبدأا معًا.

وأضاف برنارد: ثم إنني يا صديقي إذا كنت قد بدأت أعرف تمامًا ما لا أريد عمله، فإنني لا أدري بعد تمامًا ما سأعمله. لا أدري حتى إذا كنت سأكتب.

ويبهت أوليفييه لهذا التصريح ولكن برنارد يواصل حديثه قائلًا:

- لا يستهويني أن أكتب شيئًا دون عناء، إنني أحسن صياغة عباراتي، ولهذا لا أطيق العبارات المنقمة. وليس معنى ذلك أنني أحب العسير؛ لأنه عسير، ولكني ألاحظ أن المهتمين بالأدب في أيامنا هذه لا يبالون كثيرًا بما يكتبون، ولست أفهم بعد حق الفهم حياة الآخرين حتى أتمكن من كتابة قصة. أما عني أنا فإني لم أعش بعد. والنظم لا يعجبني؛ فالبيت ذو الاثنى عشر مقطعًا قد بلي من كثرة

الاستعمال، أما بيت الشعر الحر فأرى أنه عديم الشكل والشاعر الوحيد الذي يعجبني هو (رامبو) ([23]).

- وهذا ما ذكرته في منهج المجلة.

- إذَنْ لا داعي لأن أكرر ما قلته أنت. لا يا صديقي، لست أدري هل سأكتب أم لا، ويبدو لي أحيانًا أن الكتابة تمنعنا من الحياة، وأنه من الممكن أن نعبر عما في نفوسنا بالأعمال خيرًا مما نستطيعه بالأقوال.

وأجاب أوليفييه بتردد: الآثار الفنية هي أعمال خالدة.

ولكن برنارد لم يكن يصغي إليه، واستأنف الحديث:

- أعجب ما يعجبني في (رامبو) هو أنه آثر الحياة.

- لقد أفسد حياته!

وكيف يتسنى لك أن تعرف ذلك؟

- أوه! أما عن هذا يا صديقي...

- لا يتسنى لنا أن نحكم على حياة الآخرين بمظهرها، ولكن لنفرض مع هذا أنه أفسد حياته فلقي الفاقة والمرض والشؤم... ولكني أغبطه على هذه الحياة بما كانت عليه نعم. إنني أغبطه عليها رغم نهايتها القذرة...

ولم يكمل برنارد جملته، وكان على وشك أن يذكر اسم كاتب معاصر شهير، ولكنه تردد أمام أسماء كثيرة ورفع كتفيه وقال:

- إنني أشعر شعورًا غامضًا أن في أعماق ذاتي مطامح خارجة عن المألوف، وأمواجًا وحركات واضطرابات لا تفهم، ولا أريد محاولة فهمها، بل ولا أريد ملاحظتها خشية أن أمنعها من الحدوث وأن أقضي عليها. وحتى وقت قريب كنت لا أني عن تحليل ما يعتمل في نفسي. وكان من عادتي أن أتحدث مع ذاتي حديثًا دائمًا، أما الآن فحتى لو أردت ذلك فما أنا بقادر عليه.

زايلتني هذه العادة الشاذة فجأةً ودون أن أشعر. وفي رأيي أن هذا الحديث أو هذا «الحوار الداخلي» كما كان يسميه أستاذنا إنما هو عبارة عن لون من ألوان ازدواج الشخصية، وقد أصبحت الآن عاجزًا عن ذلك منذ بدأت أحب شخصًا آخر أكثر مما أحب ذاتي.

قال «أوليفييه»: أتعني بذلك «لورا» ألا تزال تحبها ذلك الحب؟

قال برنارد: لا، إن حبي لها يزداد، واعتقادي أن خصائص الحب أن لا يبقى على حال واحدة، وأن ينمو وإلا أصابه الوهن، وهذا هو الفرق بينه وبين الصداقة.

وقال أوليفييه بحزن:

- والصداقة أيضًا يمكن أن يصيبها الوهن.

- وأعتقد أنه ليست للصداقة هذه المجالات الواسعة.

- قل لي... ألا تغضب إذا طلبت منك شيئًا؟

- سوف ترى بنفسك.

- ذلك لأنني لا أريد أن أغضبك!

- لو حفظت أسئلتك في صميم نفسك لكان غضبي أشد.

- كنت أريد أن أعرف: أتحس نحو «لورا» باشتهاء؟

وفجأة انقلب برنارد جادًّا تمامًا:

سأجيبك لأنك أنت الذي تسأل... حسنًا يا صديقي... إن شيئًا غريبًا يعتمل في نفسي. منذ عرفتها، لم أعد أشتهي أحدًا، أنا الذي كنت ألتهب شوقًا إلى عشرين امرأةً أصادفهن في الطريق، ألتهب إليهن في وقت معًا (وكان هذا هو ما يمنعني عن اختيار واحدة منهن)، أما الآن فأعتقد أنني لم أعد أحس بصورة أخرى للجمال غير صورتها، ولن أعشق طلعةً غير طلعتها، ولن أهوى ثغرًا سوى ثغرها، ولن أحب إلا نظرتها. إنه نوع من التقديس ذلك أستشعره إزاءها، وإذا ما كنت إلى جوارها شعرت أن أي فكرة جسدية هي لون من الكفر. أعتقد أنني لم أفهم حقيقة نفسي وأن طبيعتي عفيفة، فبفضل (لورا) تسامت غرائزي. وأشعر أن بي قوى هائلة لم تستغل وأريد أن أستغلها، وأنا أحسد الجندي... أو بالأحرى لا أحسد أحدًا، ولكن نفسي تضيق بما فيها من ثورة داخلية وأحاول أن أسيطر عليها.

أشعر وكأن بداخلي بخارًا يمكن أن يخرج وهو يطلق صفيرًا (وهذا هو الشعر) كما يمكن أن يدير مضخاتٍ أو عجلاتٍ، أو أن يتسبب خروجه في انفجار الآلة نفسها.

أتعرف ما هو العمل الذي يمكن أن أعبر به عما يجيش في نفسي؟ إنه... أوه!

إنني أعرف حق المعرفة أنني لن أقتل نفسي، ولكنني أفهم جيدًا ما يعنيه (ديمتري كارامازوف)([24]) عندما يسأل أخاه إن كان يدرك أنه من الممكن أن يقتل المرء نفسه من فرط الحماس، ولمجرد شعوره بأن طاقته للحياة قد فاقت الحد... أي لحاجة في نفسه تدفعه إلى الانفجار.

وكان ينبعث من كيان (برنارد) بأجمعه وهو يتكلم نوع من الإشعاع غير عادي. كم كان تعبيره عما يجيش في صدره رائعًا! وكان (أوليفييه) ينظر إليه وهو شبه مذهول.

وتمتم (أوليفييه) في تردد: وأنا أيضًا أفهم معنى أن يقتل المرء نفسه، ولكن ذلك لا يكون إلا بعد أن يذوق المرء لونًا من السعادة فائق القوة بحيث يبهت بعده كل لون يمكن أن تتلون به الحياة، سعادة تجعل المرء يقول لنفسه: هذا يكفيني، إنني سعيد وبعد الآن...

ولكن (برنارد) لم يكن يصغى إليه. وسكت. فماذا يجدي أن يتكلم في الفراغ؟

وأظلمت سماؤه كلها من جديد. وأخرج برنارد ساعته، وقال:

- حان الوقت لأذهب إلى لجنة الامتحان، تقول هذا المساء؟ في أي ساعة؟

- أوه! أعتقد أن الساعة العاشرة مناسبة، سوف تأتي؟

- نعم، وسأحاول أن أصطحب (إدوارد)، ولكنك تعرف أنه لا يحب (باسافان) وأن اجتماعات رجال الأدب تضايقه أشد الضيق. إن حضر فسوف يكون ذلك ليراك فحسب. قل لي: ألا أستطيع مقابلتك بعد أن أنتهي من امتحان اللغة اللاتينية؟

ولم يجبه (أوليفييه) في الحال، وكان يفكر واليأس ملء قلبه، إنه وعد (باسافان) بأن يذهب إليه في الساعة الرابعة لدى الناشر الذي سيتولى طبع مجلة «الطليعة». وكان مستمدًّا أن يضحي بأي شيء ليتحرر من الميعاد.

- كنت أحب أن أقابلك، ولكنني مرتبط بميعاد.

ولم يبد عليه شيء مما كان في نفسه من حزن، وأجابه (برنارد):

- خسارة!

وهنا افترق الصديقان.

لم يقل (أوليفييه) (لبرنارد) أثناء حديثهما أي شيء مما كان قد عاهد نفسه على أن يقوله له، وخشي أن يكون كلامه قد ضايق صاحبه. وكان هو في ضيق من نفسه، لقد كان يتباهى بنفسه في ذلك الصباح، أما الآن فها هو ذا يسير مطأطئ الرأس. أما صداقته لباسافان -وقد كان فخورًا بها في بادئ الأمر- فها هي ذي ثقيلة عليه؛ لأنه أحس أن (برنارد) لا يرضى عنها. وفي هذا المساء في حفلة العشاء - وأمام الجميع- إذا قابل صديقه فلن يستطيع أن يكلمه. لن يكون هذا الحفل ممتعًا ما دام الصديقان لم يتصافيا من قبل. وقد دفع الغرور (أوليفييه) إلى أن يدعو إلى هذا الحفل أيضًا الخال (إدوارد) فيا لها من فكرة منكرة! سيكون لزامًا عليه إذا ما وجد مع (باسافان) وقد أحاط به من هم أكبر منه سنًّا، وزملاؤه ومن سيعاونونه في مجلة «الطليعة» - سيكون عليه أن يستعرض نفسه أمامهم، وسوف يدفع هذا الاستعراض (إدوارد) إلى أن يزيد في الخطأ في الحكم عليه وسيكون هذا الخطأ في الحكم نهائيًّا... آه لو استطاع رؤيته قبل الحفل! آه لو استطاع رؤيته في الحال! إذَنْ لألقى بنفسه على صدره! وربما بكى وباح له بما في سريرته... ومع كل فهناك وقت حتى الرابعة.

واستقل سيارةً أجرةً سريعةً، وأعطى العنوان للسائق ووصل أمام باب البيت وقلبه يخفق خفقًا عنيفًا، وقرع الجرس... لم يكن إدوارد موجودًا... لقد خرج.

يا (لأوليفييه) المسكين! بدلًا من أن يختبئ عن ذويه، أليس من الأفضل أن يعود إليهم ببساطة؟ لو فعل لوجد خاله (إدوارد) عند والدته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

يوميات «إدوارد»

«يخدعنا كاتبو القصص عندما يعرضون علينا الفرد دون أن يحسبوا حسابًا لألوان الضغط التي تحدق به. إن الغابة هي التي تشكل الشجرة. وليس لكل منا إلا مكان ضئيل جدًّا يستطيع أن يتحرك فيه، تمامًا كالشجرة في الغابة! فما أكثر البراعم التي تختنق! كل منا يلقي أغصانه حيث يستطيع. أما غصن «التصوف» فهو وليد الضغط. ولا مفر إلا بالصعود إلى عل. ولست أفهم كيف لا تدفع «بولين» بغصن التصوف، ولا أدري ماذا تنتظر من ألوان الضغط أكثر من ذلك. لقد تحدثت إليَّ هذه المرة عن سريرتها أكثر مما فعلت من قبل.

وأعترف بأنني لم أكن أتصور أن مظاهر سعادتها تخفي ألوانًا من الألم والاستسلام. وطبيعي أن تشعر بخيبة أمل في مولينييه؛ فما كان لنفس كنفسها إلا أن تشعر بذلك. في حديثي معه أول أمس استطعت أن أقيس حدوده. كيف استطاعت «بولين» أن تتزوج من شخص كهذا؟.. واآسفاه! إن ألعن أنواع الضعف –وأعني بذلك ضعف الخلق- إنما هو شيء خفي ولا يظهر إلا عند الاختبار.

وشغل «بولين» الشاغل هو أن تخفي سقطات أوسكار وأخطاءه عن أعين الجميع وبخاصة عن عين أولادهما، وهي تبذل كل جهدها لكي تدفع هؤلاء إلى حب والدهم، وإن مهمتها لثقيلة. ولكنها تتصرف بمهارة حتى إنني خدعت فيه أنا نفسي. وهي تتكلم عنه غير ازدراء، تتكلم عنه بلهجة فيها تسامح يوحي بالكثير من الأشياء، وهي تشكو أنه ليس له سلطان أقوى على أبنائه. ولما أفصحت لها عن أسفي لوجود «أوليفييه» مع «باسافان» فهمت أن الأمر بيدها وحدها لما سافر «أوليفييه» إلى جزيرة (كورسيكا) وقالت لي:

لم أكن موافقةً على هذه الرحلة. ثم إن هذا السيد (باسافان) لا يعجبني، ولكن ما باليد حيلة. عندما أرى أن ليس في مقدوري منع شيء فإنني أفضل أن أمنحه، وكأنني راضية عنه. أما (أوسكار) فهو يتساهل دائمًا ويتساهل معي أيضًا. ولكن عندما أرى من واجبي الاعتراض على شيء يريده الأولاد أو عندما أقاوم رغباتهم أو أصمد أمامهم، فإنني لا أجد منه أي سند. و(فنسان) نفسه قد دافع عن الفكرة، وعندئذ لم أجد فرصةً للاعتراض على ما يريده (أوليفييه) دون أعرض نفسي إلى فقدان ثقته، مع أن جل اعتمادي في علاقاتي بهم على هذه الثقة.

وكانت ترتق جوارب قديمةً من تلك الجوارب التي أتصور أن (أوليفييه) لم يعد يرضى عنها. ووقفت عن الحديث لتدخل الخيط في الإبرة، ثم أردفت في نبرة خفيضة وحزينة كمن يبث همه:

- وثقة (أوليفييه)... آه لو كنت متأكدةً من احتفاظي بها! ولكن لا... يبدو أنني فقدتها.

وعندما حاولت أن أعترض على قولها هذا –دون اقتناع مني- ابتسمت.

وتركت ما كان في يدها، وأردفت:

- هذا هو الدليل. إنني أعرف أنه موجود بباريس، قابله جورج هذا الصباح، وقد قال ذلك عرضًا، وتظاهرت بأنني لم أسمع ما قاله، لأنه لا يعجبني أن أراه يفشي سر أخيه، ولكن ها أنا أعرف الحقيقة.

(أوليفييه) يخفي نفسه عني، وعندما سنتقابل سوف يتصور أنه مجبر على أن يكذب عليّ. وسوف أتظاهر بأنني أصدق قوله، كما أتظاهر بأنني أصدق ما يقوله أبوه كل مرة يحاول فيها أن يخفي شيئًا عني.

وقلت: السبب في ذلك أنهم يخشون إيلامكِ.

- ولكن هذا التصرف يؤلمني أكثر. إنني متسامحة. هناك كثير من الأخطاء أتسامح فيها وأغمض عيني عليها.

- عمن تتكلمين الآن؟

- أوه عن الأب وعن الابن معًا.

- عندما تتظاهرين بأنك لا ترين تلك الأخطاء، فإنك تكذبين أنتِ أيضًا.

- ولكن ماذا تريد أن أفعل؟ يكفي أنني لا أشكو. وليس في استطاعتي أن أوافق على هذه الأفعال! إنني أقول لنفسي إن زمام الأمر يفلت من يد المرء عاجلًا أو آجلًا، وإن الحب مهما كان فيه من حنان لن يستطيع شيئًا. إن حبي يضايقهم ويحرجهم ويصل بي الأمر إلى حد إخفائه عنهم.

- إنك الآن تتكلمين عن أبنائكِ؟

- لماذا تقول ذلك! أتتصور أنني لم أعد أعرف كيف أحب (أوسكار)؟ إنني أقول هذا لنفسي أحيانًا، ولكنني أقول أيضًا إن خشية الألم الشديد هي التي تجعلني لا أحبه أكثر من ذلك... نعم، لا بد أنك على حق. إذا تعلق الأمر بأوليفييه فإنني أؤثر الألم.

- و(فنسان)؟

- من سنوات كنت أقول عنه كل ما قلته لك الآن عن (أوليفييه).

- يا صديقتي المسكينة... وعما قريب سوف تقولينه عن (جورج).

- ولكن المرء يستسلم بطيئًا. ومع ذلك لم أكن أطلب من الحياة الكثير.

وقد تعلمت أن أطلب منها أقل مما كنت أريد... ودائمًا أقل وأقل. وأضافت في وفق: (وأطلب دائمًا من نفسي أكثر وأكثر).

وقلت لها وأنا أبتسم بدوري: بأفكار كهذه توشكين أن تصبحي مسيحيةً حقيقيةً.

- هذا ما أقوله لنفسي أحيانًا. ولكن لا يكفي أن تكون للمرء هذه الأفكار ليصبح مسيحيًّا حقًّا.

- وكذلك لا يكفي أن يكون المرء مسيحيًّا لتكون له هذه الأفكار.

- كثيرًا ما فكرت في أن أطلب منك، إن سمحت، أن تكلم هؤلاء الأولاد عوضًا عن والدهم.

- (فنسان) بعيد.

- وقد فات الأوان بالنسبة له. إنني أفكر بقولي هذا في (أوليفييه)، كنت أتمنى أن يسافر معك أنت.

وعند سماعي هذه الكلمات التي صورت لي فجأةً ما كان يمكن أن يحدث لو لم أرحب دون تبصر بالمغامرة التي صادفتني، عند سماعي هذه الكلمات، انقبض قلبي، ولم أستطع بادئ الأمر أن أقول شيئًا، ثم صعدت العبرات إلى عيني -ورغبة في أن أبدي مبررًا لاضطرابي قلت:

- بالنسبة له هو أيضًا، أخشى أن تكون الفرصة قد فاتت (قلتها وأنا أتنهد). وعندئذ أمسكت (بولين) بيدي وصاحت: كم أنت طيب القلب!

وشعرت بالحرج إذ رأيتها تخطئ فهم حقيقة شعوري، ولم يكن في استطاعتي أن أبين لها الحقيقة، ولذا أردت أن أوجه الحديث وجهةً أخرى غير هذه الوجهة التي كانت تؤلمني وسألتها:

- و(جورج)؟

فقالت: إنه يسبب لي همومًا أكثر مما سبب الآخران. ولا أستطيع القول بأنني فقدت سلطاني عليه، إذ إنه لم يمنحني ثقته قط، ولم يكن ممتثلًا قط.

وترددت لحظات، ولا شك أن ما سترويه سيؤلمها أشد الألم، وأخيرًا قالت:

- حدث هذا الصيف شيء خطير. شيء يؤلمني جدًّا أن أقصه عليك. ومع كل ما زلت أشك فيه إلى حد ما... اختفت ورقة من فئة المائة فرنك من الصوان الذي اعتدت أن أضع فيه نقودي. وخشيت أن يكون ظني إثمًا فلم أتهم أحدًا. وكانت الخادمة التي تقوم بشؤوننا بالفندق شابَّةً يلوح أنها أمينة. وقلت أمام (جورج) إنني فقدت هذا المبلغ، وأعترف لك أن شكوكي كانت تتجه إليه فلم يضطرب ولم يحمر وجهه خجلًا... وخجلت مما راودني من شكوك. وأردت أن أقنع نفسي بأنني أخطأت، وأعدت حسبتي ولكن وآسفاه! لم يكن هناك أي مجال للشك في هذا. كان ينقصني مائة فرنك. وترددت في أن أسأله، وأخيرًا لم أسأله. ومنعني من ذلك خوفي من أن يضيف إلى السرقة خطيئة الكذب. هل أخطأت في ذلك؟.. نعم، إنني أؤنب نفسي الآن على أنني لم أسرع في معالجة الأمر، ولعلني خشيت أن أضطر إلى أن أقسو أو ألا أعرف كيف أقسو قسوةً كافيةً، وتظاهرت بأنني أجهل ما حدث، ولكني أؤكد لك أن قلبي كان معذبًا. وتركت الوقت يمر وقلت لنفسي: فاتت الفرصة وسيكون العقاب متأخرًا. ولكن كيف أعاقبه؟ لم أفعل شيئًا، وأنا أؤنب نفسي على هذا... ولكن ماذا كان عساي أن أفعل! وفكرت في أن أبعث به إلى إنجلترا، وفكرت أيضًا في أن أطلب منك النصح في هذا الأمر، ولكني لم أكن أعرف أين أنت... غير أني لم أخف عنه ألمي وقلقي، وأعتقد أنه تأثر بذلك؛ لأن قلبه طيب كما تعلم. وأنا أعتمد على تأنيبه لنفسه إن كان هو الذي ارتكب هذه الفعلة- أكثر مما اعتمد على ما كان يمكن أن أؤنبه به. وأنا واثقة أنه لن يعيد الكرة. كان مع زميل ثري جدًّا، ولا شك أن هذا الأخير دفعه إلى التبذير. ولا شك أنني تركت الصوان مفتوحًا... ثم إنني لست متأكدةً تمامًا من أنه هو الذي فعل ذلك. لقد كان في الفندق كثير من النزلاء العابرين يتجولون في أنحائه.

وأعجبتني مهارتها في تلمس الأسباب التي يمكن أن تبرئ ابنها. وقلت:

- كنت أتمنى أن ليرجع هذه النقود إلى المكان الذي أخذها منه.

فقالت: قلت ذلك لنفسي. ولكنني إذ لم يفعل هذا، آثرت أن أرى في تصرفه دليلًا على براءته. وقلت أيضًا إنه لا يجرؤ على ذلك.

- وهل تحدثت إلى والده في الأمر؟

وترددت لحظات، وقالت أخيرًا:

- لا، أفضل أن لا يعلم شيئًا عن الأمر.

ولا شك أنها تصورت سماع ضوضاء في الغرفة المجاورة، فذهبت إليها لتتأكد من أن لا أحد هناك. ثم قالت وهي تجلس من جديد بجانبي:

- قال لي (أوسكار) إنكما تناولتا الغداء معًا منذ أيام. ولقد مدحك كثيرًا حتى إنني فهمت أنك ولا شك أصغيت إلى ما كان يقول (وكانت تبتسم في حزن وهي تنطق بهذه الكلمات). إن كان قد باح لك بأسرار فأنا أحب أن أحترمها، وإن كنت أعرف عن حياته الخاصة أكثر مما يتصور. ولكن منذ عودتي لا أفهم ما به. إنه يتظاهر بالرقة وأوشكت أن أقول بالخنوع. وأكاد أشعر بالضيق من تصرفه هذا. لكأنه يخافني. وهو مخطئ في ذلك. إنني على علم بصلاته منذ وقت طويل. بل أعرف مع من هذه الصلات، وهو يعتقد أنني أجهلها ويتخذ احتياطاتٍ ضخمةً ليخفيها عني. ولكن هذه الاحتياطات مكشوفة لدرجة أنه كلما أخفاها فضحته. في كل مرة يتظاهر بالمشغولية والضيق والهم وهو موشك على الخروج أعرف أنه يجري إلى ملذاته. وأشعر عندئذ بالرغبة في أن أقول له: ولكن يا صديقي إنني لا أمنعك. هل تخشى أن أشعر بالغيرة، ولو استطعت لضحكت من تصرفاته هذه. أخشى ما أخشاه هو أن يلحظ الأولاد شيئًا من هذا؛ فهو شارد اللب غير ماهر في إخفاء ما به. وأحيانًا -دون أن يلحظ شيئًا- أرى نفسي مضطرةً أن أساعده، وكأنني شريكته في إخفاء هذه الأمور. وأؤكد لك أن الأمر يصل بي أحيانًا إلى أن أتسلى بذلك فأخترع له الأعذار، وأضع في جيب معطفه رسائل ينساها في كل مكان.

وقلت لها: إنه فعلًا يخشى أن تكوني قد وقعتِ على هذه الرسائل.

- هل قال لك ذلك؟

- وهذا هو ما يجعله يشعر بكل ذلك الخوف.

- أتتصور أنني أحاول قراءتها؟

وامتعضت كأن جرحًا أصاب كرامتها، ولذا اضطررت أن أقول:

- ليس الأمر أمر الرسائل التي تركها عن سهو، ولكن هناك مجموعة من الرسائل كان قد وضعها في درج، ويقول إنه لم يعثر عليها بعد ذلك. وهو يعتقد أنك استحوذت عليها. وعند سماعها هذه الكلمات، رأيت وجهها يشحب، واستحوذ على كل فكري فجأةً نفس الشك الذي طاف بذهنها. وأسفت على أنني تسرعت في الكلام، ولكن الأمر قد وقع. وأشاحت عني بوجهها، وتمتمت:

- يا ليتني كنت أنا التي عثرت عليها!

وبدت منهارةَ، وأخذت تردد: «ماذا يمكن عمله؟ ماذا يمكن عمله؟»، ثم قالت وهي ترفع عينيها نحوي من جديد: «هل تستطيع أنت أن تكلمه في الأمر؟».

وبالرغم أنها تجنبت ذكر اسم (جورج) فقد كان واضحًا تمامًا أنها تتهمه هو بهذه الفعلة.

وقلت: سوف أحاول. وسأفكر في الأمر (قلت ذلك وأنا أنهض) وقالت وهي تصحبني إلى خارج الغرفة:

- لا تقل شيئًا لأوسكار فليبقِ على اتهامه لي، ليبقِ في تصوره للأمر. هذا أفضل، أرجو أن تعود لزيارتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

«شعر أوليفييه» بالحسرة إذ لم يستطع مقابلة الخال «إدوارد»، ولم يستطع تحمل وحدته، ولذا فكر في أن يوجه قلبه نحو «أرمان» ذلك الفتى الذي ينشد الصداقة، ولذا يمم وجهه شطر القسم الداخلي بمدرسة «فيدل».

واستقبله «أرمان» في غرفته التي يوصل إليها سلم الخدم. كانت غرفةً صغيرةً ضيقةً لها نافذة على فناء داخلي، تطل عليه دورات المياه والمطاهي في المبنى المجاور.

وكان بها جهاز عاكس للضوء من الزنك المجوف، يتلقى ضوء النهار من أعلى ويعكسه ضوءًا باهتًا في الغرفة. وتهوية الغرفة رديئة. ولذا كانت تسودها رائحة كريهة أليمة.

وقال «أرمان»: ولكن المرء يعتاد على هذه الغرفة. ولعلك تدرك أن والديَّ يخصصان أفضل الغرف للنزلاء القادرين على الدفع، وهذا أمر طبيعي. ولقد تركت الغرفة التي كانت لي في العام الماضي «لفيكونت»، وهو شقيق صديقك الشهير «باسافان»، وهي غرفة جديرة باستقبال أمير، إلا أن قربها من غرفة «راشيل» تجعلني تحت رقابتها. وهناك كثير من الغرف، ولكنها ليست مستقلةً كلها. ولذلك فإن «سارة» المسكينة التي عادت هذا الصباح من إنجلترا، تضطر لتذهب إلى غرفتها الجديدة أن تمر من غرفة والدينا (وهذا أمر لا يناسبها)، أو أن تدخل عن طريق غرفتي، التي لم تكن في بادئ الأمر إلا دورة مياه أو مخزنًا. ولكني هنا أتمتع على الأقل بحرية الخروج والدخول كيفما أشاء دون أن يتجسس عليَّ أحد. ولقد فضلت هذه الغرفة على الغرف الموجودة بأعلى البناء والتي خصصت للخدم. وفي حقيقة الأمر، يحلو لي إلى حد ما أن أسكن مكانًا غير مريح. وهذا ما يمكن أن يُسميه والدي: «استعذاب العذاب». ويمكن أن يشرح لك هذا الأمر قائلًا إن ما يؤذي الجسد يمهد لخلاص الروح. وعلى كل حال فهو لم يدخل هنا أبدًا. ولعلك تدرك أنه مشغول بأمور أخرى تعوقه عن التفكير في مسكن ابنه. والدي رجل عجيب، وهو يحفظ عن ظهر قلب عبارات يهون بها على الناس وتناسب كل أحداث الحياة الهامة، ويسر المرء أن يسمع هذه العبارات. ومن المؤسف أنه ليس لديه الوقت الكافي أبدًا للحديث... هل تحب أن تشاهد مجموعة لوحاتي؟ الصباح هو أنسب الأوقات للاستمتاع بمشاهدتها. هذه صورة مطبوعة بالألوان من عمل تلميذ «باولو أوشيلو»، وهي تصلح للأطباء البيطريين. وقد بذل الفنان مجهودًا مشكورًا (ليلخص ويركز ويظهر في جواد واحد كل الآلام التي تظهر روح الجياد على حد قول رجال الدين، وسوف يلفت نظرك ما في نظرة الجواد من روحانية... أما هذه فإنها لوحة رمزية تمثل مراحل الحياة المختلفة من المهد إلى اللحد، وهي من ناحية فن الرسم لا تساوي كثيرًا، ولكن ربما للفكرة ذاتها بعض القيمة. وعلى بعد سوف تعجب بصورة لغانية من رسم تيسيان)([25])، وقد وضعتها فوق سريري لتوحي إليَّ بالملذات. أما هذا الباب فهو باب غرفة (سارة).

وآلم (أوليفييه) مظهر الغرفة القذر. ولم يكن الفراش مرتبًا، وعلى مائدة الزينة غناء الغسيل والذي لم يفرغ من مائه المستعمل!

وأجاب (أرمان) ردًّا على التساؤل الذي قرأه في نظرة (أوليفييه):

- إنني أرتب غرفتي بنفسي. وهنا ترى المائدة التي أستذكر دروسي عليها، ولا يمكنك أن تتصور ما يوحيه إلى جو هذه الغرفة.

(جو هذا المأوى العزيز...)([26])

وأنا مدين لجو هذه الغرفة بفكرة قصيدتي الأخيرة: (إناء الليل)([27]).

وكان (أوليفييه) قد جاء لمقابلة (أرمان) وفي نيته أن يكلمه عن مجلته، ون ينال موافقته على التعاون معه فيها، ولكنه لم يعد يجرؤ على أن يطلب ذلك منه.

غير أن (أرمان) عاد إلى حديثه من تلقاء نفسه وقال:

- (إناء الليل). ما رأيك، أليس عنوانًا جميلًا؟.. وأقدم هذه القصيدة بعبارة للشاعر (بودلير)([28]):

(هل أنت إناء جنائزي معد لاستقبال بعض العبرات؟).

إنني أستعمل هذا التشبيه القديم (الذي لا يزال فتيًّا)، والخاص بصانع الخزف الذي يخلق ويشكل كل إنسان على شكل إناء مخصص لاستقبال شيء ما، لا يدرك أحد كنهه. وأقارن نفسي في حماس شاعري بالإناء المذكور. وقد أوحي لي هذه الفكرة -كما كنت أقول لك- الرائحة الكريهة المنبعثة من هذه الغرفة، وأنا معجب على وجه خاص ببداية القصيدة.

(من ذا الذي بلغ الأربعين، ولم يصب بالبواسير)..

وكنت في بادئ الأمر قد كتبت (من ذا الذي بلغ الخمسين...) لكي أطمئن القارئ، ولكن ضرورة الجناس ألجأتني إلى أن أضع كلمة (الأربعين)، أما عن كلمة (بواسير) فلا شك أنها أجمل ألفاظ اللغة الفرنسية قاطبةً... حتى بغض النظر عن معناها (وأضاف هذه العبارة وهو يبتسم في بلاهة وخبث).

وبقى (أوليفييه) ساكتًا وقد انقبض قلبه. ولكن (أرمان) أردف:

- لا داعي لأن أقول لك إن (إناء الليل) يمتلئ فخرًا عندما يزوره إناء مليء مثلك بالروائح العطرة...

وقال له «أوليفييه» أخيرًا في يأس:

- أو لم تكتب شيئًا آخر غير هذا الشيء؟

- كنت سأقدم قصيدتي (إناء الليل) لمجلتك المجيدة، ولكني بعد أن سمعت اللهجة التي نطقت بها كلمة (هذا الشيء) أدركت أن قصيدتي لم يسعدها الحظ بإعجابك. وفي مثل هذه الحالات يلجأ الشاعر دائمًا إلى هذا الدفاع: (إنني لا أكتب لكي يعجب بي الناس)، ويقنع نفسه بأنه أخرج آية من الآيات. ولكني لن أخفي عليك رأيي في قصيدتي إذ إنني أحكم عليها بأنها تثير الاشمئزاز. ومع كل فإنني لم أكتب فيها إلا البيت الأول. وعندما أقول (كتبت) فإن هذه طريقة من طرق التعبير، لأنني لم أنظم هذا البيت إلا الآن في التو واللحظة للحفاوة بك... ولكن هل كنت تفكر حقيقة في أن تنشر شيئًا من تأليفي؟ هل كنت تتمنى معاونتي؟ هل كنت تعتقد أن في إمكاني أن أكتب شيئًا نظيفًا؟ هل تبينت على جبيني الشاحب ما يوحي بعبقريتي؟ إنني أعرف أن غرفتي هذه لا يسمح الضوء فيها بالنظر في المرآة، ولكنني عندما

أنظر إلى نفسي في المرآة كما فعل «نارسيس»([29]) فإنني لا أرى غير شخص فاشل... ومع كل ربما كان ذلك نتيجة لضعف ضوء النهار هنا... لا يا عزيزي «أوليفييه»، لا، إنني لم أكتب شيئًا هذا الصيف وإن كنت تعتمد عليَّ لأكتب شيئًا لمجلتك فمن الأفضل ألا تفعل. ولكن كفاني كلامًا عن نفسي... هل كان كل شيء على ما يرام في (قورسيقة)؟ هل استمتعت برحلتك؟ هل استفدت؟ هل استمتعت بالراحة بعد ما كابدته من عناء؟ وهل...

وهنا لم يطق «أوليفييه» صبرًا، وقال:

- صه يا صديقي كفاك مزاحًا. إن كنت تتصور أن ما تقوله طريف...

وصاح «أرمان»: حسنًا. وهذا رأيي أنا فيما أقوله، لا يا عزيزي لا تتصور أنني أبله. ما زال عندي بعض الذكاء لكي أدرك أن ما أقوله لك سخيف.

- ألا تستطيع أن تتكلم بلهجة جادة؟

- سوف نتكلم بلهجة جادة ما دام هذا النوع من الكلام هو الذي يصادف الهوى من نفسك. أصبحت شقيقتي الكبرى «راشيل» عمياء، ومنذ عامين لم تعد تستطيع القراءة بلا عوينات. وكنت أتصور في بادئ الأمر أنه لم يكن عليها إلا تغيير زجاج نظارتها. ولكن هذا لم يعد يكفي. وبناء على طلبي ذهبت لاستشارة أخصائي. ويبدو أن حساسية العين ضعفت. وأنت تعرف أن هذا يعني شيئين مختلفين تمامًا: من ناحية، قد يكون هناك عيب في قاع العين، وهنا يمكن للزجاج أن يعالج هذا العيب، ولكن من ناحية أخرى بعد أن يقرب الزجاج أو يبعد الصورة المرئية يمكن أن لا تؤثر هذه الصورة بشكل كاف على الحدقة ولا تصل حينئذ إلى المخ إلا بشكل مشوه. هل كنت واضحًا في شرحي؟ إنك لا تكاد تعرف «راشيل»، وبناءً على ذلك لن تتصور أنني أحاول أن أشعرك بشفقة نحوها. وإذَنْ لماذا أقص عليك كل هذه الأشياء؟.. لأنني عندما فكرت في حالتها تبينت أن الأفكار مثلها في ذلك كمثل الصور، يمكن أن تصل إلى المخ بدرجات متفاوتة في الوضوح. والذهن غير الثاقب لا يمكن أن يستقبل إلا صورةً مشوهةً المعالم، ولكنه لهذا السبب ذاته لا يتبين أنه غير ثاقب. وذهن كهذا لا يمكن أن يتألم من سخفه إلا إذا وعى هذا السخف. ولكي يعي هذا يجب أن يصبح ثاقبًا ذكيًّا. وتخيل إذَنْ هذا المخلوق العجيب: رجلًا أبله وله من الذكاء قدر يتيح له أن يدرك أنه غبي.

- في هذه الحالة لن يكون غبيًّا.

- بلى يا صديقي: إنني متأكد من قولي لأن هذا الغبي هو أنا.

ورفع «أوليفييه» كتفيه بينما استطرد «أرمان» يقول:

- الغبي فعلًا لا يدرك أن هناك أفكارًا خارج محيط تفكيره. أما أنا فأدرك أن هذه الأفكار موجودة. ولكني مع ذلك غبي لأني أعرف أني لن أستطيع أبدًا بلوغها...

أجابه «أوليفييه» في نوبة عطف عليه:

- لقد خلقنا كلنا على نحو يسمح بأن نصبح أفضل مما نحن. وأعتقد أن الشخص الذكي حقًّا هو بالذات ذلك الذي يألم مما يلمس في نفسه من طاقات محدودة.

وأبعد «أرمان» يد «أوليفييه» التي وضعها على ذراعه بود، وقال:

- هناك من يدركون حقيقة ما يملكون. أما أنا فلا أدرك إلا حقيقة ما يعوزني من مال ومن قوة ومن ذكاء ومن حب. إن بي دائمًا عجزًا، وسأبقى هكذا دائمًا.

واقترب من منضدة الزينة وغمس فرشاةً للشعر في الماء القذر الذي بالإناء، وألصق شعره على جبينه في شكل قبيح، وقال:

- قلت لك إنني لم أكتب شيئًا، ومع هذا فقد راودتني في الأيام الأخيرة فكرة بحث يمكن أن أسميه «بحث في العجز»، ولكنني بالطبع عاجز عن كتابته... وربما قلت في هذا البحث... ولكني أضايقك.

- استمر إنك تضايقني عندما تمزح، ولكني الآن شغوف جدًّا بسماعك.

- كنت سأبحث فيه عن الحد الفاصل. أبحث عنه في الطبيعة كلها، الحد الذي لا يمكن أن يكون هناك شيء بعده. وسأضرب لك مثلًا يوضح ما أعنيه. لقد نشرت الجرائد قصة عامل صرعه التيار الكهربائي وكان يمسك بلا مبالاة أسلاكًا للتوصيل، ولم تكن قوة التيار كبيرةً، ولكن يبدو أن جسده كان مبللًا بالعرق. وقد نسب سبب وفاته إلى هذه الطبقة الرطبة التي مكنت التيار من أن يغلف جسمه كله. ولو كان جسمه جافًّا وقع الحادث. ولكن إذا أضفنا إلى جسمه حبات العرق حبة بعد حبةً... فهناك حبة هي التي يقع بعدها الأمر المحتوم.

وقال «أوليفييه»: لا أفهم ما تعنيه.

- ربما أسأت اختيار المثال ومن عادتي أن أسيء اختيار الأمثلة التي أريد أن أضربها، وهاك مثل آخر: ستة من الغرقى جمعوا في قارب إنقاذ والعاصفة تضلهم منذ عشرة أيام. ومات منهم ثلاثة، وأنقذ اثنان، وكان السادس يحتضر، وكان من المأمول إعادته إلى الحياة، ولكن جسمه قد بلغ الحد الفاصل.

وهنا قال «أوليفييه»: نعم أفهم ما تعنيه، لو وصلوا مبكرين ساعةً لأمكنهم إنقاذه.

- ساعة! كم تبالغ! إنني أبحث عن اللحظة القصوى: ما زالوا يستطيعون... ما زالوا يستطيعون. لم يعد ذلك ممكنًا. إنه حد فاصل دقيق هو الذي يبحث عنه ذهني. وهذا الخط الفاصل بين أن يكون المرء أو لا يكون، هذا الخط أحاول أن أرسمه في كل مكان. الحد الأقصى للمقاومة... وأضرب لك مثلًا ما يُسميه والدي (الإغراء). ما زال الإنسان يقاوم والحبل مشدود حتى يكاد ينقطع والشيطان يجذبه... ولو ما شد قليلًا جدًّا بعد ذلك لانقطع الحبل، ولحكم على الإنسان باللعنة. أتفهمني الآن؟ لو تزحزح الحد الفاصل بين الوجود وعدمه لما كان هناك وجود ولما خلق الله العالم. ولما كان هناك أي شيء... ولتغير وجه العالم على حد قول «باسكال»([30]). ولكني لا يكفيني أن أفكر: (لو كان أنف كليوباترا أقصر). إنني أصر وأسأل: أقصر... إلى أي حد؟ لأن هذا الأنف مفاجئة... إن العبارة اللاتينية (Natura Non Facit Saltus) (ليس في الطبيعة قفزات) ليست إلا دعابةً! أما أنا فشأني شأن الأعرابي في قلب الصحراء، وهو موشك أن يموت ظمأً، وأصل إلى هذه النقطة المحددة حيث يمكن لنقطة واحدة من الماء أن تنقذه... أو ما يشبه الدمعة...

واختنق صوت «أرمان»، وأصبح مؤثرًا مما فجأ «أوليفييه»، وأشاع فيه الاضطراب، ثم أضاف بلهجة أكثر رقةً وكأن بها حنانًا:

- أتذكر (لقد أرقت هذه الدمعة من أجلك...).

وكان «أوليفييه» يذكر دون شك هذه العبارة لباسكال، (بل لقد ضايقه من صديقه أن لم يذكرها بالضبط، ولم يستطع أن يمنع نفسه من تصحيحها: لقد أرقت هذه القطرة، من الدم...).

وفترت في الحال حماسة (أرمان) ورفع كتفيه.

- ماذا نستطيعه إزاء ذلك؟.. أتفهم الآن معنى أن يشعر المرء بأنه على (الحد الفاصل)؟ سوف تنقضي دائمًا نقطة واحدة.

وعاد إلى الضحك. وظن «أوليفييه» أنه بدأ يضحك خوفًا من أن يبكي، وكان يريد أن يتكلم بدوره وأن يصور لأرمان إلى أي حد تهزه كلماته، ويصف له ما يشعر به من قلق تحت هذا التهكم الأليم. ولكن ميعاده مع «باسافان» كان قد قرب، فأخرج ساعته، وقال:

- سأضطر أن أتركك. ألديك فسحة من الوقت هذا المساء؟

- لماذا؟

- لكي تقابلني في مقهى (البانتيون) فرجال جريدة الـ (Argonautes) يقيمون حفل عشاء. احضر في آخر الحفل، وسوف يكون هناك عدد من شخصيات معروفة إلى حد ما، وسوف يكونون ثملين قليلًا. وقد وعدني «برنارد بروفيتا نديو» بأن يأتي. من الممكن أن يكون الجو طريفًا.

وقال «أرمان» بلهجة حزينة: لم أحلق ذقني. ثم ماذا تريد مني أن أفعله في وسط هذه الشخصيات الشهيرة؟ ولكن هاك فكرة. اطلب ذلك من «سارة» التي عادت هذا الصباح من إنجلترا. سوف تسر كثيرًا من هذا المجال وأنا متأكد من ذلك. هل تريد مني أن أدعوها باسمك؟ سوف يصحبها «برنارد».

- حسنًا يا صديقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن

كان من المتفق عليه أن يمر «برنارد» و«إدوارد» بعد العشاء ليصحبا «سارة» قبل العاشرة بقليل. وكان «أرمان» قد أبلغها الدعوة، وقبلتها بسرور. واعتكفت في غرفتها في التاسعة والنصف حيث صحبتها أمها. وكان لا بد للوصول إلى هذه الغرفة من المرور بحجرة الوالدين. ولكن كان هناك باب آخر -مفروض أنه مغلق- بين غرفة «سارة» وغرفة «أرمان». وكانت هذه الأخيرة -كما سبق أن قلنا- تفتح على سلم الخدم. وتظاهرت سارة أمام أمها برغبتها في النوم، وطلبت أن تتركها لتنام. ولكن ما إن وجدت نفسها بمفردها حتى اقتربت من منضدة زينتها لتصلح من لون شفتيها وخديها. وكانت منضدة الزينة تخفي وراءها الباب المغلق، ولم تكن ثقيلة حتى تعجز «سارة» عن زحزحتها دون ضوضاء. وفتح الباب السري، وخشيت سارة أن تقابل أخاها، وكانت تهاب سخرياته. والحقيقة أن «أرمان» كان يشجع مغامراتها الجريئة حتى ليبدو أنه يجد متعةً في ذلك. ولكن هذا التصرف منه كان نوعًا من التسامح المؤقت؛ لأنه كان يحكم على هذه المغامرات بعد أن تتم حكمًا قاسيًا. وكانت سارة لهذا السبب لا تدري هل هذا التسامح نفسه خدعة من الرقيب؟

وكانت غرفة «أرمان» خاليةً. وجلست «سارة» على مقعد صغير منخفض، وراحت تنتظر. إنها تشعر بازدراء لكل الفضائل المحيطة بها في هذا المنزل ويدفعها إلى هذا الشعور نوع من الثورة الواقعة. وكان الضغط العائلي قد شد عزيمتها، وأهاج فيها غرائز الثورة. وكانت أثناء إقامتها بإنجلترا قد تبينت مدى ما بها من إقدام، وقررت أن تسترد حريتها وأن تبيح لنفسها كل شيء، وأن تقدم على كل شيء كما كانت تفعل الآنسة «آبردين» التلميذة الإنجليزية بالقسم الداخلي. وكانت تشعر بأنها متأهبة لمجابهة كل أنواع الازدراء وكل ألوان اللوم، كما كانت تشعر بقدرتها على الرد على كل تحدٍّ. وكانت بإقدامها مع «أوليفييه» قد تغلبت على تواضعه الطبيعي، وعلى كثير مما فيه من خجل. كما تعلمت الكثير من حياة شقيقتيها.

وكانت تعتبر استسلام «راشيل» وتقواها لونًا من الخداع، ولم تكن ترى في زواج «لورا» إلا صفقةً مؤلمةً تؤدي بها إلى العبودية. وإن نوع التعليم الذي تلقته، والتعليم الذي اكتسبته بنفسها لم يكن ليسمح لها بأن ترضى عما يسمونه (التفاني في الحياة الزوجية). ولم تكن ترى أي امتياز لمن قد تتزوجه، ألم تؤد الامتحانات كما يؤديها الرجال؟! وهكذا لم تكن لها آراؤها وأفكارها الخاصة بها في كل موضوع يصادفها، ولا سيما في موضوع المساواة بين الجنسين فحسب، بل كان يبدو لها أن المرأة في شئون الحياة وفي عالم الأعمال بل في عالم السياسة إذا لزم الأمر كثيرًا ما تثبت أن تقديرها خير من تقدير الرجال...

وسمعت وقع خطوات على السلم وأرهفت السمع، ثم فتحت الباب برفق وكان الممر مظلمًا، فلم تر القادم، ولم يميز أحدهما الآخر في الظلام.

وتمتم (برنارد): الآنسة (سارة فيدل)؟ وتأبطت ذراعه بدون كلفة.

- (إدوارد) ينتظرنا في سيارة على ناصية الشارع. وقد آثر ألا ينزل منها خشية أن يقابل والديك. أما بالنسبة لي، فهذا الأمر لا أهمية له؛ فأنت تعرفين أنني أقيم هنا.

وكان (برنارد) قد حرص على أن يترك باب الفناء مواربًا، حتى لا يثير انتباه البواب. وبعد لحظاتٍ أوصلت السيارة ثلاثتهم أمام حانة (البانتيون). وبينما كان (إدوارد) يحاسب السائق، سمعوا الساعة تعلن العاشرة. كانت الوليمة قد انتهت. وقد جمع ما على المنضدة من مأكولات، ولكنها لا تزال مزدحمةً بفناجين القهوة وبالزجاجات والأكواب. وكان الجميع يدخنون والجو خانق. وطالبت مدام (دي بروس) زوجة رئيس تحرير جريدة (الأرجونوت) بتجديد هواء المكان، وكان صوتها الحاد واضحًا بين الأحاديث الخاصة، وفتحوا النافذة ولكن (جوستينيان) -الذي كان يريد إلقاء خطاب- طالب بأن تغلق في الحال ليتمكن الحضور من سماعه، ونهض وأخذ يضرب على كوبه بمعلقة دون أن ينجح في استرعاء انتباه الحضور. ووفق أخيرًا رئيس تحرير (الأرجونوت) الذي كان يُسمونه بالرئيس (دي بروس) في أن يحصل على بعض الهدوء، وانتشر صوت (جوستينيان) مرددًا عبارات مملة. وكانت تفاهة فكرته تختفي تحت فيض من التشبيهات، وراح يعبر عن آرائه بأسلوب متكلف ليستعيض به عما يعوزه من فكر، كما حاول بشتى الطرق أن يوجه لكل من الحاضرين مديحًا ملتويًا.

وبعد أول فقرة من حديثه، دخل (إدوارد) و(برنارد) و(سارة) القاعة، وكان هناك تصفيق للخطيب، وأطال بعض المصفقين تصفيقهم سخريةً بالخطيب. ولا شك أنهم أرادوا بهذا أن يضعوا حدًّا لخطبته، ولكن راحت جهودهم أدراج الرياح إذ استأنف (جوستينيان) الكلام ولم يكن هناك شيء يمكن أن يسكت فصاحته هذه. وها هو ذا الآن يغمر (الكونت دي باسافان) بأزهار من بلاغته. وتكلم عن (القضيب الثابت) وكأنه يتحدث عن (إلياذة) جديدة.

وشرب الحضور نخب (باسافان)، ولم يكن هناك أكواب أمام (إدوارد) و (برنارد) و(سارة) فأعفاهم ذلك من المشاركة في شرب نخبه.

وأنهى (جوستينيان) حديثه بدعواته للمجلة الجديدة وببعض مديح وجهه لمدير تحريرها المقبل (مولينييه) الشاب الموهوب، الذي اصطفته آلهة الشعر، والذي لن ينتظر جبينه طويلًا حتى تتواجه أكاليل الزهر.

وكان (أوليفييه) قد تعمد الوقوف بجانب باب الدخول ليستطيع أن يستقبل أصدقاءه بمجرد دخولهم. وقد أحرجه بشكل واضح مديح (جوستينيان) المبالغ فيه، ولكنه لم يستطع أن يتهرب من المظاهرة الصغيرة التي أعقبته. ولم يكن الضيوف الثلاثة الذين وصلوا في هذه اللحظة قد تناولوا إلا عشاءً خفيفًا، ولم يسمح لهم ذلك بمجاراة بقية المجتمعين في مرحهم، وفي مثل هذه الاجتماعات، كثيرًا ما يسيء الذين يصلون متأخرين فهم حقيقة انفعال الآخرين أو يسرفون في مدحه، وهم يحكمون في ظرف لا يسمح بأن يحكم أحد على أحد -وينتقدون ولو بطريقة غير إرادية نقدًا لا تسامح فيه، أو تلك كانت على الأقل طريقة (إدوارد) و (برنارد). أما (سارة)، وكان كل ما صادفته في هذا المكان جديدًا عليها، فلم تفكر إلا في أن تتعلم أشياءَ جديدةً، وكان شغلها الشاغل أن تجاري المجال.

ولم يكن (برنارد) يعرف أحدًا من الحاضرين. وأراد (أوليفييه) بعد أن أمسك به من ذراعه، أن يقدمه (لباسافان) و (دي بروس) ولكنه رفض، إلا أن (باسافان) أحرجه إذ تقدم إليه مادًّا يده، ولذا لم يستطع أن يتنصل عن تحيته من باب الأدب. وقال (باسافان) لبرنارد:

- سمعت عنك منذ أمد طويل، حتى يبدو لي أنني أعرفك فعلًا.

وأجابه (برنارد): (هذا شعور متبادل). قالها (برنارد) بلهجة سكبت ماءً باردًا على حرارة (باسافان). وفي الحال اقترب هذا الأخير من (إدوارد). ورغم أن (إدوارد) كان كثير الأسفار، ورغم أنه كان يعيش في باريس بعيدًا عن الناس، إلا أنه كان يعرف الكثيرين من المدعوين إلى هذا الحفل، ولم يشعر بأي حرج في هذا الجو. ولم يكن محبوبًا من زملائه، وإن كانوا يقدرونه مع أنه كان يبتعد عنهم، وكانوا يصفونه بالتعالي، وكان يصغي إليهم أكثر مما كان يتكلم.

وبدأ (باسافان) حديثه قائلًا بصوت رقيق وخفيض: جعلني ابن أختك آمل في حضورك إلى هنا. وقد سرني ذلك كثيرًا إذ إن... ولكن نظرة (إدوارد) الساخرة جعلته يمسك عن إكمال جملته. كان (باسافان) ماهرًا في اجتذاب الإعجاب، وكان معتادًا أن يعجب به الناس، ولذا كان يشعر بحاجة إلى أن يرى أمامه مرآةً مشجعةً، مرآة تجعله يلمع ويبهر، ولكنه مع ذلك تماسك إذ لم يكن ممن يفقدون سيطرتهم على أنفسهم بسهولة، وممن يسمحون بأن يتغلب عليهم الآخرون. ولذا رفع جبينه وشحن نظرته وقاحةً... إذا لم يكن (إدوارد) مستعدًّا لمجاراته في هذا المجال عن طيب خاطر فسيعرف كيف يقهره. وأردف (باسافان) وكأنه يكمل جملته:

- كنت أريد أن أسألك أعندك أخبار عن صديقي (فنسان) ابن أختك الآخر؟ فهو الذي كانت تربطني به بخاصة صلات الصداقة. وأجاب (إدوارد) بجفاء: لا.

كلمة (لا) هذه حيرت (باسافان)، إذ لم يدر أكان عليه أن يحمل هذه الإجابة محمل التحدي، أم يأخذها على أنها مجرد إجابة بسيطة على سؤاله، ولم يدم انفعاله أكثر من لحظة، ولكن (إدوارد) دفعه عن غير قصد إلى أن يتحفز من جديد إذ قال:

- علمت من أبيه أنه في رحلة مع أمير (موناكو).

وأجاب (باسافان). كنت قد طلبت فعلًا من إحدى صديقاتي أن تعرفه بالأمير، وكنت سعيدًا بأن وجدت له ما يغير أفكاره ويلهيه قليلًا عن مغامرته التعسة مع السيدة التي تُسمى (دوفييه)... التي تعرفها، كما قال لي (أوليفييه)، فقد كان معرضًا لأن يفسد حياته في تلك المغامرة.

وكان (باسافان) بارعًا في استعمال عبارات الازدراء والاحتقار والتنازل، ولكن كفاه أنه كسب هذه الجولة، وأن اضطر (إدوارد) أن يحسب له حسابًا.

وكان (إدوارد) بدوره يبحث عن أي شيء يرد به هذا الهجوم، ولكن بديهته كانت تخونه إلى أقصى حد، ولا شك أن هذا سبب ابتعاده عن الناس، فلم يكن يتمتع بأي ميزة تجعله يلمع في المجتمع. وخلال ذلك قطب حاجبيه. وكانت لباسافان حاسة تحذره عندما تراود الآخرين الرغبة في أن يقولوا له ما لا يعجبه، كان يشعر بهذه الرغبة فيهم ويستعد لها، ولذا أضاف دون أن ينتظر -وقد غير لهجته فجأةً وسأل باسمًا: ولكن من هي هذه الصبية الشهية التي تصحبك؟

وقال «إدوارد» إنها الآنسة «سارة فيدل»، وهي بالذات شقيقة السيدة «دوفييه» صديقي. ولما لم يكن لديه شيء آخر يتحداه به، فقد قال كلمة «صديقتي» هذه بلهجة حادة كأنها سهم مشحوذ، ولكنها أخطأت هدفها، وتركت «باسافان» تسقط إذ تجاهل ما فيها وقال:

- أكون شاكرًا لو تفضلت بأن تقدمني لها.

وقال هذه الكلمات الأخيرة والجملة السابقة لها بصوت مرتفع؛ لتسمعه «سارة». وإذ استدارت نحوهما لم يتمكن «إدوارد» من التهرب وقال: يا «سارة» يتطلع «الكونت دي سافان» إلى شرف التعرف بك. قالها بابتسامة مفتعلة.

وكان «باسافان» قد أمر بإحضار ثلاثة أكواب ملأها بمشروب «الكوميل»، وشرب الأربعة نخب «أوليفييه». وصارت الزجاجة شبه فارغة، ولما كانت «سارة» تعجب من وجود بعض الرواسب في قاعها، اجتهد «باسافان» في أن يخرج بعضًا منها مستعينًا بشفاطة من البوص. ولكن اقترب منه شخص عجيب فيه سمات البلاهة.

وكان وجهه مغطى بطبقة من الدقيق، له عين كالزجاج الأسود، وشعر ملتصق كقلنسوة من القطيفة – اقترب منهم وقال، وكأنه يمضغ بصعوبة ظاهرة كل مقطع من كلماته:

- لن توفق في ذلك. أعطني الزجاجة لأهشمها.

وأمسك بالزجاجة، وهشمها بأن دقها على حافة النافذة، وقال وهو يقدم قاعها لسارة:

- بهذه القطع الحادة تستطيع الآنسة اللطيفة دون جهد أن تثقب زورها.

وسألت «سارة» «باسافان»: «من هذا المهرج»؟ وكان «باسافان» قد أجلسها على مقعد، وجلس بجانبها.

- إنه «الفريد جاري» مؤلف «الملك أوبو»، ومحرر جريدة (الأرجونوت)، يضفون عليه عبقرية؛ لأن الجمهور سخر من مسرحيته. ومع ذلك فإن مسرحيته هذه تعتبر أعجب ما قدمه المسرح منذ وقت طويل.

وقالت «سارة»: أعجبتني كثيرًا مسرحية الملك أوبو.. وأنا سعيدة جدًّا بلقاء «جاري». لقد قالوا لي إنه ثمل دائمًا.

- لا بد أن يكون كذلك هذا المساء. لقد رأيته يشرب أثناء العشاء كوبين كبيرين ممتلئين بمشروبات «الأبسنت» الصافي، ولكنه لا يبدو عليه إرهاق من ذلك. هل لك في سيجارة؟ يجب أن يدخن المرء في جو كهذا؛ حتى لا يختنق بدخان الآخرين.

وانحنى نحوها وهو يشعل لها سيجارتها. وقضمت بعض البلورات الراسبة في الزجاجة، وقالت: ولكن ذلك ليس إلا سكرًا متبلورًا -قالتها في لهجة من خاب ظنه-، كنت آمل أن يكون له مفعول قوي. وكانت وهي تتحدث مع «باسافان» تبتسم لبرنارد الذي بقي جالسًا بجانبها. وكانت نظرتها المستمتعة تلمع ببريق عجيب. ودهش «برنارد» لما بينها وبين «لورا» من شبه كبير؛ إذ لم يكن قد تبين ملامحها في الظلام. وكان لها نفس الجبين ونفس الشفاه... حقًّا لم تكن على ملامحها سمات الجمال العذري التي تلوح على شقيقتها، وكانت نظراتها تثير في قلبه اضطرابًا لا يدري كنهه، وإذ شعر بالضيق التفت نحو «أوليفييه» وقال له:

- قدمني لصديقك «بركايل».

وكان قد قابل «بركايل» من قبل في حديقة «اللوكسمبورج»، ولكنه لم يتحدث معه. وكان «بركايل» يشعر بأنه غريب في هذا الوسط الذي أدخله فيه «أوليفييه»، ويمنعه خجله من أن يستعذب هذا الجو، كما يحمر وجهه كل مرة يقدمه فيها صديقه على أنه أحد المحررين المهمين بمجلة «الطليعة». وحقيقة الأمر أن قصيدته الرمزية التي كان يكلم «أوليفييه» عنها في بداية قصتنا هذه كان مقدرًا لها أن تظهر في مقدمة هذه المجلة بعد الافتتاحية مباشرةً.

وقال «أوليفييه» لبرنارد: ستظهر هذه القصيدة في المكان الذي كان قد خصصته لك، وأنا واثق من أنها ستنال إعجابك! إنها ولا شك أحسن ما في هذا العدد كما أنها فريدة في نوعها.

وكان يحلو لأوليفييه أن يمتدح أصدقاءَهُ أكثر مما يطيب له سماع الآخرين يطرونه، وكان «لوسيان بركايل» قد نهض عندما اقترب منه «برنارد»، وكان يمسك بفنجان من القهوة بيده بشكل مرتبك، لدرجة أنه سكب نصفه على صديريته بسبب انفعاله.

وفي هذه اللحظة سمع صوت «جاري» بالقرب منه وهو يقول:

- سيتسمم «بركايل» الصغير؛ لأنني وضعت سمًّا في فنجانه.

وكان يحلو لجاري أن يسخر من خجل «بركايل»، كما كان يسره أن يخرجه عن طوره. ولكن «بركايل» لم يكن يخشى «جاري» فرفع كتفيه، وأكمل احتساء فنجانه في هدوء.

قال برنارد:

- من هذا الشخص؟

- كيف! ألا تعرف مؤلف مسرحية «الملك أوبو»؟

- غير ممكن! أهذا هو «جاري»؟ تصورت أنه خادم.

وقال «أوليفييه»، وقد ساءه ذلك قليلًا، إذ كان فخورًا برجاله العظام:

- أوه! دقق النظر فيه ألا ترى أنه شخصية فذة؟

وقال برنارد: (إنه يبذل أقصى جهده ليبدو كذلك). وبرنارد لا يعجبه إلا المظهر الطبيعي، وإن قدر مسرحية «أوبو» كل التقدير.

وكان «جاري» يرتدي زيًّا شاذًّا كالذي يلبسه رجال السيرك، وكان كل ما فيه ينطق بالتكلف، ولا سيما لهجته التي كان يقلده فيها ويحسده عليها محررو (الأرجونوت)، وكانت مقاطع كلماته متقطعة، وقد دأب على اختراع كلمات غريبة وتشويه كلمات أخرى بطريقة شاذة، ولم يكن يستطيع كل ذلك إلا «جاري». كان الوحيد الذي يستطيع أن يكون له هذا الصوت المجرد من النبرات، المجرد من الحرارة، الخالي من النغم والذي لا طابع له.

وأردف «أوليفييه»: عندما يعرفه المرء حق المعرفة، أؤكد لك أنه يجده شخصًا جذابًا.

- ولكني أفضل ألا أعرفه. إنه يبدو متوحشًا.

- إنه يريد أن يبدو كذلك، و«باسافان» يعتقد أنه في حقيقته رقيق جدًّا، ولكنه أفرط في الشراب هذا المساء، ولم يشرب نقطة ماء واحدةً. وأؤكد لك هذا، كما أنه لم يشرب نبيذًا. لم يحتسِ غير الأبسنت ومشروبات قوية أخرى، ويخشى «باسافان» أن يتصرف تصرفاتٍ شاذةً.

وكانت شفتاه تنطلقان بالرغم عنه باسم «باسافان»، وكلما أراد أن يتجنب النطق بهذا الاسم، عاد الاسم على فمه.

وإذ يئس من التحكم في نفسه، وإذ بدا له أن ذاته تضيق عليه الخناق، غيَّر مجرى الحديث، وقال:

- عليك أن تذهب لتتحدث مع «دورمير» قليلًا. أخشى أن يكون بالغ الحنق عليَّ؛ لأنني انتزعت منه رئاسة تحرير «الطليعة»، ولكن ليس الخطأ خطئي، فلم أستطع إلا القبول. عليك أن تحاول إفهامه حقيقة الأمر وأن تهدئ من ثورته.

أن «باسـ...» قيل لي أن «دورمير» ثائر ضدي ثورةً عنيفةً. وكان لسان «أوليفييه» قد تعثر، ولكنه لم ينزلق هذه المرة.

وقال «بركايل»: آمل أن يكون «دورمير» قد استرد مقالته. أنا لا أحب ما يكتبه. ثم أضاف وهو يلتفت نحو «بروفيتا نديو»: ولكنك يا سيدي... كنت أعتقد أن...

- أوه! لا تقل لي «يا سيدي»... إني أعرف حق المعرفة أنني أحمل اسمًا مضحكًا يصعب النطق به... وفي نيتي إذا كتبت أن أتخذ اسمًا مستعارًا.

- ولماذا لم تقدم لنا شيئًا؟

- لأنني لم أعد شيئًا.

وترك «أوليفييه» صديقيه يتحدثان، واقترب من «إدوارد»، وقال:

- كم أنت رقيق إذ حضرت! كنت في لهفة إلى رؤيتك، ولكني كنت أتمنى أن أراك في أي مكان آخر غير هذا المكان... بعد ظهر اليوم ذهبت إلى منزلك، وقرعت الجرس. هل أخبروك بذلك؟ وأسفت لأنني لم أقابلك ولو عرفت أين أجدك؟

وكان «أوليفييه» سعيدًا للغاية؛ لأنه عبر عما في نفسه بهذا اليسر، وتذكر وقتًا كان ارتباكه فيه في حضرة «إدوارد» يخرسه، وكان يدين بهذا اليسر مع الأسف إلى تفاهة ما يقول وإلى الإفراط في الشراب. وتبين «إدوارد» هذه الحقيقة وهو حزين النفس.

وأجاب «إدوارد»: كنت في زيارة والدتك.

قال «أوليفييه»: (هذا ما علمته عند عودتي)، ولكنه ذهل لأن «إدوارد» يكلمه بصيغة الجمع. وتردد في أن يعترف له بذلك.

وسأله «إدوارد» وهو يحدق فيه: هل تنوي أن تعيش في هذا الوسط؟

وأجاب «أوليفييه»: ولكنني لا أنساق إلى التأثر بما فيه.

- أمتأكد أنت تمامًا من ذلك؟

نطق «إدوارد» بهذا بلهجة جادة فيها حنو أخوي.. لدرجة أن «أوليفييه» شعر بأن الثقة في نفسه بدأت تتزعزع، وقال:

- أترى أنني مخطئ بمعاشرتي هؤلاء القوم؟

- ربما لا أقصد الجميع، ولكن أقصد البعض بالتأكيد.

وفهم «أوليفييه» أنه يقصد (بالبعض) شخصًا واحدًا: تصور أن «إدوارد» يقصد «باسافان» بالذات، وكان الكلام بمثابة بريق خاطف مؤلم في سماء نفسه، وكأنه اخترق الغيوم التي كانت تتجمع بقسوة في قلبه منذ الصباح. كان يحب «برنارد» وكان يحب «إدوارد»، كان يحبهما حبًّا جمًّا، ولم يكن يطيق عدم تقديرهما له. كان يشعر في حضرة «إدوارد» بأن أفضل ما في نفسه يتيقظ. أما في حضرة «باسافان»، فينبعث أحط ما في نفسه. واعترف لنفسه بهذا الآن، ولكن، ألم يكن يعرف هذه الحقيقة منذ البداية؟ ألم يكن تعاميه في حضرة «باسافان» بمحض إرادته؟ وراح اعترافه بالجميل نحو كل ما عمله الكونت من أجله يتحول إلى شعور بالحقد. لقد أصبح يتبرأ من كل هذا بشكل غريب. وما رآه هذا المساء دفعه إلى أن يشعر نحوه بالكراهية.

كان «باسافان» وهو يميل على «سارة» قد لف ذراعه حول وسطها، وكان يزداد عليها إلحاحًا. ولعلمه حاول أن يخدع، ولكي يخدع بطريقة علنية عاهد نفسه على أن يحمل «سارة» على الجلوس على ركبتيه. ولم تمتنع «سارة» حتى هذه اللحظة إلا قليلًا، ولكن نظراتها كانت تتحرى نظرات «برنارد»، فإذا ما تلاقت نظراتهما تبسمت، وكأنها تقول له:

- انظر ماذا يستطيع الناس أن يتجرأوا عليه معي.

ومع ذلك كان «باسافان» يخشى نتيجة التسرع، فالمران ينقصه في هذا المجال، وحدث نفسه قائلًا: إذا ما وفقت في أن أجعلها تشرب أكثر من ذلك قليلًا، فإنني سوف أجازف. وكان في هذه اللحظة يمد يده الأخرى نحو زجاجة من شراب الـ (كوراسو)، ولكن «أوليفييه» -وكان يتابعه- سبق حركته وأخذ الزجاجة، لا لسبب إلا لكي يمنع عنها «باسافان». ولكن تراءى له في نفس هذا اللحظة أنه ربما استطاع إذا ما شرب أن يسترد قليلًا من شجاعته، وكان يشعر بأن شجاعته تخونه، وهو في أشد الحاجة إليها لكي يستطيع أن ينطق أمام «إدوارد» بهذه الشكوى.

- وكان الأمر يتوقف عليك لكي...

وأترع «أوليفييه» كأسه وأفرغه في جرعة واحدة. وفي هذه اللحظة سمع «جاري» وهو يتجول بين مختلف جماعات المدعوين، سمعه يقول في صوت خافت -وهو يمر خلف «بركايل»: والآن سوف نفزع «بركايل» الصغير. وتلفت هذا الأخير فجأةً وقال:

- كرر هذا بصوت مرتفع.

وكان «جاري» قد ابتعد في هذه الأثناء، وانتظر حتى دار حول المائدة، وكرر ما قاله في صوت ساخر:

- والآن سوف نفزع «بركايل» الصغير. ثم أخرج من جيبه مسدسًا كبيرًا، كثيرًا ما رآه محررو (الأرجونوت) وهو يلهو به، وتأهب لإطلاقه.

وكان «جاري» معروفًا لدى الجميع بمهارته في إصابة الهدف. وارتفعت في هذه اللحظة أصوات تحتج على هذا التصرف... ولم يدر أحد أيمكن لجاري وهو في هذه الحالة من السكر أن يتحكم في أعصابه، وأن لا يتجاوز حد الدعابة. ولكن «بركايل» الصغير أراد أن يثبت للجميع أنه غير خائف، فوقف على مقعد وعقد ذراعيه خلف ظهره، وكانت وقفته كوقفة «نابليون». كان مضحكًا إلى حد ما، وسمعت بعض ضحكات غطى عليها في الحال تصفيق عال.

وقال «باسافان» لـ «سارة» بسرعة فائقة:

- قد يمر هذا الأمر بسلام. إنه ثمل تمامًا. اختبئي تحت المنضدة.

وحاول «دي بروس» أن يمنع «جاري» عما نواه، ولكن هذا الأخير تخلص منه ووقف على مقعد هو الآخر، وهنا لاحظ «برنارد» أنه ينتعل نعلًا خفيفًا من النعال المخصصة للرقص، ومد ذراعيه ليحكم التصويب، كان في مواجهة «بركايل» تمامًا.

وصرخ «دي بروس» قائلًا:

- اطفئوا الأنوار! اطفئوا الأنوار..

وأدار «إدوارد»، وكان بجانب الباب زر النور.

وكانت «سارة» قد نهضت تبعًا لما طلبه منها «باسافان»، وبمجرد أن أطفئت الأنوار ألصقت نفسها «ببرنارد» لتحمله على أن يختبئ معها تحت المنضدة.

وانطلقت القذيفة، ولكن المسدس لم يكن محشوًّا بالرصاص. ومع ذلك سمع الحضور صرخةً تدل على الألم: كان ذلك صوت «جوستينيان» وقد أصابته الطلقة الفارغة في عينه.

وعندما أضيئت الأنوار أعجب الحضور «ببركايل»، وكان لا يزال واقفًا، يحتفظ بالمظهر الذي ظهر به في بادئ الأمر، لا يبدي حراكًا، ولم يتغير فيه شيء، سوى بعض شحوب طفيف اعتراه.

ومع ذلك كانت سيدة على رأس المائدة، قد اعترتها نوبة عصبية، فأسرع نحوها الجميع، وسمع صوت يقول من السخف أن نُسبِّب للناس كل هذا الإزعاج، ولما لم يكن على المائدة ماء، بلل «جاري» بعد أن نزل من فوق المقعد منديلًا في الخمر ليدلك وجنتيها على سبيل الاعتذار.

ولم يبق «برنارد» تحت المائدة إلا لحظةً، أتاحت أن يشعر بشفتي «سارة» المشتعلتين تلثمان في نشوة شفتيه.

وكان «أوليفييه» قد تبعهما، ولعل ذلك من باب الصداقة، أو لما شعر به من غيرة... وكانت الخمر قد أهاجت فيه هذا الإحساس الفظيع الذي كان يعرفه تمامًا والذي يشعر به، وهو كونه على هامش الأحداث. وعندما خرج بدوره من تحت المائدة كانت رأسه تدور قليلًا، وسمع «دورمير» وهو يصيح:

- انظروا إلى «أوليفييه»، إنه جبان كامرأة.

وكان الأمر قد فاق الحد. واندفع «أوليفييه» رافعًا يده في اتجاه «دورمير» دون أن يدرك ما هو فاعل، كأنه يتخبط في حلم. ولكن «دورمير» تجنب اللطمة، فلم تصطدم يد «أوليفييه»! وكأنها في حلم -إلا بالهواء-.

وسادت الفوضى الجميع، وراح البعض يسرع نحو المرأة الجالسة في الصدارة، والتي استمرت في القيام بالحركات والعواء، وأحاط البعض الآخر بـ «دورمير» الذي كان يصيح قائلًا:

(لم يصبني شيء. لم يصبني شيء...).

والتفّ آخرون حول «أوليفييه» وكان وجهه مشتعلًا، ويوشك أن يندفع ثانية، والبعض يحاول جاهدًا أن يحول بينه وبين ذلك.

وسواء أصابت اللطمة «دورمير» أم لم تصبه، فقد كانت الفعلة بمثابة لطمة له، وذلك ما حاول «جوستينيان» أن يوضحه له وهو يمسح عينيه. وكانت المسألة مسألة كرامة، ولكن «دورمير» لم يكن يأبه بدروس الكرامة التي يلقنها إياه «جوستينيان»، وسمع وهو يردد في إصرار:

- لم يصبني شيء... لم يصبني شيء.

قال «دي بروس»: اتركوه وشأنه. لا يمكن أن يجبر الناس على النزال. ومع ذلك كان «أوليفييه» يعلن بصوت عال أنه إذا لم يكن «دورمير» راضيًا عما حدث، فإنه مستعد أن يلطمه من جديد. وإذ أصر على أن ينازله فقد طلب من «برنارد» ومن «بركايل» أن يكونا شاهديه، ولم يكن أحد منهما يعرف شيئًا عما يسمونه (الأعمال الخاصة برد الشرف)، ولكن «أوليفييه» لم يجرؤ على أن يطلب من «إدوارد» أن يكون أحد شاهديه، وكانت يداه ترتجفان في حركات عصبية. وأمسك به «إدوارد» من ذراعيه، وقال:

- تعال لتغسل وجهك بالماء إنك تبدو كالمعتوه. وصحبه إلى دورة المياه.

وما إن خرج من القاعة، حتى أدرك إلى أي حد كان ثملًا، وعندما شعر يد «إدوارد» على ذراعه، تصور أنه سينهار، وترك «إدوارد» يقوده دون أن يقاوم، ولم يدرك من كل ما قاله «إدوارد» إلا لهجة عدم الكلفة التي كان يتحدث بها.

وشعر كأن قلبه يذوب فجأةً في سيل من الدموع، كما تتحول الغيوم الكثيفة إلى أمطار، ووفق «إدوارد» في أن يقضي على سكره بأن مسح جبهته بمنشفة مبللة. ماذا حدث؟ أحس إحساسًا مبهمًا أنه تصرف تصرف الأطفال، تصرف كشخص خشن... وشعر بأنه مهزأ، وأنه كريه... وعندئذ ارتمى بين أحضان «إدوارد»:

- اصحبني إلى الخارج.

وكان «إدوارد» بدوره منفعلًا للغاية.

وسأله: إلى بيت والديك؟!

- إنهم يجهلون عودتي.

وبينما هما يجتازان المقهى، قال «أوليفييه» إنه يريد أن يكتب رسالةً قصيرةً، ثم أردف:

- إن وضعتها بصندوق البريد هذا المساء، فسوف تصل غدًا صباحًا في الساعات الأولى.

وكتب وهو جالس على مائدة بمقهى:

أي عزيزي «جورج»،

نعم، أكتب لأطلب منك خدمةً بسيطةً، ولن أخبرك بجديد إذا أنبأتك أنني عدت إلى باريس؛ لأنني أعتقد أنك لمحتني هذا الصباح بالقرب من جامعة (السوربون)، وكنت قد نزلت ضيفًا على الكونت دي باسافان (وأعطاه عنوانه)، وما زالت حاجياتي عنده. ولأسباب يطول ذكرها، ولا يهمك منها شيء، أخبرك أنني أؤثر أن لا أعود إلى منزله، ولا أجد أحدًا غيرك يمكن أن أطلب منه أن يحضر لي هذه الأشياء، ولعلك تقبل أن تؤدي لي هذه الخدمة. هناك حقيبة مغلقة. وبعض الأشياء الموجودة بالغرفة، فأرجو أن تضعها بنفسك في حقيبتي، وأن تحضر لي كل هذه الحاجيات عند الخال «إدوارد». سوف أدفع أجرة السيارة، ومن حسن الحظ أن غدًا يوم الأحد، وتستطيع أن تقوم بهذا العمل بمجرد أن تصل إليك رسالتي.

أنا أعتمد عليك. ألا يمكنني ذلك؟

أخوك الأكبر:

«أوليفييه».

ملحوظة: أعرف أنك تحسن التصرف، ولا شك أنك ستقوم بذلك خير قيام ولكن إن كان عليك أن تتعامل مع «باسافان» مباشرةً، فإني أطلب منك أن تتصرف معه ببرود شديد... إلى غد صباحًا.

ومن لم يسمع عبارات «دورمير» وما فيها من سبٍّ، لا يدرك تمامًا معنى تهجم «أوليفييه» المفاجئ عليه، وقد بدا عليه كأنه فقد صوابه، ولو قد تمكن من الاحتفاظ برباطة جأشه لوافقه «برنارد» على ما قام به. ولم يكن «برنارد» يحب «دورمير» ولكنه اعترف بأن «أوليفييه» تصرف كالمعتوه، وأنه بهذا التصرف بدا بمظهر المخطئ. وآلم «برنارد» أن يسمع الناس يحكمون على تصرفه بقسوة، فاقترب من «بركايل» واتفق معه على ميعاد للقاء. وبالرغم مما بدا في هذه الحادثة من سخف فقد كان يهم كلًّا منهما أن يتصرفا تصرفًا سليمًا. واتفقا على أن يطاردا «دورمير» في صباح اليوم التالي ابتداء من الساعة التاسعة.

ولم تعد لبرنارد رغبة في البقاء بعد أن رحل صديقاه، وبحث بنظره عن «سارة»، وامتلأ قلبه غضبًا عندما رآها جالسةً على ركبتي «باسافان»، وكان يبدو على الاثنين أنهما ثملان. ومع ذلك نهضت «سارة» عندما رأت «برنارد» يقترب منها.

وقالت وهي تمسك بذراعه: هيا بنا.

وأرادت أن تعود إلى المنزل سيرًا على الأقدام، ولم تكن المسافة بعيدةَ، وقد قطعاها دون أن ينطقا بكلمة واحدة. وفي القسم الداخلي كانت جميع الأنوار مطفأةً، وراحا يتحسسان طريقهما نحو سلم الخدم خشية أن يلفتا الأنظار، ثم أشعلا أعواد ثقاب، وكان «أرمان» ساهرًا فلما سمعهما يصعدان السلم، خرج إلى عتبة الباب، وبيده مصباح وقال لبرنارد:

خذ المصباح -وكانا منذ اليوم السابق يتحادثان دون كلفة- أضئ الطريق أمام «سارة» إذ لا توجد بغرفتها شموع... وأعطني أعواد الثقاب التي معك لأشعل مصباحي.

واصطحب «برنارد» «سارة» إلى الغرفة، وما إن دخلاها حتى قال «أرمان» بلهجة ساخرة وكان منحنيًا من خلفها وهو يطفئ المصباح بنفخة قوية:

- طابت ليلتكما، ولكن لا تصدرا أي ضوضاء، فإن الوالدين ينامان بالقرب منكما.

ثم تراجع، وأغلق الباب عليهما بالمزلاج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع

تمدد «أرمان» على فراشه بكامل ملابسه وهو يعرف أنه لن يستطيع النوم، وانتظر أن ينتهي الليل. إنه يتأمل ويُصغى. خيم السكون على الدار وعلى المدينة وعلى الكون بأسره، فما عادت هناك حركة تُسمع.

وأتى عاكس الضوء ببعض نور السماء الخافت، وأتاح له أن يتبين من جديد بشاعة غرفته، ثم نهض وسار نحو الباب، وكان قد أغلقه بالمزلاج في المساء وواربه.. لم تكن ستائر غرفة «سارة» مسدلةً. وأفاض الفجر الوليد على زجاج النافذة ضوءًا أبيض وتقدم «أرمان» في اتجاه الفراش حيث ترقد شقيقته، ويرقد «برنارد» وكان هناك غطاء واحد يبين عن أطرافهما المتشابكة. ما أجملهما! ورنا إليهما «أرمان» طويلًا في إعجاب. وتمنى لو كان هو النوم الذي شملهما، والقُبلة التي ضمتهما، وابتسم بادئ الأمر، ثم جثا فجأةً على ركبتيه عند قدمي الفراش بين الأغطية التي لفظها جسداهما. ترى إلى من يتوجه بصلاته هذه؟.. واستولى على نفسه انفعال لا يوصف. وارتجفت شفتاه.. لقد تبين تحت الوسادة منديلًا ملوثًا بالدم، ونهض وأمسك به وحمله، ووضع شفته على المنضدة الصغيرة العنبرية اللون، وانخرط في البكاء.

وخرج، ولكنه التفت إذ بلغ عتبة الباب... وود لو أيقظ «برنارد». وكان على هذا الأخير أن يعود إلى غرفته قبل أن يستيقظ أي شخص في القسم الداخلي. وفتح برنارد عينيه -لقد سمع الصوت الخافت الذي أحدثه أرمان، وهرب هذا الأخير تاركًا الباب مفتوحًا. وهبط السلم. سيختبئ في أي مكان، فإن وجوده سيضايق «برنارد»، وهو لا يريد أن يقابله.

سيراه بعد لحظات، سيراه من نافذة حجرة الاستذكار سائرًا بحذاء الحائط يتسلل كاللص... لم ينم برنارد إلا قليلًا، ولكنه تذوق هذه الليلة لونًا من النسيان يريح الجسد أكثر من النوم. ذاق نشوةً وفناءً لكيانه في وقت معًا. وها هو ذا ينساب في يوم جديد، وقد غدا قريبًا على ذاته مشتتًا خفيفًا، جديدًا هادئًا ومرتجفًا كأنه من آلهة الأقدمين. لقد ترك «سارة» في نومها وانسل من ذراعيها خلسةً دون أن تشعر به، ولكن كيف تركها دون قبلة جديدة، دون نظرة أخيرة دون ضمة عاشقة تدل على حبه لها؟ أتركها هكذا لتجرده من الإحساس؟ لست أدري، وهو نفسه لا يدري، ويجتهد ألا يفكر في الأمر، إذ كان يضايقه أن يسلك هذه الليلة التي لا سابقة لها مكانًا في صلب كتابه -كتابه أو قصة حياته التي ستجري... ستستأنف كأن شيئًا لم يكن!

صعد إلى الغرفة التي يقتسمها مع «بوريس» الصغير، وكان هذا الأخير يغط في نوم عميق. يا له من طفل! أزاح «برنارد» غطاء سريره. وبعثر الأغطية ذرًّا للرماد في الأعين، واغتسل، وصب على نفسه ماءً كثيرًا، ولكن رؤية «بوريس» أعادته إلى مدينة «ساس فيه»، وتذكر ما كانت «لورا» تقوله عندئذ: لا أستطيع أن أتقبل منك إلا هذا التفاني في الإخلاص الذي منحتني إياه. أما الباقي فسوف يكون له مطالب عليك أن ترضيها في كل مكان آخر. لقد أثارته هذه الجملة، وخُيل إليه أنه لا يزال يسمعها. كان قد نسي ذلك، ولكن ذاكرته في هذا الصباح بالذات قد صارت جليةً حيةً بشكل لم يألفه، وراح ذهنه يعمل بالرغم منه في مرح عجيب. وحاول «برنارد» أن يُنحِّي عنه صورة «لورا» وأن يخمد تلك الذكريات، ولكي يمنع نفسه من التفكير، أمسك بكتاب مدرسي وحاول جاهدًا أن يعد نفسه

للامتحان. ولكن الجو في هذه الغرفة خانق، فنزل ليستذكر دروسه في الحديقة، وتمنى لو خرج إلى الشارع وسار وجرى في الهواء. وراح يراقب الباب الكبير، وما إن فتحه البواب، حتى مرق إلى الخارج.

وبلغ حديقة اللوكسمبرج ومعه كتابه فجلس على مقعد، وكانت أفكاره تنساب انسياب الخيط الحريري بين يديه. ولو قد أثقل عليها لانقطع الخيط، وكلما أراد أن يستذكر دروسه تطفلت عليه الذكريات وتدخلت بينه وبين كتابه. ولم تكن ذكريات اللحظات الحادة، لحظات البهجة، ولكنها تفاصيل غريبة تافهة تتعلق بها كرامته فتتخدش وتتعذب، لن يبدو بعد الآن محدثًا.

وحوالي الساعة التاسعة نهض وتوجه لمقابلة «لوسيان بركايل»، وقصد الاثنان إلى منزل «إدوارد».

كان «إدوارد» يسكن منزلًا في حي «باسي» بالطابق الأخير. وكانت حجرة نومه تؤدي إلى غرفة فسيحة اتخذها مكتبًا له. لقد نهض «أوليفييه» في الفجر، ولم يقلق عليه «إدوارد».

قال «أوليفييه» سأستريح قليلًا على الأريكة. وخشب «إدوارد» أن يصاب «أوليفييه» بالبرد، فطلب منه أن يحمل معه بعض الأغطية. وبعد أن أستيقظ «أوليفييه» بقليل. نهض «إدوارد»، ولا شك أنه استغرق في النوم ثانية دون أن يشعر، لأنه اندهش عندما صحا هذه المرة فرأى النهار يغمر الحجرة بضوئه، وأراد أن يعرف كيف نام «أوليفييه» وأن يطمئن عليه، وربما دفعه شعور خفي إلى القلق...

كانت غرفة مكتبه خاويةً، والأغطية باقيةً عند أسفل الأريكة لم تبسط، ثم تنبه إلى رائحة غاز كريهة. وكانت غرفة مكتبه تفتح على حجرة صغيرة تستعمل للحمام، لا شك أن الرائحة تنبعث من هذا المكان، فجرى إلى الحمام ولكنه لم يستطع أن يدفع الباب في بادئ الأمر؛ إذ كان هناك شيء يعوقه، إنه جسد «أوليفييه» الذي تمدد خائرًا عند أسفل حوض الاستحمام مجردًا من ملابسه، باردًا كالثلج شاحبًا وملوثًا ببشاعة بآثار قيئه!!

وأغلق «إدوارد» في الحال صنبور الغاز، ماذا وقع؟ أهي حادثة؟ أهي جلطة دموية؟ لم يستطع أن يصدق هذا. كان حوض الاستحمام خاويًا، وحمل المحتضر بين ذراعيه إلى حجرة مكتبه، ووضعه على البساط أمام النافذة المفتوحة على مصراعيها، وفحص «أوليفييه» وهو جاث على ركبتيه ينحني عليه في حنان. كان «أوليفييه» لا زال يتنفس ضعيفًا. وبذل «إدوارد» كل ما في وسعه محاولًا أن يبعث الحياة التي أوشكت أن تخبو. ووأخذ يرفع في حركات منتظمة الذراعين الخائرين ويضغط على جبين الفتى، ويدلك القصبة الهوائية. حاول أن يفعل كل ما تعيه ذاكرته عما يجب عمله في حالات الاختناق، وكان آسفًا لأنه لا يستطيع أن يفعل كل هذه الحركات في وقت معًا. كانت عينا «أوليفييه» ما زالتا مغلقتين. ورفع «إدوارد» بأصابعه الجفنين، فانسدلا من جديد على نظرة زايلتها الحياة، ومع ذلك كان القلب يخفق، وأحضر بعضًا من كونياك وأملاحًا دون ما نتيجة، وكان قد سخن بعض الماء وغسل أعلى الجسد والوجه، ثم أرقد من جديد هذا الجسد على الأريكة وغطاه بالأغطية. كان بوده أن يستدعي طبيبًا، ولكنه لم يجرؤ على ترك الفتى وحيدًا. هناك خادمة تحضر إليه كل صباح لتقوم بأعمال المنزل، ولكنها لا تحضر إلا في الساعة التاسعة، وما إن سمع وقع أقدامها، حتى بعث بها لتبحث عن طبيب من أطباء الحي، ولكنه استدعاها في الحال خشية أن يتعرض للتحقيق.

وأثناء ذلك أخذت الحياة تعود بطيئة إلى «أوليفييه»، وجلس «إدوارد» بجانبه على مقربة من الأريكة ينظر إلى هذا الوجه المغلق، ويحاول أن يفك الرموز المرتسمة عليه. لماذا؟ لماذا؟ من الجائز أن يتصرف المرء دون إدراك في المساء إذا كان ثملًا. ولكن القرارات التي تتخذ في الصباح الباكر لا تتم إلا بعد التروي. وأمسك عن التفكير في أي شيء انتظارًا للحظة التي يستطيع «أوليفييه» أن يكلمه فيها. ولن يتركه حتى تحين تلك اللحظة، وكان قد أمسك بإحدى يديه وركز تساؤله وأفكاره وحياته كلها في هذه الصلة. وأخيرًا بدا له أن يد «أوليفييه» تستجيب في ضعف لضغط يده.. وعندئذ انحنى ووضع شفتيه على هذا الجبين الذي كان الألم الهائل الغامض يرسم التجاعيد عليه. ودق الجرس، ونهض «إدوارد» ليفتح الباب -إنهما «برنارد» و «لوسيان بركايل»، فاحتجزهما «إدوارد» في مدخل الشقة وأخبرهما بما حدث، ثم أخذ «برنارد» على حدة وسأله: هل «أوليفييه» معرض للإغماء أو للنوبات؟ وتذكر «برنارد» فجأةً حديثهما في اليوم السابق، ولا سيما كلمات نطق بها «أوليفييه» ولم يكن يُصغي إليها، ولكنه فهم الآن مرماها بشكل أوضح. قال «برنارد» لإدوارد: كنت أكلمه أنا نفسي عن الانتحار، وسألته: أيمكن أن ينتحر المرء لمجرد شعوره بطاقة من الحياة زائدة عن الحاجة، لشعوره بنشوة غامرة، كما كان يقول «ديمتري كارامازوف»: كنت غارقًا في أفكاري ولم ألق بالًا عندئذ إلا إلى ما كنت أقول، ولكنني أذكر ما أجابني به.

- وبماذا أجابك؟

وألح «إدوارد» في السؤال إذ كف «برنارد» عن الحديث، وكان يبدو عليه أنه لا يريد أن يزيد شيئًا على ما قال:

- قال إنه يفهم أن ينتحر المرء، ولكن بعد أن يبلغ قمة من المتعة لا يمكنه بعدها إلا أن ينزل من جديد.

ونظر كل منهما إلى الآخر دون أن يضيف شيئًا، وأضاء النور ذهنهما. وأخيرًا أدار «إدوارد» عينيه، وأنب «برنارد» نفسه على أنه تكلم، واقتربا من «بركايل» وقال هذا الأخير:

- المزعج في الأمر هو أن الناس قد يقولون إنه أراد الانتحار ليتهرب من المنزل.

وكان «إدوارد» قد كف عن التفكير في هذا النزال، وقال:

- تصرفا وكأن شيئًا لم يحدث. اتصلا بدورمير، واطلبا منه أن يعرفكما بشاهديه، وسوف تتفاهمان مع هذين الشاهدين إذا فرض ولم يحل هذا الموضوع السخيف من تلقاء نفسه. فلم يبد على «دورمير» أنه راغب في الاسترسال في هذا الموضوع، وقال «لوسيان»:

- لن نحكي له شيئًا على الإطلاق، لكي نترك له عار التراجع، وأنا واثق أنه سيهرب.

وسأل «برنارد» أيستطيع مقابلة «أوليفييه»، ولكن «إدوارد» كان يريد أن يتركوه يستريح في هدوء.

وتأهب «برنارد» و«لوسيان» للخروج، وإذا بجورج الصغير يصل آتيًا من عند «باسافان»، ولكنه لم يتمكن من الحصول على أشياء أخيه.

وكان الخادم قد أجابه عندما توجه إلى منزل «باسافان» بقوله: خرج الكونت ولم يلق لي بأي أوامر بهذا الصدد.

ثم أغلق الخادم الباب في وجهه.

وأقلق «جورج» ما لاحظه من جد في لهجة «إدوارد» وفي تصرفات الاثنين الآخرين، واشتم رائحة شيء غريب، فطلب إيضاحًا، واضطر «إدوارد» أن يحكي له كل شيء، ولكنه قال له:

- ولكن لا تقل شيئًا من ذلك لوالديك.

وسر «جورج» أيما سرور أن ائتمنوه على سر، وقال:

- أعرف كيف أصون السر. ولما لم يكن عنده ما يعمله في هذا الصباح اقترح أن يصطحب «برنارد» و«لوسيان» إلى بيت «دورمير».

وبعد أن انصرف الزوار الثلاثة، نادى إدوارد خادمته، وطلب منها أن تعد غرفةً مخصصةً للأصدقاء تقع بجانب غرفته؛ لكي يرقد فيها «أوليفييه»، ثم دخل إلى غرفة مكتبه دون أن يبدو منه أي صوت. كان «أوليفييه» مضطجعًا يستريح، وجلس «إدوارد» بجانبه، وكان قد أمسك بكتاب، ولكنه ألقاه بعد هنيهة دون أن يفتحه، وأخذ يرنو إلى صديقه وهو يغط في نومه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل العاشر

(ليس فيما تتلقاه النفس أي شيء بسيط، كما أن النفس لا تلقى أي شيء ببساطة).

«باسكان».

قال إدوارد «لبرنارد» في اليوم التالي: أعتقد أنه سوف يسر برؤياك، لقد سألني هذا الصباح هل جئت أمس، ولا شك أنه سمع صوتك بينما كنت أتصوره فاقد الوعي... إنه يغمض عينيه ولكنه لا ينام، وهو لا ينطق بكلمة واحدة، وكثيرًا ما يرفع يده إلى جبهته دلالةً على الألم. وما إن أوجه له الحديث حتى تتغضن جبهته، ولكنني إذا ابتعدت عنه طلب مني العودة أجلسني بجانبه... لا إنه ليس في غرفة مكتبي. لقد أرقدته في الغرفة المجاورة لغرفتي، حتى أستطيع أن أستقبل زوارًا دون أن أزعجه.

ودخلا إلى غرفة «أوليفييه».

وقال: «برنارد» برفق: جئت لأسأل عن أخبارك.

وبدت معالم الحياة على ملامح «أوليفييه» عندما سمع صديقه، وارتسم على وجهه شبه ابتسام.

- كنت أنتظرك.

- سوف أرحل إن كنت أرهقك.

- ابقَ.

ولكن «أوليفييه» وضع إصبعًا على شفتيه وهو ينطق بهذه الكلمة كان يطلب أن لا يكلموه، ولم يكن «برنارد» يتحرك في هذه الأيام إلا وهو يحمل أحد هذه الكتب الصغيرة التي تتركز فيها -وكأنها إكسير- كل ما في مواد الامتحان من مرارة، إذ كان عليه أن يتقدم للامتحان الشفهي بعد ثلاثة أيام. وجلس بجانب فراش صديقه واستغرق في القراءة، وأدار «أوليفييه» وجهه ناحية الحائط فبدا كالنائم. أما «إدوارد» فقد اعتكف في غرفته وكان يعود من وقت إلى آخر عند الباب الموصل بين الغرفتين والذي بقي مفتوحًا، وكان يعطي «لأوليفييه» كل ساعتين كوبًا من اللبن، ولم يفعل ذلك إلا في هذا الصباح فقط، فلم تكن معدة المريض طوال اليوم السابق تستطيع أن تحتمل أي شيء.

وانقضى وقت طويل. ونهض «برنارد» لكي يرحل، واستدار «أوليفييه» ومد له يده، وقال وهو يحاول الابتسام:

- هل ستأتي غدًا؟

وفي آخر لحظة استدعاه من جديد، وأشار إليه بأن ينحني، وكأنه خشي أن يعجز عن إسماعه صوته، وقال بصوت خفيض:

- أتعتقد أنني كنت غبيًّا؟

ثم رفع من جديد إصبعه إلى شفتيه، وكأنه يريد أن يمنع «برنارد» من الاحتجاج، وقال:

- لا، لا... فيما بعد سوف أشرح لك الأمر.

وتسلم إدوارد في اليوم التالي رسالة من «لورا»، ولما عاد «برنارد» سلمه إياها وها هي:

يا صديقي العزيز،

أكتب لك على وجه السرعة لأحاول تجنب كارثة سخيفة، وأنا واثقة أنك ستساعدني إذا ما وصلت إليك رسالتي في الوقت المناسب. رحل «فيلكس» لتوه إلى باريس، وفي نيته أن يقابلك. وهو يأمل أن يحصل منك على الإيضاحات التي امتنعت عن إعطائها له. يريد أن يعرف منك اسم الشخص الذي ينوي أن يبارزه. ولقد فعلت كل ما في مقدوري لأمنعه من السفر، ولكنه لم ينثنِ عن قراره، وكل ما أبديه له من أسباب يزيده إصرارًا، ولعلك الوحيد الذي يستطيع إقناعه؛ فهو يثق بك، وأرجو أن يعمل بنصحك. تصور أنه لم يمسك أبدًا في يده لا سيفًا ولا مسدسًا، وإن فكرة تعريض حياته للخطر من أجلي فكرة لا أطيقها، ولكن أخشى ما أخشاه ولا أكاد أستطيع الاعتراف به، هو أن يجلب على نفسه الهزء والسخرية. ومنذ عودتي و«فيلكس» يبدي اهتمامه بأمري، ويحيطني بحنانه ويكرمني كل الإكرام، ولكني عاجزة عن أن أتصنع حبًّا أكبر من الذي أشعر به نحوه. وأعتقد أن رغبته في استجلاب تقديري وإعجابي هي التي ستدفعه إلى هذا التصرف الذي ستنعته بالطيش، والذي لا يكف هو عن التفكير فيه منذ عودتي بحيث أصبح فكرةً ثابتةً لديه. لا شك أنه قد سامحني، ولكن حقده على الشخص الآخر حقد مميت.

أتوسل إليك أن تستقبله بعين الود الذي تستقبلني به. ولن يمكنك أن تعطيني دليلًا على صداقتك لي يؤثر في أكثر من هذا. وأرجو عفوك إذ لم أكتب لك قبل الآن لأعبر لك عن عرفاني لتفانيك في العناية التي أحطتني بها وأغدقها على طوال إقامتنا بسويسرا، وذكرى هذه الفترة تقويني على احتمال الحياة.

صديقتك القلقة دائمًا والواثقة بك أبدًا

«لورا».

قال «برنارد» لإدوارد وهو يعيد إليه الرسالة:

- ماذا تنوي عمله؟

وأجابه «إدوارد» في شيء من الضيق، ولم يكن ذلك بسبب سؤاله، ولكن لأنه سبق أن سأل نفسه عين هذا السؤال:

- ماذا تريد أن أفعل؟ إذا ما جاء فسأستقبله أحسن استقبال، وسوف أبدي له النصح بقدر ما أستطيع إذا ما سألني النصح، وسوف أحاول أن أقنعه بأن ليس ثمة خير من أن يبقى هادئًا. إن أمثال «دوفييه» يخطئون عندما يحاولون أن يقوموا بالأدوار الأولى. وكل منا يقوم بدور على قدره، ويتحمل ما يمكن أن يكون في هذا الدور من مآسٍ. ماذا نستطيع أن نفعل في هذا الصدد؟ إن مأساة «لورا» أنها تزوجت رجلًا لا يصلح إلا للأدوار الثانوية. ولا يمكن تغيير هذا الوضع.

وقال «برنارد»: ومأساة «دوفييه» أنه تزوج امرأةً سوف تبقى دائمًا متفوقةً عليه مهما فعل.

وأردف «إدوارد» مؤمنًا على قوله: مهما فعل، ومهما فعلتْ «لورا». الجدير بالإعجاب هو أن «لورا» أرادت أسفًا على ما ارتكبته وتكفيرًا عن خطيئتها -أرادت أن تذل نفسها أمامه، ولكنه كان يرد على هذا بأن يسجد أمامها، وما فعله كل منهما في هذا الموقف لم يؤدِّ إلا إلى التقليل من شأنه وإلى رفع شأنها.

قال «برنارد»: إنني أرثي له كثيرًا... ولكن لماذا لا تعتبر أنه عندما يسجد أمامها يرتفع شأنه هو أيضًا؟

- لأن نفسه تفتقر إلى (الحمية). قالها «إدوارد» بلهجة لا تحتمل الجدال.

- ماذا تعني بقولك هذا؟

- أعني أنه لا ينسى نفسه أبدًا فيما يشعر به، ولذا فهو لا يشعر أبدًا بأي شيء عظيم. أرجو أن لا تدفعني إلى الإطالة في هذا الموضوع. إن لي آرائي الخاصة فيه، ولكنها آراء تنفر من قياس الناس بمقياس معين. لقد اعتاد «بول أمبرواز» أن يقول إنه لا يحسب حسابًا لأي شيء لا يقوم برقم، ورأيي أنه يتلاعب بكلمة (يحسب حسابًا) لأننا إذا حسبنا هذا الحساب سوف نضطر إلى أن نخرج الله من حسابنا. إنه يهدف إلى هذا ويصبو إليه... أصغِ إلي: إنني أعتبر أن (الحمية) هي حالة الإنسان الذي يرتضي أن ينهزم أمام الله.

- أليس هذا بالذات ما تعنيه كلمة (وجد)؟

- وربما أيضًا كلمة (الإلهام)... نعم هذا ما أعنيه. «دوفييه» شخص عاجز عن أن ينزل عليه الإلهام، وأرى أن «بول أمبرواز» على حق عندما يعتبر (الإلهام) شيئًا يسيء أكبر إساءةً للفن. ورأيي أنه لا يمكن للشخص أن يكون فنانًا إلا إذا استطاع أن يسيطر على هذه الحمية، ولكن لا بد لكي يتحكم فيها من أن يكون قد عاناها أولًا.

- ألا تظن أن حالة الإلهام الإلهي هذه يمكن تفسيرها من الناحية الفيسيولوجية بـ...

وقاطعه «إدوارد» بقوله: هذا لا يقدمنا في شيء، ولو صحت مثل هذه الاعتبارات لما عاقت إلا الأغبياء، وما من عمل صوفي إلا وله صداه المادي، ولكي تبدو الروح لا بد لها من إطار مادي، ومن هنا كان سر التجسد في المسيحية.

- وعلى العكس يمكن للمادة أن تستغني عن الروح.

وقال «إدوارد» ضاحكًا: أما عن هذا الأمر، فإننا لا ندري شيئًا.

وسر «برنارد» كثيرًا إذ سمعه يتحدث على هذا النحو، وكان من عادة «إدوارد» أن لا يفصح كثيرًا عن نفسه. وكان مصدر حماسته اليوم هو وجود «أوليفييه»، وأدرك ذلك «برنارد».

قال «برنارد» يحدث نفسه: إنه يحدثني كما كان يتمنى أن يحدثه هو. يجب أن يجعل من «أوليفييه» سكرتيرًا له. بمجرد أن يشفى «أوليفييه» فسوف أنسحب، مكاني ليس هنا.

وكان «برنارد» يفكر في هذا الأمر دون مرارة، إذ كانت «سارة» هي شغله الشاغل.

وكان قد رآها مرةَ أخرى في الليلة الماضية، كما كان يتأهب للقياها هذه الليلة، وأردف وهو يضحك بدوره:

- ها نحن قد ابتعدنا كثيرًا عن «دوفييه»، ستكلمه عن «فنسان»؟

- طبعًا لا ، وما جدوى ذلك؟

- ألا تعتقد أن جهل «دوفييه» بمن يوجه نحوه شكوكه يمكن أن يسمم حياته؟

- ربما كنت على حق. ولكن هذا يجب أن يقال للورا. لا أستطيع الكلام دون أن أخون سرها... ومع كل فإني أجهل أين هو.

- مكان «فنسان»؟.. لا شك أن «باسافان» يعرف ذلك.

ودق جرس الباب فقطع حديثهما. جاءت السيدة «مولينييه» لتستفسر عن ابنها، ولحق بها «إدوارد» في حجرة مكتبه.

يوميات «إدوارد»

(زارتني بولين). كنت محرجًا إذ لا أعرف كيف أخبرها بمرض ابنها، ومع ذلك لم يكن بد من إخبارها. ورأيت أن لا جدوى من أن أروي لها قصة محاولته الانتحار، وأخبرتها ببساطة أنه أصيب بنوبة عنيفة في كبده، وكانت هذه النوبة فعلًا هي الشيء الوحيد الذي بقي ظاهرًا بعد ما حدث.

وقالت لي «بولين»: إنني مطمئنة لوجود «أوليفييه» تحت رعايتك. ولم يكن في استطاعتي أن أسهر عليه خيرًا مما تسهر عليه. لأنني أشعر شعورًا عميقًا بأنك تحبه بقدر ما أحبه.

ونظرت إليَّ وهي تنطق بهذه الكلمات الأخيرة نظرة فيها إلحاح عجيب. هل أدركت معنى ما بدا لي في نظرتها هذه، لقد شعرت وأنا في حضرة «بولين» كأنني آثم، ولم أستطع أن أجيبها إلا بكلمات متلعثمة غير واضحة المعاني. ويجب أن أعترف بأنني كنت مفعمًا بالانفعالات خلال هذين اليومين، حتى إنني فقدت كل السيطرة على نفسي، ولا شك أن اضطرابي كان ظاهرًا لها، لأنها أضافت.

- احمرار وجهك يفصح عن الكثير، ولا تنتظر مني يا صديقي عتابًا. كان يمكن أن أعاتبك لو كنت لا تحبه، هل أستطيع رؤيته؟

وقدتها إلى حيث يرقد «أوليفييه»، وانسحب «برنارد» قبل أن تدخل الغرفة إذ سمعنا قادمين. وتمتمت وهي تنحني فوق الفراش، كم هو جميل! ثم أضافت وهي تلتفت نحوي:

- أرجوك أن تقبله نيابةً عني، فأنا أخشى أن أوقظه.

لا شك أن «بولين» امرأة غير عادية. وليس رأيي فيها ابن اليوم فقط. ولكني لم أكن أتوقع أن يبلغ فهمها للأمور هذا الحد. ومع ذلك بدا لي خلال ما لمسته في كلماتها من مودة، ومما وضعته في صوتها من مرح - بدا لي أنها تحاول أن تضغط على أعصابها (ولعل شعوري هذا كان رد فعل لما كنت أبذله من جهد لأخفي ما أنا فيه من ضيق). وتذكرت جملةً قالتها أثناء حديثنا السابق، جملة بدت

لي حكيمة جدًا، ولم أهتم ولم يكن يهمني عند ذاك أن أتبين تلك الحكمة (أفضل أن أمنع عن طيب خاطر ما أعرف أنني لن أستطيع أن أمنعه). ولا شك أن «بولين» كانت تحاول جهدها أن تبدو طيبة الخاطر، وأردفت وكأنها تجيب على فكرة راودتني، عندما عدنا من جديد إلى غرفة مكتبي:

- أخشى أن أكون قد أثرت سخطك؛ لأنه لم يبد على السخط منذ قليل، فثمة ألوان من التحرر في الفكر يريد الرجال أن يحتكروها لأنفسهم، ومع ذلك لا أستطيع أن أظهر أمامك اشمئزازًا أكثر مما أستشعره حقًّا. لقد علمتني الحياة الكثير، وفهمت أن عفة الأولاد شيء هش مهما بدت صلدةً، وزيادةً على ذلك لا أعتقد أن أكثر المراهقين عفةً سيكونون فيما بعد أفضل الأزواج، ولا حتى أكثرهم وفاءً للأسف (وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة وهي تبتسم في حزن). وأخيرًا فإن المثل الذي ضربه والدهم جعلني أتمنى لأبنائي فضائل أخرى، ولكني أخشى عليهم من الإسراف أو من العلاقات التي تحط بالإنسان، و«أوليفييه» سهل الانقياد، وسوف يؤلمك أن تمنعه من الاندفاع وأعتقد أن في إمكانك أن تفيده، ولا يتوقف الأمر إلا عليك.

وملأتني كلماتها ارتباكًا، وقلت:

- إنك تصورينني في صورة أفضل مما أنا عليه فعلًا.

وهذا كل ما استطعت أن أقوله. وقد قلته بطريقة مبتذلة متكلفة، وأردفت في عذوبة ورقة: «أوليفييه» هو الذي سيجعل منك شخصًا أفضل مما أنت، الحب يجعل المرء ينال من ذاته كل شيء.

وسألتها -لكي أخفف من وطأة هذا الحديث-:

- هل يعلم «أوسكار» أنه يقيم عندي؟

- إنه يجهل حتى مجرد وجوده في باريس، سبق أن قلت لك: إنه لا يهتم كثيرًا بأولاده، ولهذا السبب كنت أعتمد عليك لكي تبدي النصح لجورج. هل كلمته؟

- لا، لم أكلمه بعد.

وفجأةً تجهم وجه «بولين» وقالت:

- إن قلقي ليزداد أكثر وأكثر، لقد اتخذ مظهر الصلف ولا أرى في هذا إلا الاستهتار والدناءة والغرور، إنه مجد في دراسته، ومدرسوه راضون عنه، ولا أجد لقلقي سندًا...

وفجأةً زايلها هدوؤها، وقالت في انفعال لم -آلفه منها:

- هل تتبين ما صارت إليه حياتي؟ لقد ضيقت آفاق سعادتي، وكان على أن أنقص منها عامًا بعد عام، وحذفت من آمالي أملًا إثر أمل، وتنازلت، ثم تسامحت، وتصنعت أني لا أفهم ولا أرى... ولكن المرء يتعلق بشيء ما، فإذا ما ضاع منه هذا القليل! إنه يأتي في المساء، فيستذكر دروسه بالقرب مني تحت المصباح، فإذا ما رفع رأسه أحيانًا عن كتابه لا أصادف في نظرته حبًّا، وإنما أرى فيها تحديًا. إنني لا أستحق هذا... ويبدو لي أحيانًا أن كل ما أشعر به من حب نحوه يتحول إلى بغضاء، وكم تمنيت أن لا أرزق أولادًا.

وأخذ صوتها يرتجف، وأمسكت بيدها، وقلت:

- سوف يكافئك أوليفييه وأعاهدك بهذا.

وبذلت مجهودًا لتتماسك، ثم قالت:

- من الجنون أن أتكلم هكذا، وكأنني نسيت أن لي ثلاثة أبناء، وعندما أفكر في أحدهم لم أعد أرى إلا «جورج». سوف تحكم عليَّ بأنني لست عاقلةً... ولكن العقل لا يكفي أحيانًا، وقلت لها لأهدئ من روعها:

- ومع ذلك، فأكثر ما يعجبني فيك هو عقلك، لقد حدثتني بكثير من الحكمة عن «أوسكار» في المرة السابقة... وفجأةً اعتدلت «بولين» ونظرت إليَّ ورفعت كتفيها، وأردفت بانفعال وغضب:

- عندما تظهر المرأة أقصى الاستسلام، تبدو في غاية العقل. وهذا ما يحدث دائمًا.

أزعجتني هذه الملاحظة لما فيها من صحة. ولكني أردفت حتى لا أبدي شيئًا مما أشعر به:

- أليس هناك جديد بخصوص الرسائل؟

- جديد؟ جديد؟.. هل يمكن أن يحدث جديد بيني وبين «أوسكار»؟

- كان ينتظر منك إيضاحًا.

- وأنا بدوري أنتظر إيضاحًا... يظل المرء طوال حياته ينتظر إيضاحات.

فقلت بلهجة فيها شيء من الضيق: شعر أوسكار أنه في وضع زائف.

- إنك تعرف تمامًا يا صديقي أن لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يدوم إلى الأبد مثلما تدوم المواقف الزائفة، وعليكم أنتم معشر كتَّاب القصة أن تحاولوا إيجاد حل لها، ولكن في الحياة لا يحل شيء من تلقاء نفسه، وإنما يستمر كل شيء، ونبقى دائمًا في شك، وسوف نبقى حتى النهاية دون أن ندري علام نعتمد، وتستمر الحياة في سيرها وكأن شيئًا لم يكن. وحتى هذا يرضى المرء عنه كما نرضى عن كل شيء. وداعًا.

كنت متألمًا مما لمسته في صوتها من نبرة جديدة تشبه التهجم، وقد دفعني هذا إلى التفكير، ربما ليس في اللحظة نفسها، ولكن عندما استرجعت التفكير في حديثنا، التفكير في أن «بولين» لم ترض بالسهولة التي تدعيها عن علاقتي بأوليفييه، وأن رضاءها عن هذا أقل من رضائها عن الباقي كله، وكنت أميل إلى الاعتقاد أنها لا تدينها، بل على العكس تغتبط بها في بعض النواحي -كما أرادت أن توحي إليَّ بذلك-، ولكنها مع هذا تشعر بشيء من الغيرة التي قد تعترف بها لنفسها.

وهذا هو التعليل الوحيد الذي أجده لما بدا عليها فجأةً من ثورة في موضوع يهمها أقل جدًّا مما يهمها موضوع علاقات «أوليفييه» بي. وإن المرء ليخال أنها -وقد منحتني أولًا أعز ما لديها- أنضبت رصيدها من التسامح وأصبحت فجأةً صفر اليدين، وذلك سر ما بدر منها من ألفاظ جافة وشاذة تقريبًا. ولا شك أنها دهشت هي نفسها عندما أعادت التفكير في هذه الألفاظ التي أظهرت غيرتها

بالرغم منها. على أني أسائل نفسي: ماذا يمكن أن تكون عليه حالة المرأة التي لا تستسلم، وأعني بذلك (المرأة الشريفة) التي لا تستسلم... كأن ما يسمونه (الشرف) لدى النساء لا يحمل في طياته الاستسلام.

بدأ أوليفييه قرب المساء يتحسن بشكل ملحوظ، ولكن الحياة وهي تعود تجلب معها القلق، وحاولت جهد استطاعتي أن أطمئنه لما سألني عن موضوع المبارزة، فأجبته بأن «دورمير» هرب إلى الريف، ولم يكن طبعًا من المستطاع أن يجري الشهود وراءه. أما عن المجلة فقد أخبرته بأن «بركايل» يهتم بها.

ولكنه لما سألني عن أشيائه التي تركها عند «باسافان»، وجدت نفسي أمام موقف دقيق، فاضطررت إلى أن أعترف له بأن «جورج» لم يوفق في استردادها، ولكني تعهدت بأن أذهب بنفسي لاسترجاعها في اليوم التالي. وكان يخشى كما بدا لي أن يحتفظ بها «باسافان» كرهينة، وهذا أمر لا يمكن أن أتصوره على الإطلاق.

تأخرت بعض الوقت في مكتبي بعد أن كتبت هذه الصفحات وإذا بأوليفييه يناديني، فذهبت إليه في لهفة.

وقال لي: كنت سأحضر بنفسي إليك لولا إني أشعر بضعف زائد. لقد أردت أن أنهض من فراشي، ولكنني عندما أقف على قدمي أشعر بدوار في رأسي، وقد خشيت الوقوع... لا. لا، لست أشعر بأنني أسوأ حالًا -على العكس-، ولكني كنت أحس أني في حاجة إلى أن أكلمك. يجب أن تعدني بشيء: أن لا تحاول أبدًا معرفة الأسباب التي دعتني إلى محاولة الانتحار أمس الأول. وأعتقد أنني لم أعد أنا نفسي أعرف هذه الأسباب، ولو أردت ذكرها لما استطعت، ولكن يجب أن تظن أن السبب في هذا يرجع إلى شيء غامض في حياتي، شيء لا تعرفه أنت. ثم قال بصوت خفيض: ويجب أن لا تتصور أيضًا أنني حاولت ذلك لشعور بالخجل.

ورغم أننا كنا في الظلام فقد أخفى جبينه في كتفي.

- لو شعرت بالخجل لكان ذلك مما حدث في الوليمة تلك الليلة، ومن شدة سكري، ومن اندفاعي، ومن دموعي، ومن رحلتي في شهور الصيف. ومن أنني لم أحسن انتظارك.

ثم قال: إنه في كل ما حدث لا يريد أن يتصور أنه هو الذي قام بهذه الأعمال، وأنه أراد أن يقتل كل هذه الذكريات، وأنه قتلها ومحاها من حياته.

وأحسست خلال اضطرابه هذا بضعفه، ورحت أهدهده كالطفل دون أن أقول شيئًا، ولا أنه كان محتاجًا إلى الراحة، وجعلني سكوته أؤمل في أن ينام هادئًا، ولكني سمعته يتمتم:

- عندما أكون بالقرب منك أحس بسعادة تمنعني من النوم.

ولم يسمح لي أن أتركه إلا في الصباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر

حضر «برنارد» في ذلك الصباح مبكرًا، وما زال «أوليفييه» نائمًا، وجلس «برنارد» إلى جوار فراش صديقه وفي يده كتاب كما اعتاد أن يفعل في الأيام الأخرى، وأتاح ذلك «لإدوارد» أن يتوجه إلى بيت «الكونت دي باسافان» كما كان قد وعد، ففي الساعة المبكرة كان وجوده في البيت مؤكدًا. سطعت الشمس ورق الهواء وراح يجرد الأشجار من أوراقها الأخيرة، وبدا كل شيء شفافًا لازورديًّا. ولم يكن «إدوارد» قد غادر منزله منذ ثلاثة أيام، وكانت السعادة تغمر قلبه، وبدا له وكأن كيانه كله غلاف رسالة خاو يطفو على سطح بحر لا نهائي من الطيبة والنقاء. وهكذا يفعل الحب والجو الجميل فعلهما فيوسعان آفاقنا حتى تصبح وكأن لا حدود لها.

كان «إدوارد» يعرف أنه في حاجة إلى سيارة ليحضر فيها حاجيات «أوليفييه»، ولكنه لم يسرع إلى ركوبها لأنه شعر بمتعة في السير على قدميه، وكان ما به من رضا نفسي يجعله في حالة لا تشجعه على مجابهة «باسافان». وقال لنفسه إنه يجب أن يشعر نحوه بالبغضاء. كان يستعرض في ذهنه ألوان هجومه عليه، ولكنه لم يعد يشعر بوخز عبارات هذا الغريم الذي كان يمقته حتى الأمس. لقد احتل مكانه تمامًا فلم تعد به حاجة إلى كرهه، أو على الأقل لم يعد يستطيع أن يكرهه هذا الصباح. وإذ رأى من ناحية أخرى وجوب إخفاء ما طرأ عليه من تغيير مما كان خليقًا أن يكشف سعادته، فقد تمنى أن يتجنب المقابلة ولا يبدو بمظهر المنهزم، ولماذا يسعى هو إلى هذه المقابلة... هو «إدوارد» بالذات؟ سيذهب إلى شارع «بابيلون» وسيطالب بحاجيات «أوليفييه»، بأي صفة سيعقل هذا؟ لقد قبل هذه المهمة ولا شك دون أن يقدر عواقبها. كان يقول لنفسه كل هذا وهو يسير، وكان يرى أن قيامه بهذه المهمة يفهم منه أن «أوليفييه» قد أقام لديه، وهذا بالذات ما كان يريد إخفاءه...! ولكن فات أوان التراجع، لقد وعد «أوليفييه» بذلك، وعليه إذَنْ أن يتظاهر أمام «باسافان» بالبرود وبالصلابة. وأبصر سيارة أجرة فناداها.

والحق أن «إدوارد» لم يعرف «باسافان» حق المعرفة. لقد جهل ناحيةً من نواحي نفسه. كان من العسير أن يؤخذ «باسافان» على غرة. ولم يكن يحتمل أن يخدعه أحد. ولكي لا يعترف بهزائمه، اعتاد أن يتظاهر دائمًا بأنه تمنى ما حدث له، بل وأنه أراد ما حدث له، وما إن أدرك أنه فقد «أوليفييه» حتى أصبح كل همه أن يخفي ثورته، وبدلًا من أن يحاول الجري وراءه، وأن يعرض نفسه للسخرية، آثر أن يتماسك، وأجبر نفسه على أن يرفع كتفيه استهزاءً. ولم تكن انفعالاته قط بالعنف الذي يعجز إزاءه عن السيطرة عليها، وذلك ما يغتبط به البعض -دون أن يدركوا أنهم لا يدينون بهذه السيطرة على أنفسهم لقوة أخلاقهم بقدر ما يدينون بهذا إلى عجز في شخصياتهم. وأنا لا أسمح لنفسي بأن أعمم في هذا الصدد، ولنفرض أن ما قلته لا ينطبق إلا على «باسافان» وحده، ولذا لم يجد هذا الأخير كبير صعوبة في أن يقنع نفسه بأنه قد زهد «أوليفييه»، وأنه استنفد أثناء شهري الصيف كل ما كان في هذه المغامرة من نشوة، وأن هذه المغامرة كانت خليقةً بأن تربك حياته، وأنه قد بالغ في تقدير جمال هذا الصبي وظرفه وذكائه، وأن الوقت حان لأن يفتح عينيه على مدى مجازفته بأن يعهد إلى غر عديم التجربة بإدارة المجلة. ويستطيع «ستروفيلهو» أن يقوم بهذه المهمة أفضل مما يستطيعه «أوليفييه» فهو يعرف كيف يشرف على مجلة، وكان قد كتب له يستدعيه لهذا الغرض، وكان ينتظره هذا الصباح.

ولنضف إلى ما ذكرناه أن «باسافان» أخطأ في تقدير الأسباب التي حدت بأوليفييه إلى الهروب، فقد ظن أنه أثار غيرته عندما بالغ في إظهار اهتمامه بسارة، وارتاح إلى هذا التعليل الذي أرضى غروره الطبيعي وخفف من غيظه.

كان إذَنْ ينتظر حضور «ستروفيلهو»، وقد ألقى أوامره بأن يدخلوه بمجرد حضوره، ومن هذا استفاد «إدوارد»، ووجد نفسه أمام «باسافان» دون أن يعلنوا حضوره.

ولم يظهر «باسافان» دهشته، ومن حسن حظه أن الدور الذي سيقوم به يتلاءم مع طبيعته، ولم يكن من المواضيع التي يمكن أن تضلل أفكاره. قال لإدوارد بمجرد أن أخبره عن الباعث على زيارته.

- كم أنا سعيد بما تخبرني به. أهذا صحيح؟ أستتكفل به أنت؟ ألا يزعجك هذا كثيرًا؟ «أوليفييه» صبي لطيف، ولكن بدأ وجوده عندي يزعجني بشكل لا يطاق. ولم أكن أجرؤ على إشعاره بذلك لأنه ظريف جدًّا. وكنت أعلم أنه لا يود العودة إلى والديه... إن المرء إذا ترك والديه، لا يستطيع العودة إليهما. أليس كذلك؟ ولكن أليست أمه أختًا غير شقيقة لك، أو شيئًا من هذا القبيل؟ لقد أخبرني «أوليفييه» بشيء من هذا فيما مضى. وإذَنْ فمن الطبيعي جدًّا أن يقيم لديك. ولا يمكن أن يكون هذا داعيًا للابتسام (وكان هو نفسه يبتسم وهو يقول هذا الكلام). أما إقامته عندي، ولعلك تدرك ذلك، فقد كانت تحرجني، وربما كان هذا أحد الأسباب التي حدت بي إلى أن أتمنى رحيله... ومع ذلك فليس من عادتي أن أبالي بالرأي العام، لقد كنت أريد صالحه...

بدأ الحديث بطريقة لا بأس بها، ولكن كان يطيب لباسافان أن يُلقي على سعادة «إدوارد» قطرات من السم الذي تزخر به طبيعته الغادرة. كان في جعبته كثير منه يدخره احتياطًا لما يقع. وشعر «إدوارد» أن صبره يوشك أن ينفد، ولكنه تذكر فجأةً «فنسان»، ولا بد أن «باسافان» على علم بأخباره. كان قد عاهد نفسه على ألا يكلم «دوفييه» عن «فنسان» إذا ما جاء «دوفييه» يسأله، ولكنه رأى ليتهرب من هذا الاستجواب أنه من الأفضل أن يكون هو نفسه ملمًّا بأخبار «فنسان»، فذلك جدير أن يدعم مقاومته. واغتنم هذه الفرصة ليغير مجرى الحديث.

ورد «باسافان» قائلًا: لم يكتب لي «فنسان» ولكنني تسلمت رسالة من «ليدي جويفيت»، إنك تعرف ولا شك أنها هي التي حلت محل الأخرى. وقد حدثتني طويلًا عنه في هذه الرسالة. خذ ها هي الرسالة ولست أرى مانعًا من أن تلم بما جاء فيها.

ومد يده بها فقرأ «إدوارد» ما جاء فيها:

25 أغسطس

يا عزيزي،

سيغادر يخت الأمير ميناء «داكار» من دوننا، ومن يدري أين سنكون عندما تصل إليك هذه الرسالة التي يحملها. ربما نكون على ضفتي «الكازامانس» حيث يريد «فنسان» أن يجمع النباتات لدراستها، وأريد أنا أن أصطاد. ولم أعد أعرف أأنا التي أقوده أم هو الذي يقودني؟ ولعله بالأحرى شيطان المغامرة هو الذي يطاردنا نحن الاثنين على هذه الصورة. وقد قدمنا لهذا الشيطان شيطانًا آخر هو شيطان الملل الذي تعرفنا به على ظهر الباخرة... آه يا عزيزي، لا بد من أن يعيش المرء على ظهر

يخت ليعرف حقًا ما هو الملل. الحياة محتملة على ظهره ما دام الجو عاصفًا إذ إنك تشارك الباخرة اضطرابها. ولكن بعد أن تركنا «تينيريف» لم تصادفنا نسمة واحدة، ولم نر تجعيدةً واحدةً على سطح البحر... «مرآة يأسي الكبيرة»([31]).

أو تدري بماذا شغلت نفسي منذ هذه اللحظة؛ شغلتها بكره «فنسان». نعم يا صديقي... بدا الحب لنا شيئًا لا طعم له، ولذا قررنا أن يكره كل منا الآخر، والحقيقة أن هذا الشعور بدأ قبل ذلك بكثير. نعم بدأ منذ ركوبنا اليخت، لم يكن في بادئ الأمر إلا شعورًا بالضيق، نوعًا من النفور المكتوم لا يعوق صلتنا الجسدية، ولكن مع الجو الجميل أصبح ذلك الضيق شيئًا فظيعًا. آه! إنني أعرف الآن معنى أن يشعر الإنسان بالعشق نحو إنسان..!».

وكانت الرسالة طويلة جدًّا.

وقال «إدوارد» وهو يعيدها إلى «باسافان»: لست في حاجة إلى قراءة المزيد، ومتى سيعود؟

- لم تشر «ليدي جريفث» في رسالتها إلى العودة.

وحنق «باسافان» إذ رأى «إدوارد» لا يبدي اهتمامًا بالرسالة، وإذ قد سمح لإدوارد بقراءتها، فإن عدم مبالاة هذا الأخير بها كانت إهانةً في نظر «باسافان».

كان يرفض دائمًا ما يقدمه له الآخرون، ولكنه لم يكن يطيق أن يهمل الآخرون ما يقدمه لهم. كانت هذه الرسالة قد ملأته بالغبطة، وكان يشعر ببعض الحب نحو «ليليان» و«فنسان»، وقد ثبت له أن قادر على أن يخدمهما ويساعدهما. ولكن حبه كان يضعف بمجرد أن يُستغني عنه. وما دام صديقاه لم يقلعا نحو السعادة بعد أن تركاه، فقد جعله ذلك يقول لنفسه: «هذا حسن». أما عن إدوارد، فقد كان إحساسه بالسعادة الشاملة ذلك الصباح صادقًا، حتى أنه شعر بالضيق أمام وصف الانفعالات، وقد أعاد الرسالة إلى «باسافان» دون أي تصنع.

وشعر «باسافان» أن عليه أن يعاود الهجوم:

- آه... كنت أريد أن أقول لك أيضًا: تعلم أنني كنت قد فكرت في «أوليفييه» لكي يرأس تحرير مجلة. بالطبع لم أعد أفكر في هذا الأمر.

ورد «إدوارد» على الفور: هذا أمر مفروغ منه.

ولم يشعر «باسافان» أنه بقوله ذاك قد أزاح همًّا ثقيلًا عن «إدوارد»، ثم أحس «باسافان» بذلك من لهجة «إدوارد»، فأردف على الفور دون أن يظهر أي ندم:

حاجيات «أوليفييه» موجودة بالغرفة التي كان يشغلها. لا شك أن معك سيارة أجرة، وسآمر بحمل الأشياء إليها... وبهذه المناسبة: كيف حاله؟

- على خير ما يرام.

ونهض «باسافان»، وكذلك فعل «إدوارد»، وافترقا بعد تحية باردة.

وضايقت زيادة «إدوارد» الكونت دي باسافان إلى حد كبير، فلما رأى «ستروفيلهو» داخلًا، قال:

- أف.

ورغم أن «ستروفيلهو» كان يتصرف معه تصرف الند للند، فإن «باسافان» كان يشعر معه بأنه على راحته، أو بمعنى أصح يجعل نفسه على راحتها. كان يتعامل ولا شك مع طرف قوي، ويعرف ذلك، ويؤمن أنه قادر على هذا ويهمه أن يثبته.

وقال وهو يدفعه نحو أحد المقاعد: يا عزيزي «ستروفيلهو» اجلس إني سعيد حقًّا برؤيتك.

- لقد طلب مني سيدي الكونت الحضور، وها أنا في خدمته.

كان «ستروفيلهو» يتعمد عندما يكون في حضرة الكونت أن يتكلف وقاحة الخدم، ولكن باسافان كان معتادًا على طرائقه، وقال:

- لنتكلم مباشرةً فيما طلبتك من أجله. حان الوقت كما يقولون لأن تخرج من تحت قطع الأثاث. لقد زاولت حرفًا كثيرةً... وسوف أعرض عليك اليوم عملًا فيه سيطرة كبرى. وها أنا أسرع فأقول لك إن الأمر يتعلق بالأدب.

- هذا من سوء حظي.

وأردف، بينما كان «باسافان» يقدم له علبة اللفائف:

- إذا سمحت... إنني أفضل...

- لا، لا أسمح بذلك إطلاقًا. هذا السيجار المهرب الفظيع يفسد جو الحجرة، ولم أفهم أبدًا ما يمكن أن يشعر به البعض من متعة في تدخين مثل هذا.

- أوه... لا أستطيع القول بأني مجنون السيجار، ولكني أحبه لأنه يزعج الجيران.

- أما زلت تطعن على كل شيء؟

- ومع ذلك يجب ألا تصور أنني إنسان غبي.

وبدلًا من أن يجيب مباشرةً على اقتراح «باسافان»، آثر «ستروفيلهو» أن يوضح موقفه وأن يدعمه، وسيرى الأمور فيما بعد. وواصل كلامه:

لم يكن حب الإنسانية من شيمتي.

وأجاب «باسافان»: - أعرف ذلك. أعرف ذلك.

- لا وليست الأثرة من طباعي، وهذا هو ما تجهله..يتصور الناس أن المخرج الوحيد للتخلص من الأثرة هو الإيثار، مع أن الإيثار أبشع وأقبح. إنني أعتقد أنه المخرج ليس ثمة شيء أكثر بعثًا للاشمئزاز من مثل هذه الجماعات من بني الإنسان؛ فلا يمكن لأي منطق أن يقنعني بأن جمع وحدات قذرة من البشر ينتج مجموعًا نظيفًا. وكلما ركبت ترامًا أو قطارًا تمنيت أن يقع حادث يقضي على كل

هذه القاذورات الحية. أوه، وأنا معهم ولا شك. وما دخلت قط قاعة عرض إلا تمنيت أن تسقط الثريات أو أن تنفجر قنبلة، حتى لو كنت سأتحطم معها. إنني على استعداد لأن أحملها تحت سترتي لولا أنني، أدخر نفسي لما هو أكبر من ذلك. ماذا كنت تقول؟..

- لا. لا شيء. استمر. إنني مصغ إليك. لست من هؤلاء الخطباء الذين ينتظرون المعارضة لتحفزهم على الكلام.

- الحقيقة أنه بدا لي أنني سمعتك تقدم لي كأسًا من شراب «البورتو» الفاخر.

وابتسم «باسافان» وقال وهو يمد يده إليه بالزجاجة:

- ضعها بجانبك، وأفرغ ما بها من فضلك، ولكن تكلم.

وملأ «ستروفيلهو» كأسه، وجلس على مقعد وثير عميق، وراح يقول:

- لست أدري هل لي قلب مما يسمونه بالقلب الفظ؟ إنني أشعر نحو الناس بكثير من الازدراء والاشمئزاز ولا يهمني أقلبي كذلك أم لا، لقد قضيت منذ وقت طويل على كل العواطف التي يمكن أن تجعل قلبي يضعف أو يشعر بالشفقة، ولكنني لست عاجزًا عن الشعور بالإعجاب، وبلون من الإخلاص الغريب؛ بصفتي إنسانًا أشعر نحو نفسي بنفس الاحتقار، بنفس الكراهية التي أشعر بها نحو الغير. طالما سمعت الناس يقولون ويكررون أن الأدب والفنون والعلوم تهدف آخر الأمر إلى خير الإنسانية، وهذا القول وحده خليق بأن يبغضني فيها ويجعلني لا أطيقها، ولكن ليس هناك ما يمنعني من أن أتصور العكس، وعندئذ أتنفس الصعداء. نعم. يحلو لي أن أتصور الإنسانية على العكس من ذلك –مسخرة في تشييد أثر تسوده القسوة، وأن أتخيل «برنارد باليسي»([32]) (وكم أزعجونا بكلامهم عنه) وهو يحرق زوجته وأولاده بنفسه، لكي يحصل على طلاء لطبق جميل. إنني أحب أن أقلب الأمور رأسًا على عقب فذلك يشعر ذهني بأن توازنها أقوى وأحسن. وإذا كنت لا أطيق فكرة أن المسيح ضحى بنفسه ليشتري بتضحيته خلاص كل هؤلاء الناكرين للجميل، كل هؤلاء الناس البشعين الذين أعيش بينهم، فإنني أشعر بالرضا وبنوع من الطمأنينة عندما أتخيل هذه الجموع وقد أدركها العفن لكي تنتج مسيحًا. شقاؤنا ناتج من أنانية القساة منا. أما القسوة المشبعة بالإخلاص فهي الجديرة بأن تنتج العظيم من الأشياء. إننا عندما نحمي البؤساء والضعفاء والمشوهين والجرحى فإننا نخطئ الطريق، ولهذا السبب أكره الذين الذي يدعوننا إلى ذلك، الراحة الكبرى التي يدعي محبو الإنسانية أنفسهم أنهم يشعرون بها عندما يتأملون الطبيعة وعالم الحيوان وعالم النبات، هذه الراحة ناتجة من أن الكائنات القوية هي وحدها التي تترعرع في الحالة البرية، أما ما عدا ذلك من كائنات فلا ينفع إلا كسماد، ولكن الناس لا يعرفون كيف يرون هذا ولا يريدون الاعتراف به.

- نعم. نعم إنني أعترف بذلك تمامًا. أكمل.

- قل لي، أليس مخجلًا وحقيرًا... أن يتكبد الإنسان كل ما تكبده ليحصل على أجناس ممتازة من الخيل والماشية والدواجن والحب والزهر –في الوقت الذي يبحث فيه لنفسه ومن أجل نفسه في علوم الطب عما يخفف به آلامه، وفي الإحسان عما يهون على نفسه، وفي الدين عن عزاء، وفي السكر عن النسيان؟ علينا أن نهتم بتحسين النوع، وذلك جدير بأن يكون شغلنا الشاغل، ولكن كل انتقاء يقتضي

القضاء على الضعيف، وهذا أمر لا يستطيعه مجتمعنا المسيحي. وهذا المجتمع لا يقوى أن يأخذ على عاتقه تعقيم المنحطين وهم أكثر الناس إنجابًا. إن ما نحتاج إليه ليس المستشفيات وإنما هي مزارع تحسين أنواع البشر.

- إنك حقيقةً تعجبني عندما تتكلم هكذا يا «ستروفيلهو».

- أخشى أن تكون قد كونت فكرةً خاطئةً عني حتى الآن يا سيدي «الكونت»، ربما تصورت أنني من المتشككين، مع أنني مثالي وصوفي. لم ينتج الشك أبدًا أي خير، ونحن نعرف إلى أين يؤدي... إلى التسامح! إنني أعتبر المتشككين أناسًا يعوزهم المثل الأعلى كما يعوزهم الخيال. إنني أعتبرهم مغفلين... ولست أجهل أن وجود هذه الإنسانية القوية سيقضي على المشاعر الرقيقة وعلى العواطف النبيلة، ولكن لن يكون هناك من يأسف على هذه المشاعر الرقيقة لأننا سنكون قد قضينا عليها بالقضاء على أهل الرقة. لا تسئ فهم ما أعنيه، إن لديَّ مايسمونه بالثقافة، وأعرف حق المعرفة أن مثلي الأعلى سبق أنٍ صبا إليه بعض اليونانيين، وأذكر أن «كوريه» ابنة «سيريس» كانت تنزل إلى العالم الآخر مدفوعةً بشفقتها على من فيه، ولكنها ما إن أصبحت ملكة وزوجة لـ «بلوتون» حتى صار «هوميروس» لا يدعوها إلا بـ «روزربين التي لا تلين»،يمكن أن نرجع إلى الأغنية السادسة من «الأوديسة»... إن كلمة «لايلين» هي التي يجب أن تكون صفةً لكل من يدَّعي الفضيلة.

- يسعدني أن تعود إلى الأدب -إذا فرض واعتبرنا أننا قد تركناه- وأطلب منك إذَنْ أيها الفاضل «ستروفيلهو»: أتقبل أن تكون رئيسًا «لا يلين» لتحرير المجلة؟

- أعترف لك بصراحة يا عزيزي «الكونت» أن الأدب من المقيئات التي تخرجها الإنسانية، بل إنه أكثر إغثاءً لنفسي من أي شيء آخر، فأنا لا أرى فيه إلا مجاملات وتملقات، ويصل بي الأمر إلى الاعتقاد أنه لا يمكن أن يصبح شيئًا آخر إن لم يمح من الماضي محوًا تامًّا. إننا نعيش على عواطف متعارف عليها، ويتصور القارئ أنه يشعر بها؛ لأنه يصدق كل ما يطبع، ويتلاعب المؤلف بهذه العواطف ويعتبرها أسس فنه، ولهذه العواطف رنين كرنين النقد الزائف. الذي يتداوله الناس رغم زيفه، وكما أننا نعرف أن النقود المزيفة تطرد النقود الحقيقية، فإن من يقدم للجمهور قطعًا حقيقيةً يبدو وكأنه لا يدفع لنا إلا كلامًا، وفي عالم يغش فيه الجميع يبدو الرجل الصادق وكأنه مهرج. إنني أحذرك بأنني إذا أشرفت على المجلة فسوف يكون كذلك لكي أقطع أكياسًا مليئةً بالزيف، لكي أقضي على القيم التي يعطيها الناس للعواطف الجميلة، لأقضي على هذه العملة: «الكلمات».

- أود في الحقيقة أن أعرف كيف ستحقق هذا الهدف.

- اتركني وشأني وسوف ترى. لقد فكرت في هذا الأمر كثيرًا.

- لن يفهمك أحد، ولن يتبعك أحد.

- لا تصدق ذلك... أكثر الشباب حرارةً اليوم يعادون هذا التضخم الشعري، فهم يعرفون ما يتخفى وراء هذه الموازين الشعرية المتينة، وراء الجرس الغنائي الأجوف. لنقترح القضاء على هذه الأشياء، وسوف تجد السواعد لهدمها. ألا تريد أن تنشئ مدرسةً يكون هدفها الوحيد هدم كل شيء؟.. أيخيفك هذا؟

- لا... لا يخيفني طالما لا يطأ أحد حديقتي.

- عندنا ما يشغلنا غير ذلك... في الوقت الحاضر إن والوقت مناسب. وأعرف من لا ينظرون إلا إشارة لينضموا إليَّ، وهو من ناشئة الشباب... نعم هذا يعجبك، أعرف ذلك، ولكني أحذرك أنهم لن يسمحوا لأحد بأن يخدعهم... كثيرًا ما تساءلت عن المعجزة التي دفعت بفن التصوير إلى الأمام، وكيف ارتضى الأدب أن يتأخر عنه إلى هذا الحد؟ لقد ضاعت في أيامنا قيمة ما كان يُدعى «الموضوع» في فن التصوير وكلمة «موضوع جميل» أصبحت تضحكنا الآن، ولم يعد الرسامون يجرؤون على عرض «صورة شخص» إلا إذا أزالوا منها كل شبه به. إذا سرنا سيرًا حسنًا - وتستطيع أن تعتمد عليَّ في ذلك- فلن أطلب منك أكثر من سنتين؛ لكي ترى أن شاعر الغد سوف يعتبر نفسه فاشلًا إن فهم الناس ما يعنيه. نعم يا سيدي «الكونت» أتراهني؟ سوف يعتبر الناس أن ليس من الشعر كل ما له مغزى أو معنى، وأقترح أن نعمل على نشر كل ماهو غير منطقي، يا له من اسم جميل لمجلة: «المنظفون»!!

واستمع «باسافان» دون أن تبدو منه حركة، ثم قال بعد لحظة صمت:

- هل في نيتك أن تأخذ ابن أخيك الصغير بين مساعديك؟

- «ليون» الصغير ولد فيه أصالة ويعرف دقائق الأمور، حقًّا سوف أجد متعةً في تعليمه. قبل الصيف، طاب له أن يتفوق على الأقوياء في فصله، وينتزع منهم جميع الجوائز، ولكنه لم يعد يعمل شيئًا منذ عودة الدراسة، ولست أدري ماذا يدبر، ولكنني أثق فيه، ولا أريد أن أضايقه.

- هل تأتيني به؟

- هل يمزح سيدي «الكونت»؟.. إذَنْ هذه المجلة؟

- سوف تتكلم ثانيةً في هذا الأمر. إني في حاجة إلى أن أترك مشاريعك تنضج في ذهني، أما الآن فعليك أن تجد لي سكرتيرًا، فلم أعد راضيًا عن السكرتير الذي يعمل معي.

- سوف أبعث إليك غدًا «كوب لافور» الصغير، وسوف أراه بعد قليل، ولا شك أنه بغيتك.

- هل هو من نوع «المنظفين»؟

- قليلًا.

- أمتطرف هو؟

- لا. لا إنه معتدل وهو خير من يصلح لك.

ونهض «ستروفيلهو».

وأردف «باسافان» بهذه المناسبة، لم أكن قد أعطيتك على ما أعتقد كتابي، وأنا آسف إذ لم يعد عندي نسخ من الطبعة الأولى...

- هذا أمر غير هام، ما دمت لا أنوي بيعه.

- المسألة، أن الطباعة كانت أحسن.

- أوه! ليس في نيتي كذلك أن أقرأه... إلى اللقاء. وإذا أردت فأنا في خدمتك. لي الشرف أن أحييك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني عشر

يوميات «إدوارد»

أعدت لأوليفييه حاجياته، وما إن عدت من لدن «باسافان» حتى عكفت على العمل. أشعر بحماسة للعمل، وصفاء الذهن، وسعادة لم أعرفها من قبل. كتبت ثلاثين صفحة في كتابي (المزيِّفون) دون تردد ودون أن أشطب. وكما تتضح معالم المنظر الطبيعي عندما يُلقي عليه البرق فجأةً نوره الوهَّاج، كذلك برزت لي القصة فجأةً من الظلمات، وهي مختلفة تمامًا عما حاولت ابتكاره دون جدوى. إن الكتب التي ألفتها حتى الآن، تبدو لي كأحواض المياه في الحدائق العامة، لها إطار واضح، إطار ربما كان رائعًا، ولكن الماء الأسير بها لا حياة فيه. أما الآن فأريد أن أترك الماء يجري وفقًا لميله، سريعًا طورًا آخر، في جداول أرفض التنبؤ بها.

يقول (س): إن القصصي البارع يعرف قبل أن يبدأ كتابه كيف سينتهي. أما عني، وأنا أترك لقصتي العنان تسير على غير هدى، فإني أعتقد أن الحياة لا تقدم إلينا شيئًا يمكن أن نعتبره نهاية القصة، إلا وكان ممكنًا في الوقت عينه اعتباره نقطة بداية جديدةً.

(يمكن أن تستمر هذه القصة) تلك هي الكلمات التي أريد أن أنهي بها قصتي (المزيِّفون).

زارني «دوفييه». لا شك أنه شاب طيب للغاية.

وإذ بالغت في إظهار عطفي له، فقد كان عليَّ أن أتحمل إسرافه في إبداء عواطفه، وكنت وأنا أكلمه أكرر لنفسي هذه الكلمات لـ «لاروشفوكوه»: (إنني أشعر بالشفقة قليلًا، وأتمنى أن لا أشعر بها إطلاقًا)... وفي رأيي أنه على المرء أن يكتفي بإظهار شفقته وأن يحرص على أن لا تكون لديه شفقة إطلاقًا. ومع هذا فإن عطفي كان حقيقيًّا لا شك فيه، وكنت متأثرًا حتى بكيت، ويبدو أن دموعي قد هونت عليه أكثر من كلماتي، بل أعتقد أنه نسي حزنه بمجرد أن رآني أبكي.

كنت مصرًّا على ألا أبوح له باسم من أغوى زوجته. ولكنني دهشت إذ لم يطلب مني ذلك. أعتقد أن غيرته تزول بمجرد شعوره أن «لورا» لا تراه، وعلى أي حال فإن سعيه إليَّ قد أوهن غيرته شيئًا ما.

هناك شئ غير منطقي في موقفه، فهو ساخط لأن الآخر هجر «لورا»، ولقد أفهمته أنه لولا هذا الهجران لما عادت إليه. وفي نيته أن يحب الطفل حبه لابن أنجبه هو. أما عن مباهج الأبوة، فمن يدري؛ أكان مقدرًا له أن يشعر بها لو لم يقم غريمه بما قام به؟ وقد أمسكت عن أن أنبهه إلى هذا الأمر، لأنه عندما يتذكر نواحي عجزه تزداد غيرته حدةً. ولكن غيرته حينذاك تصدر عن الكرامة، وفي هذه الحال يزول اهتمامي بها.

لأن يكون شخص مثل «عطيل» غيورًا فهذا أمر أفهمه؛ إذ إن تصوره لما تتمتع به زوجته مع غيره يرهقه عسرًا، ولكن شخصًا مثل «دوفييه» لا يصبح غيورًا إلا إذا تصور أن واجبه يقضي عليه بأن يكون كذلك.

ولا شك أنه يغذي في نفسه هذه الغيرة لحاجة غامضة في ذاته تدفعه إلى تضخيم شخصيته الهزيلة نوعًا. إن السعادة لخليقة بأن تكون شيئًا طبيعيًّا له، ولكنه في حاجة إلى الإعجاب بنفسه، وهو يقدر المجلوب ولا يقدر الطبيعي. وقد جاهدت لأصور له أن السعادة البسيطة تستحق التقدير أكثر مما يستحق العذاب، وأنها أمر بعيد المنال، ولم أتركه يرحل إلا وقد اطمأنت نفسه.

لا يعجبني التسلسل المنطقي في تصرفات شخصيات القصة، تلك الشخصيات التي تتصرف من بداية القصة إلى نهايتها طبقًا لما توقعناه... إن القصصين ليريدون منا أن نعجب بما نراه من ثبات في تصرفات هذه الشخصيات، ولكنني -على العكس من ذلك- لا أرى في هذه التصرفات إلا افتعالًا، ولا أعتبر هذه الشخصيات إلا شخصياتٍ صناعيةً مخترعةً.

ولست أدعي أن «اللا منطق» هو العلامة الأكيدة على الشخصية الطبيعية؛ لأننا نصادف -ولا سيما لدى النساء- كثيرًا من التصرفات اللامنطقية المفتعلة.

ومن ناحية أخرى في إمكاني أن أعجب بما يسمونه «تسلسل الفكرة» لدى قلة من هذه الشخصيات، ولكن الشخصية المنطقية كثيرًا ما تكون نتيجةً لتشبث غروري، وعلى حساب الطبيعي. وكلما كان الفرد ذا طبيعة كريمة، وكلما ازدادت إمكانياته، كلما كان عرضةً للتغير، وكلما قلت رغبته في أن يترك ماضيه فإنه يقرر مستقبله. إن الذين يقترحون هذه العبارة اللاتينية([33] Justum Et Tenacem Propsiti Virvm «الرجل العادل الحازم» -كمثل نحتذيه- لا يقدمون لنا في الواقع إلا أرضًا صخريةً كنودًا لا تصلح للنمو.

وقد عرفت أفرادًا من نوع آخر، أفرادًا اصطنعوا لأنفسهم في صبر شخصياتٍ فريدةً، وهم يتمسكون بهذه الشخصية ولا يرضون بها بديلًا، ويبقون دائمًا في موقف الحذر، ولا يسمحون لأنفسهم بأي تراخ، وأنا أفكر في «س» الذي رفض كأسًا من نبيذ الـ «مونتراشيه»؛ متعللًا بأنه لا يحب إلا نبيذ «البوردو»، ولكن بمجرد أن قدمته على أنه «بوردو» بدا له «المونتراشيه» شرابًا مقبولًا.

عندما كنت شابًّا، كنت أتخذ قرارات أتصور أنها فاضلة، ولم أكن أبالي بما كنته قدر ما كنت أبالي بأن أصبح من أريد أن أكونه. أما الآن، فقد أوشكت أن أرى في التردد السر الذي يجنبنا الشيخوخة.

سألني «أوليفييه» فيمَ أكتب؟ وقد تركت نفسي أحدثه عن كتابي، بل قرأت له الصفحات التي كتبتها حديثًا؛ إذ بدا عليه الاهتمام بما كنت أكلمه فيه. ولقد خشيت حكمه لعلمي بأن الشباب متصلب في رأيه، ولأنه من العسير أن يقبل وجهة نظر مختلفةً عن وجهة نظره. ولكن الملاحظات القليلة التي أبداها -بوجل- بدت لي حكيمةً للغاية، حتى أنني استفدت منها في الحال.

«إنه مصدر إحساسي وحياتي».

ما زال قلقًا بشأن هذه المجلة التي كان يرأس تحريرها، ولا سيما فيما يختص بالقصة التي كتبها بناءً على طلب «باسافان» والتي يستنكرها. وقد قلت له: إن التغييرات الجديدة -التي اعتزم هذا الأخير إدخالها على المجلة- لا بد أن تستلزم تغييرات في موادها، وأن في استطاعته أن يسترد منه أصل القصة.

زارني السيد «بروفيتا نديو» قاضي التحقيق، ولم أكن أتوقع هذه الزيارة على الإطلاق. كان يجفف عرق جبينه، ويتنفس بصعوبة، وبدا لي أن ذلك يرجع إلى حرجه أكثر مما يرجع إلى جهده في صعود ستة أدوار. كان محتفظًا بقبعته في يده، ولم يجلس إلا بعد أن دعوته إلى ذلك. إنه رجل جميل المظهر، قوي البنية، مهيب الطلعة.

وقال لي: أعتقد أنك صهر السيد «مولينييه» رئيس المحكمة، ولقد استمحت لنفسي بأن آتي إليك لأحدثك في موضوع يتعلق بابنه «جورج». ولعلك تعذرني لما يبدو في هذا التصرف من تطفل، ولكن آمل أن يكون ما أكنه لزميلي من مودة وتقدير كافيًا لتبرير تصرفي.

وسكت بعض الوقت، ونهضت وأغلقت الباب خشية أن تسمعنا الخادمة، وكانت في الغرفة المجاورة -وكنت أعرف مدى تطفلها، وقد أمن «بروفيتا نديو» على هذا بابتسامة.

وأردف: بصفتي قاضي تحقيق، كُلفت أن أشرف على تحقيق قضية تحرجني إلى أقصى حد -سبق أن أقحم ابن أختك نفسه في مغامرة... وليبق هذا الأمر سرًّا بيننا، أليس كذلك؟- وهي مغامرة فيها فضيحة، وأحسب أن حداثة سنه وبراءته قد ساعدتا على استغلال حسن نيته، ولكني أعترف أنني اضطررت إلى أن استخدم كثيرًا من المهارة لكي... أحد من تطورها دون أن أسيء إلى العدالة، وأحب أن أضيف أن محاولةً أخرى... من نوع آخر... ليس في استطاعتي أن أضمن أن يفلت منها «جورج» الصغير كما أفلت في المرة الأولى، بل أشك في أن يكون من مصلحة الصبي أن نحاول إخراجه منها رغم كل ما أشعر به من رغبة تدفعني إليها الصداقة لكي أجنب زوج أختك هذه الفضيحة، ومع ذلك فسوف أحاول، ولكنك تعرف -ولا شك- أن لي مساعدين، وأنهم يخلصون لعملهم، ولا أستطيع دائمًا أن أمنعهم من ذلك، وإذا كنت أستطيع اليوم فإنني قد لا أستطيع غدًا. ولذا فكرت في أن أطلب منك أن تكلم ابن أختك، وأن تفهمه إلى أي خطر يعرض نفسه...

لماذا لا أقول صراحة: إن زيارة «بروفيتا نديو» أقلقتني كثيرًا في بادئ الأمر، ولكن بعد أن أدركت أنه لم يأت كعدو ولا كقاض شعرت -بالأحرى- بشيء من المتعة، وازددت شعورًا بالمتعة عندما أضاف:

- هناك نقود مزيفة يتداولها الناس، وقد نبهت إلى ذلك الأمر. ولم أوفق بعد في الاهتداء إلى مصدرها، ولكني أعرف أن «جورج» الصغير -ولعله قام بذلك بسذاجة كما أحب أن أعتقد- واحد ممن يستعملونها ويروجونها، إنهم بعض الصغار الذين في مثل سن ابن أختك يقومون بهذه العملية المخزية، ولست أشك في أن هناك أناسًا يستغلون سذاجتهم، وأن هؤلاء الصبية ألعوبة في أيدي بعض المجرمين، وكان في استطاعتنا في بادئ الأمر أن نقبض على هؤلاء المنحرفين دون عناء، وأن نحملهم على الاعتراف بمصدر هذه القطع المزيفة، ولكني خير من يعرف أنه إذا ما تجاوز التحقيق حدًّا معينًا، فإننا لا نستطيع الكف عن الاسترسال في البحث... وأعني بذلك أن التحقيق لا يمكن أن يعود القهقرى، وأننا سنجد أنفسنا مضطرين إلى معرفة ما كنا نؤثر أن نجهله. وفي هذه القضية بالذات أعتقد أنني توصلت إلى معرفة المجرمين الحقيقيين دون أن ألجأ إلى شهادة هؤلاء المنحرفين، ولذا أمرت بألا يزعجوهم، ولكن هذا الأمر مؤقت، وبودي ألا يضطرني ابن أختك إلى إلغائه، ومن الأفضل أن يعرف أننا متيقظون، بل لعلك تحسن إن أخفته قليلًا فهو على منحدر سيئ.

وأجبته بأنني سأبذل أقصى جهد لأنبهه إلى خطورة ما يقوم به، ولكن بدا كأن «بروفيتا نديو» لم يسمع ما أقول؛ فقد زاغت نظرته، وكرر مرتين: إنه على ما يسمونه «منحدر سيئ»، ثم صمت.

ولا أدري كم من الوقت استغرقه صمته هذا، ولكن بدا لي كأني أدرك ما يفكر فيه، وأنني أسمع كلماته هذه قبل أن ينطق بها.

- إنني أنا نفسي أب يا سيدي...

واختفى كل ما قاله ذلك، ولم يعد هناك شيء بيننا إلا «برنارد»، أما الباقي فكان ذريعةً، لقد جاءني لكي يكلمني عنه.

وإذا كانت إراقة العواطف تزعجني، وإذا كانت المبالغة في إظهارها تضايقني، فليس ثمة شيء - على العكس- يؤثر في أكثر من كتمان الانفعال.

كان «بروفيتا نديو» يبذل قصارى جهده ليكبت شعوره، ولكن كان مجهوده مرهقًا حتى ارتعشت شفتاه، وارتجفت يداه.

ولم يستطع الاستمرار في السيطرة على نفسه، وفجأةً أخفى وجهه بين يديه، وأخذ أعلى جسمه يهتز، فقد كانت عبراته تخنقه.

وقال متلعثمًا: ها أنت ترى يا سيدي إلى أي حد يمكن أن يكون الولد نقمة.

لم يعد هناك ما يدعوني إلى اللف والدوران، ولذا قلت صائحًا وأنا في أشد حالات الانفعال:

- إذا رآك «برنارد» لذاب قلبه لوعةً، إنني واثق من ذلك.

ولكن مع ذلك كنت في غاية الحرج، فلم يحدثني «برنارد» عن أبيه. سبق أن رضيت بأن يترك عائلته؛ لأنني أعتقد بأن مثل هذا الهروب شيء طبيعي، كما أميل إلى أن أرى فيه فائدةً للصبي، ويضاف إلى ذلك -في حالة «برنارد»- كونه ابنًا غير شرعي، ولكن ها هي ذي مشاعر أبيه (المستعارة) وهي مشاعر قوية صادقة؛ لأنه ليس ثمة ما يدعو إلى تصنعها. ولذا تساءلت أمام هذا الحب، وأمام هذا الحزن: أكان «برنارد» مخطئًا عندما هجر المنزل؟ لم أعد أشعر بالقدرة على تأييد فعلته هذه.

وقلت للرجل: أرجو أن تكلفني ما تريد، إن كنت تعتقد أن في إمكاني أن أعمل شيئًا نافعًا، إن كنت ترى أن عليَّ أن أكلمه. إنه طيب القلب.

- أعرف ذلك... نعم إنك تستطيع أن تعمل الكثير. إنني أعرف أنه كان في صحبتك هذا الصيف. إن (مخابراتي) جيدة، وأعرف كذلك أنه يتقدم اليوم لامتحانه الشفوي. وقد اخترت هذا الوقت لأني أعرف أنه في (السوربون)، وكنت أخشى أن أقابله لديك.

منذ لحظات أخذ تأثري يقل شيئًا فشيئًا؛ إذ لاحظت أنه يستعمل فعل (عرف) في أغلب جمله، ولم أعد مهتمًّا بما يقوله قدر اهتمامي بمتابعة هذه اللازمة التي ربما اكتسبها من عمله.

وقال لي أيضًا: إنه (يعرف) أن «برنارد» نجح بتفوق في الامتحان التحريري، وقد أخبره بذلك أحد المصححين وهو صديق له، كما أخبره أن البحث الذي كتبه استحق -على ما يبدو- كل التقدير.

وكان يتكلم عن «برنارد» بلهجة الإعجاب، الإعجاب المكتوم، مما حدا بي إلى التشكك في أنه ربما يعتقد أنه والده الحقيقي.

وأضاف: «يا إلهي! أرجو أن لا تخبره بكل ما قلته لك. إنه بطبعه معتز بنفسه، وهو كثير التشكك، وإذا ما عرف أنني منذ رحيله لم أكف عن التفكير فيه وعن متابعته... ولكن -مع هذا- يمكنك أن تخبره بأنك قابلتني. (كان يتنفس بعناء بعد كل جملة ينطق بها) وأنت وحدك الذي تستطيع أن تخبره بأنني لست حانقًا عليه. (ثم أضاف بصوت أخذ يضعف) ويمكنك أن تقول: له إن شعوري نحوه بالحب باق كما هو... كما يحب الأب ابنه. نعم إنني أعرف أنك تعلم -وهذا أيضًا يمكنك أن تخبره به (وأضاف دون أن ينظر إلي، وبعناء، وهو في أشد حالات الاضطراب)- أن أمه هجرتني... نعم نهائيًّا في هذا الصيف، وأنه إذا أراد أن يعود فأنا...

ولم يستطع أن يكمل عبارته.

رجل قوي البنية، رجل عملي استقر في الحياة وفي مركزه المرموق، وها هو ذا يتخلى فجأةً عن هيبته، ها هو ذا يفتح قلبه ويعترف بما فيه لشخص غريب، ويظهر أمام الغريب بهذا المظهر الشاذ، وقد لاحظت مرةً أخرى بهذه المناسبة أن تأثري بما يعترف لي به شخص لا أعرفه أكثر من تأثري بما يعترف لي به شخص أعرفه. سوف أحاول أن أحلل شعوري هذا في يوم آخر.

ولم يخف عني «بروفيتا نديو» ما انتابه من شكوك بادئ الأمر نحوي، وقال: إنه كان يتصور -مخطئًا- أن «برنارد» هجر المنزل ليلحق بي، وهذا هو ما منعه أول الأمر من أن يسعى لمقابلتي، ولم أجرؤ على أن أقص عليه قصة حقيبتي، ولم أكلمه إلا عن الصداقة التي تربط ابنه بأوليفييه، والتي ساعدت على أن تكون بيننا صلة بهذه السرعة.

وأردف «بروفيتا نديو» يندفع هؤلاء الشبان في الحياة دون أن يدركوا ما يعرضون أنفسهم له. وجهلهم بالأخطار هو سر قوتهم دون شك، ولكننا نحن -نحن الآباء، نحن الذين نعرف- نرتجف خوفًا عليهم، وعطفنا البالغ عليهم يضايقهم، ولذا كان من الأفضل أن لا نشعرهم بذلك. وأنا أعرف حق المعرفة أن هذا العطف يمارس أحيانًا بشكل محنق وأخرق. وإنه لمن الأحكم أن تدع الطفل يحترق قليلًا بدلًا من أن تكرر على مسامعه دائمًا أن النار محرقة، فالتجربة تعلم أكثر من النصح، ولقد منحت دائمًا لبرنارد أكبر قسط من الحرية، حتى لقد حمله ذلك - مع الأسف على أن يتصور أنني لا أبالي به كثيرًا، وقد أساء التأويل، وربما كان ذلك سبب هروبه، وحتى عندما أقدم على ذلك، تصورت أن من الأفضل أن أتركه وشأنه مع استمراري في السهر عليه من بعيد دون أن يشعر. وحمدًا لله؛ فقد كنت أملك الوسائل لذلك (لا شك أن «بروفيتا نديو» كان فخورًا كل الفخر بهذا الأمر، وأنه كان يفخر بنوع خاص بنظام «مخابراته»، وقد حدثني عن هذا للمرة الثالثة)، واعتقدت أن عليَّ ألا أقلل أمام هذا الصبي من مخاطر عمله، وهل بي من حاجة، أن أعترف لك أن هذا العمل الشاذ -رغم ما سببه لي من ألم- لم يزدني إلا تعلقًا به، فقد رأيت فيه دليلًا على الشجاعة والإقدام..؟»

وإذ شعر هذا الرجل الممتاز بالثقة فيَّ، راح يسترسل في الموضوع، ولا يكف عن الكلام. وحاولت ان أدبر دفة الحديث إلى الموضوع الذي كان يشغلني أكثر مما كان يتكلم فيه، ولذا سألته مقاطعًا: «هل رأى هذه القطع المزيفة التي كلمني عنها في بادئ الأمر؟»، ودفعني حب الاستطلاع إلى معرفة ما إذا كانت شبيهةً بالقطعة الصغيرة البلورية التي أرانا إياها «برنارد». وما إن كلمته عن هذه القطعة حتى تغير لون وجهه. وأغمض عينيه نصف إغماضة، بينما لمع في أعماقهما بريق غريب، وارتسمت على ركني عينيه التجاعيد، وزم شفتيه، وشد الانتباه كل ملامحه إلى أعلى، ولم يعد مهتمًّا بكل ما كان يكلمني فيه. لقد حل القاضي محل الأب، ولم يعد فيه شيء إلا مهنته، وأرهقني بأسئلته، ودون ملاحظات، وتحدث عن إرسال أحد أعوانه إلى مدينة «ساس فيه» ليأتيه بأسماء المسافرين من سجلات الفنادق.

وأضاف قوله: ولو أن هذه القطعة المزيفة قد وصلت في الغالب إلى البدَّال الذي ذكرته عن طريق مسافر عابر، وفي مكان لم يفعل أكثر من أنه مر به.

وقد أجبته بأن مدينة «ساس فيه» تقع في نهاية طريق مغلق، وأنه غير متيسر الذهاب إليها والعودة منها في نفس اليوم. وأظهر رضاه لهذه المعلومات الأخيرة، وتركني بعد أن شكرني بحرارة، وكان يبدو عليه السرور مختلطًا بالانشغال بشيء آخر، وتركني دون أن يشير ثانيةً لا إلى «جورج» ولا إلى «برنارد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث عشر

شعر برنارد في ذلك الصباح أن نفسًا كريمةً كنفسه خليقة أن تمنح البهجة لشخص آخر، فليس ثمة سعادة بالقياس إليه أكبر من ذلك، ولكنه حرم تلك السعادة، لقد نجح لتوه بامتياز في الامتحان، ولم يجد إلى جواره شخصًا يحمل إليه هذا النبأ السعيد فكان هذا كعبء أثقل نفسه. وإن برنارد ليعلم تمام العلم أن أول من يسعد بهذا هو والده. وتردد لحظةً في أن يذهب فيخبره، ولكن منعه كبرياؤه، فمن ينبئ إذَنْ إدوارد؟ أوليفييه؟ لو قد فعل، لعلى على هذه الشهادة أهميةً أكبر مما تستحق، لقد حصل على «البكالوريا»، ولكن ما قيمة ذلك، الآن ستبدأ الصعاب.

وفي فناء «السوربون» رأى زميلًا له نجح مثله، وانتحى مكانًا بعيدًا عن الآخرين وانخرط في البكاء، وكان هذا الزميل في ملابس الحداد. وكان «برنارد» يعلم أنه فقد أمه حديثًا، وشعر بشفقة شديدة تدفعه إلى هذا اليتيم، واقترب منه، ولكنه ابتعد لشعور سخيف بالخجل اعتراه، وشعر الآخر من دموعه عندما رآه يقترب منه ويمر به، ثم يمضي في طريقه، لقد كان يحمل في نفسه التقدير لبرنارد، وآلمه ما حسبه ازدراء منه.

دلف برنارد إلى حديقة «اللوكسمبورج»، وجلس على مقعد في نفس المكان الذي سبق أن أتى إليه ليقابل أوليفييه ليلة أن كان يبحث عن مأوى لديه، كان الهواء دافئًا، وبدت له السماء باسمه من خلال أغصان الأشجار المجردة من أوراقها، ولم يكن الإنسان ليصدق أن الشتاء مقبل، فالطيور تصدح وكأنها أخطأت معرفة الفصل القادم، ولكن برنارد لم يكن ينظر إلى الحديقة، كان يرى أمامه محيط الحياة يمتد امتدادًا، يقولون: إن في البحر طرقًا، ولكنها غير مخطوطة، وما عرف برنارد أين سيكون سبيله.

كان غارقًا في تأملاته، وإذا به يرى ملاكًا يقترب منه وهو ينساب بخطى خفيفة، حتى خيل إليه أنه قادر أن يسير بقدميه على الأمواج، لم يسبق لبرنارد قط أن رأى ملائكة، ومع ذلك لم يتردد لحظةً عندما قال له الملاك: «تعال»، فنهض مطيعًا وتبعه. ولم يستشعر دهشةً أكثر مما لو كان في حلم، وحاول فيما بعد أن يتذكر هل أمسك الملاك من يده؟ ولكن الحقيقة هي أنهما لم يتلامسا، وأن مسافةً قصيرةً كانت تفصل بينهما، وعاد كلاهما إلى ذلك الفناء حيث ترك برنارد الفتى اليتيم، وكانا مصممين على أن يكلماه، ولكن الفناء أضحى خاويًا.

وسار «برنارد» في صحبة الملاك متجهًا شطر كنيسة «السوربون» حيث دخل الملاك أولًا، وهو مكان لم يسبق قط لبرنارد أن دخله، كان هناك ملائكة آخرون يتجولون في هذا المكان، ولكن برنارد لم يكن في حالة تسمح له برؤيتهم؛ لقد شمله هدوء لم يعرفه من قبل، واقترب الملاك من المذبح وركع، وركع «برنارد» مثله، لم يكن «برنارد» يؤمن بوجود أي إله، ولذا لم يكن في استطاعته أن يصلي، ولكن حاجةً غريبةً إلى التضحية والبذل قد استحوذت على قلبه، فراح يقدم نفسه قربانًا، وكان تأثيره من الغموض بحيث لا يمكن لكلام أن يصفه، وفجأةً ارتفع نشيد الأرغن.

وقال له الملاك: كنت تقدم نفسك هكذا للوراء، وأحس «برنارد» بالعبرات تسيل على خديه.

ثم قال الملاك: تعال، اتبعني.

وبينما كان الملاك يقوده، كاد أن يرتطم بزميل قديم له نجح لتوه هو أيضًا في الامتحان الشفوي، كان «برنارد» يعتبره تلميذًا فاشلًا، ودهش لنجاحه في الامتحان ولم ير هذا الفاشل «برنارد»، ولكن برنارد رآه وهو يضع في يد خادم الكنيسة نقودًا ليدفع ثمن شمعة. ورفع «برنارد» كتفيه وخرج، وإذ خرج إلى الشارع تبين أن الملاك قد تركه، ودخل إلى حانوت لبيع الطباق، وهو نفس الحانوت الذي جازف فيه «جورج» منذ ثمانية أيام باستعمال قطعة نقوده المزيفة، وكان جورج منذ ذلك اليوم قد صرف قطعًا أخرى كثيرةً، واشترى «برنارد» علبة سجائر ودخن، لماذا رحل الملاك؟ ألم يكن هناك ما يمكن أن يقوله كل منهما للآخر؟.. دقت الساعة معلنةً الظهر، وكان «برنارد» يشعر بالجوع، هل يعود إلى القسم الداخلي؟ أيذهب ليلحق بأوليفييه ويقتسم معه غداء «إدوارد»؟.. وتأكد من أن في جيبه ما يكفي من النقود، ودخل مطعمًا، وبينما هو ينتهي من تناول طعامه سمع صوتًا رقيقًا يتمتم:

- حان الوقت لتراجع حسابك.

أدار «برنارد» رأسه، فإذا الملاك من جديد على مقربة منه.

وراح يقول له: عليك أن تتخذ قرارًا، إنك لم تعش إلى الآن إلا مغامرًا، أتترك الصدف تتحكم في أمورك؟ إنك تريد أن تقوم بشيء نافع، وقد آن الأوان لتحدد هذا الشيء.

قال له «برنارد»: علمني، أرشدني.

وقاد الملاك «برنارد» إلى قاعة مليئة بالناس، وكان في آخر القاعة منصة عليها مائدة مغطاة بغطاء أحمر قاتم، وجلس وراءها رجل حديث السن، وكان يتكلم.

كان يقول: من الجنون ادعاؤنا أن في استطاعتنا أن نكتشف أي شيء، إننا لا نملك شيئًا إلا ونكون قد أخذناه، وعلى كل منا أن يفهم وهو في سن مبكرة أننا نخضع لماض، وأن لهذا الماضي فضلًا علينا، وعن طريقه يخط مستقبلنا كله.

وبعد أن انتهى من معالجة هذا الموضوع، حل مكانه خطيب آخر، وبدأ يؤمن على ما قاله، ثم هاجم كل مغرور يدعى أن في استطاعته أن يعيش دون مذهب، إنه المذهب الوحيد، وعلى كل منا أن يثبت لنفسه ذلك. إنه المذهب الذي نقله إلينا أساتذتنا، إنه مذهب وطننا الذي إذا ما حاول مرةً أن ينكره دفع غاليًا ثمن ذلك الخطأ، ومستحيل أن يكون المرء مواطنًا فرنسيًّا مخلصًا إن جهل هذا المذهب، ولا يمكن له أن ينجح في شيء إن لم ينضم إلى صفه.

وأعقب ذلك الخطيب خطيب ثالث، شكر الاثنين الآخرين على أنهما أحسنا عرض ما أسماه نظرية برنامجهم، ثم أكد أن أقل ما يهدف هذا البرنامج إليه هو النهوض بفرنسا، وسوف يتم ذلك بفضل مجهودات كل فرد من أفراد حزبهم. وقال عن نفسه إنه رجل عمل لا رجل كلام، وأكد أن أي نظرية لا تجد هدفها، ولا تثبت صحتها إلا في التطبيق العملي، وأن على كل فرنسي أن يكون مجاهدًا.

وأضاف: ولكن، وآسفاه! كم من قوى متفرقة، وكم من قوى ضائعة! لو نظمت قوانا لأصبح بلدنا بلدًا عظيمًا، ولشع نور إنتاجنا الفكري، ولكان لكل منا مكانته، نعم لن يتم ذلك إلا إذا مجدت الأعمال الفكرية النظام، وإلا إذا انتظم كل منا في الصف.

وبينما كان يسترسل في حديثه، أخذ بعض الشبان يتجولون بين الحضور، وهم يوزعون بطاقات للانضمام، ولم يكن ينقصها إلا التوقيع.

وقال الملاك: كنت تريد أن تقدم نفسك، ماذا تنتظر؟

وأمسك «برنارد» بأحدى هذه الأوراق التي قدموها له، وكانت تبدأ بهذه الكلمات: أتعهد على رؤوس الأشهاد بأن... قرأ الورقة، ثم نظر إلى الملاك، ورآه يبتسم، ثم نظر إلى الحاضرين، ووجد بينهم زميله الذي نجح معه في شهادة البكالوريا، والذي كان يوقد شمعةً منذ قليل بكنيسة «السوربون» شكرًا وعرفانًا لما أحرزه من نجاح، وفجأةً لمح على مسافة منه أخاه الأكبر، ولم يكن قد رآه منذ هجر والده يحيط به، وفرك البطاقة بين يديه بشكل عصبي، وسأل:

- هل من رأيك أن أوقع؟

قال الملاك: نعم إن كنت تشك في نفسك.

وقال «برنارد»: لم أعد أشك، قالها وهو يُلقي بالورقة بعيدًا عنه.

وكان الخطيب أثناء ذلك مستمرًّا في حديثه، وبدأ «برنارد» يصغي إليه من جديد، فوجده يلقن الحضور درسًا عن وسيلة مضمونة لكي لا تقع في الخطأ أبدًا، وهي أن نكف نهائيًّا عن الحكم على الأشياء بأنفسنا، وأن نترك تلك الأحكام لمن هم أعلى منا.

وسأل برنارد: من هم أعلى منا؟ ومن يكونون هم؟ ثم شعر فجأةً بسخط شديد يستولي عليه.

وقال للملاك: إذا أنت صعدت إلى المنصة، وإذا ما اشتبكت معه، فلا شك أنك ستلقي به أرضًا...

ولكن الملاك أجابه وهو يبتسم: إنني سوف أنازلك أنت. هل تريد ذلك هذا المساء؟

وقال «برنارد»: نعم.

وخرجا، ووصلا إلى الشوارع الكبيرة، كانت جموع الناس المندفعة في هذه الشوارع تبدو وكأن أفرادها كلهم من طبقة الأثرياء، كان كل منهم يبدو واثقًا من نفسه، غير مبال بالآخرين، ولكن يبدو في الوقت عينه مشغول البال.

وسأل «برنارد» إذ شعر بقلبه يبكي: أهذه صورة السعادة؟

ثم قاده الملاك إلى أحياء فقيرة لم يكن يتصور من قبل أن يرى فيها كل هذا البؤس، وكال الليل يرخي سدوله، وهاما طويلًا بين بيوت مرتفعة قذرة يسكنها المرض والدعارة والخجل والجريمة والجوع، وعندئذ فقط أمسك «برنارد» بيد الملاك، وكان الملاك يشيح بوجهه عنه ليبكي.

لم يتناول «برنارد» عشاءه تلك الليلة، وعندما عاد إلى القسم الداخلي لم يحاول أن يلحق بسارة كما اعتاد أن يفعل في الأمسيات السابقة، ولكنه صعد مباشرةً إلى تلك الغرفة التي كان يشغلها مع «بوريس».

كان «بوريس» راقدًا، ولكن لم ينم بعد، كان يعيد على ضوء شمعة قراءة الرسالة التي تسلمها من «برونجا» في صباح ذلك اليوم.

قالت له صديقته في تلك الرسالة: أخشى ألا أراك بعد الآن، لقد أصبت بالبرد عند عودتي إلى «بولونيا» وأنا أسعل، وبالرغم من أن الطبيب يخفي عني الأمر إلا أنني أشعر بأني لن أعيش طويلًا.

وأخفى «بوريس» الرسالة تحت وسادته، وأسرع في إطفاء شمعته، وسمع وقع أقدام «برنارد» وهو يقترب منه.

سار «برنارد» في الظلام، وكان الملاك قد دخل الغرفة معه، ولكن بالرغم من أن الليلة لم تكن حالكة الظلام، فإن «بوريس» لم ير غير «برنارد».

وسأله «برنارد»: هل أنت نائم؟ ولما لم يجبه «بوريس» استنتج أنه نائم، وقال «برنارد» للملاك: والآن هيا بنا.

وتشابكا طوال تلك الليلة حتى الصباح.

كان «بوريس» يرى -في غير وضوح- برنارد وهو يأتي بحركات مضطربة، واعتقد أن هذه طريقته في الصلاة، وقرر أن لا يقطع عليه صلاته... ومع ذلك كان بوده أن يتحدث معه؛ لأنه كان يشعر بحزن ويأس عظيمين. وبعد أن نهض «بوريس» ركع عند أسفل فراشه، كان بوده أن يصلي، ولكنه لم يكن يستطيع إلا البكاء.

- أوه يا «برونجا» أنتِ يا من ترين الملائكة، أنتِ التي كان يجب أن تفتحي لي عيني، هل تتركينني؟ ماذا أصير إليه يا «برونجا» من دونك؟ ماذا سيحدث لي؟

كان «برنارد» والملاك مشغولين جدًّا، ولذا لم يستطيعا سماع ما يقوله «بوريس»، وتشابك الاثنان حتى الفجر، وانسحب الملاك دون أن يتغلب أحدهما على الآخر.

وعندما خرج «برنارد» بدوره -فيما بعد- من الغرفة، صادف «راشيل» في الممشى فقالت له:

- أريد أن أتحدث معك.

كان صوتها حزينًا، حتى أن «برنارد» فهم في الحال كل ما كانت تريد أن تقول له، ولم يُجب بشيء، وطأطأ رأسه. إذ شعر بالشفقة نحو «راشيل» فقد أحس فجأةً بالكراهية لسارة وبالاشمئزاز من اللذة التي استمتع بها معها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع عشر

في حوالي العاشرة وصل «برنارد» إلى منزل «إدوارد» وبيده حقيبة تكفي لحمل القليل الذي كان يملكه من ملابس وكتب، وكان قد استأذن من «آزائيس» ومن مدام «فيدل»، ولكنه لم يحاول أن يرى «سارة» ثانيةً.

كان «برنارد» جادًّا كل الجد، وكان صراعه مع الملاك قد أنضجه، ولم يعد يشبه في شيء سارق الحقيبة المستهتر الذي كان يتصور أن المرء يكفيه في هذه الدنيا أن يتمتع بشيء من الجرأة. لقد بدأ يفهم أن سعادة الغير كثيرًا ما تكون ثمرة الإقدام.

وقال لإدوارد: جئت لأبحث عن مأوى عندك، ها أنا من جديد بلا مأوى.

- ولماذا تترك آل «فيدل»؟

- لأسباب أعتبرها سرًّا... اسمح لي ألا أذكرها لك.

كان «إدوارد» قد راقب «برنارد» و «سارة» مساء الوليمة مراقبةً كافيةً ليدرك مرمى ذلك السكوت.

وقال «إدوارد» باسمًا: هذا يكفي. أريكة مكتبي تحت تصرفك لتقضي عليها ليلتك، ولكن يجب أن أخبرك أولًا: أن والدك جاءني أمس ليكلمني.

وقص عليه جزءًا من الحديث رأى أنه كفيل بالتأثير عليه، ثم قال:

- كان عليك أن لا تقضي هذه الليلة في بيتي، وإنما في بيته، إنه في انتظارك. ومع هذا التزم «برنارد» الصمت.

وقال أخيرًا: سوف أفكر في الأمر، وإلى أن أقرر شيئًا، اسمح لي أن أترك هنا حاجاتي. هل أستطيع رؤية «أوليفييه»؟

- الجو جميل، ولذا شجعته على أن يستنشق الهواء، وكان بودي أن أصحبه لأنه ما برح ضعيفًا، ولكنه آثر أن يخرج بمفرده، وعلى أي حال لقد خرج منذ ساعة ولن يتأخر في العودة. انتظره... ولكن قل لي:

- ما أخبار امتحانك؟

- لقد نجحت ولا أهمية لذلك. المهم هو ما سأعمله الآن أتدري ما الذي يمنعني بخاصة من العودة إلى المنزل والدي؟ السبب هو أنني لا أن ينفق عليَّ. ولعلك تجدني سخيفًا في أن لا أستفيد من هذه الفرصة السانحة، ولكنه عهد قطعته على نفسي بأن أستغني عنه، أن أثبت لنفسي أنني رجل يحترم كلمته، أنني شخص يمكنني أن أعتمد عليه.

- أرى في ذلك كبرياء أكثر من أي شيء آخر.

- سم هذا كما تشاء: كبرياء، خيلاء، غرورًا... ولكنك لن تقلل من قدر العاطفة التي تدفعني. وأريد الآن أن أعرف: هل من الضروري لكي يشق المرء طريقه في الحياة، أن يكون له هدف يضعه نصب عينيه؟

- وضح ما تعنيه.

- لقد تدبرت هذا الأمر طوال الليل، في أي شيء يمكنني أن أستخدم هذه الطاقة التي أشعر بها تعتمل في نفسي؟ كيف أستطيع أن أستخرج من ذاتي خير ما فيها؟ هل يكون ذلك باتجاهي إلى هدف معين؟ ولكن كيف أختار هذا الهدف؟ وكيف أعرفه ما دمت لم أصل إليه.

- الحياة بلا هدف تجعل المرء نهبًا للمغامرات.

- أخشى أن لا تكون قد فهمت تمامًا ما أعنيه. عندما اكتشف «كولومبس» أمريكا، هل كان يعرف إلامَ يسير؟ كان هدفه أن يسير قدمًا إلى الأمام. كان هدفه هو ذاته وكان هو الذي يدفعه إلى الأمام.

وقاطعه «إدوارد» بقوله: لقد آمنت طويلًا أنه في الفن، وفي الأدب بخاصة لا قيمة إلا لمن يندفعون نحو المجهول. لا يمكن أن نكتشف أرضًا جديدةً إلا إذا ارتضينا أن نبقى طويلًا بعيدين عن رؤية أي شاطئ، ولكن كتابنا يخشون عرض البحر، وهم ليسوا ملاحين يسيرون حذاء الشواطئ.

وأضاف «برنارد» دون أن يسمع ما قال «إدوارد»: أمس بعد خروجي من لجنة الامتحان، دخلت، ولست أدري أي شيطان دفعني إلى ذلك، دخلت قاعةً فيها اجتماع عام. كان الموضوع الذي يتناقشون فيه يتناول شرف الوطن والتضحية من أجل الوطن والتضحية من أجل الوطن ومسائل أخرى كثيرة خفق لها قلبي. وكنت على وشك أن أوقع ورقةً أتعهد فيها بشرفي أن أقف كل جهودي لخدمة قضية كانت تبدو لي ولا شك جميلةً ونبيلةً.

- إنني سعيد بأنك لم توقع هذه الورقة، ولكن ما الذي جعلك تمسك عن هذا؟

- لا شك أنه شعور غريزي خفي... (وفكر «برنارد» لحظات، ثم أضاف وهو يضحك):

- أعتقد أن الذي منعني هو منظر الذين انضموا إلى هذه الهيئة. وأولهم أخي الأكبر الذي لمحته بين المجتمعين. ولاح لي أن هؤلاء الشبان قد دفعتهم أنبل المشاعر، وأنهم أحسنوا إذ تخلوا عن حريتهم في التصرف؛ لأنها لم تكن خليقةً أن توصلهم إلى شيء ذي قيمة، كما أنهم أحسنوا إذ تخلو عن رأيهم -لأنه كان ناقصًا- وعن حريتهم الفكرية- لأنها كانت ستؤدي بهم سريعًا إلى اليأس. وقلت لنفسي أيضًا: إن من صالح بلدنا أن يضم بين مواطنيه عددًا كبيرًا من هؤلاء الذين يتلقون الأوامر طائعين، ولكنني لن أكون أبدًا من هؤلاء وعندما وصلت بتفكيري إلى هذه النتيجة، تساءلت: كيف أستطيع أن أضع لنفسي قاعدةً؛ لأنني لا أرضى أن أعيش بلا قاعدة، كما أني لا أرضي أن يفرض عليَّ الغير هذه القاعدة.

- تبدو لي الإجابة على سؤالك بسيطة: يجب أن تجد هذه القاعدة في ذاتك وأن يكون الهدف هو تنمية ذاتك.

- نعم... هذا فعلًا ما قلته لنفسي. ولكن إدراك هذه الحقيقة لم يقدمني في شيء. ولو قد كنتَ واثقًا أنني سأختار خير ما في ذاتي، إذَنْ لوضعت ذلك قبل كل شيء. ولكنني لا أصل إلى معرفة خير ما في ذاتي... لقد قلبت الأمر على جميع وجوهه طوال الليل كما أخبرتك، وعندما أدركني الصباح، كنت متعبًا لدرجة أنني فكرت في أن أبكر في التقدم للخدمة العسكرية قبل السن المطلوبة، وأن أتطوع.

- التهرب من المشكلة لا يعتبر حلًّا لها.

- هذا ما قلت لنفسي، كما قلت أيضًا: إن تأجيل هذه المشكلة لن يمنعها من أن تظهر أمامي ثانيةً وبشكل أخطر بعد الخدمة العسكرية، ولذلك جئتك لأطلب منك النصح.

- ليس لديَّ نصح أمنحه لك. ولن تجد النصيحة إلا في قرارة ذاتك، ولن تتعلم كيف تعيش إلا بممارسة الحياة.

- وإن أنا عشت عيشةً سيئةً في انتظار أن أقرر كيف أعيش؟

- هذا الأمر نفسه سوف يعلمك. من الأفضل للمرء أن يسير مع ميله على شرط أن يسير معه صاعدًا لا هابطًا.

- أهذه دعابة؟.. كلا، أعتقد أنني أفهم ما تعنيه، وأقبل هذا الحل. ولكن في الوقت الذي أُنمي فيه ذاتي، لا بد لي من أن أكتسب قوتي. ما رأيك في أن أطلب وظيفةً على صفحات الجرائد بهذه الصيغة المبتكرة: «شاب أمامه مستقبل باهر، يمكن أن يعمل أي شيء؟».

وانفجر إدوارد ضاحكًا وقال:

- أصعب شيء نحصل عليه هو «أي شيء». ومن الأفضل أن تحدد ما تريد.

- كنت أفكرِ في أحد هذه الإدارات الصغيرة المتعددة في دار من دور الصحافة. أوه! إني مستعد أن أقبل وظيفةً متواضعةً: مصحِّحًا لتجارب الطبع، ملاحظة مطبعة، أي شيء. لست في حاجة إلا إلى القليل جدًّا.

كان يتكلم بتردد، والواقع أنه كان يصبو إلى وظيفة سكرتير، ولكنه خشي أن يفصح عن ذلك لإدوارد لما بينهما من عدم انسجام متبادل. ومع كلٍّ فلم يكن خطؤه هو أن فشلت على هذه الصورة تلك المحاولة التي قام بها في شغل هذه الوظيفة.

قال له «إدوارد»: ربما استطعت أن أساعدك على أن تعمل بجريدة «الصحيفة الكبرى»؛ إذ إنني أعرف مديرها...

وبينما كان «برنارد» و «إدوارد» يتحدثان على هذا المنول، كانت «سارة» في حديث مؤلم للغاية مع «راشيل». لقد أدركت «سارة» فجأةً أن تأنيب «راشيل» لبرنارد هو السبب في رحيله المفاجئ. وكانت ثائرةً ضد شقيقتها التي كانت -على حد قولها- تمنع مَن حولها من تذوق أيّ سعادة. وكانت تقول لها: إنه ليس من حقها أن تفرض على الآخرين فضيلة ضربت بها هي نفسها مثلًا يكفي لكي ينفر الناس منها.

وآلمت هذه الاتهامات «راشيل» أيما إيلام؛ لأنها ضحت دائمًا بنفسها. وأخذت تحتج على ما تسمعه. وازداد وجهها شحوبًا، وارتجفت شفتاها وقالت:

- لا أستطيع أن أتركك تقضين على نفسك.

ولكن «سارة» أجهشت بالبكاء، وصاحت قائلةً:

- لا أستطيع أن أؤمن بفردوسك: لا أريد أن أنقذ نفسي.

وقررت في الحال السفر إلى إنجلترا حيث تستضيفها صديقتها؛ لأنها تعتبر أنها حرة في أن تفعل ما تشاء، وهي تريد أن تحيا بالطريقة التي تحلو لها.

وترك هذا الشجار المؤلم «راشيل» وقد حطمها الحزن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس عشر

تعمد «إدوارد» أن يصل إلى القسم الداخلي قبل انصراف التلاميذ. لم يكن قد قابل «لابيروز» منذ بداية السنة الدراسية. وكان يريد أن يتحدث معه أولًا. كان مدرس «البيانو» الكهل يؤدي الأعمال التي كُلف بها قدر استطاعته، ومعنى ذلك أنه كان يؤديها على أسوأ وجه ممكن. لقد بذل قصارى جهده في بادئ الأمر لاكتساب حب التلاميذ، ولكن كان يعوزه الحزم، واستغل التلاميذ ضعفه هذا، واعتبروا تسامحه لونًا من الضعف، ولذا استباحوا لأنفسهم كل شيء بطريقة غريبة، وحاول «لابيروز» أن يتخذ معهم الشدة، ولكن فاتت الفرصة ولم يجد تأنيبه وتهديداته ومؤاخذته إلا في إثارة التلاميذ ضده. فإذا ضخم صوته، سخر الفتيان، وإن دق بقبضة يده على منضدته أطلقوا صيحات خوف متصنع -وراحوا يقلدون حركاته، ويسمونه الأب «لابير»، ومرروا بين المقاعد كثيرًا من الرسوم الهزلية التي تمثله -وهو الرجل المتسامح- كشخص متوحش، مسلح بمسدس ضخم (هذا المسدس الذي استطاع «جيريدا إنيزول»، «وجورج»، «وفيفي» أن يكتشفوه عندما دفعهم فضولهم إلى تفتيش غرفته) أو تمثله وهو يقوم بمذابح يقتل فيها تلاميذه، أو أخرى تمثله راكعًا أمام تلاميذه ويداه ملتصقتان، متوسلًا كما كان يفعل في الأيام الأولى عندما كان يقول لهم: «السكون شفقةً بي». وكان المسكين في موقف يأس، وجهل إدوارد كل ذلك.

يوميات «إدوارد»

استقبلني «لابيروز» في حجرة صغيرة بالطابق الأرضي، وكنت أعرف أنها أسوأ الحجرات بالقسم الداخلي، لم يكن فيها من الأثاث إلا أربعة مقاعد ملصقة بأربعة قمطرات في مواجهة سبورة، ومقعد من القش أجبرني «لابيروز» أن أجلس عليه، وانطوى هو فجلس على أحد «التخت»، بعد أن بذل جهودًا مضنيةً لكي يدخل ساقيه الطويلتين تحت القمطر.

وقال لي: لا، لا، إنني أشعر بكل راحة هكذا، أؤكد لك.

وكانت نبرة صوته وتعبير وجهه يقولان: إنني على أسوأ حال. وأرجو أن يظهر ذلك للعيان. ولكن يخلو لي أن أبقى في هذا الوضع المتعب، وكلما زاد ألمي قلت شكواي.

وقد حاولت أن أمزح، ولكني عجزت عن أن أجعله يبتسم. وكان يتصرف معي بطريقة رسمية تجعل الكلفة قائمةً بيننا وكأنه يقول: «إنني هنا بسببك أنت».

وكان مع ذلك يؤكد أنه راض عن كل شيء كما يتهرب من أسئلتي، ويتضايق من إلحاحي في السؤال. ومع هذا عندما سألته أين تقع غرفته نطق فجأةً بهذه الكلمات: إنها بعيدة جدًّا عن المطبخ.

وأردف عندما ارتسمت على وجهي الدهشة: إنني أشعر بالجوع أحيانًا أثناء الليل... عندما أعجز عن النوم.

وكنت جالسًا على مقربة منه، فاقتربت منه أكثر وأكثر ووضعت يدي برفق على ذراعه، وأردف بنبرة أقرب إلى صوته الطبيعي:

- يجب أن أعترف لك بأنني لا أكاد أذوق طعم النوم. وعندما يصادف أن أنعس، فإنني أفقد الشعور بأنني نائم. ليس هذا هو النوم بمعناه الحقيقي أليس كذلك؟ إن الذي ينام حقًّا لا يشعر بأنه نائم، وهو يشعر ببساطة عندما يستيقظ أنه كان نائمًا.

ثم أضاف في إلحاح محاولًا أن يشرح الأمر في أدق تفاصيله وهو منحنٍ تجاهي.

- أتصور أحيانًا أنني واهم، وأنني أنام فعلًا، ولكن الواقع أنني لا أنام. والدليل على أنني لا أنام حقيقةً هو أن في إمكاني أن أفتح عيني إذا أنا أردت ذلك. وأنا لا أرغب عادةً في هذا. ولعلك تفهم أنه ليس لي أي فائدة في ذلك، إذ ماذا يفيدني أن أثبت لنفسي أنني لا أنام؟ إنني أحتفظ دائمًا بأمل أن أستطيع النوم، وأقنع نفسي دائمًا بأنني نائم فعلًا... (وازداد انحناءً، وأردف بصوت خفيض): ثم إن هناك شيئًا يزعجني. أرجوك أن لا تخبر به أحدًا... إنني لم أشك من ذلك لأنه لا حيلة لي في معالجة الأمر، ثم إنه لا جدوى من الشكوى من شيء لا نملك أن نغير من وضعه... تصور أن داخل الحائط الملاصق لفراشي وعلى ارتفاع رأسي بالضبط يوجد شيء يسبب ضوضاء!

كان وهو يتكلم قد انفعل، فاقترحت أن أصحبه إلى غرفته.

وقال وهو ينهض فجأةً: نعم! نعم! لعلك تستطيع أن تشرح لي هذا الأمر. أما أنا فقد عجزت عن إدراك كنهه، تعال معي.

صعدنا طابقين، ثم سلكنا ممرًّا طويلًا إلى حد ما. لم أكن قد شاهدت أبدًا هذا الجزء من البيت.

كانت غرفة «لابيروز» تطل على الشارع، وهي صغيرة ونظيفة، ولمحت على المنضدة المجاورة لسريره بجانب كتاب كنائسي، الصندوق الذي يحفظ فيه مسدساته، والذي كان قد أصر على أن يحمله معه. وأمسك بي من ذراعي، وقال وهو يدفعني نحو الفراش:

- هنا. اسمع... التصق بالحائط. هل تسمع؟

أرهفت السمع لمدة طويلة، وركزت انتباهي. ولكن بالرغم من كل المحاولات، لم أتوصل إلى تمييز أي شيء. كان «لابيروز» يعذب نفسه.

وصادف أن مرت سيارة نقل وهزت المنزل، وجعلت زجاج النوافذ يرتطم.

قلت له: في هذه الساعة من النهار، تُغطي ضوضاء الشارع على الصوت الذي يزعجك. قلت ذلك لكي أطمئنه.

وصاح في قوة: هذا الصوت يخفي عنك؛ لأنك لا تعرف كيف تميز بينه وبين الأصوات الأخرى. أما أنا فإني أسمعه بالرغم من كل هذا، وبالرغم من كل شيء، وما زلت أسمعه. وأشعر أحيانًا بضيق بالغ حتى أني فكرت في أن أكلم «آزائيس» أو المالك في الأمر... أوه! إنني لا أطلب إسكات هذا الصوت... ولكني على الأقل أريد أن أعرف سببه.

وبدا عليه الاستغراق في التفكير بعض الوقت، ثم استطرد:

- يشبه هذا الصوت الكحت بالأظافر. ولقد لجأت إلى كل الوسائل لأكف عن سماعه. أبعدت سريري عن الحائط، ووضعت قطنًا في أذني. وعلقت ساعتي بالضبط في المكان الذي تمر فيه الماسورة، على حد تقديري، لكي يغطي صوت الساعة على الصوت الآخر... وها أنت ترى أنني دققت مسمارًا صغيرًا في هذا المكان. ولكن ذلك يرهقني أكثر وأكثر؛ لأنني أضطر إلى بذل مجهود لكي أتعرف على هذا الصوت. هذا أمر سخيف. أليس كذلك؟ ولذلك أفضل أن أسمع هذا الصوت صراحة ما دمت أعرف رغم كل شيء أنه موجود... أوه! كان يجب أن لا أروي لك هذه الأشياء. ها أنت ترى أنني لم أعد إلا كهلًا.

جلس على حافة الفراش، وبقي هكذا، وكأنه في ذهول. إن التدهور المؤلم الذي يلحق بنا عند الشيخوخة لم يؤثر عند «لابيروز» في ذكائه، وإنما أثر على أعماق نفسه. قلت لنفسي: لقد استقرت الدودة في قلب الثمرة، وكان هذا ما تصورته، عندما رأيت هذا الرجل الذي كان حازمًا وذا كبرياء في الماضي يستسلم الآن ليأس صبياني، وحاولت أن أحول أفكاره بأن أتحدث عن بوريس.

قال وهو يرفع جبينه: نعم، إن غرفته قريبة من غرفتي. سوف أريك إياها. اتبعني.

وسار أمامي في الممر، وفتح لي بابًا مجاورًا، وقال:

- هذا السرير الثاني الذي تراه هو سرير «برنارد بروفيتا نديو» الشاب (ورأيت ألا جدوى من أن أخبره بأن «برنارد» ابتداءً من هذا اليوم بالذات، لن ينام عليه). وأضاف: إن «بوريس» سعيد برفقة «برنارد»، وأعتقد أنهما متفاهمان، ولكن «بوريس» لا يكلمني كثيرًا. إنه شديد الانطواء على نفسه... وأخشى أن يكون قلب هذا الولد مجردًا من العاطفة.

كان يقول ذلك بلهجة حزينة، ولذا أردت أن أثبت له العكس، وأن أؤكد له أن حفيده ليس مجردًا من العاطفة.

وأردف «لابيروز»: إذَنْ كان يمكنه أن يظهر لي القليل من هذه العواطف، سوف أشرح لك الأمر: عندما يتوجه إلى المدرسة في الصباح مع الآخرين، أنحني فوق نافذتي لأراه وهو يمر، وهو يعرف... حسنًا! إنه لا يلتفت وراه!

وأردت أن أقنعه بأن «بوريس» يتصرف هكذا؛ لأنه يخشى أن يلفت نظر زملائه، ويخاف سخريتهم، ولكن في هذه اللحظة سمعنا أصواتًا صاخبةً تأتي من الفناء.

وأمسك «لابيروز» من ذراعي وقال بصوت متغير: أصغِ! أصغِ! ها هم يعودون.

نظرت إليه. كان قد بدأ يرتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وسألته: أيمكن أن يخيفك هؤلاء الصغار؟

وقال متلعثمًا: لا، لا، كيف يمكن أن تتصور... ثم أضاف في سرعة فائقة:

- يجب أن أنزل، الفسحة، لا تستغرق إلا بضع دقائق، وأنت تعلم أنني أشرف على حجرة الاستذكار. وداعًا، وداعًا.

واندفع إلى الممر دون أن يشد على يدي، وأدركت من وقع أقدامه على السلم أنه يترنح، وبقيت لحظات أصغي إلى ما حدث؛ لأنني لم أكن راغبًا في أن أمر أمام هؤلاء التلاميذ، كانت أصواتهم وهم يصيحون ويضحكون ويغنون مسموعةً تمامًا، ثم دق الجرس وساد السكون فجأةً.

ذهبت لرؤية «آزائيس»، وحصلت منه على إذَنْ ليسمح لجورج بأن يترك حجرة الاستذكار ليراني، ولحق بي «جورج» بعد قليل في نفس تلك الحجرة الصغيرة حيث استقبلني «لابيروز» في بادئ الأمر.

بمجرد أن وجد «جورج» نفسه في حضرتي تصور أن عليه أن يتخذ مظهرًا وقحًا، كانت هذه طريقته ليخفي بها ضيقه وحرجه، ولكنني لا أستطيع أن أجزم بأنه كان أكثر مني شعورًا بالضيق والحرج، كان متأهبًا للدفاع عن نفسه؛ إذ كان يتوقع ولا شك أن أؤنبه، وبدا لي أنه يحاول أن يجمع في أسرع وقت ممكن الأسلحة التي يمكن أن يهاجمني بها؛ لأنه قبل أن أفتح فمي سألني عن أخبار «أوليفييه» وبلهجة وقحة حتى أنني شعرت بالرغبة في أن ألطمه على وجهه، كان يتحداني. وكنت أقرأ في نظراته الساخرة وفي الابتسامة المرتسمة على شفتيه وفي نبرة صوته ما معناه:

أتعرف أنني لا أخافك، وفقدت في الحال هيبتي، ولم أعد أبالي إلا بإخفاء ذلك عنه، شعرت فجأةً بأن ما أعددته لأقوله له لا محل له، ولم تكن لي الهيبة التي تتيح لي أن أقوم بدور الناصح، وانتهى به الأمر أن وجدت مسلاةً كبرى في موقف جورج.

وقلت له خيرًا: لم آت لكي أوبخك، جئت فقط لأحذرك (بالرغم مني كان وجهي كله يبتسم).

- قل لي أولًا هل أمي هي التي أرسلتك؟

- نعم، ولا. لقد تكلمت مع والدتك بشأنك، ولكن انقضى على ذلك الحديث أيام، وكان لي أمس حديث مهم للغاية عنك مع شخص خطير الشأن، وهو شخص لا تعرفه، وقد جاءني ليكلمني في شأنك، إنه قاضي تحقيق، وجئت من قبله، أتعرف معنى قاضي التحقيق؟ شحب وجه «جورج» فجأةً، ولا شك أن قلبه كف لحظة عن الخفقان ورفع كتفيه، ولكن ارتعش صوته قليلًا وهو يقول:

- أفصح إذَنْ عما قاله لك الأب «بروفيتا نديو».

وأثارني ثبات هذا الصغير، لو أني جابهته بالحقيقة مباشرةً لكان الأمر أيسر لي ولا شك، ولكني أكره بطبعي كل ما هو سهل وألجأ بالرغم مني إلى اللف والدوران. ولكي أشرح مسلكي الذي بدا لي سخيفًا بمجرد أن سلكته، والذي سلكته دون ترو، يمكنني أن أقول: إن حديثي الأخير مع «بولين» كان قد شغل بالي بشكل غير عادي، وكل ما تركه هذا الحديث في نفسي كنت قد سجلته في الحال في قصتي على شكل حوار يتلاءم بالضبط مع طبيعة بعض شخصيات القصة. قلما يحدث لي أن أستغل في كتابتي ما تأتيني به الحياة، ولكن مغامرة «جورج» قد أفادتني، جاءت هذه المغامرة وكأن كتابي كان ينتظرها فوجدت فيه مكانها الملائم، ولم أغير من تفاصيلها شيئًا يذكر، ولكن لم أعرض هذه المغامرة (وأعني بهذا سرقات جورج) عرضًا مباشرًا. لقد ألمحت إليها وإلى ما ترتب عليها خلال حوار الشخصيات، وقد دونت هذا الحوار في مذكرة كنت أحملها في جيبي إبان حديثي مع «جورج». أما قصة النقود المزيفة كما ذكرها لي «بروفيتا نديو» فلم تكن -على العكس- تفيدني في شيء، وهذا هو

السبب ولا شك في أنني بدلًا من أن أواجه «جورج» مباشرةً بهذه النقطة بالذات، وقد كانت هدفي الأول من هذه الزيارة، أخذت ألف وأدور.

قلت له: أريد منك أولًا أن تقرأ هذه السطور، سوف تدرك ما الذي دفعني إلى ذلك، ومددت إليه يدي بمفكرتي وهي مفتوحة عند الصفحة التي يمكن أن يجد فيها ما يهمه.

وأكرر القول بأني أعتبر الآن هذا التصرف سخيفًا، ولكني في قصتي كنت أعتقد أن أفضل الطرق لتحذير أصغر شخصياتي سنًّا هي أن أدعوه إلى قراءة كهذه، وكان يهمني أن أعرف رد فعل ذلك لدى جورج... بل كنت آمل أن تعطي لي هذه القراءة فكرةً عن جودة ما كتبته، وهذه هي الفقرة التي أعطيتها له ليقرأها:

كان في قلب هذا الطفل منطقة بأكملها تكتنفها الظلمات، وانكب «أوديبير» في تطلع ودود عليها، أما أن يكون «أودولف» قد سرق فهذا أمر لم يكن يكفيه أن يعرفه، كان بوده أن يشرح له «أودولف» البواعث التي دفعته إلى هذا وما شعر به عندما سرق في المرة الأولى، وعلى أي حال، لم يكن في استطاعة الطفل -حتى إن هو أراد ذلك- أن يبين له هذا الأمر، ولم يجرؤ «أوديبير» أن يطلب منه ذلك خشية أن يدفع الطفل إلى اختلاق أكاذيب يبرر بها فعلته.

وذات ليلة كان «أوديبير» يتناول فيها العشاء مع «هيلدبرانت» وأخبره بحالة «أودولف» دون أن يذكر اسمه، ومع ترتيب في الوقائع بحيث لا يستطيع معرفته.

قال عندئذ «هيلد برانت»: ألم تلاحظ أن الأعمال التي تعتبر فاصلةً في حياتنا وأعني بها تلك التي يمكن أن تقرر مصيرنا كله، ألم تلاحظ أن هذه الأعمال نرتكبها في أغلب الأحيان دون تبصر؟

وأجابه «أوديبير»: إنني أميل إلى هذا الاعتقاد، إنه قطار نستقبله دون أن نفكر في الأمر، ودون أن نسأل أنفسنا أين يحملنا، بل وفي أغلب الأحيان لا ندرك أن القطار يحملنا فعلًا إلا بعد فوات الوقت واستحالة النزول...

- ولكن ربما لم يشعر الصبي المشار إليه بأي رغبة في النزول...

- إنه لا يرغب بعد في النزول، إنه الآن يترك نفسه للقطار يسير به. والمناظر الطبيعية التي يمر بها تلهيه، ولا يهمه كثيرًا أن يعرف إلى أين هو ذاهب.

- وهل ستعطيه درسًا في الأخلاق؟

- لا، بالتأكيد! لن يفيد، هذا في شيء. لقد أشبعوه دروسًا في الأخلاق حتى غثيت نفسه.

- ولماذا كان يسرق؟

- لا أعرف هذا السبب بالضبط. لا شك في أنه لم يرتكب هذه السرقات لحاجة حقيقية تدفعه إلى ذلك، وإنما لكي يحصل على بعض المزايا، لكي لا يتخلف عن رفاق أكثر يسرًا منه... أو شيء من هذا القبيل. وربما كان عن ميل غريزي أو لمجرد اللذة في أن يسرق.

- هذه أسوأ حالة.

- هذا صحيح! لأنه عندئذ سوف يعيد الكرة.

لقد اعتقدت طويلًا أنه أقل ذكاءً من إخوته. ولكني أشك الآن في أنني كنت على صواب، وأعتقد أن سبب خطئي هو أنه لم يعرف بعد مدى ما كان يستطيع أن يعمل عليه من ذاته. فتطلعه ما زال ضالًّا حتى الآن أو بالأحرى ما زال في حالته البدائية أو في مرحلة الفضول.

- هل ستكلمه في الأمر؟

- في نيتي أن أجعله يوازن بين ما يمكن أن يستفيده من سرقاته وبين ما يفقده بعدم أمانته: يمكن أن يفقد ثقة أقرب الناس إليه، ومحبتهم، وكذلك محبتي... يمكن أن يفقد كل هذه الأشياء التي لا تقاس بالأرقام ولا تقدر قيمتها إلا بما يجب علينا أن نبذله من جهد لكي نستردها، لقد أفنى البعض حياتهم كلها ليستردوا هذه الأشياء التي فقدوها. سوف أقول له: -وهذا شيء ما زال هو أصغر من أن يتبينه- منذ هذه اللحظة، سوف تتجه كل الشكوك نحوه إذا ما حدث أي شيء مريب في الوسط الذي يعيش فيه. ربما وجد نفسه متهمًا بارتكاب أعمال كبيرة يكون بريئًا منها، ولن يستطيع عندئذ أن يدافع عن نفسه. فما سبق أن ارتكبه سوف يجعله محل اتهام. إنه ما يسمونه «موصومًا» وأخيرًا أريد أن أقول له... ولكني أخشى احتجاجه.

- ماذا تريد أن تقول له؟!

- أريد أن أقول له: إن ما ارتكبه يعتبر سابقةً، وإن من يرتكب السرقة لأول مرة لا بد أن يقنع نفسه قبل أن يرتكبها، أما في السرقات التالية فلا صعوبة بل انسياق في هذا الطريق. وكل ما يرتكبه بعد ذلك لا يعتبر إلا استسلامًا لعادة... ما أريد أن أقول له هو أن أول خطأ نرتكبه، ويكون تقريبًا دون وعي منا، إنما يخط إلى الأبد شكلنا، ويبدأ في رسم خط من ملامح شخصيتنا يستحيل علينا بعدئذ أن نمحوه مهما بذلنا من جهود. أريد... ولكنني لن أستطيع أن أكلمه في هذا الأمر.

- ولماذا لا تكتب ما دار من حديث بيننا الليلة وتعطيه له ليقرأه؟

وقال: «أوديبير»: إنها فكرة. ولِمَ لا؟

طوال المدة التي كان يقرأ فيها «جورج» صفحة مفكرتي، لم أرخ عيني عنه، ولكن لم يبد على وجهه أي شيء مما كان يعتمل في نفسه.

وسأل وهو يتأهب ليقلب الصفحة: «هل أستمر؟».

وأجبته: «لا فائدة من ذلك؛ فالحوار ينتهي عند هذا الحد».

- هذا شيء يؤسف له.

وأعاد إلى مفكرتي، وقال بلهجة تكاد تكون مرحةً:

- كان بودي أن أعرف ما يقوله «أودولف» بعد أن يقرأ هذه المفكرة.

- إنني أنتظر أنا نفسي أن أعرف ماذا تكون إجابته.

- اسم «أودولف» اسم مضحك. ألم يكن في استطاعتك أن تجد له اسمًا آخر؟

- هذا أمر لا قيمة له.

- وكذلك إجابته لا قيمة لها. وماذا يحدث له بعد ذلك؟

- ما زلت أجهل هذا. الأمر متوقف عليك. سوف نرى.

- إنك تعني إذَنْ -على ما أفهم- أن عليَّ أنا أن أساعدك في الاستمرار في تأليف كتابك. ولكن ألا ترى أن...

وسكت وكأنه يجد صعوبةً في التعبير عما يدور في خلده.

وقلت لكي أشجعه: أنَّ ماذا؟

وأردف أخيرًا: اعترف بأنك سوف تفاجأ إن أصبح «أودولف»...

وسكت ثانية. واعتقدت أنني فهمت ما يعنيه وأكملت الجملة نيابةً عنه:

- إن أصبح «أودولف» ولدًا شريفًا؟.. لا، لا يا صغيري. واغرورقت عيناي فجأةً بالدموع ووضعت يدي على كتفه. ولكنه قال وهو يتخلص مني:

- هل كنت تكتب كل هذا لو لم يسرق؟

وفهمت عندئذ فقط خطئي. لقد سر «جورج» لأنه شغل تفكيري مدةً طويلةً كهذه. وشعر أنه شخص يثير الاهتمام. كنت قد نسيت «بروفيتا نديو» و«جورج» هو الذي جعلني أتذكره.

وسألني: وماذا حكى لك السيد قاضي التحقيق؟

- كلفني إبلاغك أنه يعلم أنك تروج قطعًا مزيفةً... ومرةً أخرى تغير لون «جورج» لقد أدرك أن الإنكار لن يجديه شيئًا. ولكن أجاب في شبه احتجاج وهو مرتبك: ولكني لست بمفردي.

وأردفت:... وأنك إن لم تكف في الحال عن هذا العمل، أنت ورفاقك فسوف يجد نفسه مضطرًّا إلى أن يقبض عليكم.

وكسا وجه «جورج» شحوب شديد في بادئ الأمر. ثم اشتعلت وجنتاه وراح يحدق بنظره أمامه بلا أهداف. واحتفر حاجباه المقطبان تجعيدتين عند أسفل جبهته.

وقلت وأنا أمد يدي إليه: أنصحك بأن تحذر رفاقك أيضًا. أما عنك فاعتبر أنني قد بينت لك حقيقة الأمر.

وشد على يدي دون أن ينطق ببنت شفة، وتوجه إلى حجرة الاستذكار دون أن يلتفت وراءه.

عندما أعدت قراءة صفحات «المزيِّفون» التي أريتها لجورج، وجدتها رديئةً إلى حد ما.

وقد سجلت هذه الصفحات هنا كما كانت عندما قرأها «جورج» ولكن كل هذا الفصل من كتابي يجب أن أعيد كتابته. لا شك أن من الأفضل التحدث إلى الصبي، ويجب أن أبحث عن النقطة التي أؤثر بها عليه. لا شك أن من العسير إعادة «أودولف» إلى حظيرة الشرف بعد أن وصل إلى ما وصل إليه، ولكني مع ذلك أرجو أن أوفق. وسوف أغير اسم «أودولف»؛ فإن «جورج» على حق في هذا. ومهما كان رأي جورج في هذا، فإني أعتقد أن هذا الأمر هو الأهم؛ لأنه هو الأعسر (هأنذا أفكر مثل «دوفييه»). ولندع للقصصيين الواقعيين فكرة الاستسلام للأمر الواقع.

ما إن رجع «جورج» إلى حجرة الاستذكار حتى أخبر صديقيه بتحذير «إدوارد».

وكل ما قاله «إدوارد» لهذا الطفل عن سرقاته لم يؤثر فيه على الإطلاق، أما ما قاله له عن القطع المزيفة، وهو ما يعرضهم للوقوع فيما لا قبل لهم به، فكان عليهم أن يتخلصوا منها بأسرع ما يمكن. وكان كل منهم يحتفظ ببعض هذه القطع معه، وكان في نيته أن يصرفها في أقرب فرصة. ولذلك جمع «جريدا إنتزول» القطع كلها، وأسرع يرمي بها في الحفر. وفي نفس هذا المساء أبلغ ما حدث إلى «ستروفيلهو»، فاحتاط للأمر في الحال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

في نفس هذا المساء، وساعة أن كان «إدوارد» يتحدث مع ابن أخته «جورج» كان «أوليفييه» يستقبل «أرمان»، بعد أن تركه «برنارد» بمفرده.

لم يعد يمكن التعرف على «أرمان فيدل»؛ لقد حلق ذقنه بعناية، وشاعت البسمة في وجهه، وارتفعت هامته، وارتدى حلةً جديدةً ضيقةً عند الوسط بشكل مبالغ فيه، تثير السخرية إلى حد ما، وكان يشعر بهذه السخرية، ولا يُخفي هذا الشعور.

قال «أرمان» لصديقه: كان بودي أن آتي لأراك قبل الآن، ولكني كنت مشغولًا إلى حد كبير... أتعرف أنني أصبحت سكرتيرًا لـ «باسافان»؟ أو إن شئت: رئيس تحرير المجلة التي يديرها. ولن أطلب منك أن تشترك في تحريرها لأنه يبدو لي أن «باسافان» ثائر ضدك إلى حد ما. وعلى أي حال فإن هذه المجلة تميل إلى اليسار، ولهذا السبب كان من أول ما قامت به الاستغناء عن «بركايل» وعن قصائده الخيالية...

وأجابه «أوليفييه»: هذا من سوء حظ المجلة.

- وهي لهذا السبب أيضًا قبلت بدلًا من هذه القصائد قصيدة «إناء الليل»، وسوف يكون الإهداء -بهذه المناسبة- لك، إن أنت سمحت بذلك.

- هذا من سوء حظي.

- بل كان «باسافان» يريد أن تظهر قصيدتي هذه، وهي عنوان عبقريتي في الصفحة الأولى من العدد الأول، مما أخجل تواضعي الطبيعي. لقد اجتاز تواضعي محنةً قاسيةً لفرط ما مدحني به. ولولا خشيتي أن أرهق أذنيك وأنت في دور النقاهة لقصصت عليك ما دار إبان مقابلتي الأولى مع مؤلف «القضيب الثابت» ذلك الكاتب الشهير الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا حتى هذا اليوم إلا عن طريقك.

- ليس عندي شيء أفعله أفضل من أن أُصغي إليك.

- ألا يضايقك دخان سيجارتي؟

- سوف أدخن أنا نفسي لكي أطمئنك.

بدأ «أرمان» حديثه وهو يشعل سيجارةً:

- يجب أن أخبرك أن رحيلك قد ترك «الكونت» العزيز في ارتباك شديد، ولأقل لك دون أن أتملقك: إنه ليس من السهل تعويض هذه المجموعة من المواهب والصفات والفضائل التي تجعل منك أحد...

قاطعة «أوليفييه» قائلًا: وبالاختصار... (وكان تهكمه قد أثاره كل الثورة).

- بالاختصار كان «باسافان» في حاجة إلى سكرتير، وكان يعرف بالصدفة شخصًا يُدعى «ستروفيلهو»، وهو شخص أعرفه بدوري لأنه عم ومراسل أحد تلاميذ القسم الداخلي، وهذا الأخير يعرف شخصًا يُدعى «كوب لافلور» وأنت تعرفه.

وقال «أوليفييه»: أنا لا أعرفه.

- حسنًا يا صديقي كان يجب أن تعرفه. إنه شخص عجيب. إنه أعجوبة. إنه يشبه طفلًا ذابلًا، مجعد الوجه يعيش على شرب الخمر، وعندما يكون ثملًا ينظم أشعارًا لطيفة للغاية وسوف تقرأ بعض أشعاره على صفحات عددنا الأول. وقد تراءى لستروفيلهو أن يبعث به إلى «باسافان» لكي يشغل مكانك، ولك أن تتخيل منظره وهو يدخل قصر شارع «بابيلون». يجب أن أقول لك أيضًا أن «كوب لافلور» يرتدي ملابس تغطيها البقع، وأنه يترك شعره الأصفر اللون الباهت كالكتان، مسترسلًا، ويبدو كأنه لم يغتسل منذ ثمانية أيام. وأكد «باسافان»- وهو الذي يدعي السيطرة دائمًا على الموقف- أكد أنه شديد الإعجاب بـ «كوب لافلور» وكان «كوب لافلور» هذا قد وفق في أن يبدو رقيقًا، مبتسمًا، خجولًا، وهو إذا أراد، استطاع أن يظهر بمظهر «جرانجوار» للكاتب «بانفيل». وبالاختصار فتن «باسافان» وكان على وشك أن يعينه. ويجب أن أقول لك إن «كوب لافلور» لا يملك شروى نقير... واستأذن ليخرج وقال للكونت:

- قبل أن أرحل أرى لزامًا عليَّ أن أنبهك يا سيدي الكونت إلى أن لي بعض العيوب.

-ومن منا بلا عيوب؟

- وبعض الرذائل. إنني أدخن الأفيون.

قال «باسافان» وهو رجل ثابت الجنان: وماذا في ذلك؟ عندي منه أصناف ممتازة يمكن أقدم لك منها.

وأردف «لافلور»: نعم، ولكنني بعد أن أدخن الأفيون أفقد تمامًا كل معلوماتي في الهجاء...

وتصور «باسافان» أنه يمزح وحاول أن يبتسم ومد له يده. ولكن «لافلور» استمر في حديثه قائلًا: ثم إنني أتعاطى الحشيش.

وقال «باسافان»: وأنا نفسي قد تعاطيته أحيانًا.

- نعم ولكني تحت تأثير الحشيش لا أمنع نفسي من السرقة.

وبدأ «باسافان» يدرك أن الشاب يسخر منه. واسترسل «لافلور» وأضاف في تدفق:

- ثم إنني أشرب «الأتير»، وعندئذ أمزق كل شيء، وأحطم كل شيء.

وأمسك بإناء من البللور، وتظاهر بأنه سيلقي به المدفأة، فانتزعه «باسافان» من بين يديه، وقال:

- أشكرك على أنك نبهتني إلى هذا الأمر.

وسأل «أوليفييه»: وهل طرده؟

وأجاب «برنارد»: ثم راقبه من النافذة ليرى إن كان لم يلق قنبلةً في قبو داره وهو راحل.

- ولكن لماذا فعل «لافلور» ذلك؟ (سأله «أوليفييه» هذا السؤال بعد أن سكت قليلًا). وأردف: على ما فهمته منك، كان لافلور في حاجة شديدة إلى هذه الوظيفة.

- لا بد يا عزيزي أن توافقني أن هناك أناسًا يشعرون بحاجة إلى أن يتصرفوا بطريقة تسيء إلى مصلحتهم. ثم إن رأيي أن «لافلور»... اشمأز من الرفاهية التي يعيش فيها «باسافان» ومن أناقته ومن رقته الزائفة، ومن الظرف الذي يعامل به الناس ومن حبه في تصنع التفوق. نعم لقد اشمأز من كل هذا. وأضيف إلى ما قلته إنني لم أفهم معنى تصرفه هذا... وعلى كل فإن صديقك «باسافان» هذا يغثي النفس.

- ولماذا تقول صديقك «باسافان»؟ إنك تعلم أنني لم أعد أراه. ثم إنني أسألك: لماذا قبلت هذه الوظيفة ما دمت تشمئز منه إلى هذا الحد؟

- لأنني في الواقع أحب كل ما أشمئز منه... وأول من يشعرني بهذا الاشمئزاز هو شخصي نفسه، شخصي القذر... ثم إن «كوب لافلور» في حقيقة الأمر ليس إلا شابًّا خجولًا، ولم يكن ليقول ما قال إلا لأنه شعر بالضيق.

- أوه! هذا عجيب.

- دون شك. كان يشعر بالضيق، ولم يطق أن يشعره كباسافان بهذا الضيق في حين أنه يحتقر باسافان في قرارة نفسه وقد تصنع هذه الوقاحة لكي يخفي ضيقه.

- إنني أعتبر هذا التصرف منه غباءً.

- يا صديقي ليس الجميع في مثل ذكائك.

- سبق أن قلت لي هذا القول في آخر مرة تقابلنا فيها.

- يا لها من ذاكرة.

وبدا على «أوليفييه» أنه صمم على الصمود أمامه، وقال:

- أنني أحاول أن أنسى دعاباتك، ولكنك في آخر مرة تقابلنا فيها كلمتني بطريقة جدية. لقد قلت لي أشياء لا أستطيع أن أنساها.

واضطربت نظرة «أرمان»، وأطلق ضحكةً مفتعلةً وقال:

- أوه يا صديقي. في آخر مرة تقابلنا فيها كلمتك بالطريقة التي تحب أن أكلمك بها. كنت تطلب مني قطعةً موسيقيةً حزينةً، ولكي أجيبك إلى طلبك، عزفت قطعتي وكأن قلبي مفعم بالحزن، وتظاهرت بآلام على طريقة «باسكال»... هكذا أنا. لا أكون صادقًا إلا عندما أمزح.

- لن تقتنعي أبدًا بأنك لم تكن صادقًا فيما قلته عندما كلمتني بهذه الطريقة في آخر مرة تقابلنا فيها. إنك الآن تمثل دورًا وأنت تكلمني هكذا.

- يا لك من شخص ساذج وكم تبدو نفسك ملائكيةً -إن كل شخص يمثل يقوم بدور... مع تفاوت في الصدق وفي الوعي! ليست الحياة يا عزيزي سوى ملهاة. ولكن الفرق بينك وبيني هو أنني أعرف أنني أمثل دورًا بينما...

وكرر «أوليفييه» في تحد: بينما...

- بينما والدي، على سبيل المثال -ولكي لا أتكلم عنك- لا يتبين أنه يمثل دورًا عندما يقوم بدور القس. إنني في كل ما أقول وفي كل ما أفعل أخفي قطعةً في نفسي، وهذه القطعة المختفية تنظر إلى القطعة الأخرى وهي تلقي بذاتها في المهالك، وتراقبها وتسخر منها أو تصفق لها. وعندما يكون الشخص منقسمًا على نفسه هكذا كيف تطلب منه أن يكون صادقًا؟ لقد وصلت بي الحال إلى حد أنني لم أعد أفهم ما يمكن أن تعنيه هذه الكلمة، ولا أجده علاجًا لهذا الأمر: عندما أكون حزينًا أرى نفسي مضحكًا ويضحكني ذلك، وعندما أكون سعيدًا أنطق بدعابات سخيفة لدرجة أن هذا يشعرني بالرغبة في البكاء.

- إنك تشعرني أنا أيضًا بالرغبة في البكاء يا صديقي المسكين. ولم أكن أتصورك مريضًا إلى هذا الحد.

ورفع «أرمان» كفيه، وقال بلهجة مختلفة تمامًا:

- لكي أهوّن عليك، أتريد أن أعطيك فكرةً عن الشكل الذي سيظهر به العدد الأول من المجلة؟ سوف يحتوي إذَنْ على قصيدتي «إناء الليل» وعلى أربعة أغان من نظم «كوب لافلور»، وعلى حوار لجاري، وعلى قصائد منثورة، كتبها «جيريدا إنيزول» الصغير وهو نزيل قسمنا الداخلي. ثم «المكواة» وهو بحث واسع فيه نقد لكل شيء، وسوف تتحدد فيه أهداف المجلة. لقد تعاون عدد منا لكي نظهر هذه الآية.

ولم يدر «أوليفييه» ماذا يجيب، ثم قال: إن التعاون لا يمكن أن ينتج أي آية! وانفجر «أرمان» في الضحك وقال:

- ولكن يا عزيزي، لقد أسميت ذلك آية على سبيل الدعابة، بل إن عملنا هذا ليس عملًا فنيًّا بمعنى الكلمة، وعلى أي حال يجب أن نعرف معنى كلمة «آية».

و «المكواة» بالذات تهتم بأن توضح معناها. هناك عدد ضخم من الأعمال الفنية نعجب بها دون تبصر لأن الناس أجمعين يعجبون بها، وهي عبارة عن أعمال لم يفكر أحد حتى الآن في أنها أعمال سخيفة، أو لم يجرؤ أحد على أن يقول إنها كذلك. وسوف نضع على سبيل المثال، في الصفحة الأولى من عددنا الأول صورة «الجوكوندا» وسوف نلصق على شفتيها شاربًا. وسترى يا صديقي أن تأثير هذا سيكون كالصاعقة.

- هل معنى ذلك أنك تعتبر «الجوكوندا» شيئًا سخيفًا؟

- لا أعني هذا إطلاقًا يا عزيزي، وإن كنت لا أعتبرها عملًا رائعًا. إنك تفهم ما أعنيه. السخيف هو هذا الإعجاب الذي نحيطها به، هو ما اعتدنا أن نبديه من توقير كلما تحدثنا عما ندعوه (بالآيات الفنية). إن (المكواة) -وسيكون هذا العنوان اسم المجلة كلها- تهدف إلى السخرية من هذا التوقير وإلى تقليل شأن... وثمت وسيلة أخرى بارعة. وهي أن ندعو القارئ إلى الإعجاب ببعض الأعمال السخيفة. مثل قصيدتي «إناء الليل» مثلًا لمؤلف تجرد تمامًا من كل تفكير سليم.

- وهل يوافق «باسافان» على كل ذلك؟

- إنه يجد في هذا تسلية كبرى.

- أرى أنني أحسنت صنعًا حين انسحبت.

- الانسحاب... عاجلًا أو آجلًا يا صديقي سواء أردنا ذلك أو لم نرد يجب دائمًا أن نصل إليه، وهذا الرأي الحكيم يشجعني على أن أستأذن في الانصراف.

- ابق لحظة أيها المهرج... ما الذي دعاك إلى القول بأن والدك يمثل القس؟ ألست مقتنعًا بإيمانه؟

- قد رتب والدي حياته بحيث لم يعد له الحق أو الوسيلة أن يكون غير ذلك. نعم إنه مؤمن محترف، أستاذ في الإيمان، إنه يغرس الإيمان وهذه هي رسالته، وهذا هو الدور الذي يقوم به والذي لا بد من أن يقوم به حتى النهاية. أما عما يعتمل فيما يسميه أعماق نفسه؟.. لعلك تدرك أن سؤاله عن هذا الأمر يعتبر تطفلًا. وفي رأيي أنه لا يوجه هذا السؤال لنفسه أبدًا. وقد عمل بحيث لا يجد الوقت أبدًا ليسأل نفسه هذا السؤال. لقد شغل حياته بعدد لا حصر له من الالتزامات، وهي التزامات ستفقد كل معناها إذا ما اعترى الوهن إيمانه كما أن إيمانه، يقوم على هذه الالتزامات ويحيا بها. وهو يتصور أنه مؤمن؛ لأنه يتصرف في الحياة وكأنه مؤمن، ولم يعد حرًّا في أن لا يؤمن. وإذا ما ولى هذا الإيمان، كانت الكارثة، كان الانهيار، ولعلك تتصور أن عائلتي في هذه الحال لن تجد مصدرًا تتعيش منه. هذا أمر يجب اعتباره يا عزيزي. إن إيمان والدي هو مورد عيشنا. فنحن نعيش جميعًا على إيمان والدي وها أنت ترى إذَنْ أن السؤال عن مدى إيمان والدي سؤال غير رقيق من ناحيتك.

- كنت أتصور أن مواردكم تعتمد على ما تكسبونه من (القسم الداخلي).

- هذا صحيح إلى حد ما، ولكن ليس من اللياقة كذلك أن تقضي هكذا على التأثير الشاعري الذي أرجوه من حديثي هذا.

وسأله «أوليفييه» بحزن؛ لأنه كان يحبه ويتألم من حطته.

- إذَنْ فأنت لم تعد تؤمن بشيء على الإطلاق؟

- لقد نسيت يا عزيزي أن والديَّ كانا يأملان أن يجعلا مني قسًّا. لقد أرادا أن يؤهلاني لذلك، وملآني بالتعاليم الدينية على أمل أن يتمدد إيماني -إذا أمكن استعمال هذا التعبير- وقد تبينا بعد كل هذه المحاولات أني لم أوهب الإلهام الرباني وأنها لخسارة، فلربما أصبحت واعظًا قديرًا. أما استعدادي الحقيقي فهو الذي يدفعني إلى كتابة (إناء الليل)!

- يا صديقي المسكين. آه لو عرفت كم أنا مشفق عليك!

- لقد تمتعت دائمًا بما يسميه والدي (قلب من ذهب)... وليس في نيتي أن أستغل طيبتك إلى أبعد من ذلك. وأخذ قبعته واستدار فجأةً بعد أن أوشك على الخروج، وقال:

- ألا تسألني عن أخبار «سارة»؟

- لأنك لن تخبرني بشيء، إلا وأكون قد عرفته من «برنارد».

- هل أخبرك بأنه ترك «القسم الداخلي»؟

- أخبرني بأن «راشيل» دعته للرحيل([34]).

- «راشيل» على ما أعتقد هي الشخص الوحيد في هذا العالم الذي أحبه وأحترمه. إنني أحترمها لفضيلتها وأعمل دائمًا على خدش فضيلتها. ولم تكن تدري شيئًا عما حدث بين «برنارد» و«سارة»، وقد قصصت عليها كل شيء... وطبيب الرمد يطلب منها أن تكف عن البكاء. وهذه مهزلة.

- هل يمكن أن أتصورك الآن صادقًا؟

- نعم أعتقد أن أصدق ما في نفسي من مشاعر هو الشعور بالاشمئزاز وبالكراهية لكل ما يسمونه فضيلةً. أنت لا تحاول أن تفهم. لا يمكنك أن تتصور ما يمكن أن تفعله بنا التربية المبالغة في التدين التي يلقنوننا إياها في الطفولة. إنها تترك في قلوبنا أثرًا لا يمكن أن نُشفى منه أبدًا... ويمكنني أن أضر مثلًا بشخصي (قال هذه العبارات الأخيرة وهو يبتسم)، بهذه المناسبة يجدر بك أن تقول لي أي شيء أصابني في هذا المكان...

ووضع قبعته، واقترب من النافذة.

- انظر على حافة شفتي بالداخل.

وانحنى نحو «أوليفييه»، ورفع بإصبعه شفته.

- إنني لا أرى شيئًا.

- هنا في هذا الركن.

ورأى «أوليفييه» بقعةً بيضاءَ قريبةً من التقاء الشفتين. وقال في شيء من القلق:

- إنها التهاب (قال ذلك ليطمئن «أرمان»).

ولكن أرمان رفع كتفيه، وقال: لا تقل سخافاتٍ، وأنت رجل جاد، أولًا كلمة «التهاب» مذكرة لا مؤنثة. ثم إن الالتهاب يكون طريًّا ويزول مع الوقت. أما هذا فإنه متحجر، ثم إن حجمه يزيد من أسبوع لأسبوع، ويسبب لي مذاقًا كريهًا في فمي.

- هل اكتشفت هذا منذ وقت طويل؟

- لقد لاحظته منذ أكثر من شهر، ولكن -على حد ما يعبرون به في الكتب العظيمة... (مصدر عذابي أبعد من ذلك بكثير)([35]).

- حسنًا يا صديقي، إن كنت قلقًا فيجب أن يفحصك الطبيب.

- أتتصور أنني أنتظر نصيحتك؟

- وماذا قال الطبيب؟

- لم أنتظر نصيحتك لكي أقول لنفسي إن عليَّ أن أستشير الطبيب. ومع ذلك لم أستشره لأنه إن كان ما أتصوره، فإنني أؤثر أن أجهله.

- هذا سخف.

- أليس هذا سخفًا فعلًا، ولكن فيه معنى إنساني يا عزيزي. فيه معنى إنساني جدًّا...

- السخف هو أن لا تعالج ما بك.

- ومن السخف أيضًا أن أقول لنفسي بعد البدء في العلاج: (لقد فات الأوان) وهذا ما أحسن التعبير عنه «كوب لافلور» في إحدى القصائد التي ستقرأها:

«يجب أن نخضع للأمر الواقع؛ لأن -في عالمنا هذا- كثيرًا ما سبق الرقص الغناء».

- نستطيع أن نصوغ الأدب من أي شيء.

- لقد صدقت! كل شيء... ولكن يا صديقي، ليس هذا الأمر بالسهولة التي تتصورها. هيا، وداعًا... آه لقد نسيت أن أقول لك إن أخبارًا وصلتني عن «إسكندر». نعم، إنك تعرفه: إنه أخي الأكبر، الذي هرب إلى أفريقيا حيث بدأ حياته بعمليات مريبة، وحيث أضاع كل المبالغ التي كانت ترسلها له «راشيل» إنه يقيم الآن على ضفاف نهر «الكازامانسي»، وقد كتب لي ليخبرني بأن تجارته تزدهر، وأنه سوف يستطيع بعد قليل أن يسدد ديونه.

- وفِيمَ يتاجر؟

- وكيف أعرف؟ ربما كان يتاجر في المطاط أو العاج أو ربما في الرقيق... أو في أنواع مختلفة من أشياء لا قيمة لها... وهو يطلب مني أن ألحق به هناك.

- هل تفكر في الرحيل؟

- منذ غد إن لم يكن لي أن أتقدم للتجنيد بعد قليل. «إسكندر» شخص شاذ سخيف من نفس نوعي. وأعتقد أنني سوف أتفاهم معه... هل تريد أن تحكم عليه؟ إنني أحمل رسالته معي.

وأخرج من جيبه مظروفًا، وتناول منه أوراقًا عديدةً، واختار منها واحدةً قدمها لأوليفييه.

- ليس من الضروري أن تقرأ كل شيء. ابدأ من هنا.

وقرأ «أوليفييه» بها:

« أقيم منذ حوالي خمسة عشر يومًا مع إنسان شاذ آويته في كوخي. لا شك أن الشمس لفحت جمجمته بحيث أثرت فيها. وكنت أتصور بادئ الأمر أن هذيانه ناتج عن الحمى، ولكنه جونو حقيقي، ويبلغ هذا الشاب الغريب الأطوار الثلاثين من عمره تقريبًا، وهو طويل القامة قوي البنية جميل المحيا، ولا شك أنه من عائلة طيبة كما يقولون، وكما يثبت ذلك أسلوبه في الكلام وأصابعه الرقيقة التي يظهر أنه

لم يستعملها في أعمال يدوية مرهقة -هذا الشاب يتصور أن الشيطان تقمص روحه، على ما أمكنني أن أفهمه من حديثه. لا شك أنه قام بمغامرة ما، لأنه لا يكف عن الكلام عن (أيد مقطوعة) وهو يحلم، أو عندما يكون في شبه الغيبوبة التي كثيرًا ما يقع فيها (وهو في هذه الحالة يحدث نفسه، ولا يشعر بوجودي) ونظرًا لأنه كثيرًا ما يصيبه الهياج في هذه الحالات. يكون شخصًا طيبًا، تحلو صحبته. وأنا أقدر هذه الصحبة بعد شهور طويلة قضيتها في عزلة تامة -ثم إنه يساعدني في أعمالي. وهو لا يتكلم أبدًا عن حياته السابقة، ولذا لم أتمكن من معرفة أي شيء عنه لا اسمه ولا حقيقة أمره. وهو مهتم بوجه خاص بالحشرات والنباتات، ويظهر من بعض أحاديثه أنه على قدر فائق من التعليم. ويبدو أن صحبتي تروقه ولا يفكر في الرحيل، وقد قررت أن أبقيه معي ما دام يريد ذلك. وكنت أتمنى أن أجد من يساعدني، فإذا به يأتي في الوقت المناسب.

أخبرني زنجي قبيح الشكل كان يصحبه ورافقه في رحلته على نهر «الكازامانسي» أن امرأةً كانت معه وقد غرقت -على ما فهمت- في النهر ذات يوم عندما انقلب الزورق بهم. ولن أدهش إن عرفت أن رفيقي آثر أن يتخلص منها بإغراقها فإن وسائل التخلص من شخص في هذا البلد متنوعة، ولا يبالي أحد بالبحث في هذا الأمر. وإذا ما وصلتني عنه معلومات أخرى فسوف أخبرك بها في رسالة -أو أسمعك تفاصيلها عندما تلحق بي. نعم، إنني أفهم... خدمتك العسكرية؟ لا بأس. سوف أنتظر. وإن كنت تود رؤيتي فثق أن عليك أن تحزم أمرك وأن تأتي. أما أنا فإن رغبتي في العودة تقل يومًا عن يوم. والحياة التي أحياها تناسبني تمامًا، وكأنها حلة فصلت على قدي. وتجارتي تزدهر. أما (ياقة المدينة المنشأة) فهي طوق لن أطيقه بعد الآن.

ومع رسالتي هذه حوالة بريدية أخرى، لك أن تعمل بها ما يحلو لك. أما الحوالة السابقة فقد كانت لراشيل. احتفظ بهذه الحوالة لك.

وقال «أرمان»:

- ليس في بقية الرسالة ما يهم.

وأعاد «أوليفييه» الرسالة له دون أن يقول شيئًا. ولم يطرأ على ذهنه أن القاتل الذي جاء ذكره في الرسالة هو أخوه. لم يكن «فنسان» قد بعث إلى ذويه بأخباره منذ وقت طويل، وكانوا يتصورون أنه في أمريكا.

وحقيقة الأمر أن «أوليفييه» لم يكن مهتمًّا كثيرًا بمعرفة أخباره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السابع عشر

لم يعلم «بوريس» بموت «برونجا» إلا بعد زيارة قامت بها «مدام سوفرونيسكا» للقسم الداخلي بعد الوفاة بشهر. ومنذ استلم الرسالة الحزينة التي بعثت بها إليه صديقته، لم يصل إليه شيء من أخبارها. ورأى مدام سوفرونيسكا داخلةً حجرة الاستقبال الخاصة بالسيدة «فيدل»، وكان من عادته أن يبقى فيها في أوقات الفسح وكانت تتشح بالسواد، وفهم حينئذ كل شيء قبل أن تكلمه في الأمر. كانا بمفردهما في الحجرة واحتضنته «سوفرونيسكا»، وامتزجت عبراتهما. ولم تكن تردد إلا هذه العبارة: «يا صغيري المسكين... يا صغيري المسكين»، وكأن «بوريس» هو الذي يستحق الشفقة، وكأنها نسيت حزنها كأم أمام حزن هذا الطفل، أمام هذا الحزن الهائل.

وحضرت السيدة «فيدل»، وكانوا قد استدعوها، وابتعد «بوريس» والعبرات تخنقه، ليترك لهاتين السيدتين حرية الكلام. كان يتمنى أن لا تتحدثا أمامه عن «برونجا» ولم تكن مدام «فيدل» قد عرفت هذه الصبية، ولذا راحت تتكلم عنها كما تتكلم عن أي طفل عادي. وحتى الأسئلة التي سألتها، بدت لبوريس بعيدةً عن الذوق، تافهةً. وكان يرجو أن لا تجيبها «سوفرونيسكا» على هذه الأسئلة، وتعذب وهو يراها تعرض حزنها. أما حزنه هو فقد طواه وأخفاه كما يخفي الإنسان كنزًا.

لا شك أن «برونجا» كانت تفكر فيه عندما سألت أمها قبل وفاتها بأيام هذا السؤال:

- أريد أن أعرف يا أماه... أخبريني: ما معنى كلمة (شعر عاطفي) بالضبط؟

كانت هذه الكلمات تمزق نياط قلبه، وود «بوريس» لو لم يعرفها أحد غيره.

وقدمت السيدة «فيدل» الشاي، وكان لبوريس فنجان منه، شربه مسرعًا، وكانت الفسحة قد انتهت، ثم استأذن في الانصراف من «سوفرونيسكا».

وكانت قد اعتزمت السفر إلى (بولونيا) في اليوم التالي، حيث تتطلب أعمالها وجودها هناك.

بدت الدنيا له صحراء. فأمه بعيدة جدًّا عنه، وقد طالت غيبتها، أما جده فكان طاعنًا في السن، وحتى «برنارد» لم يكن بجانبه وكان يطمئن إليه... وروح حنونة كروحه النبيلة التقية في حاجة إلى من تبثه نقاءها... ولم تكن به كبرياء تجعله يقنع بطهره ونبله.

لقد أحب «برونجا» حبًّا لا حد له، حبًّا لا يؤمل بعده في أي حب: ففقد أمله بفقدها، وأما الملائكة التي كان يتمنى رؤيتها، فكيف يؤمن الآن بوجودها وقد رحلت «برونجا»؟ حتى سماؤه قد خوت الآن.

ودخل «بوريس» قاعة الاستذكار كمن يلقي بنفسه في جهنم. كان في استطاعته أن يتخذ من «جونتران دي باسافان» صديقًا له، فهو ولد طيب في مثل سنه، ولكن لا شيء يلهي «جونتران» عن عمله. و «فيليب آدامانتي» بدوره ليس ولدًا شريرًا، وكان يسعده أن يصادق «بوريس»، إلا أنه قد خضع لجيريدا إنيزول كل الخضوع، حتى لم يعد يجرؤ على أن يشعر بأي شعور توحيه إليه نفسه. وهو يتبع «جيريدانيزول» كظله، وهذا الأخير لا يطيق «بوريس؛» فصوت «بوريس» الموسيقي، ورشاقته، وما يبدو عليه من سمات كسمات الفتيات، كل ما فيه يضايقه ويحنقه، وكأنه يشعر عند رؤيته بتلك الكراهية الغريزية التي يشعر بها -في القطيع- القوي نحو الضعيف، ولعله استمع إلى

تعاليم ابن عمه، ولعل بغضاءه تقوم على نظرية تصور له أن شعوره هذا ليس إلا عدم رضاء عن تصرفات «بوريس». وهو يجد أعذارًا تبرر له هذه البغضاء، بل تجعله يهنئ نفسه إذ يشعر بها. وقد أدرك إلى أي حد يتألم «بوريس» من هذا الاحتقار الذي يبديه له. وهو يلهو بما يراه ويتصنع بأنه يتآمر مع «جورج» و «فيفي» على شيء، وهدفه من هذا أن يشاهد ما يرتسم في عين «بوريس» حينئذ من تساؤل قلق.

قال «جورج»: أوه! كم هو فضولي، هل نخبره بما نتكلم فيه؟

وأجابه «جيريدا إنيزول»: لا جدوى من ذلك؛ فهو لن يفهم شيئًا.

وهم دائمًا يصدمونه بهذه العبارات: (لن يفهم) ، (لن يجرؤ) ، (لن يستطيع) و «بوريس» يتعذب لأنهم لا يشركونه في مشروعاتهم. وهو لا يفهم تمامًا، في الواقع، معنى هذا النعت الذي يطلقونه عليه: (لا يتمتع بشيء) أو هو يتألم مما يفهمه من هذه العبارة. إنه على استعداد لأن يضحي بأي شيء ليثبت لهم أنه ليس بالشخص الذي يتصورونه.

وقال «جيريدا إنيزول» لستروفيلهو:

- إنني لا أطيق «بوريس». لماذا طلبت مني أن أتركه في حاله؟ إنه لا يريد أن تتركه في حاله. إنه دائم النظر إليَّ... وذات مرة ضحكنا جميعًا لأنه تصور أن معنى (امرأة بشعرها)(36) هو أن تكون امرأةً ذات لحية. وقد سخر منه «جورج»، ولما أدرك «بوريس» خطأه اعتقدت أنه سينخرط في البكاء.

(36) هو اصطلاح بالفرنسية الدارجة معناه: «المرأة العارية».

ثم أخذ «جيريدا إنيزول» ينهال بأسئلته على ابن عمه، وقد دفعت أسئلته ابن عمه هذا أخيرًا إلى أن يسلمه (تعويذة) «بوريس»، وأفهمه كيف يتصرف بها.

وبعد أيام وجد «بوريس» على درجه عند دخوله حجرة الاستذكار هذه القصاصة، ولم يكن يذكرها تقريبًا. كان قد لفظها من ذاكرته كما لفظ معها كل ما له علاقة بالسحر الذي كان يقوم به في طفولته، ويخجل منه الآن. ولم يتعرف على تعويذته في بادئ الأمر؛ لأن «جيريدا إنيزول» كان قد أحاط العبارة السحرية: (غاز... تليفون... مائة ألف روبل) بإطار عريض من اللونين الأحمر والأسود مزين بصور مخجلة تمثل شياطين صغيرة، وكان هذا الرسم متقنًا إلى حد كبير، وكان «جيريدا إنيزول» يرى أن هذا الإطار بما فيه يضفي على القصاصة شكلًا غريبًا، شكلًا جهنميًا كفيلًا بأن يزعج «بوريس».

وربما لم يدفعه إلى هذا العمل إلا رغبته في أن يلهو، إلا أن لعبته هذه نجحت نجاحًا فاق كل ما كان يرجوه، وكسا وجه «بوريس» احمرار شديد، ولم يقل شيئًا وتلفت يمينًا ويسارًا، ولكنه لم يرى «جيريدا إنيزول» الذي كان يراقبه وهو يختبئ خلف الباب. ولم يكن في مقدور «بوريس» أن يتهمه، ولا كان في مقدوره كذلك أن يفهم كيف ظهرت هذه (التعويذة) في هذا المكان. كان يبدو وكأنها سقطت من السماء، أو أنها جاءت من جهنم، وكانت سن «بوريس» خليقةً بأن تجعله يرفع كتفيه

سخرية أمام هذه الأعمال الشيطانية التي يقوم بها التلاميذ، ولكن هذه الأعمال هزت في أعماقه ذكرى ماض مضطرب.

وأمسك «بوريس» بالحجاب، ووضعه خلسةً في جيب سترته. وتسلطت ذكرى أعماله السحرية على مخيلته طوال اليوم. وقاوم رغبةً ملحةً وغامضةً تسلطت عليه حتى المساء. ولكن لم يكن هناك شيء يسانده في صراعه، ولذا تخاذلت إرادته بمجرد أن دخل غرفته.

بدا له أنه ينغمس في هوة عميقة، وأنه يبتعد كل البعد عن السماء، ولكنه شعر بلذة في أن ينغمس هكذا، ووجد في هذا الانغماس نشوةً.

ورغم ما كان به من يأس وحزن، فقد احتفظ في قرارة نفسه بالكثير من الحنان، وبألم شديد لما يشعر به زملاؤه من ازدراء، حتى أنه كان خليقًا بأن يجازف بأي شيء مهما كان خطرًا أو سخيفًا لكي ينال شيئًا من التقدير.

وسنحت الفرصة بعد قليل.

فبعد أن اضطر «جيريدا إنيزول» و«جورج» و«فيفي» إلى الكف عن تصريف قطع النقود المزيفة، لم يطيقوا أن يبقوا طويلًا دون أن يقوموا بشيء. وكان ما تخيلوه من لعب حتى الآن لا يعدو لهوًا مؤقتًا لا طعم له في انتظار أن يقوموا بعمل يستهويهم. وقد تفتق ذهن «جيريدا إنيزول» عن شيء جدير بأن يستهويهم فعلًا.

لم يكن ثمت من سبب في بادئ الأمر لتكوين جمعية (الرجال الأقوياء)، إلا أن يشعروا بلذة في حرمان بوريس من الانضمام إليها. ولكن تراءى لجيريدا إنيزول بعد قليل أن السماح لبوريس بهذه العضوية ربما أتاح له القيام بأعمال ترضي نزعته الشريرة، وربما استطاع أن يدفعه إلى ارتكاب عمل فظيع.

وتبلورت هذه الفكرة في مخيلته، ولم يعد يهمه العمل الذي يمكن القيام به - وكثيرًا ما يحدث هذا عندما تقدم على مشروع- بقدر ما كانت تهمه الوسائل التي تمكنه من النجاح في تحقيقه، وربما بدا أن ما أقوله هنا ليس فيه ما يلفت النظر، ولكن هذا الرأي قد يوضح لنا سبب ارتكاب كثير من الجرائم. وعلى العموم فإن «جيريدا إنيزول» كان شرسًا، ولكنه كان يشعر برغبة في إخفاء شراسته هذه، أو على الاقل في أن يخفيها عن «فيفي»، ولم يكن في «فيفي» أي شيء يدل على القسوة، ولذا بقي مقتنعًا حتى آخر لحظة بأن الأمر لا يعدو أن يكون لعبًا.

وكل جمعية تحتاج إلى شعار. واقترح «جيريدا إنيزول» -وكان يهدف إلى شيء- هذا الشعار: «الرجل القوي لا يتمسك بالحياة»، وقد وافقوا على هذا الشعار، ونسبوا هذه العبارة إلى «شيشرون»، وأرادوا علامةً تميزهم، واقترح «جورج» أن يرسموا وشمًا على ذراعهم الأيمن، ولكن «فيفي» -وكان يخشى الألم- أكد لهم أنه لا يمكن أن يجدوا إلا في الموانئ من يحسنون الوشم. وعارض «جيريدا إنيزول» هذا الاقتراح؛ إذ إن (الوشم) يترك أثرًا لا يُمحى، ويمكن أن يضايقهم فيما بعد. وعلى أي حال، فإن هذه العلامة المميزة لم تكن شيئًا ملحًّا، واكتفى المنخرطون في صفوف الجمعية بأن يقطعوا على أنفسهم عهدًا لا رجوع فيه.

عندما كان الأمر متعلقًا بالقيام بترويج قطع مزيفة من النقود، اقتضى العهد أن يقدموا (ضمانات)، ولذا كان على «جورج» أن يقد لهم رسائل أبيه. ولكنهم نسوا كل هذا، فهؤلاء الأطفال لا يبقون – لحسن الحظ- على حال واحدة، وهم لم يقرروا شيئًا، لا فيما يختص بشروط الانضمام إلى الجمعية، ولا فيما يختص بالصفات المطلوب توفرها في العضو. وما قيمة هذا ما دام هدفهم أن يكونوا في جمعية لا يسمح لبوريس بالانضمام إليها. ومع ذلك قرروا أن (من يتخاذل، سوف يعتبر خائنًا، وسوف يفقد حق الانضمام إلى الجمعية). وكان «جيريدا إنيزول» يصر على هذه النقطة بالذات كل الإصرار، إذ كان قد قرر أن يضم «بوريس» إلى الجمعية.

والحقيقة أن هذه الجمعية قد صارت من دون «بوريس» لا طعم لها ولا أمل في أن تؤدي إلى لعبة مسلية. وكان في إمكان «جورج» أن يستدرج الطفل أكثر مما يستطيع «جيريدا إنيزول» أن يفعل، إذ كان من الممكن أن يثير هذا الأخير شكوك بوريس، أما فيفي فلم يكن ماكرًا، كما أنه كان يفضل أن لا يعرض نفسه لخطر.

وربما كان أبشع شيء أراه في هذه القصة الفظيعة هو تلك الصداقة المزيفة التي وافق «جورج» على أن يصطنعها، فتظاهر بأن حبًّا «لبوريس» قد اعتراه فجأةً، ولم يكن يبدو عليه قبل ذلك مجرد أنه رأى بوريس، وأكاد أشك في أن «جورج» قد وقع نفسه في حبائل لعبته، وفي أن العواطف التي تظاهر بها أمام «بوريس» قد أصبحت حقيقةً منذ أن استجاب لها بوريس.

كان «جورج» يرنو إليه متظاهرًا بالحنان، وبدأ يحادثه بعد أن دفعه «جيريدا إنيزول» إلى ذلك... وبمجرد أن بدأ حديثه، استحوذ على «بوريس» الذي كان ظامئًا إلى شيء من التقدير والحب.

ورسم «جيريدا إنيزول» خطته، وأوضحها لفيفي وجورج. كانت الخطة أن يتخيلوا (اختبارًا) يجب أن يخضع له أي واحد من الأعضاء تقع عليه القرعة. ولكي يطمئن «فيفي»، أفهمه أنهم سيدبرون الأمر بحيث تقع القرعة على «بوريس»، والغرض من الاختبار هو التأكد من الشجاعة.

أما ما سيكون عليه هذا الاختبار بالضبط، فلم يفصح لهما «جيريدا إنيزول» بشيء عنه. كان يخشى أن يجد من فيفي بعض المعارضة.

وعندما بدأ «جيريدا إنيزول» يلمح فيما بعد إلى أنهم قد يحتاجون إلى مسدس الأب لابيروز في هذا الاختبار، صاح «فيفي» قائلًا:

- لا، لن أوافق على ذلك.

وأجابه «جورج» محتجًّا: يا لغبائك. الأمر لا يعدو المزاح!

قالها «جورج» باندفاع، أن الفكرة راقته.

وأضاف «جيري»: ثم إذا سرك أن تتصنع البله، فليس عليك إلا أن تخبرنا بذلك. لسنا في حاجة إليك.

وكان «جيريدا إنيزول» يعرف أن مثل هذا الكلام يؤثر دائمًا في «فيفي»، وكان قد أعد استمارة التطوع التي يجب على كل عضو في الجمعية أن يسجل فيها اسمه، وقال:

- يجب أن تحزم أمرك في الحال؛ لأنه بعد التوقيع يفوت الأوان.

وقال «فيفي»: هيا لا تغضب. أعطني الورقة – ووقع.

قال «جورج» لبوريس وهو يلف ذراعه بحنان حول عنقه:

- إنني يا صغيري أتمنى أن تشترك معنا. ولكن «جيريدا إنيزول» هو الذي لا يريد ذلك.

- لماذا؟

- لأنه لا يثق فيك، ويعتقد أنك ستتراجع.

- كيف يتسنى له أن يحكم عليَّ؟

- إنه يعتقد أنك ستهرب بعد أول تجربة.

- سوف ترى.

- هل تجرؤ حقًّا على أن تشترك معنا في التوقيع؟

- طبعًا.

- لكن أتعرف ما الذي تتعهد بالقيام به إن أنت فعلت؟

لم يكن «بوريس» يعرف، ولكنه كان يود أن يعرف. وعندئذ شرح له «جورج» معنى شعارهم: (الرجل القوي لا يتمسك بالحياة)، وبقي أن يختبروا مدى قوة من تقع عليه القرعة.

وشعر «بوريس» برأسه تدور، ولكنه تماسك وقال وهو يخفي اضطرابه:

- هل وقعتم حقًّا؟

- خذ. انظر. ومد له «جورج» يده بالورقة، وقرأ «بوريس» فيها الأسماء الثلاثة.

وسأل في وجل: هل...؟,

وقاطعه «جورج» بعنف، لدرجة أن «بوريس» لم يستطع أن يكمل عبارته:

- هل ماذا؟

ما كان يريد أن يسأل عنه قد فهمه «جورج» كل الفهم. كان يريد أن يسأل هل تطوع الآخرون فعلًا، وهل من الممكن الوثوق أنهم لن يتراجعوا بدورهم.

قال «بوريس»: لا شيء.

ولكنه منذ هذه اللحظة بدأ يشك في الآخرين، بدأ يعتقد أن الآخرين لن يقدموا، وأن لعبتهم لم تكن شريفةً. وقال لنفسه في الحال: «ليكن ما يكون، وماذا يهمني إن هم تراجعوا، وسوف أثبت لهم أنني أكثر إقدامًا منهم. ثم قال وهو يحدق بثبات في عيني «جورج»:

- قل لجيري إن في استطاعتكم أن تعتمدوا عليَّ.

لم يكن هذا ضروريًّا. كان يمكنهم أن يعتمدوا على كلمته.

وقال ببساطة:

- إذا أردت.

وسجل اسمه على الورقة الملعونة، وتحت توقيع (الرجال الثلاثة الأقوياء) وقع بخط منمق.

وأطلع «جورج» زميليه على الورقة مزهوًّا بانتصاره. واعترفوا بأن «بوريس» تصرف تصرفًا يدل على الثبات والإقدام. وأخذوا يتشاورون.

- بالتأكيد لن يحشو المسدس بالرصاص. وعلى أي حال لم يكن لديهم رصاص، وكان الشيء الذي يخيف «فيفي» هو ما سمعه عن احتمال أن يتسبب الانفعال الشديد في القضاء على حياة الإنسان. وقال إن والده أكد أن هذا حدث عندما تظاهروا بإعدام شخص... ولكن «جورج» سخر منه بقوله:

- والدك مبالغ.

لا لن يحشو «جيريدا إنيزول» المسدس بالرصاص، ولم يكن هناك داع لهذا، فالرصاصة التي وضعها فيه «لابيروز» منذ أيام كانت لا تزال فيه إذ لم يخرجها منه.

وكان «جيريدا إنيزول» قد لاحظ هذا، ولكنه أخفاه عن الآخرين.

ووضعوا قصاصات تحمل الأسماء في قبعة. أربع قصاصات متشابهة ومطوية بنفس الشكل. وكان «جيريدا إنيزول» وهو المكلف بالسحب، قد كتب اسم «بوريس» على ورقة خامسة احتفظ بها في يده، وكأن الأمر حدث بمحض الصدفة، فإن اسم «بوريس» هو الذي سحب. وكان «بوريس» يشك في أنهم يغشون، ولكنه لم يقل شيئًا. فيمَ يجدي الاحتجاج؟ كان يعرف حق المعرفة أنه ضائع لا محالة. ولم يبد حركةً واحدةً؛ لكي يدافع عن نفسه، ولو كان الحظ اختار أحدًا من الآخرين؛ فإنه كان سيتقدم ليحل محله؛ لأن يأسه كان كبيرًا جدًّا.

وقال «جورج» وقد تصور أن عليه أن يقول شيئًا:

- يا صديقي المسكين، لست محظوظًا.

ولكن نبرة صوته كانت تتضح بالزيف، ولذا نظر إليه «بوريس» في حزن وقال:

- كان كل منا معرضًا لذلك.

وقرروا بعد هذا أن يقوموا بتجربة. ولكن لخشيتهم أن يراهم أحد، اتفقوا على ألا يستعملوا المسدس في هذه التجربة، وأن لا يخرجوه من جرابه إلا في اللحظة الأخيرة، وعندما يلعبون اللعبة الحقيقية. ولم يكن هناك داع لأن ينبهوا أحدًا إلى ما يقومون به.

واكتفوا في هذا اليوم بأن يحددوا الساعة والمكان، وقد حدد هذا الأخير برسم دائرة بالطباشير على خشب الأرض. كان هذا المكان في حجرة الاستذكار، في تجويف على باب يمين المنصة، وهو باب مغلق كان يوصل فيما مضى إلى مدخل المدرسة، كان مقررًا أن يقوموا بهذه التجربة أمام أعين جميع التلاميذ، وكان المقصود من التجربة أن تفزعهم.

وقاموا بتجربة للعبتهم في وقت كانت القاعة فيه خاوية، ولم يشهد التجربة إلا الشهود الثلاثة. ولكن لم يكن فيها ما يثير، ولم يستفيدوا منها إلا شيئًا واحدًا، إذ تبينوا أن المسافة بين المكان الذي يقف فيه «بوريس» والبقعة المرسومة بالطباشير، كانت اثنتي عشرة خطوةً بالضبط.

وقال جورج: إذا أصابك الفزع، فلن تخطو خطوةً واحدةً إلى الأمام.

وأجاب «بوريس» وكان يشعر بالمهانة من شكهم الدائم فيه:

- لن يصيبني الفزع.

وبدأ ثبات هذا الصغير يؤثر في نفوس الثلاثة الآخرين. وكان من رأي «فيفي» أن يكتفوا بما قاموا به. ولكن «جيريدا إنيزول» كان مصممًا أن يستمروا في دعابتهم حتى النهاية.

وقال وابتسامة غريبة ترتسم على ركن شفته: حسنًا. إلى غد.

وصاح «فيفي» في حماسة: ألا نعانق «بوريس»؟

وكان يفكر في هذه اللحظة في العناق التقليدي الذي كان يقوم به الفرسان الشجعان، وفجأةً احتضن «بوريس»، وبذل «بوريس» مجهودًا لكي يحبس دموعه عندما طبع «فيفي» على خديه قبلتي طفل.

ولكن «جورج» و«جيري» لم يقلدا «فيفي»، ورأى فيه جورج عملًا لا وقار فيه. أما «جيري» فإنه لم يكن يبالي بشيءٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن عشر

وفي مساء اليوم التالي، تجمع التلاميذ في حجرة الاستذكار عند سماعهم الجرس.

وجلس «بوريس» و«جيريدا إنيزول» و«جورج» و«فيليب» على مقعد واحد، وتناول «جيريدا إنيزول» ساعته من جيبه، ووضعها بينه وبين «بوريس»، وكانت الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين. كانت فترة الاستذكار قد بدأت في الخامسة، وستنتهي في السادسة. وكانوا قد قرروا أن ينتهي «بوريس» من تجربته في السادسة إلا خمس دقائق أي قبيل انصراف التلاميذ، وهذا أنسب إذ كان من الممكن أن يهربوا بسرعة عقب ذلك مباشرةً. وقال «جيريدا إنيزول» لبوريس بعد قليل بصوت غير عال ودون أن ينظر إليه، وكانت هذه اللهجة في نظره خليقةً بأن تضفي على أقواله صفة الحتمية.

- لم يعد أمامك يا صديقي إلا ربع ساعة.

وتذكر «بوريس» قصةً قرأها فيما مضى، كان اللصوص فيها على وشك أن يقتلوا امرأةً، فدعوها إلى تأدية صلواتها الأخيرة؛ لكي يفهموها أن عليها أن تتأهب للموت. وأخذ «بوريس» يبحث في قلبه وفي رأسه عن صلوات كما يبحث السائح الغريب عند الحدود عن أوراقه، ولم يجد في قلبه وفي رأسه أي شيء، إلا أنه كان متعبًا ومشدود الأعصاب في وقت معًا حتى أنه لم يبال كثيرًا بهذا الأمر وبذل مجهودًا ليركز فكره، ولكن لم يكن في مقدوره أن يفكر في شيء. كان المسدس ثقيلًا في جيبه ولم يكن في حاجة إلى أن يضع يده ليشعر بوجوده.

- لم يبق إلا عشر دقائق؟

وكان جورج على يسار «جيريدا إنيزول» يراقب ما يحدث بطرف عينيه، ولكنه كان متظاهرًا بأنه لا يرى شيئًا، وكان يستذكر بطريقة محمومة ولم يسبق قط أن كانت حجرة الاستذكار في مثل هذا الهدوء، وكان «لابيروز» لا يكاد يتعرف على شياطينه الصغار، ويتنفس الصعداء لأول مرة، ومع ذلك فلم يكن «فيفي» مطمئنًا.

كان «جيريدا إنيزول» يخيفه، ولم يكن متأكدًا تمامًا من أن هذه اللعبة ستنتهي بسلام. وكان يشعر بألم من شدة انقباض قلبه، ويسمع من حين إلى آخر تنهدات عميقة تصدر عنه هو ذاته. واضطر أخيرًا إلى أن يمزق نصف ورقة من كراسة التاريخ التي أمامه (إذ كان عليه أن يستعد لامتحانه، ولكن السطور تتراقص أمام عينيه، والتواريخ تتلاطم في رأسه).

قطع الجزء الأسفل من الصفحة، وكتب عليها في مجلة: «هل أنت متأكد من أن المسدس ليس محشوًّا؟»، ومد يده بالورقة لجورج الذي سلمها لجيري، ولكن هذا الأخير رفع كتفيه بعد أن قرأها دون أن ينظر حتى إلى «فيفي»، ولف الورقة على شكل كرة أطلقها من بين أصابعه كالسهم، وأصاب الدائرة المرسومة بالطباشير، وابتسم إذ كان مسرورًا لأنه أصاب الهدف، وكانت هذه الابتسامة إراديةً في بادئ الأمر، ولكنها استمرت مرسومةً على شفتيه حتى نهاية المشهد، وكانت تبدو وكأنها طبعت على ملامحه.

- لم يبق إلا خمس دقائق.

قال هذه الكلمات بصوت عال تقريبًا، حتى أن «فيليب» سمعها واستحوذ عليه قلق لا يطاق. وبالرغم من أن الفترة كانت على وشك الانتهاء فقد تظاهر بأن حاجةً ملحةً تدفعه إلى الاستئذان في الخروج، أو لعله شعر بمغص حقيقي –ولذا رفع يده وطرقع أصابعه كما اعتاد أن يفعل التلاميذ عندما يطلبون الإذن بالخروج من مدرسهم، ثم اندفع خارج المقعد دون أن ينتظر إِذَنْ «لابيروز» لكي يصل إلى الباب. كان عليه أن يمر أمام منصة المدرس، وكان يجري تقريبًا، ولكنه يترنح.

وبعد أن خرج «فيليب» بلحظة، انتصب «بوريس» واقفًا، ورفع «باسافان» الصغير عينيه، وكان يعمل بجد وهو جالس خلفه (وقد روى لسيرافين فيما بعد أن «بوريس» كان شاحبًا بشكل كئيب، لكن هذا هو الوصف المألوف في مثل هذه المناسبات)، وعلى أي حال فقد كف في الحال عن النظر إليه، واستغرق من جديد في استذكار دروسه. وقد لام نفسه على هذا فيما بعد، إذ لو استطاع أن يدرك ما كان يجري حوله لمنع وقوع ما حدث دون شك، وكان يكرر قوله هذا وهو يجهش بالبكاء، ولكنه لم يكن يشعر بشيء مما يدور حوله.

وتقدم «بوريس» حتى المكان المرسوم. كان يسير في خطوات بطيئة وكأنه إنسان آلي، وكانت نظراته ثابتةً، وكأنه نائم ويده اليمنى ممسكة بالمسدس المختفي في جيب سترته ولم يخرجه إلا في اللحظة الأخيرة.

وكانت البقعة المميتة كما ذكرت في ملاصقة باب مغلق، وكانت هذه البقعة، وهي تقع على يمين المنصة تشبه المخبأ، ولم يكن في استطاعة المدرس وهو على منصته أن يرى هذا المخبأ إلا إذا انحنى إلى الأمام.

وانحنى «لابيروز»، ولم يفهم في بادئ الأمر ما عمله حفيده، وإن كانت حركاته الوئيدة المهيبة قد أقلقته، وصاح بأعلى صوته وكان يحاول أن يبدو حازمًا:

- يا سيد «بوريس» أرجوك أن تعود في الحال إلى ...

ولكنه تعرف فجأةً على المسدس، وكان «بوريس» ألصقه بصدغه، وفهم «لابيروز»، وشعر بقشعريرة باردة، وكأن الدم قد تجمد في عروقه. حاول النهوض، حاول أن يجري إليه، أن يمنعه، أن يصيح... وخرجت من بين شفتيه حشرجة مبحوحة. وبقي مسمرًا في مكانه، مشلولًا وكيانه يهتز بعنف.

وانطلقت الرصاصة. ولم يسقط «بوريس» في الحال، وبقي الجسد منتصبًا لحظةً، وكأنه متشبث بتجويف الباب، ثم انحنى رأسه على كتفه وانهار الجسد كله على الأرض.

ولما عاينت الشرطة المكان فيما بعد دهشوا إذ لم يجدوا المسدس بجانب «بوريس»، وأعني بذلك قريبًا من المكان الذي وقع فيه «بوريس»؛ لأنهم كانوا قد نقلوا الجثة الصغيرة في الحال إلى السرير... وفي أثناء الفوضى التي عمت المكان بعد الحادث مباشرةً (وكان جيريدا إنيزول باقيًا في مكانه) كان «جورج» قد قفز من فوق مقعده، واستطاع أن يلتقط السلاح دون أن يراه أحد، وكان في بادئ الأمر قد أبعده إلى الخلف بركلةٍ من قدمه –حينما كان الآخرون يلتفون حول «بوريس»، ثم

التقطه بسرعة وأخفاه تحت سترته، وأعطاه خلسة لجيريدا إنيزول. وكان انتباه الجميع منصبًّا على نقطة واحدة، ولم يلحظ أحد «جيريدا إنيزول» الذي استطاع أن يجري دون أن يراه أحد، حتى أدرك غرفة «لابيروز»، ووضع المسدس في الجراب الذي سرق منه. ولما اكتشفت الشرطة في أثناء تفتيشهم فيما بعد المسدس موضوعًا في جرابه، كان من الممكن أن لا يشكوا في أن يكون المسدس قد خرج منه أو أن يكون «بوريس» قد استعمله، لو أن «جيريدا إنيزول» فكر في أن يخرج الغلاف المتبقي من الرصاصة داخل المسدس. ولا شك أنه فقد صوابه قليلًا وهي هفوة طارئة، لام نفسه عليها فيما بعد أكثر مما أنبه ضميره على ما اقترف من جرم. وعلى أي حال، فإن هذه الهفوة أنقذته إذ إنه عندما نزل ليختلط بالآخرين، اعترته رعشة شديدة وكانت ظاهرة جدًّا، أشبه ما تكون بنوبة عصبية. ولم تر السيدة «فيدل» و«راشيل» -اللتين أسرعتا في الحضور- فيما بدا عليه إلا دليلًا على ألم زائد. إن المرء ليؤثر أن يفترض أي شيء إلا تجرد صبي يافع من معاني الإنسانية إلى هذا الحد. ولما دافع «جيريدا إنيزول» عن براءته، صدقوه. إن القصاصة الصغيرة التي أعطاها إياها «فيفي» والتي قذف بها كالسهم والتي عثروا عليها فيما بعد تحت مقعد، إن هذه القصاصة الصغيرة قد خدمته.

لقد كان ولا شك مذنبًا كما كان كل من «جورج» و«فيفي»؛ لأنهم قاموا بهذه اللعبة التي تتسم بالقسوة ولكن أصر «جيريدا إنيزول» على أنه لم يكن ليلهو بهذه اللعبة لو عرف أن المسدس كان محشوًّا بالرصاص. وكان «جورج» هو الشخص الوحيد الذي ظل مقتنعًا بسوء نية صديقه.

ولم يكن «جورج» فاسدًا إلى هذا الحد، ولذا حل في قلبه محل الإعجاب بصديقه شعور الفزع والاشمئزاز. ولما عاد في المساء إلى بيت والديه ارتمى بين ذراعي أمه، وقد غمر «بولين» عندئذ شعور بالشكر والحمد لله الذي رد إليها ابنها، بعد هذه المأساة البشعة.

«يوميات «إدوارد»

«لا أدعي القدرة على شرح كل شيء، ولكني لا أريد أن أذكر هنا شيئًا أعجز عن إيجاد تبرير كاف له. ولهذا السبب لن أحاول أن أقحم في كتاب (المزيِّفون) حادثة انتحار «بوريس» الصغير، وإني لأشعر بعجز عن فهم حقيقة هذا الحادث. ثم إنني لا أحب أن أتكلم عن الحوادث، ففيها شيء من الحسم، والوضوح والعنف والواقعية المبالغ فيها... وإني لأرضى أن يساند الواقع فكرته بصفته برهانًا، ولكني لا أحب أن يسبقها... ولا يعجبني أن يفاجئني الواقع، ويبدو لي انتحار «بوريس» وكأنه مجاف للذوق؛ لأنني لم أكن أتوقعه.

وفي كل إقدام على الانتحار شيء من الجبن. بالرغم مما يظنه «لابيروز»، ولعله تصور أن حفيده فاقه شجاعةً. لو كان في مقدور هذا الطفل أن يتصور ما دهى عائلة «فيدل» من جراء فعلته البشعة، لما صفحنا عنه، اضطر «آزائيس» أن يغلق قسمه الداخلي... إلى حين -على حد قوله-، ولكن «راشيل» تخشى أن يكون في ذلك خرابهم، وسحبت أربع عائلات أولادها من هذا القسم. ولم أستطع أن أثني «بولين» عن عزمها في إبقاء «جورج» إلى جوارها، وخاصةً لأن هذا الصغير قد تأثر تأثرًا عظيمًا بموت زميله، فبدا وكأنه يريد أن يصلح نفسه. ما أعجب نتائج هذه الكارثة؛ فأوليفييه نفسه تأثر منها. «وأرمان» مهموم -رغم مظاهره الوقحة- للخراب الذي يهدد عائلته، ولذا فقد عرض أن

يكرس للمدرسة الفراغ الذي يمكن أن يسمح له به «باسافان»؛ ذلك لأن «لابيروز» العجوز أصبح لا يصلح للقيام بالعمل الذي كان مكلفًا به.

كنت أخشى لقاءه. لقد استقبلني في غرفته بالطابق الثاني بالقسم الداخلي، وأمسك بذراعي في الحال، وقال لي بلهجة غامضة وعلى وجهه شبه ابتسامة، وأدهشني ذلك فلم أكن أتوقع إلا دموعًا:

- أتذكر الصوت؟.. هذه الضوضاء التي كلمتك عنها منذ أيام...؟

- حسنًا؟

- لقد كفت. لقد انتهيت. لم أعد أسمعها. وقد حاولت أن أسمعها دون جدوى.

وقلت وأنا أجاريه كما يجاري المرء طفلًا في لهوه:

- أراهن على أنك آسف الآن لأنك لا تسمع تلك الضجة؟

- أوه! لا، لا... إنني أشعر الآن براحة كبيرة. إنني في أشد الحاجة إلى السكون... أتعرف فيمَ فكرت؟ أدركت أننا طول حياتنا لا نستطيع أن نفهم حقيقة معنى السكون. إن دماءنا ذاتها تسبب داخل أجسامنا ما يشبه الضوضاء المستمرة، ونحن لا نتبين هذه الضوضاء، لأننا ألفناها منذ طفولتنا -ولكني أعتقد أن ثمة أشياء لا نتوصل إلى سماعها أثناء حياتنا، وهي تشبه الأنغام؛ لأن الصوت الناتج عن تدفق دمائنا يغطي على هذه النغمات. نعم أعتقد أننا لن نستطيع سماع هذه النغمات فعلًا إلا بعد الموت.

- كنت تقول لي أنك لا تؤمن بـ...

- بخلود الروح؟ هل قلت لك ذلك؟ نعم لا شك أنك على حق، ولكني لا أؤمن مع ذلك بالعكس.

وبقيت ساكنًا فأردف، وهو يومئ رأسه بلهجة فيها وقار متكلف:

- هل لاحظت أن الله صامت في دنيانا هذه؟ إن الشيطان وحده هو الذي يتكلم أو على الأقل... أو على الأقل... مهما كان انتباهنا فإننا لا نتوصل أبدًا إلا إلى سماع صوت الشيطان. ليست لنا آذان تتيح لنا سماع صوت الله، كلمة الله! هل سألت نفسك أحيانًا عن ما هي هذه الكلمة؟.. أوه! إنني لا أعني الكلمة التي صبوها في لغة الإنسان... أتذكر مستهل الإنجيل؟: «في البدء كان الكلمة». وكثيرًا ما فكرت أن كلمة الله ليست إلا الكون كله. ولكن الشيطان استحوذ عليها، وضجيجه يغطي الآن على صوت الله في آذاننا. أوه قل لي: ألا تعتقد أن كلمة الله ستكون الفاصلة رغم كل شيء؟.. وإذا كان الزمن لا وجود له بعد الموت وإذا دخلنا إلى الخلود في الحال، ألا تعتقد أن في استطاعتنا عندئذ أن نسمع صوت الله. مباشرةً؟

واستحوذ عليه ما يشبه الهيمان، وبدأ يهتز هزاتٍ عنيفةً، وكأن جسده سينهار، ثم انتابته فجأةً نوبة من البكاء.

لم يقل لي كلمةً واحدةً عن «بوريس»، ولكني أعتقد أن ما ظهر عليه من يأس كان تعبيرًا غير مباشر عن ألمه المذهل الذي لا يمكن للعين أن تتأمله.

وعلمتَ من «أوليفييه» أن «برنارد» عاد إلى والده، ولعمري إن هذا خير ما كان يمكن أن يفعله. فحين علم من «كالوب» الصغير الذي التقاه صدفةً أن صحة القاضي العجوز سيئة، لم يعد يُصغي إلا لنداء قلبه: سنلتقي مساء غد؛ لأن «بروفيتا نديو» دعاني لتناول الطعام مع «مولينييه» و«بولين» والولدين. بي فضولٌ كبيرٌ للتعرف إلى «كالوب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

الجزء الأول
باريـــس
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الجزء الثاني
«ساس فيه»
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الجزء الثالث
باريـس
الفصل الأول

الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر

Notes

[←1]

(1) جريدة يمينية متطرفة كانت تظهر قبل الحرب العالمية الثانية.

[←2]

(2) هو Charles Maurras محرر الجريدة اليمينية Action Francaise وعضو الأكاديمية الفرنسية، وقد حُرم منها لتعاونه مع الألمان.

[←3]

(3) وهو Vous واستعماله في الفرنسية يدل على الكلفة.

[←4]

(4) «توكفيل» كاتب سياسي فرنسي (1805- 1859) وهو مؤلف كتاب «الديمقراطية بأمريكا في العهد القديم» (أي ما قبل الثورة) وفي عهد الثورة.

[←5]

(5) قصيدة شهيرة لبودلير.

[←6]

(6) Qwiétisme مذهب التجرد، أي تجرد النفس من المادة وتوجيهها إلى الله.

[←7]

(7) الحي الذي يمون باريس بكل ما تحتاج من مأكولات.

[8←]

(8) إنه شخصية نصف خيالية ونصف حقيقية، كان يبحث عن وحش في غياهب الممرات المعقدة في جبال قبرص.

[9←]

(9) تروي هذه الأسطورة أن الجنية «دافنيه» تحولت إلى إكليل من الزهر عندما أوشك «ألوبون» أن يلحق بها.

[←10]

(10) إله فينيقي شاب امتاز بجماله (المخنث

[←11]

(11) جرى العرف في فرنسا بأن يخاطب المرء أترابه بالاسم الصغير، أي أول اسم، وأن يستعمل اسم الأسرة مع من بينه وبينهم فارق في السن أو في المركز الاجتماعي، أي من بينه وبينهم كلفة.

[←12]

(12) استعمل المؤلف هنا كلمة (Antennes) أي إيريال، والذي يعنيه هو ما نسميه اليوم «الرادار».

[←13]

(13) هاتان الكلمتان لا معنى لهما.

[←14]

(14) الأولى مأساة لراسين، والثانية ملهاة لموليير، والثالثة مأساة لكورنييل.

[←15]

(15) قصة لفلوبير.

[←16]

(16) قصة لدوستويفسكي.

[←17]

(17) شخصية رئيسة في كتاب «بانتا جرويل» للكاتب الكبير رابليه، أحد رواد النهضة في القرن السادس عشر.

[←18]

(18) بروتيه: إله بحري في الأساطير اليونانية، يغير شكله حسبما يتراءى له؛ لكي يتهرب من الناس.

[←19]

.«Les Maximes» (19)

[←20]

(20) ومعناها: «الزيتونة».

[←21]

(21) مؤلف مسرحي فرنسي (1820- 1889).

[←22]

(22) Les Argonautes وهو اسم مجلة.

[←23]

(23) «أرتور رامبو» من أشهر شعراء فرنسا (1854- 1891) وقد تأثرت به المدرسة الرمزية تأثرًا كبيرًا، وقد قضى حياته مغامرًا.

[←24]

(24) أحد الإخوة «كارامازوف» بقصة «دوستويفسكي» المشهورة «الإخوة كارامازوف».

[←25]

(25) مصور إيطالي شهير عاش في القرن الخامس عشر.

[←26]

(26) بيت من الشعر.

[←27]

(27) يقصد الكاتب بإناء الليل الإناء الذي يوضع في غرفة النوم لقضاء الحاجة.

[←28]

(28) «شارل بودلير» (1821- 1867) وهو صاحب ديوان «أزهار الشر» «Les Fleuns Du Mal» ولشعره شهرة عالمية.

[←29]

(29) في الأساطير هو ابن النهر «سيفيز»، وقد أعجب بصورته عندما رآها تنعكس على مياه حوض، واندفع فيه، وتحول في مياهه إلى زهرة تحمل اسمه.

[←30]

(30) قال بسكال: لو كان أنف كليوباترا أقصر لتغير وجه العالم.

[←31]

(31) شطرة من بيت شعر.

[←32]

(32) فنان وصانع خزف فرنسي من القرن السادس عشر.

[←33]

(33) عبارة لاتينية معناها: «الرجل العادل الحازم».

[←34]

(34) وردت هنا عبارة فيها خروج عن الأدب فحذفناها.

[←35]

(35) عبارة يستعملها العاشق عندما يتكلم عن مصدر عذابه.((36)